

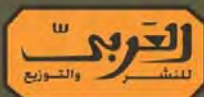
" الرواية التي تُرجمت إلى ٤٣ لغة قبل العربية "



# التطهير

صوفي أوكسانين

ترجمة: ريم داوود



روايات مترجمة



التَّطْهِير

التّطهير

تأليف: صوفي أوكسانين

ترجمة: ريم داوود

تحرير: إيزيس عاشور

مراجعة لغوية: محمد حامد بكر

الطبعة الأولى: 2018

رقم الإيداع: 2018 /9002

الترقيم الدولي: 9789773194031

تصميم الغلاف: إسلام علام

© جميع الحقوق محفوظة للناسر

60 شارع قصر العيني 11451 - - القاهرة

ت 27954529 - 27921943 فاكس 27947566

[www.alarabipublishing.com.eg](http://www.alarabipublishing.com.eg)



Copyright © Sofi Oksanen 2008

Published by agreement with Salomonsson Agency

Originally published as *Puhdistus*

تابعونا لمعرفة أحدث إصداراتنا



@alarabipd

صوفي أوكسانين

# التّطهير

رواية من فنلندا

ترجمة: ريم داوود



**This work has been published  
with the financial assistance of  
FILI – Finnish Literature Exchange**

بطاقة فهرسة

أوكسانين، صوفي

التطهير: رواية من الأدب الفنلندي / تأليف صوفي أوكسانين؛ ترجمة ريم داوود.

- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2018.

ص؛ سم.

تدمك 9789773194031

1- القصص الفنلندية

أ- داوود، ريم (مترجم)

894.543

ب- العنوان

"للحيطان آذان، وللآذان أقرأطٌ جميلة".

- الشاعر الإستوني "بول إيريك رومو"



# الجزء الأول

"هناك إجابة لكل شيء"

إن كنت تعرف السؤال."

- الشاعر الإستوني "بول إيريك رومو"





مايو 1949

## عاشت إستونيا حُرّة!



عليّ أن أحاول كتابة كلمات قليلة، كي أحافظ على عقلي من الانهيار. سوف أخبئ كراستي تحت الأرضية، حتى لا يعثر عليها أحد، حتى وإن وجدوني. هذه ليست حياة تليق بإنسان. يحتاج الناس إلى الناس.. إلى شخص يتحدثون إليه. أحاول ممارسة تمرينات الضغط، مرّات كثيرة، وأن أهتمّ بلياقتي البدنية، لكنني لم أعد رجلاً.. أنا ميّت. الرجل هو مَنْ يهتم بمسؤوليات بيته، لكن مَنْ يقوم بذلك فعليّاً في منزلي، امرأة. الأمر مُخجل.

تحاول "لييد" الاقتراب مِنِّي دائماً. لمّ لا تتركني في حالي؟ رائحتها تشبه رائحة البصل. أين الإنجليز؟ وماذا عن أمريكا؟ الوضع بالغ الصعوبة ومُحيرٌ.. لستُ مُتيقِّناً من شيء. أين ابنتاي "ليندا" و"إنجل"؟ المأساة أكبر مما يمكنني تحمله.

- "هانس بيك"، ابن "إيريك"، فلاح إستوني.



1992

"لانيما" - إستونيا

الذبابة تفوز دائماً



حدّقت "أوليدا ترو" في الذبابة. بادلتها الذبابة التحديق بعينيها البارزتين، فشعرت "أوليدا" بالغثيان. الذبابة زرقاء، وضخمة بشكل لافت. طنينها مرتفع، وبدا أنها توشك على وضع بيضها. ربضت في مكانها، متأهبةً لاقتحام المطبخ، ثم بدأت تفرك جناحيها وأقدامها على الستارة، كما لو أنها تستعد لالتهام وليمة شهية. إنها تبحث عن اللحم. لا شيء سوى اللحم. المرّبي، وبقية المأكولات المُعدّة للتغليب، في أمانٍ من هجومها، لكن اللحم في خطر. باب المطبخ مغلق، والذبابة تنتظر. إنها تنتظر أن تتعب "أوليدا" من مطاردتها بين أرجاء الحُجرة، وأن تياس وتستسلم وتفتح باب المطبخ. ارتطمت المنشّة بالستارة، بقوة. اهترت الستارة، وتجعّد ورد الدانتيل على سطحها، فيما ومضت أزهار القرنفل خارج النافذة؛ لكن الذبابة واصلت تبخترها على حواف النافذة، بخيلاء، أعلى رأس "أوليدا". الثبات والهدوء، هذا ما تحتاج إليه "أوليدا" الآن، كي تستطيع السيطرة على حركة يدها.

لقد أيقظتها الذبابة صباحًا عندما سارت فوق جبينها، وكأنها تتمشى في الطريق العام! كانت وقحة ومستفزة، واضطرتها إلى إزالة الأغذية عن نفسها، ومغادرة فراشها، والإسراع نحو المطبخ، لغلغلق بابه بإحكام، قبل أن تفكر الذبابة في دخوله.

ذبابةٌ غبية! غبية وكريهة!

أحاطت أصابع "أوليدا" بمقبض المنشرة الجلدي القديم، الأملس. اصطدم جلدها العتيق المتشقق بزجاج النافذة. ارتجَّ الشباك، وارتطمت مشابك الستارة ببعضها، واهتزَّ الخيط الصوفي الذي علقت عليه.. لكن الذبابة تحاشت الضربة للمرة الثانية، وكأنها تغيظها وتسخر منها. مرَّ أكثر من ساعة كاملة، و"أوليدا" تحاول القضاء عليها، لكن الذبابة ظلت هي الطرف المنتصر في كل هجمةٍ تتعرَّض لها. ها هي تطير بمُحاذاة السقف، بصوتها المُقرَّز. ليست سوى ذبابة مُقرَّزة جاءت من بالوعة الصرف الصحي! سوف تقضي عليها. ستستريح لبعض الوقت، ثم تتخلَّص منها، وبعدها ستستمع إلى الراديو، وتواصل تغليب الأطعمة. ثمار التوت بانتظارها، وكذلك حبَّات الطماطم الناضجة، الممتلئة. لقد كان الحصاد جيدًا، بشكلٍ استثنائي، هذا العام.

أعدت "أوليدا" فرد ستارتهَا. تأمَّلت قطرات المطر الرمادية وهي تنهمر في الساحة الخارجية. ارتعشت أوراق أشجار "البتولا" المبللة من المطر المتساقط. تراقصت أطراف الحشائش الطويلة، التي أثقلتها القطرات المتوالية. هناك شيءٌ تحت تلك الأشجار. كومةٌ مجهولة. ابتعدت "أوليدا" قليلًا عن النافذة، ثم عادت فمدَّت رأسها بمُحاذاتها. طوت حوافَّ الستارة الدانتيل بأطراف أصابعها، بخفَّة، بحيث تصعب رؤيتها من الخارج. حبست أنفاسها في ترقُّب. تجاهلت الآثار التي خلَّفتها الذبابة على سطح الزجاج، وركَّزت فقط على المساحة الممتدة أمام شجرة "البتولا"، التي كان البرق قد قسمها إلى نصفين.

الكومة ساكنة، دون حركة. في إحدى المرّات، شاهدت "آينو"، جارة "أوليدا"، برّقا فوق تلك الشجرة، وهي في طريقها لزيارتها، ففضلت العودة إلى منزلها على الفور. اتصلت بـ"أوليدا" لاحقًا، لتسألها إن كان هناك طبقٌ طائرٌ فوق بيتها. لم تلاحظ "أوليدا" شيئًا غير مألوف، لكن "آينو" قالت بتصميم إنها رأت أطباقًا طائرة أمام منزل "أوليدا"، بل وأمام مسكن "ميليس" أيضًا. منذ ذلك الوقت، لم تتوقّف "ميليس" عن التحدّث عن الأطباق الطائرة. على كل حال، يبدو أن هذه الكومة تنتمي لعالمنا الأرضي. بلّ لها المطر، فبدت غامقة اللون، وتتماشى مع التضاريس من حولها. إنها في حجم إنسان. لعله أحد سكارى القرية، وقد فقد وعيه في ساحة بيتها، ولكن أما كانت ستسمع أي صخبٍ أسفل نافذتها؟ لا تزال تتمتع بأذنين حادّتين. ثم إنها تستطيع شم رائحة الخمر، حتى عبر الجدران! منذ فترة، قامت مجموعةٌ من السكارى، من المنزل المجاور، بقيادة جرّار زراعي، واستخدامه في سرقة البنزين. أثاروا ضجةً هائلة، وتسبّبوا في فوضى عارمة، وكادوا يحطمون السور الخشبي المحيط بحديقته. لم يعد في هذا المكان سوى الأطباق الطائرة، والرجال المُسنّون، وبعض المشاغبين الحمقى. في كثيرٍ من الأحيان، عندما يتعالى صخب هؤلاء الشباب الحمقى، تسارع جارتها "آينو" بالحضور إلى بيتها، للمبيت معها. تدرك "آينو" أن "أوليدا" لا تخافهم، وأنها تستطيع مواجهتهم والتصدي لهم إن تطلب الأمر ذلك.

وضعت "أوليدا" المنشّة التي صنعها والدها فوق الطاولة، ثم تسلّلت باتجاه باب المطبخ. وضعت يدها على التراب، ثم تذكّرت الذبابة. إنها هادئة الآن، في انتظار أن تفتح "أوليدا" الباب. عاودت التلصّص من النافذة. الكومة لا تزال في مكانها. يبدو أنها إنسان. استطاعت تمييز خصلات شعر فاتحة اللون، فوق العشب. هل هذا الشخص على قيد الحياة؟ شعرت "أوليدا" بالانقباض، وتسارعت دقّات قلبها. هل تخرج لتراه عن كئيب؟ أم أن تلك حماقة؟ هل الكومة خدعة من قبّل أحد اللصوص؟ كلا.. ذلك غير ممكن. لم يقم أحدٌ باستدراجها

لتطلّ من الشباك، ولم يطرق أحدُ الباب الأمامي. لولا الذبابة، لغادر ذلك الشخص حديقته قبل أن تلحظ وجوده أصلاً. أصغت بانتباه. توقّف طنين الذبابة. بدّد الأزيز المرتفع الصادر عن الثلاجة الصمت التام المُتسرّب من الحظيرة، عبر جدران حجرة المُوْن. اختفى صوت الذبابة تمامًا. لعلّها بقيت في الغرفة الأخرى، ولم تلحق بها. أشعلت "أوليدا" الموقد، وملاّت إبريق الشاي، ثم فتحت الراديو. كانوا يتحدثون عن الانتخابات الرئاسية، بعد لحظات ستبدأ فقرة النشرة الجوية، وهو الأمر الأكثر أهمية. كانت "أوليدا" تنوي قضاء اليوم داخل المنزل، لكن الكومة التي لا تزال رابضةً في مكانها، أثارت انزعاجها. يمكنها رؤيتها بطرف عينها أينما اتجهت. المنظر ثابت، سواء من نافذة حجرة النوم، أو من شباك المطبخ. يبدو أن ذلك الشيء سيظل في مكانه إن لم تتدخل. أغلقت الراديو واقتربت من الشباك. هدوءٌ شديد. الهدوء الذي يميز أيام الصيف الأخيرة في قرية إستونية توشك على الموت. قطع الصمت صياح ديكٍ قريب. كان الهدوء في تلك السنة غريبًا، أقرب ما يكون للسكون الذي يعقب العاصفة.

تأمّلت "أوليدا" حشائش حديقته. هي أيضًا كئيبة. طويلة، ولها مظهر فوضوي. تتشبّث بحوائف الشباك في يأس. مُبلّلة، وصامتة وساكنة. تحسّست السنّ الذهبية داخل فمها، وحرّكت أحد أظفارها بين الفتحة التي تفلج أسنانها. هناك شيءٌ عالٍ هناك. أنصتت، لكن الصوت الوحيد الذي تردّد في المكان هو احتكاك ظفرها بأسنانها. ارتعد جسدها فجأة. توقّفت عن العبث بفمها، وحدّقت في الكومة من جديد. أحسّت بالضيق من البقع المتناثرة على سطح الزجاج، فمسحتها بخرقّة من الشاش، ثم قذفتها في حوض المطبخ. أزالمت معطفها عن الشمّاعة، ولبسته، ثم تذكّرت حقيبة يدها الموضوعة فوق الطاولة. رفعتها وتلفتت حولها بحثًا عن مكانٍ آمن تخبئها فيه. حشرتها أخيرًا داخل خزانة الأطباق. لمحت زجاجة مزيل عرق، أعلى الخزانة، فخبأتها أيضًا. أعادت وضع غطاء السكرية، التي لم تكن تحوي حبيبات السكر، بل قطعة صابون ماركة "إمبيريال ليدر". حين انتهت، أدارت المفتاح في ثقب الباب من الداخل،

بحركة بطيئة، وفتحته بهدوء. تناولت المقبض الخشبي لشوكة القش الضخمة، الذي تستخدمه كعصا في بعض الأحيان. سرعان ما أعادته، وأخذت عصاها المصنوعة في المدينة، عوضاً عنه. وضعتها جانباً أيضاً، واختارت منجلاً من بين أدواتها الزراعية. استندت إلى الجدار للحظات، وأعادت ترتيب شعرها. ثبتت بعض خصلاته بمشبك، فيما دفعت بقية الخصلات خلف أذنيها. حملت المنجل من جديد، وأزاحت الستارة التي تغطي الباب الأمامي، ثم حرّكت الترابس، وخطت خارج المنزل.



كانت الكومة لا تزال مستلقيةً في مكانها، تحت شجرة "البتولا". اقتربت منها "أوليدا"، وهي تنظر إليها، وتلفت حولها، في الوقت ذاته، تحسباً لظهور شخص آخر. كانت فتاة. متسخة، يغطيها الطين. فتاةً مجهولةً تمامًا. إنسان من لحم ودم، وليس كائنًا من الفضاء الخارجي. أظفار يدها مصبوغة بالأحمر، متكسرة. مكياج عينيها يسيل على خديها. شعرها أشعث. بعض الخصلات مُجعّدة، والأخرى مستقيمة. تلتصق ببعضها أوراق شجرة صفصاف. إنه مصبوغ بنوعيةٍ رديئةٍ من اللون الأشقر، جعلته خشنًا. جذور شعرها غامقة، ودهنية. تأملتها "أوليدا" أكثر. تحت طبقة الطين والقذارة، بدت بشرتها ناعمة ونضرة. يكاد وجهها من فرط بياضه يصبح شفافاً. الشفتان ممتلئتان، وعلى الرغم من جفافهما وتشققهما، فإن لهما حمرةً طبيعيةً جذابة. انتشر اللون البنفسجي في ثنايا أجفانها، من شدة الإرهاق. جوربها الأسود الخفيف ممزق في بعض المواضع، لكنه مشدود وغير مُتهدّل، ما يعني أنه من نوعيةٍ جيدة. جوربٌ غربيٌّ مستورد، دون شك. لامعٌ، رغم بُقع الطين التي تعلقه. سقطت إحدى فردتي حذاءها على الأرض، بجوارها. لم يكن حذاءً، في واقع الأمر، بل حُفٌّ منزلي قديم، من قماشٍ ناعم. لقدّمه، تناثر على سطحه وبرٌّ من حبيباتٍ



رمادية اللون. زُيِّنَتْ حوافه بصفيرةٍ رفيعةٍ من الجلد اللامع، وبعض القطع المعدنية المصنوعة من النيكل.

امتلكت "أوليدا" حُفَيْنِ مثلهما، منذ زمنٍ بعيد. الصفيرة الجلدية التي زينت شبيها، كانت ناعمة ووردية اللون، مثل خنزيرٍ صغير. كان قد صُنِعَ في الاتحاد السوفيتي. تأمَّلت ثوب الفتاة. هو أيضًا غربي. هذا النوع من القماش لا يأتي إلا من الجهة الأخرى. لا تحصل عليه في أي مكان، سوى من الغرب. حين عادت ابنتها "تالفي" من فنلندا، في زيارتها الأخيرة، كانت ترتدي فستانًا يشبهه، له حزام عريض. قالت إنه أحدث صيحة في عالم الموضة. "تالفي" تفهم في أمور الموضة جيدًا. لـ"آينو" أيضًا ثوب قريب من ذلك، حصلت عليه من تبرعات الكنيسة. لم تكن له فائدة تُذكر بالنسبة لها، لكنه كان مجَّانًا على أي حال. للفنلديين ثيابٌ كثيرة، حتى إنهم يتخلصون من بعضها وهي لا تزال جديدةً تمامًا. إلى جانب الثوب الأنيق، احتوت العلبة التي وزَّعتها الكنيسة على جاكيت خفيف من قماشٍ اصطناعي، وعدد من الـ"تيشيرتات" القطنية. سوف يحل موعد توزيع المزيد من الملابس عمَّا قريب. لكن ما ترتديه هذه الفتاة أكثر أناقةً وجمالًا من أن يكون مصدره تبرعات الكنيسة، ثم إنها ليست من هذه الأنحاء، على كل حال.

بجوار رأسها، رأت "أوليدا" كَشَّافًا، وخارطة تغطيها بُقع الطين.

فمها مفتوح. اقتربت منها "أوليدا" أكثر. استطاعت رؤية أسنانها. إنها ناصعة البياض، تتخللها فجواتٌ صغيرةٌ تصنع أجزاءً رمادية داخل فمها.

اختلج جفناها. لكزتها "أوليدا" بطرف المنجل، لكنها لم تتحرَّك. صاحت بصوت مرتفع، دون فائدة. قرصتها، ولم يتغير شيء. أخذت شيئًا من ماء المطر المتجمع أسفل الحوض القريب، ورشَّته عليها. تكورت الفتاة كالجنين، وغَطَّتْ رأسها بيديها. فتحت فمها على اتساعه، كأنها توشك على الصراخ، لكن ما صدر عنها لم يكن سوى استجداء هامس:

- كلا.. لا أريد ماء.. لا مزيد من الماء.

ثم فتحت عينيها، وجلست باستقامة. ابتعدت "أوليدا" لبضع خطوات، حفاظاً على سلامتها. كان فم الفتاة لا يزال فاغراً. نظرت إلى "أوليدا" بعينين مذعورتين. ظلت "أوليدا" تؤكد لها أن كل شيء على ما يُرام. خاطبتها بنبراتٍ هادئةٍ ولطيفة، كما تفعل مع الحيوانات العصبية عادةً. لم تستوعب الفتاة شيئاً، وظلت على انزعاجها. شيءٌ ما في ذلك الفم المفتوح، كان مألوفاً. الفتاة نفسها غريبة، لكن سلوكها وتصرفاتها، وملامحها المرتعشة تحت طبقة الجلد الناصعة البياض، وجسدها المتحفز.. كلها أمور مألوفة. إنها بحاجة إلى طبيب. الأمر واضح. لم ترغب "أوليدا" في العناية بها بنفسها. إنها مجهولة الهوية، وفي ظروف غير اعتيادية كما يبدو. اقترحت عليها أن تتصل بالطبيب ليأتي لمعاينتها.

صاحت:

- لا!

قالتها بحسمٍ وثقة، لكن نظراتها ظلت زائغة. سكتت للحظة، ثم خرجت منها صرخة متبوعة بسيلٍ من العبارات المتوالية. قالت إنها لم تفعل شيئاً، وإنه لا داعي للاتصال بأي شخص من أجلها. تراكمت الكلمات فوق بعضها، ولكنها روسية واضحة. الفتاة روسية. روسية تتحدث الإستونية.

ابتعدت "أوليدا" عنها، بضع خطوات أكثر.

عليها أن تجلب لنفسها كلب حراسة. اثنين ربما.

لمح نصل المنجل، الذي تم سنُّه مؤخراً، في الضوء الرمادي الذي خلفه المطر.

تجمعت حبات العرق أعلى شفتي "أوليدا".



بدأت نظرات الفتاة تصبح أكثر تركيزًا. أخذت تتأمل ما حولها، شيئًا فشيئًا. العشب، والأحجار، والأزهار، ومضخة المياه والحوض أسفلها. تمعنت في يديها، ثم وجّهت نظراتها إلى المنجل الذي تحمله "أوليدا". حدّقت به قليلًا، ثم عاودت النظر إلى يديها. تأمّلت الخدوش والسحجات التي تغطيها، وأظفارها المتكسرة. بدت كما لو كانت تحصي مفاصلها.. الذراعين، والمعصمين، والأصابع. حين انتهت، فعلت الشيء ذاته مع أصابع قدمها الحافية، والكاحلين، والساقين، والركبتين، والفخذين. مدّت يدها وتناولت فردة الخُفّ المخلوع. لبستها في قدمها ببطء. تحسّست كاحلها بأصابعها. لم تفعل ذلك كما يفعل الإنسان الذي يودُّ الاطمئنان على عظامه من عدم تعرّضها للالتواء أو الكسر، بل كأنها تحاول تذكّر شكله، أو كشخصٍ أعمى يتحسّس شيئًا جديدًا لا يعرفه. تمكّنت من الوقوف أخيرًا، لكنها تحاشت النظر إلى "أوليدا". مررت أصابعها بين خصلات شعرها، وجذبتها لتحيط بوجهها. كان الشعر مُبللًا ولزجًا. بدت كشخصٍ يحاول تغطية نوافذ بيتٍ مهجور، بستائر مُتهالكة.

لفت "أوليدا" أصابعها حول مقبض المنجل بإحكامٍ أكبر. ربما كانت الفتاة مجنونة. لعلّها هربت من مكانٍ ما. من يدري؟ ربما كانت مُشوَّشة فقط، جرّاء صدمة تعرّضت لها. قد تكون طعمًا يستخدمه أفراد عصابة روسية لإيقاع أمثالها هي في الفخّ.

جلست الفتاة على المقعد الخشبي العريض، تحت الشجرة الكبيرة. حرّكت الرِّيحُ أفرعَ الشجرة، فطلّت أوراقها تصفع وجه الفتاة، لكنها لم تتحرّك.

- ابتعدي عن تلك الأغصان.

لاحت المفاجأة على وجه الفتاة. مفاجأة ممزوجة بشيءٍ آخر.. كأنها تذكّرت بخته أمرًا ما. ما الذي تذكّرته يا ترى؟ أن بإمكانها الابتعاد عن تلك الأغصان؟! ما هذا الجنون؟ نظرت إليها "أوليدا" ببعض الاستياء.

تحركت الفتاة قليلاً. تشبّثت بأصابعها بحافّة المقعد، وكأنها تحمي نفسها من السقوط. هناك مسنّ على مقربةٍ من يدها. لنأمل أن لا تكون من النوع الذي يقذف من أمامه بالأشياء، في لحظات الغضب. ربما يتوجّب على "أوليدا" أن لا تثير عصبيتها، بأي حالٍ من الأحوال. عليها أن تتوخّى الحذر.

- أخبريني، من أين أتيت بالضبط؟

فتحت الفتاة فمها عدّة مرّات، دون أن يصدر عنها أي صوت. ثم اندفعت من فمها عباراتٌ متوالية، كما حدث قبلاً، لا يجمع بينها رابط. قالت شيئاً عن العاصمة "تالين"، وعن سيارة ما. تلاحمت الكلمات بطريقةٍ غير مفهومة، وتسلّلت إلى أذني "أوليدا" على هذا النحو الغريب. لم تكن المسألة هي لكتنها الروسية فقط، لكن الإستونية التي تحدّثها عجيبةٌ في حد ذاتها؛ فعلى الرغم من مظهرها العصري، فإن كلماتها عتيقة، تنتمي إلى عالم من الأوراق المصفرّة، والألبومات القديمة التي أمست خاليةً من الصور.

أزالت "أوليدا" "بنسّة" من شعرها، ودفعت بها داخل أذنها بتمهّل. حكّت أذنها بها لبعض الوقت، ثم أعادتها بين خصلاتها مرّةً أخرى. لازمتها القشعريرة لبعض الوقت. فجأةً، مرّ بها خاطر: الفتاة ليست من هنا، وليست من إستونيا أساساً.. كيف يتسنى لأي غريب معرفة هذه اللهجة الخاصة بالأقاليم؟ إن قسيس القرية فنلندي يتحدّث الإستونية. لقد درس اللغة عندما جاء للعمل هنا. أصبح يجيد اللغة، ويكتب بها خطبه وعظاته، حتى إن الناس توقّفوا عن الشكوى من عدم وجود قسيس إستوني في منطقتهم. لكن للهجة هذه الفتاة مذاقٌ آخر.. مُعتق، ومصفرّ، وأكلته العثة. لكلماتها رائحة الموت.

تباطأت عبارات الفتاة، فهمت "أوليدا" أخيراً أنها كانت في طريقها إلى "تالين" بالسيارة، مع شخصٍ آخر، وأنها تشاجرت مع هذا الشخص، وأنه قام بضربها، ففرّت منه.

- مَن الذي كان معك؟

ارتعشت شفتاها قليلاً، قبل أن تُغمغم بأنها كانت بصحبة زوجها.  
زوجها؟ هل هي حقاً متزوجة، أم أنها طعم يستخدمه اللصوص؟ لو كانت كذلك، فما الذي يجعلها على هذا النحو من الاضطراب والضعف؟ لعلها تتعمد فعل ذلك، لإثارة تعاطف الآخرين. مَن سيغلق بابه في وجه فتاة مسكينة كهذه؟ هل يخطط اللصوص للاستيلاء على شيء من ممتلكات "أوليدا"، أم على أخشاب أشجارها؟ صاروا يأخذون أخشاب الجميع، ويصدرونها للغرب. قضية استرداد "أوليدا" لأرضها لا تزال أمام القضاء، ومن المتوقع أن يصدر الحُكم لصالحها. انتهى المطاف بـ"ميخيل" العجوز، أحد أبناء القرية، في المحكمة، بعد أن أطلق النار على مجموعة من الرجال الذين دخلوا أرضه لقطع أشجارها. لم يُحكَم عليه بعدها، وبنظراتٍ متواطئة بين الجميع، تم غلق القضية؛ لكن محاولات "ميخيل" لاستعادة أرضه باءت بالفشل في كل مرّة، ثم ظهرت آلاتٌ فنلندية في أرضه وراحت تقطع أشجاره، لكن الشرطة لم تتدخل، إذ كيف يمكنها التفرغ لحراسة أشجار رجل واحد، طوال الليل؟ وخصوصاً إن لم يكن هناك ما يثبت أنها ملكه. وهكذا، اختفت أشجاره فجأةً. انتهت المسألة بإطلاقه النار على اثنين من السارقين. لم يعد هناك شيءٌ مستحيل في هذه البلدة، هذه الأيام. صدر حكمٌ بعدها يقضي بعدم قطع أشجار "ميخيل" دون إذنٍ مسبقٍ.

نبح كلب القرية، فارتعدت الفتاة. مدّت بصرها خلال السور المكون من سلاسل معدنية غليظة، ناظرةً إلى الطريق.

- مَن معك؟

سألتها "أوليدا" للمرّة الثانية.

لعت الفتاة شفتيها بطرف لسانها. نقلت بصرها بين "أوليدا" والطريق، ثم أخذت تُشمر عن كُميها. غلب الارتباك حركاتها، ولكن نظراً لكل ما مرّت به،

فإنه يمكن تفهّم ذلك. ظهر ذراعها اللتان غطّتهما الكدمات. مدّتهما باتّجاه "أوليدا"، وكأنها تحاول أن تثبت لها صحّة ما سردته. أشاحت برأسها، في الوقت ذاته، ناظرةً إلى السور.

أحسّت "أوليدا" بالقشعريرة. الفتاة تحاول استمالتها وإثارة تعاطفها. ربما ترغب في الدخول للمنزل، لترى إن كان يحتوي على أشياء تستحق السرقة. لكنها كدماتٌ وسحجاتٌ حقيقية، ومع ذلك قالت لها:

- تبدو قديمة..

استطردت مؤكدة:

- تلك الجروح والكدمات قديمة.

لكنها بدت حديثة، والجروح مغطاة بالدم. تزايد العرق أعلى شفّتي "أوليدا". أعادت الفتاة تغطية ذراعها بكُمّي الفستان. ساد الصمت. ربما لاحظت انزعاج "أوليدا" البالغ، وهو ما دفعها لتغطية جروحها بحركاتٍ مفاجئة، مرتبكة. لعلّها شعرت بالحرّج. واصلت النظر عبر السور، وقالت إن الظلام كان يغطي كل شيء، ولم تعرف أين هي تحديدًا. لقد ركضت طويلًا. أنهت عباراتها المبتورة بأن طمأنت "أوليدا" بأنها سوف ترحل. أعلنت أنها لن تبقى وتُسبّب لها الإزعاج.

- انتظري مكانك. سوف أجد لك بعض الماء وعصارة جذور نبات "الناردين" المهدئة.

اتّجهت إلى البيت. وقفت خلف الباب، وراقبت الفتاة بعض الوقت. واصلت الأخيرة التكوّم فوق المقعد الخشبي، دون حركة. خوفها واضح. يمكنك شمّ الخوف من مسافةٍ بعيدة. انتبهت "أوليدا" إلى أنها هي نفسها بدأت تتنفس من فمها المفتوح. لو كانت الفتاة طعمًا تستخدمه إحدى العصابات، فإنها مذعورة ممن أرسلوها إلى هنا. ربما يتوجّب على "أوليدا" نفسها أن تشعر بدُعرٍ مماثل.

ربما عليها أن تقفل بابها من الداخل، وأن تظل داخل البيت. لتبقى الفتاة في الخارج، تحت أي ظرف، إلى أن تقرر الرحيل أخيراً، وتدع امرأةً مسنةً مثلها وشأنها. يجب أن لا تبقى هنا طويلاً، وتنشر حولها ذلك الشعور البغيض، والمألوف، بالخوف. ربما هناك عصابة قريية، تطوف بكل بيوت المنطقة. ربما يتوجَّب عليها الاتصال بأحد، والتأكد من المسألة. ربما تعمَّدت الفتاة الحضور إلى منزلها هي تحديداً. ربما سمع أحدهم بأن "تالفي" ستأتي من فنلندا لزيارتها؟ ولكن لم يعد لهذه المسألة أهميةٌ تُذكر في هذه الأيام.

في المطبخ، صبَّت "أوليدا" بعض الماء داخل كوبٍ كبير، باستخدام مغرفة. أضافت بضع نقاط من محلول جذور "الناردين". يمكنها رؤية الفتاة عبر النافذة. لم تتحرك نهائياً. شربت "أوليدا" قليلاً من محلول "الناردين"، وأعقبته بجرعةٍ من دواء القلب، رغم أنها لن تتناول طعامها الآن. خرجت وناولت الكوب للفتاة. أخذته منها، وتشمَّمته بحذر، ثم وضعته على الأرض، وأوقعته عمداً. راقبت السائل وهو ينسكب، وتمتصُّه الأرض. أحسَّت "أوليدا" بالانزعاج. ألا تجد الماء مناسباً؟

أكدت الفتاة أن المسألة ليست كذلك، وأنها أرادت معرفة ما وضعته "أوليدا" فيه.

- لا شيء سوى "الناردين".

لم تقل الفتاة شيئاً.

- هل يوجد سبب يدفعني لأن أكذب عليك؟

نظرت الفتاة إلى "أوليدا". شيءٌ ما في نظراتها يوحي باللؤم. أثار ذلك اضطراب "أوليدا"، لكنها أحضرت كوباً آخر من الماء، ومعه زجاجة عصارة "الناردين"، من المطبخ.ناولتهما للفتاة، التي ظهر الارتياح على وجهها حين تأكدت من أن الكوب لا يحوي سوى الماء فقط. بدا أنها تعرف "الناردين". سكبت بضع قطرات منه في الكوب. تفاقم إحساس "أوليدا" بالانزعاج. هل

تتعَمَّد الفتاة إغاضتها؟ لعلها مجنونة. هاربة من المستشفى. تذكّرت "أوليدا" المرأة التي غادرت مصحّة "كوليوفير"، وارتدت فستان سهرة، أخذته من صندوق التبرعات، ثم راحت تركز في طرقات القرية وهي تبصق على المارة.

- هل الماء جيدٌ إذًا؟

شربت الفتاة الماء دفعةً واحدةً. سال جزءٌ منه على ذقتها.

- حين حاولتُ إيقاظك قبل قليل، صحت: "كلا، لا أريد ماءً!"

من الواضح أن الفتاة لا تتذكر ذلك، لكن صوتها المختلط بالبكاء لا يزال يتردّد داخل رأس "أوليدا"، مجلجلاً. يدور في جميع جوانب جمجمتها. يعلو ويهبط ويلفّ في مختلف الاتجاهات، مذكراً إيّاها بشيءٍ بالغ القدم. عندما يتم إغراق رأسك داخل الماء عنوةً، يصدر منك صوتٌ متماسكٌ، على عكس ما تتصوّر. ذلك الصوت المألوف، هو ما ميّزته في صيحة الفتاة. قذفت به من جوفها، بيأس تام. دخلت "أوليدا" في صراعٍ مع يدها. قاومت رغبتها المتزايدة في صفع الفتاة. اصمتي. ابتعدي من هنا. اغربي عن وجهي. لعلها مخطئة. ربما أوشكت الفتاة على الغرق خلال سباحتها مرّةً. هذا ما يجعلها تخاف الماء. ربما انجرفت "أوليدا" مع تهيؤاتها، ما جعلها تربط بين أمور ليست موجودةً في الواقع. يبدو أن الكلمات القديمة التي استخدمتها الفتاة هي التي جرّت "أوليدا" لتلك الأفكار.

- جائعة؟ هل أنت جائعة؟

نظرت الفتاة إليها كأنها لم تفهم السؤال، أو كأن أحدًا لم يُوجّه لها مثل هذا السؤال من قبل.

قالت "أوليدا" بلهجةٍ أمرّة:

- انتظري هنا.



دخلت بيتها مرّة أخرى، وأغلقت الباب وراءها. عادت بعد قليل بشرائح من الخبز الأسمر، وقالب زبد. كانت قد تردّدت للحظة بشأن إحضار الزبد، لكنها قرّرت - في نهاية الأمر - تقديمه للفتاة. عليها ألا تكون بخيلة. لا بأس بالاستغناء عن قطعة صغيرة من الزبد. محاولة خداع جيدة! أن تغش "أوليدا" دون غيرها، وهي التي رأّت وخبرت كل شيء! امتدّ الألم من يدها إلى كتفها. أحكمت أصابعها حول طبق الزبدة حتى تمنع نفسها من الاستسلام لرغبتها في ضرب الفتاة.

لم تعد الخارطة المغطاة ببقع الطين موجودةً على العشب. لا بدّ أن الفتاة وضعتها في جيبها.

دسّت الفتاة شريحة الخبز الأولى في فمها، بالكامل. بعد الشريحة الثالثة، هدأت قليلاً، وبدأت تضع الزبد على الخبز قبل تناوله، لكنها فعلت ذلك بحركاتٍ متعجّلة لا تخلو من الخوف. تضع بعض الزبد في منتصف قطعة الخبز، ثم تطويها إلى نصفين لتوزيعه داخلها، وتقضمه بسرعة. نعق غرابٌ على البوّابة، ونبحت كلابٌ في أنحاء القرية، لكن انغماسها في أكل الخبز أفقدها التركيز، فلم تتوتّر كما حدث سابقاً. لمعت فردتا الخُفّ الوافي الذي تلبسه "أوليدا" فوق حذاءها، كما لو أنهما "بوت" من نوعيةٍ جيدةٍ. بلّل الندى الذي يغطي العشب الرطب خُفيها.

- حسناً، ماذا عن زوجك؟ هل يطاردك؟

سألتها "أوليدا" وهي تراقب الطريقة التي تأكل بها. إنه جوعٌ حقيقي. ولكن ذلك

الخوف.. هل هي خائفة من زوجها فقط؟

- إنه يطاردني. زوجي.

- لمّ لا تتصلين بأمك؟ دعيها تأتي وتأخذك. أبلغها بمكانك على الأقل.

هزّت الفتاة رأسها.

- حسنًا. اتّصلي بإحدى صديقاتك إذًا، أو أحد أفراد عائلتك.

هزّت الفتاة رأسها، بقوة أكبر هذه المرّة.

- إذًا اتّصلي بشخصٍ لن يخبر زوجك عن مكانك.

مزيدٌ من هزّات الرأس الرافضة. تطاير شعرها المتّسخ حول وجهها. أعادت ترتيب خصلاتها بأصابعها. بدت منتبهة ومتيقظة، وليس بها أي شبهة جنون على الإطلاق، على الرغم من انكماشها المتواصل. حدّقت في "أوليدا" بنظراتٍ جانبية، طوال الوقت، لكن نظراتها خلت من وميض الجنون.

- لا يمكنني توصيلك إلى أي مكان، فحتى لو كنتُ أملك سيارة، فإنه لا يوجد بنزين هنا. هناك باص يغادر القرية، مرّة واحدة يوميًا، لكن لا يمكن الاعتماد عليه.

أكدت الفتاة أنها ستغادر عمّا قليل.

- أين ستذهبين؟ تعودين إلى زوجك؟

- كلاً!

- أين إذًا؟

مدّت الفتاة مُقدّمةً شبيهاً تجاه الأحجار المتناثرة في حوض الأزهار أمامها. طأطأت رأسها، حتى كاد ذقنها يُلامس صدرها.

- "زارا".

تفاجأت "أوليدا". كان ذلك تعريفًا بنفسها.

- "أوليدا ترو".

توقّفت الفتاة عن العبث بالأحجار بقدمها. كانت لا تزال تقبض على حوافّ المقعد بأصابعها، منذ أن انتهت من تناول الطعام. حرّرت أصابعها من حوله، ورفعت رأسها قليلًا:  
- تشرّفنا.

1992

"لانيما" - إستونيا

## البحث عن قصةٍ مُقنعةٍ



"أوليدا". "أوليدا ترو". أفلتت "زارا" أصابعها من حول المقعد. "أوليدا ترو" على قيد الحياة، وتقف أمامها. "أوليدا ترو" تعيش في هذا المنزل. الوضع غريب، تمامًا مثل هذه اللغة داخل فم "زارا". تتذكر بصورةٍ مبهمَةٍ كيف تمكّنت من العثور على الطريق الصحيح، وأشجار الصفصاف على جانبيه، لكنها لا تتذكر إن كانت قد أدركت حينها أنها نجحت في الوصول إليه، أم أنها اكتفت بالوقوف أمام الباب ليلاً، مُنحيرةً فيما ينبغي عليها فعله.. لعلّها قرّرت أن تنتظر حتى الصباح، حتى لا يثير وصولها كغريبة، في تلك الساعة من الليل، مخاوف مَنْ بالبيت؛ ربما حاولت دخول الإسطبل للمبيت فيه، أو الاكتفاء بالنظر عبر نافذة المطبخ دون أن تجرؤ على دق الباب، أو التفكير في أي مسألة. حين حاولت أن تتذكر ما حدث بالضبط، شعرت بألمٍ حادٍ في رأسها، فقرّرت التركيز على اللحظة الراهنة. لم يكن لديها خطة مسبقة بشأن كيفية التصرف عند الوصول إلى هنا، ولا حول كيفية التعامل مع المرأة التي تبحث عنها، "أوليدا ترو". لم يكن لديها وقت كافٍ

للتفكير في تلك التفاصيل. عليها الآن أن تتقدم خطوات إضافية في تنفيذ خطتها، وأن تُهدئ مشاعرها المضطربة، فالخوف يوشك أن يفتك بها في أي لحظة. عليها أن تتوقّف عن التفكير في "باشا" و"لافرينتي". عليها أن تفكر فقط في هذه اللحظة التي تجمعها بـ"أوليدا ترو". عليها أن تتماسك. أن تكون جريئة. أن تتذكر كيفية التصرف بلباقة مع الآخرين. أن تتوصّل إلى أسلوبٍ مُعيّنٍ للتعامل مع المرأة التي تقف أمامها. التجاعيد الصغيرة تغطي وجه المرأة ذا الملامح الدقيقة، الخالي من أي تعبير. قرطها الذهبي المزيّن بالفصوص، يتدلّى بثقل من أذنيها، ويصدر بريقاً أحمر اللون. حدقتا عينيها رماديتان، أو رماديتان بظلال زرقاء. العينان دامعتان بعض الشيء. لم تجرؤ "زارا" على مواصلة التحديق بها. "أوليدا" أصغر حجماً مما توقعت. شديدة النحول. تنبعث منها رائحة الثوم، كلما هبّت الريح.

ليس هناك مُتسعٌ من الوقت. سوف يعثر عليها "باشا" و"لافرينتي". لا شك في ذلك. ولكن ها هي "أوليدا ترو"، وها هو البيت. هل ستوافق المرأة على مساعدتها؟ يمكن لـ"زارا" أن تشرح لها الوضع على عجلة، لكنها لا تعرف ماذا تقول بالضبط. تشعر بأن رأسها فارغٌ، على الرغم من أن الخبز جعلها أكثر تركيزاً بقليل. "الماسكارا" تسيل من عينيها، وجوربها مُمزّق، وتنبعث منها رائحة كريهة. إظهار جروحها وكدماتها، حركةٌ غبية. سوف تعتقد الآن أن "زارا" من الفتيات اللاتي يجلبن الحظ السيئ لأنفسهنّ، أو يتعمدن استفزاز الآخرين. فتاة ارتكبت فعلاً خاطئاً. ماذا لو كانت كتلك الجدة التي حكّت عنها "كاتيا"؟ أو مثل "أوسكانكا"، التي تُقدّم خدمات لرجال مثل "باشا"، وترسل الفتيات إلى المدينة لرجالٍ مثله؟ لا يمكن معرفة ذلك. تردّدت في رأسها أصداء ضحكات ساخرة. كان ذلك صوت "باشا"، يُذكّرها بأن فتاةً في غبائها، لن تنجح في الاعتماد على نفسها. التعامل مع غبيةٍ مثلها يستوجب ضربها لتخليصها من التأتأة والمظهر المنقّر والرائحة الكريهة. إنها غبيةٌ جداً، وقيحةٌ جداً، لدرجة تتطلّب إغراقها والتخلّص منها.

الطريقة التي واصلت بها "أوليدا ترو" النظر إليها، وهي مُستندةً على منجلها، كانت غريبة. راحت تُثرثر عن إغلاق التعاونية الزراعية، كما لو كانت "زارا" صديقة قديمة جاءت تزورها.

قالت "أوليدا":

- لم يعد لدينا زوّار كُثُر يأتون إلى منطقتنا.

ثم بدأت تُعدّد البيوت التي غادرها الأبناء الشباب. أضافت:

- ترك الجميع "كوگا" من أجل بناء منازل للفنلنديين. غادر أبناء "روسنا" لبدء أعمالهم الخاصة في "تالين". أما ولدُ عائلة "فوريل"، فقد انغمس في العمل السياسي، واختفى في مكانٍ ما في "تالين". يجب أن يخبرهم أحد بالقانون الذي ينصّ على أنه لا يحق لك مغادرة الريف متى شئت. كيف يمكننا إصلاح أسطح بيوتنا، ونحن نعاني هجرة الأيدي العاملة؟ وكيف يبقى الرجال أصلاً، إذا كنا لا نملك نساءً في المنطقة؟ النساء غير موجودات، لعدم وجود رجال أعمال. هُنَّ جميعاً يرغبن في الاقتران برجال الأعمال، والغرباء من حاملي الجنسيات الأخرى، فمن سيتزوَّج العَمال؟

استطردت قائلة:

- قامت شركة "تعاونية غرب كالوري لصيد الأسماك" بإرسال فريقها الفني إلى فنلندا؛ لتقديم عروضٍ في مدينة "هانكو". كانت رحلةً ناجحةً، وامتدّت طوابير من الفنلنديين لشراء تذاكر الحفل. بعد عودتهم، قام المسؤول بتوجيه الدعوة لجميع الشباب، والفتيات الجميلات، للانضمام إلى فرقته لتدريبهم على رقصة الـ"كان كان" لتقديمها أمام الفنلنديين. نُشر الإعلان في الجريدة. الـ"كان كان"!

أومأت "زارا"، مُظهرةً موافقتها على كل ما تقوله "أوليدا"، وهي تحاول تقشير الطلاء عن أظفارها. نعم، الكل يلهث وراء الدولار وعملة الماركا

الفنلندية. نعم، كانت الأعمال والوظائف مُتاحةً للجميع، فيما مضى. نعم، الكل لصوص هذه الأيام، وجميعهم يدعون أنهم رجال أعمال. بدأت "زارا" تشعر بالبرد الشديد. أحسّت بخدر يسري في وجهها ولسانها، ما جعل حديثها - البطيء أصلاً - أكثر بطئًا وصعوبة. ارتجف جسدها تحت ملابسها المبتلّة. لم تجرؤ على النظر مباشرةً إلى "أوليدا"، واكتفت بنظراتٍ جانبية. ما الذي ترمي إليه؟ تبادلنا الثثرة بعض الوقت، كما لو كان الوضع طبيعيًا. خفّت حدّة الدوار في رأسها. دفعت "زارا" خصلات شعرها وراء أذنيها، كأنما ترغب في الاستماع بشكلٍ أوضح. رفعت ذقنها قليلاً. جلدها لزج، صوتها مُتكسّر، أنفها مُرتعش، إبطاها قدزان، وجسدها بأكملها كذلك، لكنها - على الرغم من ذلك كله - استطاعت أن تضحك قليلاً. حاولت أن تجعل صوتها يشبه ذلك الصوت القديم الذي اعتادت أن تتحدّث به مع معارفها حين تصادفهم في الطريق أو الدكاكين. أحسّت بأن ذلك الصوت بعيدٌ جدًّا وغريب، ولا يلائم الجسد الذي يصدر عنه. ذكّرها بعالمٍ لم تعد تنتمي إليه، وبيتٍ لا يمكنها الرجوع إليه.

حرّكت "أوليدا" منجلها وهي تتحدّث عن لصوص قرميد أسقف المنازل. عليك أن تبقى عينيك مفتوحتين، ليل نهار، كي تحافظ على سقفٍ فوق رأسك! لقد سُرِقَ سُلّم بيت عائلة "مويسيو"، وكذلك القضبان من السكك الحديدية. لم يبقَ للناس سوى بعض الأخشاب، فقد تم نهب كل شيء آخر. والغلاء! قالت "كيرستي ليليمائي" إن ارتفاع الأسعار على النحو الحالي، دليلٌ على اقتراب نهاية العالم.

وبينما هي تُثرثر بهذه الطريقة، سألت بغتةً:

- ماذا عنك؟ هل لديك وظيفة؟ ما المهنة التي تتطلّب ارتداءك هذه الملابس؟

أحسّت "زارا" بالاضطراب من جديد. عليها أن تُقدّم تفسيرًا لمظهرها غير المهندم، ولكن ماذا تقول؟ لِمَ لم تُفكّر في المسألة مُسبقًا؟ ركضت الأفكار، مبتعدةً عنها فجأةً، كحيوانات ذات سيقان طويلة، يصعب صيدها. هجرتها كل

كذبة يمكن التّفوّه بها. شعرت بالخواء في رأسها، وعينيها، وأذنيها. حاولت تركيب بعض الكلمات داخل عبارةٍ مفهومة. قالت أخيراً إنها نادلة. نظرت إلى ساقها وجورها، فتذكّرت النوعية الجيدة لثيابها. أضافت أنها تعمل في كندا. رفعت "أوليدا" حاجبيها في دهشة:

- إنها بعيدةٌ جدًّا! هل تكسبين مالاً جيِّدًا؟

أومأت "زارا"، محاولةً التفكير في شيءٍ تقوله. اصطكّت أسنانها. فمها مُغلق بإحكام، كالمصيدة. فمها يمتلئ بالبلغم والأسنان غير النظيفة، لكنه يخلو تمامًا من أي كلمة ذات معنى. تمنّت لو تتوقّف المرأة عن توجيه الأسئلة لها، لكن "أوليدا" عاجلتها بسؤالٍ جديد حول ما تفعله هنا، إن كانت تمتلك وظيفة جيدة في كندا.

أخذت "زارا" نفسًا عميقًا، وقالت إنها حضرت إلى "تالين" في إجازةٍ مع زوجها. خرجت العبارة بشكلٍ جيد، وعلى الإيقاع نفسه لعبارات "أوليدا". بدأت تُجيد مُجاراة أسلوبها. ولكن ماذا عن حكايتها؟ أي قصة ستكون مناسبةً للمرأة؟ إن بداية الحكاية التي ألفتها للتوّ توشك على الإفلات منها، وعقلها يُلاحقها، مُتشبّثًا بها. ابقني هنا. ساعديني. شيئًا فشيئًا. كلمةً كلمةً. امنحيني قصة متكاملة. حكايةً جيدةً، تجعلها تسمح لي بالبقاء هنا، وليس دفعي للاتصال بأحد كي يأتي ويأخذني.

- ماذا عن زوجك؟ هل كان هو أيضًا في كندا؟

- نعم.

- وكلاكما في إجازة؟

- هذا صحيح.

- ما المكان الذي كنتما تنويان الوصول إليه من هنا؟

ملأت "زارا" رثيتها بالهواء، وقالت بنفسي واحد إنها لا تعلم، وإن قلّة المال فاقمت المشكلات بينهما. لم يكن عليها قول ذلك. الآن، ستظن "أوليدا"، بطبيعة الحال، أنها تسعى لسرقة مالها. لقد فُتحت المصيدة. هربت قَصَّتْها. فقدت البداية الجيدة للحكاية. لن تدعها "أوليدا" تدخل بيتها، أبدًا. لا جدوى من كل ما حدث. حاولت "زارا" التفكير في شيء، لكن جميع أفكارها ولّت هاربة. عليها أن تخبرها بشيء. إن لم تكن قَصَّتْها، فأى شيء آخر. فُتشت عن شيء تقوله. عن ركام التراب الممتد أمام طرف البيت، ربما. أو عن خلايا النحل المُخبئة بين أغصان شجرة التفاح المُثقلة بالثمار. عن حجري الرّحى في الجانب الآخر من البوابة. عن الحشائش تحت قدميها. فُتشت بكل ما تملك من قوة عن شيء تقوله، كحيوانٍ جائعٍ يبحث عن فريسة. لكنها كُلّما توصلت إلى شيء، تسَلّ هاربًا من بين أسنانها. سوف تُلاحظ "أوليدا"، بعد قليل، خوفها واضطرابها. عندما سيحدث ذلك، ستقول "أوليدا" لنفسها إن هناك أمرًا غير طبيعي بشأن هذه الفتاة، وسوف تنتهي المسألة بأكملها. "زارا" غيبةٌ فعلاً، كما يُردّد "باشا". لديها القدرة على إفساد كل شيء. فتاة غيبة. بلهاء وحمقاء.

وجّهت "زارا" نظرة خاطفة باتجاه "أوليدا". لم تعد خصلاتها تُغطي وجهها. رمقتها "أوليدا" بدورها. تفحصت جسدها بسرعة. بشرة "زارا" قذرة، ويغطيها الطين والتراب. كل ما تحتاج إليه هو بعض الصابون.





1992

"لانيما" - إستونيا

تجهيز الحمام



طلبت "أوليدا" من الفتاة أن تجلس على أحد كراسي المطبخ. كانت قوائمه مُهتزةً بعض الشيء. جالت الفتاة بنظراتها في المكان، ثم استقرت على علبه صفيح تحوي ملحًا، موضوعة على إطار النافذة منذ الشتاء. تأملتُها بدهشةٍ عظيمةٍ.

- الملح يمتص الرطوبة، فيمنع بذلك تكوّن الضباب على زجاج النافذة.

تكلّمت "أوليدا" ببطء. لم تكن متأكدة ما إذا كان عقل الفتاة قد استعاد قُدرته على الفهم والاستيعاب أم لا. على الرغم من أنها بدت أكثر تماسكًا عمّا كانت عليه في الخارج، فإنها دخلت المطبخ بخطواتٍ مُتردّدةً. وطئت الأرض بقدميها بحذرٍ شديد، كما لو أنها تسير على سطحٍ جليدي رقيق قد لا يتحمّلها. حين وصلت إلى الكرسي، أخيرًا، تكوّرت على نفسها في شroud. ظلّ حدس "أوليدا" يُلحّ عليها بعدم إدخال الفتاة إلى مسكنها، لكن حال الأخيرة السيئ لم يترك أمامها مجالًا للتّردد. تطايرت ستارة شباك المطبخ، وضرب طرفها ذراع الفتاة في خفة. ارتجف جسدها في دُعرٍ مُفاجئ، وانحنى إلى الأمام في خوف.

اهتزَّ الكرسي من تحتها، ففردت ظهرها مُحاولةً استعادة توازنها. احتكَّ الشبشب بالأرضية، مُصدرًا صريرًا مسموعًا. توقَّف الكرسي عن الاهتزاز، ولم تعد قدمها تتأرجح في الهواء. تشبَّت بحافَّة الكرسي. دسَّت قدميها تحتها، ولفَّت ذراعيها حول نفسها وقد تهدَّل كتفها.

- دعيني أحضر لكِ ثيابًا، بدلًا من هذه الثياب الرطبة.

تركت "أوليدا" الأبواب مفتوحة، وفتَّشت في الدولاب عن ثياب منزلية مناسبة. لم تتحرَّك الفتاة من مكانها، وظلَّت تعضُّ على شفتها السُّفلية. استعاد وجهها تعبيراته الأولى. أحسَّت "أوليدا" بالاشمئزاز منها. سوف ترحل الفتاة عمَّا قريب، ولكن عليهما أولًا أن تُقرَّرا المكان الذي ستذهب إليه. ينبغي عليها أيضًا أن تعطيها دواءً ما. لن تواسلا الجلوس هنا، في انتظار ضيف جديد.. زوج الفتاة أو أيًّا من كان يبحث عنها. إذا لم تكن طُعمًا لإحدى العصابات، فطُعم من تكون؟ فتية القرية؟ هل بإمكانهم التخطيط لشيء كهذا أصلًا؟ لماذا يفعلون ذلك؟ لإزعاجها فقط، أم أن الأمر أكبر وأعمق من ذلك؟ لكن شباب القرية لن يستخدموا فتاةً روسيةً لتنفيذ عملياتهم. مستحيل.

حين عادت "أوليدا" إلى المطبخ، أحنَّت الفتاة كتفيها، وطأطأت رأسها، والتفتت نحوها. نظرت بعيدًا. رفضت الثياب، وقالت إنها تحتاج إلى بنطلون فقط.

- بنطلون؟ ليس لديّ سوى بنطلون رياضي، لكنه متَّسخ، وبحاجة إلى غسيل.

- لا يهم.

- أرتديه عندما أعمل في الحديقة.

- لا يهم.

- حسنًا!

ذهبت "أوليدا" لتجلب البنطلون ماركة "مارات"، المُعلَّق على شَماعة المعاطف في مدخل المنزل. قامت بتعديل الثياب الداخلية التي تلبسها. إنها تلبس اثنين فوق بعضهما، كالعادة، منذ تلك الليلة في مجلس المدينة. جرَّبت البنطلونات الرجالية الضيقة، عدَّة مرَّات. منحها ذلك إحساسًا بالأمان لبعض الوقت. شعرت بنوعٍ من الحماية. لكن ارتداء السيدات للبنطلونات الطويلة لم يكن مألوفًا في تلك السنوات البعيدة. فيما بعد، صارت حتى نساء القرية يلبسنه، ولكن حين حدث ذلك كانت قد اعتادت مسألة قطعتي الملابس الداخلية، فلم تبدِ اهتمامًا بالموضة الجديدة. ولكن، لِمَ ترص فتاة تمتلك فستانًا غربيًا ببنطلون رياضي رخيص؟

دخلت "أوليدا" المطبخ، وقالت ضاحكةً:

- لقد صُنِع هذا البنطلون بعد أن أحضر "مارات" آلات النسيج اليابانية.

بعد لحظة، أطلقت الفتاة ضحكة قصيرة، سرعان ما ابتلعها في صمت، كما يفعل الناس عادةً حين يسمعون نُكتهً لا يفهمونها، ويتحرَّجون من إظهار جهلهم بمعناها. لعلَّها لم تعتبر عبارتها تلك نُكته من الأساس. قد تكون أصغرَ من أن تتذكَّر حال منتجات "مارات" قبل استيراد الآلات الحديثة. ربما كانت "أوليدا" مُحقِّقة في تخمينها بأن الفتاة ليست من إستونيا أصلًا.

- سوف نغسل فستانك ونُرْتِّقه لاحقًا.

- كلاً!

- لماذا؟ إنه غالي الثمن.

انتزعت الفتاة البنطلون من بين أصابع "أوليدا"، وخلعت جوربها الطويل، ثم لبست الـ"مارات". خلعت فستانها أيضًا، وارتدت ثوب "أوليدا" المنزلي مكانه؛ وقبل أن تتمكن "أوليدا" من منعها، كانت قد أَلقت بملابسها داخل النار المُشتعلة في المدفأة. سقطت الخارطة على الأرض، فسارعت برفعها وقذفها في النار.

- "زارا".. ليس هناك ما يستدعي هذا القلق.

وقفت الفتاة أمام المدفأة، وكأنها تحمي الملابس المحترقة. كانت قد زرّرت الثوب المنزلي

بطريقةٍ غير صحيحة.

- ما رأيك في أن تستحمي؟ سوف أسخن بعض الماء.

كرّرت "أوليدا" بعد لحظة:

- ليس هناك ما يستدعي القلق.

اقتربت "أوليدا" من المدفأة بخطواتٍ متمهلة. لم تتحرّك الفتاة. اختلج جفناها في خوف.

ملأت "أوليدا" إبريقًا بالماء. أمسكت بيد الفتاة، وأجلستها على الكرسي، ثم وضعت كوبًا

زجاجيًا من الشاي الساخن أمامها. عادت بعدها للوقوف أمام المدفأة. التفتت الفتاة

نحوها، تراقب ما تفعل.

قالت "أوليدا":

- لتحترق تلك الملابس.

توقّفت الاختلاجات المتتالية في جفني الفتاة. انهمكت في تقشير الطلاء عن أظفارها

بتركيزٍ واهتمام، إصبعًا تلو الآخر. هل يشعرها ذلك بالهدوء؟ أحضرت "أوليدا" وعاء

الطماطم من حجرة المؤن، ووضعت على الطاولة. ألقت نظرة على مصيدة الفئران التي

تركتها بجوار حبات الخيار، ثم راجعت كتاب وصفات الطبخ سريعًا، قبل أن تتفحص

برطمانات الخضراوات المشكّلة لتتأكد إن كانت محتوياتها قد بردت قليلًا.

- سأبدأ بعد قليل في تعليب الطماطم، وثمار التوت. هلاً فتحنا الراديو لنعرف ما

يذيعونه الآن؟

أخذت الفتاة مجلة، وصفقتها بقوة فوق المفرش البلاستيكي الذي يغطي

الطاولة. انسكب كوب الشاي فوق المجلة. دُعرت الفتاة، وقفزت من الكرسي.

نقلت بصرها بين الكوب و"أوليدا"، بالتبادل. راحت تعتذر عن الفوضى التي صنعتها، بكلماتٍ مرتبكة. بحثت عن خرقة تنظف بها المكان. أخذت تمسح الأرض، والكوب، وسيقان الطاولة، ثم حاولت تنظيف الخرقة المهترئة.

- لا بأس.

لم تخفت حدة خوف الفتاة، واضطرت "أوليدا" لتهدئتها من جديد. لا بأس. ليس هناك ما يستدعي القلق. اهديي. إنه مجرد كوب شاي. غير مهم. لِمَ لا تحضرين "الطشت" من الحُجرة الخلفية؟ أصبح الماء دافئًا. أسرع الفتاة، وعلامات الأسف لا تزال تعلو وجهها، بجلب "الطشت" المعدني. ارتطمت به قليلاً في جنبات المطبخ، ثم انهمكت في صب الماء الساخن من الإبريق الموضوع على النار، ومزجه ببعض الماء البارد. ظلت مُطْرِقة الرأس، وقد احمرَّ وجهها. تحرَّكت بخفة وبخَرَج. تابعتها "أوليدا" بعينها. إنها فتاة ماهرة ومدربَّة على نحوٍ جيد وغير مألوف. أن تتقن ما تفعله بهذه الطريقة، يعني أنك تعرَّضت لقدرٍ هائلٍ من الخوف. شعرتُ "أوليدا" بالأسى حيالها. ناولتها فوطة من الكتَّان، تزينها أزهار ملونة. أمسكت بيدي الفتاة بين أصابعها للحظة. ارتعدت الفتاة في خوف، وحاولت سحب يديها بسرعة، لكن "أوليدا" لم تفلتتهما. أرادت أن تربت على رأسها، لكن من الواضح أن الفتاة تنفر من اللمس، ولذلك اكتفت "أوليدا" بتكرار ما قالته سابقًا من أن لا شيء يدعو للقلق. طلبت منها أن تجلس في "الطشت" بهدوء. قالت إن عليها أن تلبس ثيابًا جافة، عقب ذلك، وأن تشرب شيئًا. ربما يكون كوبًا من الماء البارد، المحلَّى بكثيرٍ من السُكَّر. لمَ لا تصنع لها واحدًا الآن؟

ارتخت أصابع الفتاة. بدأ خوفها يتراجع، وغادرت الرِّجفة جسدها. أفلتت "أوليدا" يدي الفتاة بحذرٍ بالغ، ثم أعدت لها كوب الماء والسكر كي يهدئها. اندفعت حبيبات السكر في دوامات متتالية داخل الكوب، حاملما رفعته الفتاة لشفتيها. حثتها على الجلوس في "الطشت"، لكن الفتاة رفضت بإصرار ما لم

تغادر "أوليدا" المطبخ أولاً. وافقت "أوليدا" على البقاء في الغرفة الأمامية، إلى أن تنتهي. تركزت الباب مفتوحًا. سمعت صوت الماء في "الطشت"، واتها بين الحين والآخر تنهيدةً طفوليةً.

الفتاة لا تعرف كيف تقرأ بالإستونية. يمكنها التحدُّث بها فقط. هذا يفسر توتُّرها وتعاملها العنيف مع المجلة، الذي تسبَّب في سكب الشاي. لعلَّها فعلت ذلك متعمِّدًا، حتى لا تنتبه "أوليدا" إلى أنها جاهلة وأميَّة.

تلصَّصت عليها "أوليدا" بنظراتها، عبر شقِّ في الباب. تمدَّد جسد الفتاة المغطَّى بالكدمات داخل "الطشت". تجمَّعت خصلات شعرها المتشابكة فوق رأسها، كأذنٍ إضافيةٍ  
ثالثةٍ.



1991

"فلاديفوستوك" - الأتحاد الفيدرالي الروسي

الجورب اللامع و"الجين"



في أحد الأيام، توقفت سيارة "فولجا" سوداء أمام منزل "زارا". كانت "زارا" تقف على السلام، حين حدث ذلك. فُتِح باب الـ"فولجا"، وظهرت منه قدمٌ مُغطاة بجوربٍ لامع، ثم لامست الأرض. في البدء، خافت "زارا".. ما الذي يجعل "فولجا" سوداء تتوقّف أمام بيتهم؟ لكنها سرعان ما تجاوزت خوفها حين ضربت أشعة الشمس الجزء السفلي من ساق "أوكسانكا". الجدّات العجائز اللاتي كن يجلسن على المقعد الخشبي العريض بجوار البيت، صمتن فجأة، ورحن يحدّقن في المعدن البراق للسيارة، والساق اللامعة. لم ترَ "زارا" شيئاً مماثلاً من قبل. الجورب بلون البشرة بالضبط. لا يبدو كجورب حقيقي، في الواقع. لعله ليس جورباً، بالفعل. لكن الضوء المتلألئ على الساق، يؤكد أنها مُغطاة بشيء، وأنها ليست عارية. كأنها هناك هالة تحيط بالساق. هالة تشبه تلك التي تمتلكها "مريم العذراء"، "أم الرب". نورٌ يشعُّ في كل اتجاه. تنتهي الساق بكاحلٍ دقيق، وحذاءٍ ذي كعبٍ مرتفع.. يا له من حذاء! الكعب يضيق في

المنتصف، ثم يعاود الاتساع. أشبه ما يكون بساعةٍ رملية. لقد رأت السيدة الأرسقراطية الفرنسية "مدام دي بومبادور" تنتعل حذاءً مشابهاً، في كتب تاريخ الفن؛ إلا أن الحذاء الممتد من باب السيارة أكثر رقّةً وأناقةً، وله طرف مُدبّب، كما أن كعبه أطول. هبط الحذاء واستقر على الأرض المُتربة، واصطدم طرف كعبه بحجرٍ في الطريق، مصدرًا صريرًا مرتفعًا، سمعته بوضوح من مكانها في مدخل البيت، ثم نزلت المرأةً بأكملها من السيارة. "أوكسانكا".

نزل وراءها رجلان، من المقعدين الأماميين. يرتدي كل واحد منهما معطفًا جلدًا أسود اللون، ويحيط رقبته بسلاسل ذهبية غليظة. لم يقولا شيئًا. وقفا بجوار السيارة، ينظران إلى "أوكسانكا". كان هناك الكثير الذي يستحق الرؤية. إنها جميلة. لم تقابل "زارا" صديقتها القديمة منذ فترةٍ طويلةٍ. منذ انتقالها إلى "موسكو" للالتحاق بالجامعة. تلقت منها بضع بطاقات بريدية، ثم خطابًا تقول فيه إنها ستسافر إلى ألمانيا للعمل هناك. بعدها، انقطعت أخبارها تمامًا، حتى هذه اللحظة. التغيّر مُدهش. لمعت شفقتا "أوكسانكا" ببريقٍ أخّاذ، كالفتيات اللاتي تُزيّن صورهنّ أغلفة المجلات الغربية. كانت تضع فراء ثعلب حول كتفيها. لونه بني فاتح. ليس لون الثعالب المعتاد، وإنما لونٌ يقترب من مزيج القهوة بالحليب.. هل هناك ثعالب بهذا اللون؟

اتّجهت "أوكسانكا" إلى المدخل الأمامي للبيت، وحين لمحت "زارا"، توقفت ولوحت لها بيدها. ولأنها ثنت أصابعها قليلًا، فقد بدا أنها تخدش الهواء بأظافرها المصبوغة بالأحمر. التفتت الجذّات العجائز نحو "زارا". أحكمت إحداهنّ عقدة الـ"إيشارب" تحت ذقنها. سحبت أخرى عصاها، ووضعتها بين ساقيهما. أمسكت الثالثة عصاها بيديها الاثنتين.

انطلق نفيّرٌ مرتفع من السيارة الـ"فولجا".

اقتربت "أوكسانكا" من "زارا". سعدت السُّلم مبتسمة. انعكست الشمس على أسنانها البيضاء النظيفة. مدّت يديها الشبيهتين بالمخالب تجاهها،



وعانقتها. لامس فراء الثعلب خدّي "زارا". رمقها بعينيه الزجاجيتين. بادلته النظر. فكّرت للحظة بأن نظراته مألوفة، ثم تذكّرت بأن لعيني جدّتها الشكل ذاته، في بعض الأحيان.

همست "أوكسانكا":

- اشتقتُ إليك كثيراً.

فتحت شفتيها ببعض الصعوبة عند حديثها، بفعل البريق اللزج الذي يغطيها كالصمغ. طيرّ الهواء خصلة ملتوية من شعر "أوكسانكا"، فالتصقت بشفتيها المصبوغتين. أزاحتها بيدها. تركت الخصلة أثراً أحمرَ على خدّها. رقبتها تمتلئ بخطوط حمراء مماثلة. كانت كمن تعرّض لصعق كهربائي. ضغطت "أوكسانكا" على يدي "زارا"، التي شعرت بأن أطراف تلك الأظفار الحادة تنغرس في جلدها.

قالت "أوكسانكا" ضاحكة، وهي تعبت بشعر صديقتها:

- عليك أن تذهبي للكوافير يا حبيبتي. لونٌ جديدٌ، وتسريحة عصرية!

لم تقل "زارا" شيئاً.

- حسناً.. تذكّرت حال صالونات التجميل هنا! ربما كان من الأفضل فعلاً أن لا تسمحي

لهم بلمس شعرك.

أطلقت ضحكة جديدة، وقالت:

- هيّا بنا لنشرب الشاي.

اصطحبتها "زارا" إلى الداخل. حين عبرتا المطبخ المشترك للبناية، عمّ الصمت المكان. أنت الأرضية تحت وقع خطواتهما. تجمّعت النساء لدى الباب،

لمُراقبتهمَا. أصدر شبشب "زارا" المهترئ صوتًا حادًا عند احتكاكه بالرمل، وقشور بذور عبّاد الشمس التي تُغطّي الأرض. أحسّت بأعين النساء وهي تخترق ظهرها في فضول. أدخلت "أوكسانكا" إلى الشقة، وأغلقت الباب. توهّجت "أوكسانكا"، كنجمٍ لامع، داخل الحجرة المُعتمة. برق قُرطها، كعيني قطة. سحبت "زارا" طرف كُمّي ثوبها المنزلي، تُغطّي بهما يديها المحمرّتين.

لم تتحرّك عينا الجَدّة. كانت تجلس في مكانها المعتاد، وتنظر خارج النافذة. بفعل الضوء القادم من الخارج، بدا رأسها أسود. الجَدّة لا تغادر مقعدها أبدًا. تواصل النظر من النافذة، ليل نهار، في صمتٍ تام. الجميع يخشى الجَدّة، على نحوٍ ما، بمن في ذلك والد "زارا"، على الرغم من أنه كان سكرانَ طوال الوقت. ثم تلاشى شيئًا فشيئًا، ومات. بعد ذلك، انتقلت والدة "زارا" إلى بيت الجَدّة، لتعيش مع ابنتها. لم تكن الجَدّة تحبّه، ولم تكن تشير إليه إلا بكلمة "تيبلا"، والتي تعني "الحثالة الروسية". لكن "أوكسانكا" كانت معتادة على الجَدّة. اقتربت منها في صخب، لتحيتها. أمسكت بيدها، وراحت تثرثر معها بهرح. ربما ضحكت الجَدّة قليلًا. بدأت "زارا" في إزالة الأشياء الموجودة على الطاولة. فتّشت "أوكسانكا" في شنطة يدها، إلى أن عثرت على لوح شوكولاتة، بغلاف برّاق، لا يقل لمعانًا عن صاحبته. ناولته للجدة. أوصلت "زارا" أنبوب تسخين الماء المعدني بالكهرباء، ووضعت داخل برّاد الشاي. ناولتها "أوكسانكا" كيسًا بلاستيكيًا.

- ستجدين فيه أشياءً متعددة.

تردّدت "زارا" في قبوله. بدا ثقيلًا.

- خذيه. كلاً! انتظري!

مدّت "أوكسانكا" يدها بداخله، وأخرجت زجاجة.

- هذا مشروب "الجين". هل تناولت جدتك "الجين" من قبل؟ لعلها تجربةٌ جديدةٌ

بالنسبة لها.

جلبت كوؤسا صغيرة من على الرف، وملأتها بالشراب. قدّمت كأسًا منها للجدّة. تشمّمته الجدّة أولاً، ثم ابتسمت ابتسامَةً عريضة، وضحكت، وصبّت الكأس في فمها. فعلت "زارا" مثلها. اشتعل حريقٌ لاذعٌ في حلقها.

- "الجين" هو المكوّن الأساسي في مشروب "جين وتونيك". إننا نصنع كثيرًا منه لزبائننا.

بحركاتٍ مسرحية، حملت صينية وهمية، وقالت بإنجليزية ذات لكنةٍ ثقيلة:

- هل ترغب في شيءٍ آخر يا سيدي؟ مزيد من "الجين والتونيك"، ربما؟

أضافت بالألمانية:

- المزيد؟

كان صخبها ومرحها مُعديين. مدّت "زارا" يدها وكأنها تمنحها بقشيشًا، وأومات برأسها تشكرها على الكأس الجيدة. تعالت ضحكاتهما، كالسابق.

جلست "أوكسانكا" وهي تلهث، عقب مسرحيتها الصغيرة، وقالت:

- لقد جعلتكِ تضحكين.

أضافت:

- كنا نضحك كثيرًا. هل تذكّرين؟

أومات "زارا". بدأ الماء يغلي. انتظرت "زارا" قليلًا، ثم أزالته منه الأنبوب المعدني. وضعت بعض أوراق الشاي في إبريق، وسكبت عليها الماء الساخن. حملت الفناجين إلى الطاولة. كان بإمكان "أوكسانكا" أن تبلغهم بموعد زيارتها، مسبقًا. أن ترسل لهم جوابًا مثلًا. عندها، كان سيتسنى لـ"زارا" أن

تقدّم لها شيئاً تتناوله مع الشاي، وأن ترتدي ثياباً لائقة تقابلها بها بدلاً من هذا الثوب المنزلي، والشبشب القديم.

جلست "أوكسانكا" إلى الطاولة. أعادت ترتيب فراء الثعلب. استند برأسه على كتفها، فيما التفت جسده على ظهر المقعد.

- هذان حقيقيان.

لمست قرطبيها بأطراف أصابعها.

- ماسٌ أصلي. هل ترين كم أحوالي جيدة في الغرب، يا "زارا"؟ هل لاحظتِ أسناني؟  
ابتسمت ابتسامةً عريضة.

عندها فقط لاحظت "زارا" بأن عيوب أسنان "أوكسانكا" الأمامية لم تعد ظاهرة. تذكرت "زارا" سيارات الـ"فولجا". كانت تندفع بسرعةٍ فائقة، وتظهر أمامك فجأة، دون ضوء. والآن، ها هي "أوكسانكا" تمتلك واحدةً منها. ولديها سائق. وحارس شخصي. وزوجٌ من الأقران الذهبية بفصوص ماسية كبيرة. وأسنان بيضاء.

في طفولتهما، كادت الفتاتان تتعرضان للدهس من قِبَل سيارة "فولجا". كانتا في طريقهما إلى البيت، عقب الخروج من السينما. الشارع هادئٌ جداً. ظلّت "زارا" تعبث بممحةٍ قديمةٍ وضعتها داخل جيبيها. صلبة، يميل لونها إلى الرمادي، اختفى اسم الماركة من على سطحها منذ فترة. ثم ظهرت السيارة. سمعتا صوتها المرتفع، لكنهما لم تلحظا قدومها إلا حين اقتربت منهما بسرعةٍ فائقة، واختفت في لمح البصر. لم يفصلهما عنها إلا مسافة ضئيلة جداً. حين وصلت "زارا" إلى البيت، قامت ببردٍ إظفرها السبّابة، الذي انكسر عند اصطدام السيارة بيدها في جيبيها، أثناء لهوها بالممحة داخل جيبيها. انكسر ظفرٌ آخر وانفصل في جانبٍ منه من اللحم، جارحاً إصبعها. تساقط منه الدم.

في المبنى السكني نفسه، تعرّضت ابنة إحدى الأسر للدهس بسيارة "فولجا" سوداء. أعلنت الميليشيا بصراحة أن الأمر خارج عن سيطرتها. هكذا تسير الأمور. السيارة حكومية. ما الذي يمكنك فعله؟ أعيدت الأسرة إلى البيت، بعد أن تلقّت بعض التوبيخ. لم يكن في نية "زارا" إخبار أمها بما حدث. لكن الأخيرة لاحظت الأظفار المتكسرة، والإصبع التي يغطيها الدم. لم تقنعها تبريرات "زارا"، وأدركت على الفور أن ابنتها تكذب. حين صارتها "زارا"، في نهاية الأمر، بشأن الـ"فولجا" السوداء، صفعتها بقوة. أرادت بعد ذلك معرفة ما إن كان ركّاب السيارة قد رأوها جيداً أم لا.

- لا أظن ذلك. كانت السيارة مُسرعة جداً.

- ألم يتوقّفوا؟

- كلاً، بالطبع.

- إياك أبداً أن تقتربي من تلك السيارات. أبداً. أبداً. إن رأيت إحداها، اهربي. أينما كنت.

اهربي وعودي إلى المنزل.

أحسّت "زارا" بالذهول. سيلاً من الكلمات المتدافعة، انطلق من فم أمها. هذا لا يحدث كثيراً. لم يضايقها ضرب أمها لها، لكن نظراتها الهلعة أخافتها. التعبيرات التي ارتسمت على وجهها غريبة. وجه أمها يخلو من أي تعبير، عادةً.

جلست أمها إلى طاولة المطبخ، طوال الليل، شاردة الذهن. ومنذ تلك الليلة، صارت تطلّ من وراء الستائر خلسةً، وكأنها تتوقّع ظهور "فولجا" سوداء أمام البيت، في أي لحظة، وهي تراقب مسكنهم أو تمر في شارعهم بهدوء. خلال ساعات الليل، تغادر فراشها لتطمئن على "زارا"، التي تدّعي الاستغراق في النوم. تنظر من النافذة، ثم تعود إلى فراشها، لتستلقي فيه بجسدٍ متخشّب، إلى

أن يغلبها الإرهاق فتغفو. يُجافئها النوم في بعض الأحيان، فتقف وراء الستارة، لتراقب الشارع حتى الصباح.

في إحدى الليالي، تركت "زارا" سريرها، ووقفت وراء أمها. جذبت طرف قميص نومها القطني، وقالت لها:  
- لن يأتي أحد.

لم ترد أمها عليها. أزاحت أصابع "زارا" من على ثيابها.

- سوف يقوم "لينين" بحمايتنا يا ماما. لا شيء يدعو للقلق.

لم تقل أمها شيئاً. التفتت تجاه ابنتها، ونظرت نحوها مطوّلاً، كأنها تتابع شخصاً يقف خلف "زارا". "زارا" أخرى. اشتد الظلام، وتعالَت دَقَّات الساعة. غاصت كعوب أقدامهما في الخشب العتيق للأرضية، كأنها لُصِقَت به بغراء. حملتها أمها، أخيراً، وأعادتها إلى فراشها. غَطَّتْها بالبطانية بإحكام. لم تتبادلا كلمة واحدة، خلال ذلك كله.

كانت "زارا" بدورها قد سمعت حكايات عن النائب "بيريا"، وعن البوليس السري، وعن السيارات السوداء التي تجوب الشوارع ليلاً بحثاً عن الفتيات الصغيرات. تتابعهنّ، ثم تتوقّف بجوارهنّ. لا أحد يسمع عنهنّ شيئاً بعدها. الـ"فولجا" السوداء هي دائماً الـ"فولجا" السوداء.

والآن، ها هي "أوكسانكا" - التي صارت تشبه نجومات السينما - تنزل من "فولجا" سوداء، وتلوح بيدٍ جميلة، وتخدش الهواء بأظفار طويلة، أنيقة، حمراء؛ تسبقها ابتسامتها المرحة. تتصرف كأرستقراطية تجري في عروقها الدماء الزرقاء.

سألته "زارا":

- هل الـ"فولجا" ملكك؟

أجابت "أوكسانكا" ضاحكة:

- سيارتي في ألمانيا.

- لديك سيارة إذا؟

- طبعًا! كل شخص في الغرب يمتلك سيارة.

وضعت "أوكسانكا" ساقًا فوق الأخرى، بأناقة. ضمت "زارا" ساقها، ووضعتهما تحت مقعدها. القماش الذي يطن شبشبها، رطب. تمامًا كما كان شبشب "أوكسانكا" قديمًا، ببطانته الوردية الباهتة، حين كانت تلبس النوع ذاته، وتزورها لتنهيا واجباتهما المدرسية معًا على هذه الطاولة، بأصابع يُفَعُّها الحبر الأسود.

قالت "زارا":

- السيارات لا تثير اهتمامي.

- ولكن حين تمتلكين سيارة، يصبح بإمكانك الذهاب أينما شئت، بسهولة. فكّري في

المسألة على هذا النحو!

فكّرت "زارا" في أمرٍ واحدٍ فقط. سوف تعود أمها في أي دقيقة الآن، وترى "فولجا" سوداء أمام البيت.

لم ترَ الجَدَّةَ السيارة؛ لأن النافذة التي تجلس أمامها لا تطلُّ على ذلك الجانب من الطريق. إنها لا تهتم بالأحداث التي تدور في الشارع، كبقية الجدّات اللاتي يجلسن بمُحاذاة جدار البيت. السماء تكفيها جدًّا.



عندما سارت معها "زارا" إلى الـ"فولجا" السوداء، أخبرتها "أوكسانكا" بأن السقف في

منزل أبويها لم يعد يعاني مشكلة التسريب. لقد تولّت عملية إصلاحه.

- أنتِ مَنْ دفع التكاليف؟

- بالدولار.

قبل أن تركب السيارة، احتضنت "أوكسانكا" صديقتها بحرارة، ثم أعطتها كراسًا طويلًا

بعض الشيء.

- إنه عن الفندق الذي أعمل فيه.

قلَّبتَه "زارا" بين يديها. أوراقه القليلة سميقة ولامعة، وتعلوه صورة امرأة باسمه،

بأسنان ناصعة البياض.

- هذا يُسمَّى "بروشور" .. إنه كُتِيب أو نشرة.

- "بروشور"؟

- هناك الكثير من الفنادق. عليها أن تُصدر مثل هذه الكتيبات، ليميز الناس بينها.

هناك المزيد. لم أزر هذه من قبل، لكنهم يقبلون الروسيات أيضًا. يمكنني ترتيب مسألة

استخراج جواز سفر لكِ، إن أحببتِ.

ما إن ركبت في المقعد الخلفي، حتى أدار السائق محرك السيارة، على الفور.

صاحت "أوكسانكا":

- هناك جوارب مثل هذه بالضبط، في الكيس البلاستيكي.

فتحت باب السيارة، وأخرجت ساقها:

- تحسَّسي الجورب.

مدَّت "زارا" يدها، وتلمَّست ساق صديقتها.

ضحكت "أوكسانكا"، وقالت:

- غير معقول! أليس كذلك؟

أضافت:

- سوف أعود ثانيةً في الغد. يمكننا أن نتكلَّم باستفاضة عندها.



1992

"لانيما" - إستونيا

صوت السِّكِّين



ظهرت ساقا الفتاة من تحت الفوطة، تُغْطِيهِمَا كدمات داكنة. لم تكن تلك البُقْع الزرقاء والسوداء ظاهرةً من قبل، بسبب الجورب. الساقان عاريتان، وكذلك الذراعان مبللتان. تعاني الفتاة القشعريرة. تمتد على صدرها ندبةٌ طويلة، تختفي نهايتها داخل الفوطة الملفوفة حول جسدها بإحكام. تلمحها "أوليدا"، فتشعر بالتقزز. تقف الفتاة عند باب المطبخ. نظيفة، وأصغر سنًا مما بدت في أول الأمر. بشرتها تشبه تفاحة مُقَشَّرَة، يغطيها مسحوق القرفة. تساقطت قطرات الماء من شعرها، على الأرض. رائحة الصابون والنظافة التي تفوح منها، جعلت "أوليدا" تحن إلى حَمَّام ساونا، لكن الساونا التي كانت تمتلكها احترقت منذ سنوات. تجنَّبت، متعمدة، النظر إلى الفتاة. وراحت تتأمَّل الأنايب العازلة للحرارة، الممتدة على الحائط. طرقت جانبًا منها بطرف عصاها، لتزيح شبكة عنكبوت من عليه.

- توجد زجاجة من خلاصة عُشبة لسان الحَمَل على الطاولة. إنه مفيدٌ لبشرتك.  
لم تتحرك الفتاة. طلبت سيجارة. أشارت "أوليدا" بعصاها إلى عبوة سجائر "بريما" فوق  
الراديو، وأخبرتها أن تشعل واحدة لها هي أيضًا. أشعلتهما الفتاة، ثم راحت تتأمل أظفار  
يديها. ظل الماء يتساقط من شعرها، مكونًا بركةً صغيرة.

- اجلسي على الأريكة يا عزيزتي.

- سوف تتبلل.

- كلاً. لن تتبلل.

ألقت الفتاة بجسدها على طرف الأريكة، وقد أحنت رأسها إلى الأمام، حتى يتساقط  
الماء على الأرض فقط. انبعث صوت السياسي "روتل" من الراديو، متحدثًا عن الانتخابات.  
غيّرت "أوليدا" المحطة. قالت "آينو" بأنها ستشارك في التصويت، لكن "أوليدا" كانت قد  
قررت عدم المشاركة.

- أنتِ لا تملكين صبغة شعر، على الأغلب. أليس كذلك؟

هزّت "أوليدا" رأسها.

- ماذا عن أي لون؟ أو الحبر؟ حبر أختام مثلاً؟

- لا أظن ذلك.

- ورق كربون؟

- لا.

- ماذا أفعل إذًا؟

- هل تظنين أن بإمكانكِ التَّنكُّر بهذه السهولة؟

لم تجب الفتاة. صمتت في توتر.

- ما رأيك في أن أحضر لك قميص نوم نظيف؟ تلبسينه، ثم نتناول عشاءً خفيفًا.

أطفأت "أوليدا" سيجارتها، وعادت بقميص نوم تزيينه ورود مطبوعة باللون الوردى، ثم غادرت المكان لتتيح للفتاة ارتداءه. سمعت صوت زجاجات في المطبخ. أدركت أن الفتاة قد قررت استخدام عُشبة لسان الحَمَل، في نهاية الأمر. حل الظلام، ونشر سواده عبر النوافذ. تأكدت "أوليدا" عدّة مرّات من أنها جميعًا مغلقة بإحكام. هناك فتحةٌ صغيرةٌ في الجانب السفلي لإطار إحدى النوافذ. سوف تسكب ماء "الطشت" في الخارج صباح الغد. أفزعتها صوت الخربشة الذي أصدره فأرٌّ في أحد الأركان. لكنها سرعان ما تماسكت، وبدأت في تدوين تاريخ التعبئة على البرطمانات. التصقت بعض قصاصات الجرائد وصفحاتها بالزجاج. قرأت إحداها: "النجاح في حلّ 18% من جرائم هذه السنة". قررت "أوليدا" أنه أسوأ خبر ضمن القصاصات، ووضعت عليه علامة بقلمها. أعجبها خبرٌ آخر يتحدث عن افتتاح أول متجر للألعاب الجنسية في العاصمة "تالين"، وضعت عليه هو أيضًا علامة. الحبر يوشك على النفاد. صنعت بالقلم خطوطًا على الورقة عدّة مرّات. "في الأيام الأولى للافتتاح، تدافع الصبية والفتيان على المتجر، كأسراب الذباب، وتعيّن على مسؤولي المحل إبعادهم بصرامة". تمزّقت الورقة في بعض الأماكن. استسلمت "أوليدا"، وأخرجت خرطوشة الحبر الفارغة، ووضعتها داخل أحد البرطمانات مع مثيلاتها. كتبت التاريخ بيدٍ مرتعشة. سوف تُكمل تدوين التواريخ لاحقًا. ليس من الصعب رفع البرطمانات الممتلئة ووضعها على رخامة المطبخ، لكن دقّات قلبها المتسارعة تشعرها بالضعف. يجب أن تغادر الفتاة البيت في الغد. سوف تأتي "آينو" لتجلب لها الحليب، وبعدها ستذهبان للكنيسة معًا لتسلّم عبوات التبرعات. "أوليدا" لا ترغب في ترك الفتاة في المنزل، بمفردها. إلى جانب ذلك، لو رأت "آينو" الفتاة فسوف ينتشر الخبر في القرية بسرعة هائلة. لو كان لهذه الفتاة زوجٌ حقًا، فإن "أوليدا" لا تودُّ أن تراه في بيتها، تحت أي ظرف.

لمحت قطعة سجق فوق طاولة المطبخ. كانت قد اشترتها حين ذهبت للسوق آخر مرّة. تذكّرت الذبابة. بدأ السجق يفسد. لقد طارت الذبابة من عقل "أوليدا"، ونسيتها تمامًا، ما إن رأت الفتاة في حديقته. إنها غبية. وعجوزٌ أيضًا. لا يمكنها تركيز انتباهها على أكثر من شيء في الوقت ذاته. كانت على وشك التخلُّص من السجق، لكنها غيرت رأيها في آخر لحظة. نظرت إليه بتمعن. عادةً، ما إن يبيض الذباب حتى يتهاوى في مكانه من شدّة التعب. لم ترَ ذبابًا ولا بيضًا. حين أمسكت بالورقة التي تغلف السجق، رأت دودة ممتلئة، تتلوّى ببطء. شعرت "أوليدا" بطعم قيء في فمها، لكنها واصلت عملها في تقطيع السجق إلى شرائح، ووضعها داخل ساندويتش الفتاة. أحسّت بوخزٍ في أطراف أصابعها.

دخلت الفتاة المطبخ. بدت أصغر عمراً بكثيرٍ في قميص النوم القطني.

- الأمر الذي لا أفهمه، هو كيف يمكن لفتاةٍ مثلكِ معرفة اللغة الإستونية؟

- وما الغريب في ذلك؟

- لأنكِ لستِ من هنا. لستِ من أي منطقة في إستونيا أصلاً.

- أنا من "فلاديفوستوك".

- وأنتِ هنا الآن.

- نعم.

- شيءٌ عجيب، ومثيرٌ للاهتمام.

- حقًا؟

- نعم، بالنسبة لامرأةٍ عجوزٍ مثلي، على الأقل. لم أسمع أبدًا أن المدارس في

"فلاديفوستوك" تعلّم طلابها الإستونية. يبدو أن الزمن قد تغيّر بالفعل.

أدركت "زارا" أنها تفرك حلمتي أذنها. توقفت بسرعة، ووضعت يديها على حجرها أولاً، ثم على الطاولة بجوار الطماطم. الطماطم الكبيرة في حجم قبضتي يد، أما الصغيرة فلا تتجاوز حجم ملعقة شاي، لكنها جميعاً ناضجة وممتلئة، وقد تشققت جوانب بعضها وبدأت تفرز سوائلها. تذبذب أسلوب "أوليدا"، وتغيّرت تصرفاتها. لم تعرف "زارا" إلى أين ستفضي كلماتها وحركاتها، في نهاية الأمر. جلست "أوليدا"، ثم وقفت، وغسلت يديها. جلست مرّة أخرى. تشاغلّت بالعبث في الأشياء الموجودة على الطاولة، لبعض الوقت، ثم غسلت يديها بالماء نفسه، للمرّة الثانية. جففت أصابعها. تأملت البرطمانات. قرأت قليلاً في كتاب وصفات الطبخ. قطّعت الطماطم وقشّرتها. غسلت يديها من جديد. يبدو أن غسل اليدين باستمرار عادة متأصلة. تحوّل أسلوبها في الحديث، فجأةً، وصارت كل كلمة تنمّ عمّا يشبه الاتهام. حين وضعت الأطباق والسكاكين على الطاولة، ارتفع صوت أدوات المائدة بسخريّة واستهزاء. ارتعدت "زارا" عند كل صوتٍ يصدر منها. عليها أن تُفكّر في شيءٍ تقوله. أن تتصرف كفتاةٍ جيدة. كفتاةٍ يمكن الوثوق بها.

- زوجي هو الذي علّمني.

- زوجك؟

- نعم. إنه من إستونيا.

- آه!

- من "تالين".

- والآن، تريدين الذهاب إلى هناك، لتسهلي عليه مسألة العثور عليك؟

- كلاً!

- لماذا إذًا؟

- عليّ أن أغادر هذا المكان.

- أنا متأكدة من أنه يمكنك العودة إلى روسيا. عبر بلدة "فالجا"، أو من خلال "نارفا".

- لا يمكنني الذهاب إلى هناك! يجب أن أصل إلى "تالين"، وأغادر من ذلك الجانب من

الحدود. زوجي يحتفظ بجواز سفري.

أحنت "أوليدا" جسدها باتجاه زجاجة بها خلطة دواء القلب. استقبلتها رائحة الثوم. تناولت ملعقة ثم أعادته إلى الثلاجة. عليها أن تصنع لنفسها مزيداً من هذا الدواء. أقوى قليلاً ربما، هذه المرة. يمكنها إضافة مزيد من الثوم. تشعر بالوهن والضعف. أحسّت بأن المقص الذي تحمله في يدها ثقيلٌ جداً. أضافت شرائح البصل إلى قطع البطاطس. تشعر بضعفٍ في فكّيها وأسنانها. حتى مضغ الخبز، صار صعباً. الفتاة تنظر حولها بشيءٍ من البلادة. أخرجت "أوليدا" خياراً مخللة، وأزالت طرفيها، ثم قطعتها إلى شرائح. وضعت الشرائح في فمها، واحدةً تلو الأخرى. انسابت عصارات المخلل في حلقها، واستعاد صوتها مرونته.

- لا بد أن زوجك نوعٌ خاصٌ من الرجال.

- نعم. إنه كذلك.

- لأنني لم أسمع أبداً عن رجل إستوني يذهب إلى "فلاديفوستوك"، ليختار زوجةً من

هناك، ويعلمها لغته. لقد تغيّر العالم، بكل تأكيد!

- "باشا" روسي من أصل إستوني.

- "باشا"! حسناً، هذا لا يقلل من غرابة الأمر. لم أسمع أبداً عن رجل روسي،

من أصل إستوني، يذهب إلى "فلاديفوستوك" ليختار زوجةً من هناك، ويعلمها

اللغة الإستونية. هل هذا ما حدث؟ لأن ما يحدث عادةً، هو أن الروس

ذوي الأصول الإستونية يتحدثون الروسية؛ وزوجاتهم يتحدثن الروسية، مثلهم تمامًا. تتناثر الكلمات الروسية من أفواههن، كقشور بذور عبّاد الشمس.

- "باشا" نوعٌ مختلفٌ من الرجال.

- نعم، بطبيعة الحال! ألسِتِ فتاةً محظوظة؟ لمَ ذهبِ إلى "فلاديفوستوك" بحثًا عن

زوجة؟

- لديه وظيفة هناك.

- وظيفة؟

- نعم، وظيفة!

- أعني أن ما يحدث عادةً هو أنهم هم من يأتون من روسيا إلى هنا، بحثًا عن عمل،

وليس العكس. المسألة إذًا في الأساس مسألة عمل؟

- "باشا" نوعٌ مختلفٌ من الرجال.

- يبدو كأمرٍ حقيقي، كما يَهَيِّأُ إليّ! وقد اصطحبكِ في إجازةٍ إلى كندا.

- الواقع هو أننا تقاربنا بطريقةٍ وثيقةٍ في كندا. كنتُ قد سافرتُ للعملِ نادلةً، كما

أخبرتكِ سابقًا، والتقيتُ هناك بشخصٍ أعرفه، هو "باشا".

- ثم تزوّجتِما، وقال لكِ بأنكِ لستِ بحاجةٍ لمواصلةِ عملكِ كنادلة.

- شيءٌ من هذا القبيل.

- يمكنكِ كتابةِ روايةٍ عن حكايتكِ الرائعة.

- حقًا؟

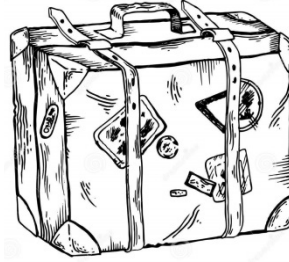
- كل هذا الدّلال والعناية، والإجازات، والسيارات. كثير من الفتيات كن سيخترن البقاء

هنا، لو امتلكن رجلًا كهذا.

1991

"فلاديفوستوك" - الاتحاد الفيدرالي الروسي

### حقيبة سفر الجدة



خبأت "زارا" الهدايا التي جلبتها "أوكسانكا" في حقيبة السفر ووضعتها في دولاب الملابس؛ لأنها لم تستطع تخمين رد فعل أمها تجاه المسألة بأكملها. لم تشكّل الجدة مصدر قلق لها، فقد كانت تعلم بأنها لن تحكي للأم ما قالته "أوكسانكا". لكن "زارا" مضطرة لإخبار والدتها بشأن الزيارة، على الأقل، لأن النساء في المبنى السكني سيثرثن حولها لبعض الوقت. سيرغبن في معرفة الأشياء التي أحضرتها صديقتها، وسيتعين عليها إعطاء كل واحدة منهن رشفة من الجين. ستسعد أمها، على الأرجح، بالهدايا، ولكن هل ستفرح بموضوع حصول "زارا" على وظيفة في ألمانيا؟ هل ستلين قليلاً إن أوضحت لها "زارا" عدد الدولارات التي ستتمكن من إرسالها لها؟ ماذا لو كان المبلغ كبيراً حقاً؟ عليها أن تستفسر من "أوكسانكا" في الغد عن حجم المبلغ الذي ستجازف



وتمنح أمها وعدًا بإرساله. عليها أن تتأكد من بعض الأمور الأخرى كذلك؛ مثل هل سيكون بإمكانها الادخار لخمس سنوات، بحيث تتمكن من دفع تلك النقود لإتمام دراستها الجامعية؟ وهل يمكن فعل ذلك مع إرسال مصروفٍ لأمها وجدتها؟ ماذا لو عملت لفترة وجيزة فقط؟ ستة أشهر مثلًا؛ هل ستستطيع توفير مبلغ جيد؟

دست "زارا" الجوارب في الحقيبة. لو رأت أمها تلك الجوارب، فسوف تسارع ببيعها، قائلةً إن "زارا" لا تحتاج إليها.

توقفت الجدة عن النظر للسماء، للحظات، وسألت:

- ما هذا؟

رفعت "زارا" العبوة الشبيهة بظرف بلاستيكي شفاف. بداخله صورة ملونة، لامعة، لامرأة ذات ساقين طويلتين، وأسنان ناصعة البياض. في جانبٍ من الصورة، فتحةٌ مستطيلة صغيرة، تتيح رؤية الجوارب اللامع. تناولت الجدة العبوة، وقلبتُها بين يديها. أرادت "زارا" أن تفتحها، لترى الجوارب، لكن الجدة منعتها. ما جدوى ذلك؟ ستسأل الخيوط، بالغة الرقة، بين أصابعها الخشنة. أضافت:

- خبئها جيدًا.

قالت أيضًا إن الجوارب الحريرية كانت بمثابة عملة صعبة، في شبابها.

عادت "زارا" إلى الدولاب. قرّرت أن تضع الجوارب وبقية الهدايا في قاع حقيبة السفر. جرّت الحقيبة ووضعتها على الأرض، ثم بدأت في تفريغها من محتوياتها. لطالما احتفظن بحقائب سفر مجهزة للمغادرة، داخل دولاب الملابس. واحدة للأم، والثانية للجدة، والثالثة لـ"زارا". كانتا تقولان إنها نوعٌ من الاستعداد، في حال نشوب حريق. في بعض الأحيان، كانت الجدة تتأكد من محتوياتها، ليلاً، وتعيد ترتيب ما فيها. في عددٍ من المرات، استيقظت "زارا"

على الأصوات المصاحبة لذلك. حين كانت "زارا" أصغر سنًا، اعتادت الجدّة على استبدال ملابسها الموضوعية في الحقيبة، كل فترة، لتلائم جسدها الآخذ في النمو. الأوراق المهمة والوثائق موجودة في الحقيبة أيضًا، ومعها معطف يضم مبلغًا من المال مخبأ داخل ياقته. هناك أدوية كذلك؛ تتغير كل فترة، قبل أن ينتهي تاريخ صلاحيتها. بالإضافة إلى خيوط، وأزرار، ودبابيس وإبر خياطة. بداخل حقيبة الجدّة، يوجد معطف رمادي، مبطن. البطانة يابسة، وتكاد تكون متحجرة. الخياطة التي تغطي سطحه، حفاظًا على البطانة، منتظمة ومستقيمة ودقيقة، بطريقة تتناهي مع مظهره العتيق الخفيف من الخارج.

في طفولتها، لازم "زارا" الاعتقاد أن الجدّة لا تستطيع رؤية شيء سوى السماء اللامعة خارج نافذتها، وأنها لا تلاحظ أيًا مما يحدث في المنزل. لكنها أدركت أن ذلك غير صحيح حين سقطت حقيبة الجدّة في إحدى المرّات من أعلى رفّ الدولاب، وارتطمت بالأرض، وقد تكسّرت أفعالها. في تلك اللحظة، التفتت الجدّة نحو الدولاب، بحركة سريعة مفاجئة، كما لو كانت في مُقتبل العُمر، وفغرت فمها في ذهول، كبرطمانٍ دون غطاء. المعطف المبطن، والذي لم يكن قد سبق لـ"زارا" رؤيته من قبل، سقط منتفخًا، كمنطاد يهبط على الأرض. بقيت الجدّة في مقعدها المعتاد، لكن عينيها كانتا مُثبّتين على "زارا". اخترقتها نظرات الجدّة، لدرجةٍ أشعرتها بحرجٍ غير مفهوم. حرجٌ شديد، يختلف عمّا تحسُّ به عندما تتعثر وتسقط، أو عندما تتلعثم في الإجابة عن سؤال في المدرسة.

- أعيدتها مكانها.

حين عادت الأم، كانت الجدّة قد أغلقت الحقيبة بإحكام. لم تنجح في إصلاح الأقفال المكسورة. أعطتها لـ"زارا"؛ لتلعب بها، فصنعت منها أقرًاطًا لدُميتها. كان ذلك الموقف حدثًا فاصلاً في طفولة "زارا"، على الرغم من أنها - حتى بعد مرور أعوام - لم تفهم ما حدث بالضبط، لكن علاقتها بجدها توطدت أكثر، منذ ذلك اليوم، وصار لهما حكاياتهما الخاصة. بدأت الجدّة تستعين بحفيدتها عند

حفظ وتعليب الأطعمة، في المواسم المختلفة. ونظرًا لانشغال الأم بعملها، لم يكن بإمكانها الاهتمام بالخضراوات المزروعة، أو ريّها. تولت "زارا" والجدة مسألة العناية بالنباتات. أثناء ذلك، كانت الجدة تقصّ عليها حكايات البلد الآخر، مستخدمةً تلك اللغة الأخرى. سمعت "زارا" تلك اللغة، للمرة الأولى، حين استيقظت مرّةً في منتصف الليل، ووجدت جدتها تتحدّث إلى نفسها بجوار النافذة. أيقظت أمها وهي تهمس لها بأن الجدة ليست على ما يُرام. أزاحت الأم البطانية من على جسدها، ودسّت قدميها في الشبشب. أعادت رأس "زارا" على الوسادة، دون أن تقول شيئًا. استسلمت "زارا" في طاعة. حين تحدّثت أمها، كان صوتها غريبًا. أجابتها الجدة بكلمات أغرب. استلقت الحقائق الثلاث على الأرض، وكانت مفتوحةً. لمست الأم يد الجدة، ومسحت بأصابعها على جبينها، ثم أعطتها كوبًا من الماء مع قرص من مُهدئ "فاليدول". تناولتهما الجدة، وهي تتحاشى النظر لها. كان ذلك أمرًا اعتياديًا. الجدة لا تنظر لأحد مباشرة. أغلقت الأم الحقائق، وأعدت وضعها داخل الدولاب. عادت للجدة، ووضعت يدها على جبينها من جديد. بقيتا معًا، تجلسان متجاورتين وتحدّقان في الظلام.

في اليوم التالي، سألت "زارا" أمها عمّا كانت تقوله ليلاً، وبأي لغة تحدّثت مع الجدة. حاولت الأم التهرّب من الإجابة، وتشاغلت بإعداد الشاي والخبز، لكن "زارا" واصلت أسئلتها بإلحاح. قالت الأم، أخيرًا، إن الجدة تتحدّث الإستونية، وأنها كانت تردد كلمات أغنية إستونية. أضافت أن الجدة بدأت تعاني شيئًا من الخرف. أخبرت ابنتها بأن الأغنية تدعى "إيما سودا". حرصت "زارا" على أن تحفظ اسمها جيدًا، وحين غادرت الأم المنزل، ذهبت إلى جدّتها، ونطقت باسم الأغنية. نظرت الجدة إليها. نظرة طويلة، وصريحة، للمرة الأولى. أحسّت "زارا" بأن النظرة تضغط على كل جزء منها.. على عينيها وشفتيها وحلقها. أحسّت بألمٍ في حلقها. انتقلت الجدة بنظراتها إلى قلبها. شعرت بتسارع مرهق في نبضاتها. نظرت الجدة إلى بطنها، فانقبضت معدتها. نظرت إلى ساقها، فأحسّت فيهما بوهنٍ امتد إلى قدميها، واستحال إلى شعورٍ بالتنميل.

شعرت بحرارتها ترتفع. ابتسمت الجَدَّة. كانت تلك الابتسامة هي لعبتهما المشتركة الأولى، التي أینعت براعم كلمات. كلمة تلو الأخرى. تحوَّلت البراعم إلى أزهار ذابلة، مصفرة - كما يحدث عادةً عند إعادة إحياء اللغات الميتة - احتكت بتلاتها ببعضها، بحفيفٍ مسموع، يشبه هسهسة إبرة الـ"جراموفون" على سطح الإسطوانات. كلماتٌ غير واضحة، كأصواتٍ من تحت الماء. بهدوء، وبهمس، كبرت لغتهما. كانت سرَّهما المشترك، ولعبتهما المفضَّلة. بينما تؤدِّي الأم الأعمال المنزلية، تجلس الجَدَّة في مقعدها المعتاد. تشير "زارا" إلى ألعابها، وإلى الأشياء حولها. تُعدِّد الجَدَّة أسماءها بالإستونية، بحركاتٍ صامتة من شفيتها. تتعمَّد الجَدَّة ذكر كلمة خاطئة، بين الحين والآخر، لتختبر إلمام حفيدتها باللغة الإستونية. إن لاحظت ذلك، واستطاعت معرفة الكلمة الصحيحة، تمنحها الجَدَّة قطعًا من الحلوى. تنزعج الأم من إعطاء الجَدَّة الحلويات للطفلة، دون سبب - أو هذا ما كانت تظنه - لكنها لا تقول شيئًا، وتكتفي بزفرة ضيق مسموعة. تستمتع "زارا" بالكلمات الجديدة، وبالمذاق الحلو في فمها، وبالقصص الشهية التي تحكيها الجَدَّة عن مقهى يقع في مكانٍ ما هناك. مقهى يُقدِّم فطيرة الـ"راوند" المغطاة بطبقة كثيفة من الكريمة. مقهى يشتهر بالفطائر المحشوة بالشوكولاتة، التي تذوب في الفم. مكانٌ يفوح في حديقته أريج الياسمين. مكانٌ تتردَّد في جنباته خشخشة أوراق الصُّحف الألمانية والإستونية والروسية. رواده يزينون الـ"كرافتات" بمشابك لامعة، ويضعون في عُرى أكمام قمصانهم أزرارًا معدنيةً أنيقة. سيدات ترتدين أجمل القُبَّعات. من مكانك هناك، يمكنك أن ترى المصورين وهم يلتقطون صورًا فوتوغرافية لفتيان مُتأنِّقين، يرتدون ملابس داكنة؛ وأن تلمح الأدخنة المتصاعدة من كاميراتهم. حكاياتٌ أخرى عن النزهة على الشاطئ، وحفلات الموسيقى يوم الأحد. رشقات ماء الصودا البارد، في الحدائق. حكاية "شبح الأميرة"، الذي يجوب الشوارع ليلاً في "كولوفير". مربِّي التوت على شرائح

الخبز الفرنسي، أمام المدفأة في ليالي الشتاء، ومعها كوب من الحليب البارد. عصير التوت البري الأحمر.

أعدت "زارا" ترتيب حقيبتها، من جديد. وضعت كل شيء فوق كتيبات إعلانات الفنادق وعبوة الجوارب. أغلقت الحقيبة، ووضعتها في الدولاب ثانيةً. واصلت الجدة النظر إلى السماء. في الشتاء، ليس بإمكانك تغطية النافذة ببطانية، على الرغم من الهواء القارس الذي يتسرّب منها. فشلت المحاولات المتكررة لسدّ الفتحة في النافذة. يجب أن تظل الجدة قادرةً على مشاهدة السماء في أي وقت، حتى خلال ساعات الليل الحالك الظلام، الذي لا يوجد فيه ما يرى. تقول إنها السماء ذاتها التي تُغطّي وطنها، وإن نجوم "مجموعة الدب الأكبر" هي نفسها التي تُزيّن سماء بلدها، وإن كانت أقلّ بريقًا هنا بعض الشيء، ويتعيّن عليك البحث عنها مُطوّلاً. من السهل أن ترسم الابتسامة على شفطي الجدة. الجدة. يكفي أن تشير "زارا" إلى تلك المجموعة من النجوم، وتنطق كلمتين اثنتين: "الدب الأكبر". في طفولتها، لم تكن "زارا" تفهم ما تقوله الجدة في هذا الشأن، لكنها استوعبت لاحقاً أنها تتحدّث في الأساس عن إستونيا. لقد وُلدت هناك. تمامًا مثل أم "زارا". ثم جاءت الحرب، وأعقبتها المجاعة. أخذت الحرب الجِدَّ، وبات عليهم الهروب من الألمان. أتوا إلى "فلاديفوستوك". وجدوا عملاً هنا، ومزيداً من الطعام أيضاً، فقرّروا البقاء.

سألت "زارا" جدّتها:

- هل من الخطأ أن أسافر إلى ألمانيا للعمل؟

لم تلتفت الجدة نحوها، لكنها قالت:

- عليك أن تسألي أمك.

- لكنها لن تقول شيئاً. إنها لا تقول شيئاً أبداً. إن أرادت أن أذهب، فلن تقول شيئاً.

وإن لم تردني أن أذهب، فلن تقول شيئاً كذلك.

- أمك من النوع الهادئ. كلماتها قليلة.

- بل كلماتها مُعْدَمَة.

قالت الجَدَّة، بنبرة عتاب:

- كفى!

- لا أظن أنها تهتم إن بقيتُ هنا، أو رحلتُ إلى مكانٍ آخر.

- هذا غير صحيح.

- لا تدافع عنها!

شربت "زارا" الشاي بغضبٍ وِحْدَة. شَرِقت بالشاي، وأخذت تسعل بقوة، إلى أن دمعت عيناها. سوف ترحل. على الأقل، ستبتعد عن صوت احتكاك حُفِّي أمها بالأرض. جميع الأمهات شهدن انفجارات قنابل في طفولتهنَّ، لكنهنَّ يتكلمن، رغم ما تقوله الجَدَّة من أن القنابل في بعض الأحيان تخيف الصغار لدرجة الحَرَس. لماذا ينبغي على أمها هي تحديداً أن تُصاب بصدمةٍ شديدةٍ جرَّاء انفجارات القنابل؟ سوف ترحل "زارا". سوف ترسل لجَدَّتْها كميات هائلة من المال، وربما جهاز "تليسكوب" أيضاً. ستعود بحقيبة سفر كبيرة مليئة بالدولارات، وستقوم بدفع مصاريف دراستها الجامعية، وستصبح طبيبة في وقتٍ قياسي، وستشتري شقة جيدة لهنَّ الثلاث. ستكون لها غرفتها الخاصة، حيث يمكنها أن تدرس بهدوء استعداداً لامتحاناتها. ستختار تسريحة شعرٍ عصرية، على الطريقة الغربية، وستلبس جوارب لامعة كل يوم. ستتمكَّن جَدَّتُها من رؤية "الدب الأكبر" بوضوح، من خلال الـ"تليسكوب".

1992

"لانيما" - إستونيا

## الخُطَّة العاجلة ونصب الفخ



تسرَّبت رائحة خنزير مسلوقة من المطبخ، فأيقظت "زارا" من نومها. للوهلة الأولى، اعتقدت أنها في "فلاديفوستوك"، بسبب الصوت المألوف لغطاء الحلَّة وهو يرتفع ويهبط مع أبخرة الماء المغلي، والرائحة الحميمية المألوفة للغضاريف المطبوخة، التي جعلت لُعبها يسيل؛ ثم وخزها الطرف الحاد لريشةٍ من ريش الوسادة، في خدِّها. فتَّحت عينيها فشاهدت سجادة صوفية لا تعرفها على الجدار. إنها في منزل "أوليدا ترو". ورق الحائط مُنتفخ في بعض المواقع، بفعل الرطوبة، والأطراف مائلة وغير مستقيمة. تعلق بيت عنكبوت بين السجادة وورق الحائط، وقد تدلَّت منه ذبابة ميتة. أزاحت "زارا" طرف السجادة بإصبعها، فسارعت العنكبوت بالاختباء تحتها. كانت على وشك الضغط بيدها على السجادة، حين تذكَّرت بأنها إن قتلت عنكبوتًا فإن وفاة الأم تصبح وشيكة. لمست السجادة براحة يدها. أحسَّت بخفَّة رأسها وجسدها. أعجبها ملمس قميص النوم القطني

على بشرتها النظيفة. كانت "أوليدا" قد ألبستها جوارب منقوعة في الكحول، لتمتص البرد من جسمها. في أول الأمر، كانت الجوارب باردة ومزعجة، لكنها صارت دافئة الآن. تشممت رائحة الصابون التي لا تزال تنبعث من مسامها. ابتسمت "زارا". تسلّت أشعة الشمس من فتحة ضيقة بين جانبي الستارة. تأملت الستارة.. تمامًا كما توقّعتها.

كانت قد نامت على أريكة الغرفة الأمامية. الحجرة الخلفية ممتلئة بالنباتات المعدّة للتجفيف والتخزين، حتى لم يبقَ فيها موضع يمكن النوم فيه. الأرض والسريّر والرفوف والطاولات، جميعها مغطّاة بأوراق صُفِّف ووضعت عليها أزهار "الأقحوان"، وأعشاب دَيل الخيل، والنعناع، و"الأخيليا"، والكرابية. أمّا على الجدران، فقد تدلّت أكياسٌ عديدة تضم شرائح التفاح، والخبز الأسمر. على الطاولة الصغيرة المواجهة للنافذة، زجاجات صغيرة تضم تركيبات علاجية، تُركت هناك لتتعرض لأشعة الشمس باستمرار. أشاحت "زارا" ببصرها، فور أن لمحت الحشرات التي غزت أحد البرطمانات. الهواء في تلك الحجرة مُشبع برائحة الأعشاب الثقيلة. لم تكن تستطيع النوم هناك. هيأت "أوليدا" لنفسها مكانًا للنوم، أمام باب تلك الحجرة. أزالته بحرص شديد بعض الصُحف بما عليها من نباتات، وأفسحت لنفسها مساحةً صغيرةً على الأرض. اقترحت "زارا" أن تنام هي على الأرض، لكن "أوليدا" رفضت ذلك. يبدو أنها خافت أن تتكسر أعشابها المُجفّفة تحت جسد "زارا"، إذا ما تقلّبت في نومها. لهذه الحجرة رائحة أدوية أيضًا، لكنها ليست قوية. وبها مجموعة من خلايا النحل، وبضعة برطمانات زجاجية. بجوار المدفأة ربطة بها كمية كبيرة من رؤوس الثوم. إلى جانب الراديو العتيق، كبير الحجم، تناثرت مخدّات قديمة. اصفرّ لون أغطيتها المصنوعة من الدانتيل الأبيض، لكنها - مع ذلك - أضاءت الغرفة الكئيبة. كانت "زارا" قد اختلست النظر إليها قبل أن تنام، ولاحظت أن نقوش الدانتيل في كل واحدة منها، تختلف في تصميمها عن الأخرى.



باب المطبخ، الذي يُطهى فيه الخنزير، مُغلق. لكن صوت الراديو الآتي من داخله مرتفع، وتمكّنت من سماعه بوضوح. تناول البرنامج مرور سنة كاملة على انهيار برج الإذاعة في مدينة "وارسو"، الذي كان يُعدُّ أضخم مبنى على الإطلاق، لارتفاعه إلى 629 متراً. قفزت "زارا" من السرير، وقد تسارعت دقّات قلبها:

- "أوليدا"؟

أطلت "زارا" من النافذة، وهي تتوقّع رؤية "فولجا" سوداء، أو سيارة "بي إم دبليو". وجدت أن الساحة الممتدة أمام البيت خاوية تماماً. أنصتت جيداً، لكن الصوت الوحيد الذي وصل إليها هو الاندفاع المتوتر لدمها داخل جسدها، بالإضافة إلى مزيج متداخل من أصوات الراديو، والحركة المتتابعة لعقارب الساعة، وأنين خشب الأرضية تحت قدميها وهي تسير، بخطواتٍ حذرة، باتجاه المطبخ. هل ستجد "باشا" و"لافرينتي" جالسين هناك، يشربان الشاي بهدوء؟ هل ينتظرانها هناك؟ أليس من طبعهما مفاجأتها على هذا النحو؟ ينتظران أن تستيقظ من تلقاء نفسها، وأن تدخل المطبخ دون أن يُساورها الشك في أي شيء؟ ذلك جزءٌ من خططهما الجهنمية المعتادة. سيكونان مُستندين إلى زوايا طاولة المطبخ، بتكبُّرٍ وغرور، يدخانان السجائر، ويتصفحان الجرائد. سيبتسمان ما إن تدخل "زارا" المطبخ. سيجبران "أوليدا" على الجلوس بينهما في هدوء وصمت. العينان الغائمتان تتسعان في خوف. الواقع أن الصورة الأخيرة مستبعدة. لا يمكنها تخيُّل "أوليدا" في حالة دُعر.

دفعت "زارا" الباب المُغلق بإحكام. أصدر صريراً مرتفعاً. المطبخ خاوٍ. ليس به أي أثر لـ"باشا" أو "لافرينتي". فوق الطاولة كتاب وصفات الطهو، وجريدة مفتوحة، وبضع أوراق مالية من الـ"كرون" الإستوني. الخنزير ما زال على النار، تُغطّيه سحابةٌ من البخار. الأرض أمام "الطشت" رطبة.. "الطشت" فارغ. الدلاء ممتلئة حتى حوافها. "أوليدا" غير موجودة. فُتح الباب الخارجي، فحدّقت "زارا" به. هل وصلا؟

دخلت "أوليدا".

- صباح الخير يا "زارا". كنتِ بحاجة ماسّة للنوم، كما أظن.

وضعت دلوًا من الماء على الأرض.

- ما هذا؟ ما الذي فعلته بشعرك؟

جلست "زارا" إلى الطاولة. فركت رأسها بيديها. انهمرت شعيرات حادّة وقصيرة على

رقبتها.

كان المقص بجوار السُّكّرية. أمسكت به، وبدأت تقصُّ أظفارها. تساقطت أجزاء هلالية

مُبفّعة بالأحمر على المفرش البلاستيكي.

- كان بإمكاننا التفكير في شيء يساعد على صبغ شعرك. نبتة الـ"راوند" مثلًا. كانت

ستضفي اللون الأحمر على خصلاتك.

- لا يهم.

- حسنًا. توقّفي عن قصِّ أظفاركِ. لديّ مبرد في مكانٍ ما. يمكننا بردها بطريقة مُتناسقة.

- كلاً.

- "زارا".. لن يفكّر زوجك بالبحث عنكِ هنا. لم سيفعل ذلك؟ قد تكونين في أي مكان.

اشربي بعض القهوة، واهدي. لقد طحنتُ البن هذا الصباح.

صبّت لـ"زارا" فنجانًا من إبريق القهوة، ثم انتشلت الخنزير من الماء بالمصفاة، وهي

تختلس النظر إلى "زارا"، التي واصلت قصِّ أظفارها. حين انتهت، أخذت تعبث بالمعلقة في

حببيات السكر الكبيرة نسبيًا، بلونها المائل للأصفر. أحسّت بأن أطراف أصابعها عارية ونظيفة.

امتزج الهمس الصادر عن حببيات السكر بالأزيز الرتيب المنبعث من الثلاجة. هل ينبغي

عليها الالتزام بمظهر هادئ ومتماسك، قدر الإمكان، أم مصارحة "أوليدا" بحقيقة "باشا"

وأى نوعٍ من الرجال هو؟ أي هاتين الطريقتين ستجعل "أوليدا" حريصةً على مساعدتها؟  
ربما يتعيّن عليها تناسي "باشا" لبعض الوقت، والتركيز على "أوليدا" فقط؟ عليها في كل  
الأحوال أن تُفكّر بهدوء ووضوح.

- دائماً ما يجدونك في النهاية.

- من هُم؟

- أقصد زوجي.

- إذًا، هي ليست المرة الأولى التي تهربين فيها منه؟

توقّفت "زارا" عن العبث بالسكر.

- لست مُلزِمةً بالرد.

أحضرت "أوليدا" سلطانية من الخنزير إلى الطاولة.

- عليّ أن أقول إنك اختيارٌ غير مُوفّق لتكويني طُعمًا.

- لأكون ماذا؟

- لا تتصنعي الغباء يا صغيرتي. طُعم. الفتاة الجميلة التي يتم إرسالها إلى البيوت

والمساكن لمُعانة ما فيها، ومعرفة إن كان بها أشياء ثمينة. عادةً، يجعلونهن يستلقين في

منتصف الطريق، ليبدون كمصابات أو جريحات، حتى يجبرن السيارات على التوقّف..

وبعدها.. بوم! تختفي السيارة عن أعين أصحابها في لمح البصر!

أضافت "أوليدا":

- على كل حال، ربما كان عليكِ عدم المجيء الآن، والانتظار إلى أن تأتي ابنتي وترحل.

توقّفت "أوليدا" عن الكلام، وبدأت تملأ الأطباق بالطعام، وهي تنظر إلى

"زارا" بفتور، بين اللحظة والأخرى. كان من الواضح أنها بانتظار أن تقول "زارا"

شيئًا. هل هناك فخ في عبارات "أوليدا"؟ فكّرت "زارا" قليلًا في كلمات "أوليدا"، لكنها لم تجد فيها شيئًا غير طبيعي. قرّرت أن تسألها سؤالًا عاديًا وبسيطًا:

- ولمَ ذلك؟

لم تُجِبها "أوليدا" على الفور. من الواضح أنها كانت تتوقَّع سؤالًا مُختلفًا.

- عقب رحيلها، يتوافد عليّ عديد من الزوّار من أهل القرية. كلهم يرغبون في رؤية ما أحضرته "تالفي" لي. لكنني أخبئ أغلب ما تجلبه داخل علب الحليب المعدنية. أريهم فقط بعض الأشياء البسيطة، مثل عبوات القهوة. على كل حال، علب الحليب فارغة الآن. ليس بها شيء سوى بعض المكرونة والدقيق. إنهم بانتظار زيارة ابنتي. سوف تأتي لتُدلّل أمها العجوز.

واصلت "زارا" العبث بمُحتويات السُّكرية، بالمعلقة. تحوّل السكر إلى كتلة عديمة الشكل. استغرقت في تفكير عميق، محاولةً فهم ما ترمي "أوليدا" إليه.

- لقد طلبتُ منها أن تجلب لي مُختلف الأشياء.

فجأةً، انتبهت "زارا" إلى أمرٍ مهم. السيارة! هل ستأتي ابنة "أوليدا" في سيارة؟

- سوف تأتي بسيارتها. وعدتُ بإحضار تليفزيون جديد لي، بدلًا من ذلك القديم ماركة "ريكورد". ما رأيك؟ أليس من المُذهل أنه صار بالإمكان جلب الأجهزة الكهربائية عبر الحدود، هكذا؟ بمنتهى البساطة؟

التقطت "زارا" قطعة من الخنزير من السُّلطانية. أصدرت السكين صريرًا عند احتكاكها بالطبق. اخترقت الشوكة الخنزير المطبوخ، ببطء. لم تتمكّن من قطعه بسهولة. كادت الشوكة والسكين تفلتان من بين أصابعها. أمسكتهما بقوة. عليها أن تخفف من قبضتها، حتى لا تلاحظ "أوليدا" ارتباكها وارتعاش يديها. عليها أن لا تُظهر حماسها الزائد. ستتناول طعامها وتتبادل معها الحديث بشكلٍ طبيعي. المضغ سيجعل صوتها ثابتًا ومرتزًا. سألتها عن المكان

الذي ستتجه إليه "تالفي" عقب انتهاء زيارتها. هل ستذهب إلى "تالين" مباشرة؟ بإمكانها أن تذهب إلى أقرب بلدة، ولكن ما أقرب بلدة لهذا المكان؟ ليس باستطاعتها ركوب باص أو قطار؛ لأن "باشا" سيعرف ذلك على الفور، وكذلك الميليشيا. صحّحت لها "أوليدا" معلوماتها، وقالت إن الميليشيا صارت تُدعى بـ"الشُرطة" هذه الأيام؛ لكن "زارا" لم تهتم بذلك وواصلت حديثها. قالت إن "أوليدا" تفهم ولا شك أن عليها الوصول إلى "تالين" في سرّية تامة. لو رآها أحد، فسوف تنتهي رحلتها في التوّ واللحظة.

ط كل ما أريده هو أن يوصلني أحد إلى "تالين". لا أكثر من ذلك.

قطّبت "أوليدا" حاجبيها. تلك إشارة سيئة، ولكن لم يعد بإمكان "زارا" التوقّف الآن. ارتفع صوتها قليلاً، وتسارعت عباراتها. ضاعت منها بعض الكلمات، فعادت لتقولها في غير مكانها. سيارة! من يصدق؟ "تالفي" لديها سيارة. سوف يحل ذلك جميع مشكلاتها. متى ستأتي؟

- قريباً.

- متى تحديداً؟

- خلال اليومين المقبلين، ربما.

إذا لم يأتِ "باشا" قبلها، فسوف يكون بإمكانها الهروب إلى "تالين"، بمساعدة "تالفي". لن تفكّر الآن فيما ستفعله بعدها، وكيف تصل من "تالين" إلى "فنلندا". قد تجرّب الاختباء في شاحنة داخل الميناء، أو شيء من ذلك القبيل. كيف يرتب "باشا" مسألة تسلل الناس عبر الحدود؟ إنهم يفتحون الصناديق الخلفية للسيارات على الحدود. إنها تعرف ذلك. عليها ركوب شاحنة. شاحنة فنلندية. الفنلنديون يعبرون الحدود بسهولة أكبر. ليس بإمكانها الحصول على جواز سفر، إلا إذا سرقت واحداً من امرأة فنلندية تقاربها في السّن. تلك مجازفة كبيرة. ليس في استطاعتها فعل ذلك بمفردها. عليها أولاً، وقبل كل شيء،

الوصول إلى "تالين". يجب أن تكسب "أوليدا" إلى صفها. كيف تفعل ذلك؟ كيف تزيل تجاعيد القلق والارتياح عن وجه "أوليدا"؟ عليها أن تهدأ، وأن تنسى أمر "تالفي" وسيارتها، بعض الوقت، حتى لا تثير توتر "أوليدا"، بحماسها الزائد. تسارعت الاحتمالات المختلفة داخل رأسها. ليس بمقدورها السيطرة عليها، وليس باستطاعتها أن تفكر بهدوءٍ وروية. أحسَّت بألمٍ في رأسها. عليها أن تتنفس بعمق، وأن تُحسن التصرف على النحو الذي يُعجب كبار السن. ستحاول أن تكون لطيفة ومهذبة وخدمية.. لكن ملامح وجهها وأسلوبها يشيران بوضوح إلى كونها عاهرة. ربما خُفِّفَ قَصُّ شعرها من ذلك الانطباع بعض الشيء.

اللعنة! لا فائدة!

رُكِّت "زارا" نظراتها على فنجان قهوة "أوليدا". إن قامت بالتركيز على شيءٍ واحد، فسوف تستطيع الإجابة عن أي سؤال، بشكلٍ أفضل. بورسلين الفنجان، الآخذ في الاصفرار، تملؤه شقوقٌ متداخلة، سوداء اللون، كشبكة عنكبوت. حواف الفنجان الشفافة، ذُكِّرتُها بالبشرة النضرة للشباب، على الرغم من قِدَمِ الفنجان الواضح. الفنجان غير عميق، وجميل الشكل. جماله الراقى يؤكد انتماءه لعالمٍ آخر يختلف تمام الاختلاف عن بقية الأشياء الموجودة داخل المطبخ. عالمٌ منقرض. لم ترَ "زارا" في دولاب المطبخ أطباقًا تشبهه، ويمكن أن تكون من الطاقم نفسه؛ لكنها لا تعرف - بطبيعة الحال - إن كانت "أوليدا" تمتلك أطباقًا أخرى أم لا. شربت "أوليدا" فيه القهوة، ثم بعض الحليب، وعقب ذلك الماء. حرصت على غسله بالماء، بين كل استخدام وآخر. من المؤكد أنه فنجانها المفضَّل. تمعَّنت "زارا" في شقوقه المتعرجة، في انتظار السؤال التالي.

قَرَّبَت "أوليدا" وعاء الطماطم من "زارا".

- الحصاد جيّدٌ هذا العام.

مشت ذبابة بين حَبَّات الطماطم. مالت "زارا" باتِّجاه السُّلْطانية. هَشَّت "أوليدا" الذبابة بيدها.

- إنها تضع بيضها على اللحوم فقط.

تعاضم إحساس "أوليدا" بالفضول والاهتمام. أرادت أن تفهم من الفتاة سر ولعها بـ"فنلندا"، لكن الأخيرة لم تُبِد اهتمامًا مماثلاً بـ"تالفي"، ولا بموضوع الأجهزة الكهربائية. اكتفت بمضغ الخنزير، قطعةً تلو الأخرى. ارتفع صوت احتكاك سكينها بالطبق، واصطدام قاع فنجانها بسطح الطاولة، ورشقاتها العالية التي غَطَّت على صوت الراديو. خلال كل ذلك، كانت تتحسَّس خصلاتها القصيرة، بين الحين والآخر. كان صدرها يعلو ويهبط ببعض التوتر. السيارة هي التي أثارت حماس الفتاة، وليس التلفزيون الجديد أو غيره من الهدايا. ربما كانت غير مهتمة بهذه الأشياء فعلاً، أو ربما تتمتع بذكاء شيطاني يجعلها تدَّعي ذلك. هل يمكن لبلهاء مثلها أن تكون طُعمًا أو أن تكون لَصَّة؟ باستطاعة "أوليدا" تمييز اللصوص. هذه الفتاة لا تمتلك نظراتهم السريعة. تبدو ككلبٍ حذر ومدعور، يخشى أن يظأ الأطفال على ذيله. ملامحها خائفة، على الدوام، وجسدها منكمشٌ على نفسه. هذا ليس حال اللصوص، ولا حتى أولئك الذين يتعرضون للضرب والتعذيب كي يُجيدوا مهنتهم. ثم إن ذكر الهدايا الفنلندية لم يلفت انتباهها من الأساس. لم تلاحظ "أوليدا" حماسها أو احمرار وجهها في انفعال، ولم تجد بريق الطمع في عينيها، ولا ارتعاش صوتها في حماس. أم لعلها تريد سرقة السيارة؟

على كل حال، لقد قامت "أوليدا" باختبارها. خرجت من المطبخ وتركتها وحيدةً فيه. اختلست النظر إليها عبر النافذة. لكن الفتاة لم تسارع بفتح حقيبة يدها، ولم تنظر إلى الأوراق المالية التي تركتها متعمدةً على الطاولة. لاحقًا، استخدمت تلك النقود لفتح حوارٍ معها. أمسكت بها، وقالت:

- انظري إلى هذه الـ"كرون" القديمة! لم نعد نستخدم الـ"روبل" الروسي. هل تتصوّرين

ذلك؟

ثرثرت لبعض الوقت عن اليوم الذي تغيّرت فيه العُملَة، وعن يوم العشرين من شهر يونيو، ثم أخذت الأوراق المالية ووضعتها في جانبٍ من الدولاب، لكن شيئاً من ذلك لم يُثر انتباه الفتاة. بينما واصلت "أوليدا" ثرثرتها عن انهيار العُملَة، وعن الـ"روبل" الذي تحوّل في يومٍ ويلة إلى ورق تواليت عديم القيمة، ظلت الفتاة تُومئ برأسها في تهذيب، وقد غامت عينها في شروء. لم تُبدِ أي ردّ فعل. فيما بعد، عادت "أوليدا" إلى المطبخ، وقامت بعدّ الأوراق المالية، ووجدتها كما تركتها. لم تلمسها الفتاة. تحدّثت "أوليدا" عن أشجارها وأخشابها القيّمة، لكن ذلك أيضاً لم يُثر انتباه الفتاة على الإطلاق.

ما حدث تحديداً هو أنها حين تركتها، راحت الفتاة تلمس يديها على ذراعيها، ثم أخذت تتأمّل السُكَّرية العتيقة، المصنوعة على الطراز الإستوني القديم، وتمرّ بطرف إصبعها على الشقوق الظاهرة على سطحها. رفعتها بيدها وتمعّنت فيها جيداً. لا يمكن لأي لص أن ينحصر اهتمامه في إناء مكسور. أعادت "أوليدا" المحاولة في الغرفة الأخرى. تركت الفتاة هناك مفردها، وخرجت لجلب بعض الماء من البئر. قبل أن تغادر، فتحت الستارة قليلاً، لتتمكن من متابعة ما يحدث، من الساحة الخارجية للبيت. سارت الفتاة في الحجرة، واتجهت إلى خزانة الملابس، لكنها لم تفتحها. لم تفتح شيئاً، ولا حتى دُرَجاً صغيراً. تحسّست الدولاب براحة يدها، ثم أسندت خدّها على سطحه المصبوغ بالأبيض. استنشقت أزهار القرنفل الوردية الموضوعة على الطاولة. لمست بأطراف أصابعها الورود الحمراء والبنفسجية وأوراق الشجر الخضراء المطرزة على مفرش الطاولة الأسود. تأمّلت قماشه باهتمام، كما لو كانت تتوق لتعلّم التطريز. لو كانت لصةً، فإنها الأسوأ في العالم بأسره.



اتّصلت "أوليدا" بـ"آينو"، قبل استيقاظ الفتاة من نومها، وأبلغتها بأنها تعاني ارتفاعًا في درجة الحرارة، وليست في مزاج يسمح لها بالذهاب لتسلّم عبوة التبرعات من الكنيسة. أخبرتها أيضًا بأن لديها كمية كافية من الحليب، وليست بحاجة للمزيد، وأن بإمكان "آينو" أن تحضره لها في يومٍ آخر. أرادت صديقتها استمرار الحديث. تكلمت عن "كيرستي" التي رأّت ضوءًا غريبًا في الطريق المؤدّي للغابة. كان ذلك طبقًا طائرًا. تعرّضت "كيرستي" لإغماءة دامت نحو ساعة كاملة، على الطريق، لكنها لا تتذكّر إن كان الطبق الطائر قد اصطحبها إلى مكانٍ ما خلال تلك الساعة، أم لا. قاطعتها "أوليدا"، وقالت إنها تشعر بالوهن والضعف، وإنها ترغب في الاستلقاء على فراشها بعض الوقت، ثم وضعت السماعة بسرعة. لديها ما يكفي من الأحداث الغريبة داخل بيتها. عليها أن تتخلّص من هذه الفتاة قبل أن تزورها "آينو"، أو أي شخص آخر من القرية. ما الذي دهاها لتسمح لهذه الفتاة بالمبيت في منزلها؟

تناولت الفتاة طعامها بطريقةٍ مزعجة. احمرّت خدّاهما، فبدا وجهها كتفاحة لامعة. أثار التفكير في السيارة حماسها، ولاح بريقٌ في عينيها. حاولت التخفيف من حماسها الواضح، لكنها فشلت في ذلك. إنها لا تجيد التمثيل، وليس في استطاعتها خداع أحد. وما قصّة الشعر الغريبة هذه؟ هذه الخصلات غير المتساوية، وغير المنتظمة، ستلفت الأنظار إليها أكثر من تسريحتها السابقة.

ذهبت "أوليدا" إلى حجرة المؤون لتحضر بعض المخللات. كريم البشرة الذي تصنعه من أزهار "الأقحوان" لـ"تالفي"، والموضوع أمام برطمانات المخلل، أخذ في الجفاف داخل عبواته. إنه الشيء الوحيد الذي توافق "تالفي" على حمله معها إلى "فنلندا". بشرتها تحب هذا الكريم، وهي لا تجيد صنعه. إنها ترفض أخذ أي نوع من المخللات معها، على الرغم من أنها كانت تحبها حين كانت لا تزال هنا. المقعد الخلفي لسيارتها، يتسع لعددٍ كبيرٍ من البرطمانات، لكنها حين تلاحظ أن أمها وضعت لها واحدًا، تبادر بإخراجه على الفور. هل ترغب الفتاة

التي تجلس في المطبخ في سرقة سيارة "تالفي"؟ أم أنها توذُّ الهرب فقط؟ "أوليدا" ليست متأكدة.

لقد سمعتُ بأن الفنلنديين لا يضعون الفجل الأبيض في مخللاتهم. هذا هو الفرق. عادت إلى الطاولة، وعرضت على الفتاة تناول بعض ما جلبته من أشياء.. شرائح من الخيار المخلل بالشبت والقشطة، أو صلصة الخيار المهروس، أو حبَّات الخيار الكاملة المخللة.

- الحصاد جيد بشكلٍ استثنائي هذه السنة.



لم تستطع "زارا" أن تُقرِّر أي نوعٍ تختار، فبدأت بحبَّات الخيار الكاملة، أعقبها بالقشطة. ارتجفت يدها بشدَّة، فسقطت سلطانية الكريمة. أخافها صوت ارتطام السلطانية بالأرض، فقفزت من مقعدها في دُعر، وهي تُغطِّي أذنيها. ها هي تفسد كل شيء، مرَّةً أخرى. استقرَّت السلطانية، مقلوبةً، بجوار السجادة الصوفية. تناثرت بُقع الكريمة على الأرض الأسمنتية الرمادية. لحسن الحظ، لم تكن مصنوعة من الزجاج. لم تحطم شيئاً هذه المرَّة. لكنها ستفعل حتماً، إن لم تنجح في إيقاف الرعشة التي تهاجم يديها. يجب أن تسيطر عليها. يجب عليها أيضاً إفهام "أوليدا" بأن الوقت ضيق. لم تُظهر "أوليدا" ضيقاً أو تأففاً من "زارا" والفوضى الجديدة التي صنعتها. أحضرت خرقة وبدأت في التنظيف، وهي تحاول تهدئتها بلطفٍ بالغ.. لا بأس، كل شيء على ما يُرام. حاولت "زارا" مساعدتها، لكنها ظلت ترتجف.

- "زارا"، عزيزتي، إنها مجرد سلطانية مخلل. اجلسي مكانك.

كرَّرت "زارا" اعتذارها، وقالت إنه حادث غير مقصود. لم تبدِ "أوليدا" أدنى اهتمام بالأمر، وقاطعت اعتذاراتها بالقول:

- لا بد أن زوجك يمتلك مالاً، إداً؟

عادت "زارا" إلى كرسيها. عليها أن تركّز جهودها في التحدّث إلى "أوليدا" بلطفٍ ولباقة، والحرص على عدم خلق فوضى جديدة في بيتها. كوني فتاةً طيبةً يا "زارا". لا تُفكّرِي. لا يمكنك التفكير الآن، على كل حال. أجيبِي فقط عن الأسئلة. يمكنك التحدّث عن السيارة، في وقتٍ لاحق.

- نعم. لديه مال.

- الكثير؟

- نعم. الكثير.

- ولماذا تعمل زوجة رجل ثري جرسونة؟

ضغطت "زارا" على حلمة أذنها. ليس بها قُرط. مجرد ثقبٍ صغيرٍ غائر. كيف تجيب عن سؤال "أوليدا"؟ إنها غبية، وتفكيرها بطيء. لكنها إن لم تقل شيئاً، فسوف تعتقد "أوليدا" أنها تُخبئُ عنها أمراً مُريعاً. هل يمكنها مواصلة الادّعاء بأنها كانت جرسونة؟ هل ستكون مقنعة، أصلاً؟ تفحصتها "أوليدا" بنظراتها المتمعّنة، فبدأت تشعر بالتوتر من جديد. من المستحيل أن تنجح فيما تفعله. ربما كان "باشا" مُحقّقاً. إنها تستحقّ الجلد فعلاً. لعله لم يخطئ حين قال إنها من النوع الذي لا يُحسن التصرف إلا إن تمّت ملاحقته بالعصا. ربما هي ليست طبيعية. أمرٌ وراثي. ربما هي إنسانة فاشلة. وبينما كانت مستغرقةً في هذه الأفكار المتتابعة، خرجت الكلمات من فمها، دون وعيٍ أو تفكير. حسناً. هي ليست جرسونة! ضغطت على الثقب الفارغ في حلمة أذنها، ثانيةً. امتدت يدها الأخرى لتمسح أسفل رقبتها. بدأ أن رأسها، وفمها، وهي ذاتها، ثلاثة أمور مختلفة. لا يربط بينها شيء. انسابت الحكاية من فمها، ولم يعد بإمكانها إيقافها. قالت لـ"أوليدا" إنهما كانا يمضيان إجازتهما في "كندا". داخل فندق من فئة خمس نجوم. يستقلان سيارة سوداء، طوال النهار. وأن لديها معاطف

فراء مختلفة، واحدًا لكل يومٍ من أيام الأسبوع. للسهرات معاطف، ولساعات النهار أنواعٌ أخرى. بعضها للبيت، وبعضها للخروج.

- أووه! هذا شيءٌ مثيرٌ للغاية، ولا شك!

مسحت "زارا" طرفي فمها، وهي تشعر بحرجٍ بالغ. انتشرت السخونة في وجهها، الذي علتة حُمرة الخجل. فعلت ما اعتادت عليه، كلما لازمها الإحساس بالخزي.. ركّزت نظراتها وأفكارها على شيءٍ آخر. لم تعد ترى "أوليدا"، أو المطبخ، أو آذان الخنزير. اختفى كل شيء. حدّقت في يديها. تأمّلت اللعاب اليابس الذي التصق بطرف إصبعها، عقب مسحها لفمها. إنه كبصقة ثعبان على ورقة توت. حشراتٌ باصقة. فكّرت في الحشرات بعض الوقت. من الجيد دومًا أن تُفكّر في الكائنات والحيوانات الصغيرة، حين ترغب في فصل ذهنك عن جسدك. حشراتٌ صغيرة تختبئ داخل كرة من اللعاب. الكرة تحميها من الأعداء ومن الجفاف معًا. أين سمعت ذلك؟ في المدرسة؟ تذكّرت حفيف صفحات كُتُبها المدرسية، المهْدِيُّ للأعصاب. رائحة الورق والصبغ. استمعت إلى صوت الصفحات في رأسها، للحظات. تماسكت بعض الشيء، وتناست الحشرات، وسمحت لصوت برنامج "راديو راديو" بالتسلّل إلى أذنيها من جديد، لتعود إلى مطبخ "أوليدا"، بأرضيته المتشققة، ومفرش الطاولة البلاستيكي، والملاعق المصنوعة من الألومنيوم. تأمّلت ما حولها. على زاوية الطاولة عبوة من فيتامين "سي"، بزجاجها البني المألوف. أقراص فيتامين مغلفة بالسكر. البيانات مكتوبة بالحروف "الكريالية"، تحت إشراف الجهات الحكومية المختصة. مدّت يدها نحوها. ردّدت في سرّها الكلمات الروسية المدونة على العبوة. أحست ببعض الهدوء. فتحت الغطاء. صوتٌ مألوف. في طفولتها، تناولت محتويات مثل هذه الزجاجاة، بأكملها، عدّة مرّات. طعم البرتقال اللاذع وهو يدور في فمها بسرعة. رائحة الصيدلية. كانوا يجلبونها من الصيدلية. استعادت نبضاتها انتظامها. التفتت نحو "أوليدا" واعتذرت عن الإثارة التي صدرت عنها. قالت

إنها أرادت أن تبدو طبيعية وعادية. لا ترغب في أن تجدها "أوليدا" زائفة ومُدَّعية.

ضحكت "أوليدا".

- ضيفتي الشائبة لا ترغب في أن تبدو لصة.

- ربما.

- ولا كزوجة رجل مافيا.

- ربما.

لم تعلق "أوليدا" بشيء في هذه المسألة، ولم تسأل "زارا" عن السبب الذي يمنعها من العودة إلى روسيا، أو إلى منزلها.

دقت الساعة. أصدرت النار حسيبًا في المدفأة. أحسَّت "زارا" بجفافٍ في حلقها. لسانها يابس. الشقوق في الأرضية الأسمنتية لم تعد واضحة في عينيها.. أحسَّت بأنها تتحرك قليلًا.

قالت "أوليدا" في النهاية:

- هذا كل شيء إذاً.

غادرت مقعدها وهي تحمل المنشئة، وتضرب بها حشرتين طائرتين تدوران قريبًا من المصباح، ثم انهمكت في غلي برطماناتها الزجاجية على النار.

- تعالي، وساعديني. أظن أن الجوارب المنقوعة في الكحول قد قامت بدورها. تبدين بصحة جيدة، ولم تصابي بالبرد. سوف أبحث لك عن "إيشارب"، بعد لحظات، لتُغَطِّي به رأسك.

1991

برلين - ألمانيا

التُّورة الحمراء



لمح ضوءٌ عبر ثقب المفتاح في الباب. استيقظت "زارا" على مرتبة بجوار الباب. سال الصديق من حلمة أذنها المتقيحة. بإمكانها شم رائحته. أمسكت بزجاجة البيرة الموضوعة على الأرض. فوهة الزجاج لزجة. عندما انساب المشروب في حلقها، لم يعد فمها جافاً، بل صار لزجاً وقاسياً في آنٍ واحد. لامست قدمها إطار الباب المغلق. "باشا" و"لافرينتي" يجلسان وراءه، في الجهة الأخرى. المواضع الممزقة من ورق الحائط، والتي علاها الاصفرار بفعل النيكوتين، كانت تتحرك مع أنفاس "باشا"، لكن ذلك أمرٌ لا يُثير القلق.. أم هل المسألة عكس ذلك يا ترى؟ أصغت "زارا" بانتباه. سمعت صوت الرجلين عبر الجدار الرقيق. يبدو أنهما في مزاجٍ حسن. هل يعني ذلك أنهما سيسمحان لها بالاستحمام اليوم؟ يمكن أن ينقلب مزاجهما في أي لحظة. على "زارا" أن تبذل أقصى جهدها لإرضاء زبائنهما. سوف يصل أولهم عمًا قليل، وإلا لما جلسا أمام

بابها. يمكنها الاستلقاء لدقيقةٍ إضافية، قبل أن تبدأ بتهيئة نفسها، حتى لا يجد "باشا" سببًا يعاقبها عليه. "لافرينتي" لا يتدخل بشكلٍ مباشر في هذه الأمور. إنه ينفذ واجباته فقط، ويترك التأنيب لـ"باشا". عبثت "زارا" بالخشب ذي الطلاء المتقشر، في الحائط من أسفله. الخشب ليّن، لدرجة أن إصبعها اخترقه بسهولة. هل الأرضية تحت المرتبة خشب أم أسمنت؟ إنها مغطاة بطبقة من أرضيات الفينيل، ولكن ما الذي تحتها؟ لو كانت من الخشب نفسه، فقد تنهار في أي لحظة، آخذةً معها "زارا". ستختفي وسط الركام. سيكون ذلك رائعًا.

سمعت صوت سكين "لافرينتي" وهو ينحت بها قطعةً خشبيةً كالعادة. إنه يفعل ذلك دومًا، عندما يكون في نوبة مراقبة. إنه ينحت أشياءً مختلفة، وخصوصًا أدوات الرياضة للفتيات.

عليها أن تنهض. لا يمكنها الاستمرار في الاستلقاء هكذا، على الرغم من أنها لا تريد شيئًا أكثر من ذلك، في هذه اللحظة. غمر الغرفة لونٌ أحمر، عكسته إضاءة المبنى المقابل. ارتفع صوت السيارات العابرة، وعلا صوت نفير بعضها، بين الحين والآخر. المكان يمتلئ بالسيارات، من مختلف الأشكال. دحّنت سيجارة "برينس"، من النوع الذي لمحت إعلاناته بكثرة في الطريق إلى هنا. حينها، كانت مقيدة اليد إلى باب السيارة. رفع "باشا" و"لافرينتي" صوت راديو السيارة، إلى ما يشبه الصراخ. لم تكن تعلم أن بإمكان السيارات الانطلاق بهذه السرعة الهائلة. يطرق "باشا" على المقود، كلما أراد التوقّف، بأصابعه المغطّاة بالوشوم. توصل "باشا" في نهاية الأمر إلى حقيقة مفادها أن "زارا" لن تستطيع إغراء أي أحد، أمام محطة البنزين، على الرغم من امتلاء المكان بالشاحنات والرجال. أمضت ساعات طويلة من الليل وهي تقف قريبًا من الطريق السريع، مرتديةً التنورة الجلدية الحمراء، التي أعطائها لها. راقبها من بعيد، مع "لافرينتي"، من داخل سيارتهما. فجأةً، ذهب إليها "باشا" وجذبها

من شعرها بقوة، ثم مسح الروح الأحمر عن شفيتها، وفركه على كامل وجهها. دفعها داخل السيارة، وقال لـ "لافرينتي":

- انظر إلى هذه المهرجة!

ضحك "لافرينتي"، مُعلِّقًا:

- سوف تتعلّم. كلهنّ يتعلّمن.

داخل السيارة، خلع "باشا" قميصه، مُستعرضًا كتفيه الموشومتين. ابتسم "لافرينتي" ابتسامَةً عريضةً، ووجّه له تحيةً عسكرية. في الفندق، أمر "باشا" "زارا" بغسل وجهها، ثم قام بوضع رأسها تحت الماء، داخل حوض المغسلة، لوقتٍ طويل، إلى أن أصيبت بالإغماء. في هذه اللحظة، كان "باشا" يتحدّث إلى "لافرينتي" عن خطته القادمة. لديه مستقبل. لهذا يُكثر من التفكير في الحياة. الحوار بين الرجلين يدور بشكلٍ متكرر.. يومًا بعد الآخر، وليلة تلو الثانية، وفي الأوقات التي تفصل بين زيارة زبون والذي يليه. قال "باشا" بأنه، وللمرّة الأولى، أصبح كل ما كان يحلم به ممكنًا. صار كسب المال سهلًا ويسيرًا، وسيتمكن عمًا قريب من فتح صالون للوشم، وسينشئ بعدها مجلةً خاصّةً بفن الوشم. في الغرب مجالات متخصصة في هذا المجال، تضم صورًا عديدة لوشومٍ ملوّنة. ذلك النوع الذي سيعمل فيه "باشا".

سخر الجميع من خطط "باشا". من يرغب في صالون للوشم، إن كانت الأموال التي بحوزته تكفي لامتلاك فنادق أو مطاعم، أو شركات بترول، أو سكك حديد، أو بلدان كاملة؛ إنها تقدر بملايين، أو مليارات. كل شيءٍ ممكن. أيًا كان ما تتخيّله أو تحلم به. لكن هذه الأمور لم تكن تُثير اهتمام "باشا". يربت على كتفيه الموشومتين، ككتفي أبيه. خدم والده في مدينة "بيرم" الروسية، عام 1936. كان الوشم على كتفه يتكوّن من الأحرف الأربعة الأولى التي تُشير اختصارًا لـ "شرطة المحافظة"، لكن النكتة الشائعة وقتها كانت أن الحروف



تُشير إلى عبارة "لا شيء أقوى من الصداقة بين اللصوص". ابتسم "لافرينتي" وهو يستمع إلى أحلام "باشا". على الأغلب، هو أيضًا يعتقد أن "باشا" مجنونٌ بعض الشيء. علّق "لافرينتي" بالقول إنه هو شخصيًا أصبح عجوزًا. لديه ماضٍ يمتد لـ 25 سنة من العمل في الاستخبارات السوفيتية، وكان بودّه استئناف حياته على ذلك النحو، لولا هراء "يلتسين" و"جورباتشوف". كل ما يريده الآن هو أن يوفر لأولاده جميع احتياجاتهم. هذا هو السبب الذي جعل "لافرينتي" يرغب في العمل مع "باشا"، على الأرجح. كلاهما قانعٌ بأقل مما يرضي غيرهما. واقع الأمر أن "باشا" لا يمانع في الحصول على كازينو قمار، وشراء بلد، وامتلاك المليارات، لكن شيئًا من ذلك لا يثير حماسه مثل فكرة افتتاح صالون وشم.

يتدرب "باشا" على تنفيذ الوشوم، على أجساد الفتيات اللاتي لا يحظين بإقبال من الزبائن. مثل "كاتيا". كان يصيح بحماس بأنه سيصبح الأفضل في هذا المجال. كان سعيدًا بالوشم الذي رسمه على صدرها، والذي يمثّل امرأة بثديين كبيرين، تبتلع شيطانًا. قال إنه يجيد استخدام جهاز الوشم، تمامًا كما يجيد التصويب بمسدسه، لكنه اعترف أيضًا بأنه لا يزال بحاجة لكثيرٍ من التدريب، ولذلك استغل ذراع "كاتيا" في رسم صورة جديدة، عبارة عن شيطان بعضو تناسلي ضخم.

أعلن ضاحكًا:

- كبيرٌ كالذي أمتلكه بالضبط!

اختفت "كاتيا" بعدها.

فتحت "زارا" زجاجة من مخدر الـ"بوبرز"، واستنشقتها. لو بدأ "باشا" بممارسة تدريبات الوشم عليها، فسوف تعرف أن نهايتها وشيكة.

- صالون الوشم سيَشكُل رمزًا لكل أحد.. الربّ، وأمي، وروسيا، والقديسين.. الجميع!

ضحك "لافرينتي" بصوتٍ عالٍ:

- "رمزًا؟! أين تعلمت هذه الكلمة؟

انزعج "باشا"، وقال بضيق:

- اخرس، واقفل فمك هذا! أنت لا تفهم شيئًا.

ظهر صوتٌ جديد. زبون. يمكنك دومًا تمييز أصوات الزبائن.

سمعت "زارا" أصوات سكارى يغنون بالألمانية، قادمة من الطابق السفلي. هناك شخص

أمريكي بينهم. في إحدى المرّات، طلبتُ من زبون أمريكي أن يقوم بإرسال خطاب كتبته إلى

أمها، من مكتب البريد؛ لكنه سلّمه إلى "باشا"، ثم جاء "باشا" و...

أخرجت التنورة الجلدية الحمراء والحذاء ذا الكعب العالي من دولاب. لبست قميص

أطفال. يؤمن "باشا" بأن قمصان البنات الصغيرات الضيقة، هي وحدها القادرة على إثارة

شهوة الرجال. دخنت سيجارة "برينس" جديدة. ارتعشت يداها قليلًا. أضافت بضع قطرات

من محلول "الناردين" لكأسها. خصلت شعرها جافة من الكميات الهائلة من الـ"سبراي"

الذي تم رشّه عليه البارحة، بالإضافة إلى الحيوانات المنوية.

بعد قليل، سيُفتح الباب ويُغلق بالترباس. سيواصل "باشا" و"لافرينتي" حوارهما. صالون

الوشم، وفاتنات الغرب، والوشوم الملونة. بعد ذلك، سيُفتح إبريم الحزام الجلدي، متبوعًا

بانزلاق السوستة. ستومض الأنوار الملونة. سيصنع "باشا" بعض الضجيج، على الجانب الآخر

من الباب. سيضحك "لافرينتي" على غباء "باشا"، وسينزعج الأخير من ذلك، وسيتأوه زبونها.

ستفتح جانبي مؤخرتها على اتساعهما، كما يأمرها الزبون، وستطيعه في تنفيذ كل ما يطلب. سيأمرها بأن تردد:

- "ناتاشا" ستحصل عليه الآن!

سيظل يلح:

- كرري ذلك.. هيّا!

ستقول "زارا":

- "ناتاشا" ستفعل.

لا أحد يسألها عن المكان الذي تنتمي إليه، أو ما الذي كانت ستفعله لو لم تأتِ إلى هنا. في بعض الأحيان، يسأل أحدهم عمّا تفضّله "ناتاشا"، ما أكثر ما يثيرها؟ هل استمتعت؟

هل تحب "ناتاشا" ممارسة الجنس؟

في بعض الأحيان، يسألها أحدهم عمّا تحبّه.

ذلك أسوأ. لأنها لا تملك إجابة عن ذلك.

تمتلك ردّاً سريعاً على كل استفسار، حين يخاطبونها باعتبارها "ناتاشا".

أما حين يسألونها عن نفسها، تمرُّ ثانية من الصمت، تُفكّر فيها عن الإجابة التي كانت

"ناتاشا" ستنطق بها. تلك الثانية تُشعر الزبون بأنها تكذب. يبدوون بالضغط عليها. لكن

ذلك نادراً ما يحدث. أمرٌ شديد الندرة.

عادةً تُردّد أنها لم تشعر أبداً بمتعةٍ مماثلة. هذا أمرٌ ضروريٌّ للزبون. يصدّق أغلبهم

ذلك.

الحيوانات المنوية، والشعيرات التي تدخل في حلقها. للطماطم طعم الطماطم، وللجبن طعم الجبن. الطماطم والجبن معاً، لهما طعم الطماطم والجبن، حتى لو دخلت الشعيرات في حلقها. لا بد أن ذلك يعني أنها على قيد الحياة.

في الأسابيع الأولى، شاهدت أفلام فيديو. "مادونا" وأغنياتها "إيروتিকা". "إيروتিকা" و"مادونا". طوال الوقت.

كانت بمفردها.

الباب مٌقفل.

في الحجرة مرآة.

حاولت أن ترقص أمام المرآة، وأن تقلد حركات "مادونا" وصوتها. حاولت بأقصى ما لديها من قدرة. كان ذلك صعباً، على الرغم من أنهم صبغوا شعرها باللون الأشقر وجعدوا خصلاته، كتسريحة "مادونا". الحركات بالغة الصعوبة، بسبب آلام جسدها وعضلاتها، لكنها حاولت. حاولت أيضاً أن تخطط عينيها بالأسود، مثل "مادونا". اهتزت يداها. كررت المحاولة. لديها أسبوع لإجادة ذلك. منتجات التجميل الألمانية جيدة. لو استطاعت أن تتزيّن بطريقة "مادونا" في وضع الماكياج، فلن يكون عدم إجادتها للرقص أمراً مهماً.

عندما أحسّ "باشا" بأن الوقت ملائم، اصطحبها إلى حفلة شرب. هناك، الكثير من الفتيات، وعديد من رجال "باشا"، بالإضافة إلى الزبائن. عومل أحدهم باحتفاءٍ خاص. لم يخبرهنَّ أحد عن السبب، لكن الفتيات أمرن بإبهاجه. للزبون بطن ضخم. يمسك بيده كأساً من ويسكي "جيم بيم". يهزّه، فتتحرك قطع الثلج بداخله. الموسيقى تملأ المكان. تفيض جنبات الشقة برائحة باردة، هي مزيج من المنظفات الألمانية الصنع، و"الفودكا". ارتفعت الأصوات. كان من المفترض أن تقوم "زارا" بتهدئة الزبون، ثم بدأ "باشا" بنقر أصابعه

على الأريكة الجلدية، كما يفعل عادةً. واصل ذلك بعض الوقت، ثم قفز من مكانه صارخًا:  
- من يظن هذا العجوز نفسه؟

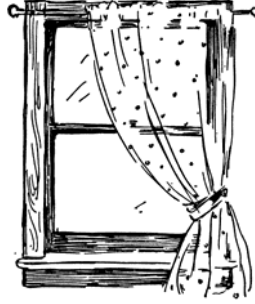
قال أشياء أخرى، كذلك. بدأت الفتيات في البحث عن أماكن يختبئن فيها. لاحظتُ "زارا" أن أحد رجال "باشا" حرّك يده، مُتلمّسًا مسدسه. وقف عددٌ آخر من الرجال أمام الباب. أدركتُ "زارا" بأنهم فعلوا ذلك لمنع أي شخص من الخروج. حاولت الابتعاد عن الزبون، دون أن تلفت الانتباه. جلست أولاً على طرف الأريكة، ثم إلى جانبها، وأخيراً وراءها. لم يعد الزبون مهتمًا بنهديها، بل راح يتبادل مع "باشا" جدالاً عاليًا. وقف "لافرينتي" وراء "زارا"، ناظرًا من النافذة في صمت. لم يكن هناك ما يُرى، بسبب الظلام الحالِك في الخارج. حرّك كأسه، فارتطمت مكعبات الثلج ببعضها. ثم التفت وراءه، واتّجه نحو الزبون، واضعًا يده على كتفه، سائلًا إياه ما إذا كان ما نطق به هو آخر ما لديه من أقوال. صاح الزبون بالإيجاب، وهو يضع كأسه بقوة على سطح الطاولة. أوماً "لافريني" برأسه، وفجأة كسر عنقه. بحركةٍ واحدة. ساد الصمت للحظةٍ واحدةٍ فقط، ثم انفجر "باشا" في الضحك. تعالت قهقهات الجميع.



1992

"لانيما" - إستونيا

الخوف يعود مساءً



سمعتُ "أوليدا" صوتًا مألوفًا عبر النافذة، لكنها تصرّفت كما لو أنها لم تسمع شيئًا. واصلتُ شرب قهوتها، كأن شيئًا لم يكن. هزّت فنجانها بخفّة، مثلما اعتادت دومًا، تأملتُ الكريمة على سطح القهوة، وهي تميل برأسها تجاه الراديو، وكأنها تنصت لشيء مهم. الفتاة، من جانبها، جفلت فور سماع الصوت. انتفض جسدها في اضطراب، والتفتت ببصرها نحو مصدره. اتسعت عينها واختلج جفنها الأيسر في حركاتٍ سريعةٍ متوالية. همست بصوتٍ مبحوح تسأل عمّا يكون ذلك. نفخت "أوليدا" في فنجانها، بايقاعٍ يتماشى مع إيقاع قارئ نشرة الأخبار في الراديو، وهي تتحاشى النظر إلى الفتاة، التي راحت تنظر إلى وجه "أوليدا" بحثًا عن أي إجابة. حرصت الأخيرة على إبقاء قسماتها محايدة، دون أي تعبير، آملّة أن يكتفي الفتية بحجرٍ واحدٍ هذه الليلة.

لم تستطع الفتاة التركيز على شيءٍ آخر، وخصوصًا وهي تتخيّل أن زوجها يكمن بانتظارها في الساحة الخارجية للبيت. عليها أن تظل منتهية ومتيقظة، وأن تفتح عينيها وأذنيها طوال الوقت. وضعت "أوليدا" فنانها على الطاولة، وأحاطته بأصابعها. راحت تتأمّل تشقّقات يديها، التي اسودّت بفعل الطين والزراعة. التشقّقات عميقة، أكثر عمقًا من الآثار التي خلّفتها السكين، على مدار سنوات، على مفرش الطاولة البلاستيكي. الأجزاء المقطوعة من المفرش صارت أكثر وضوحًا اليوم مع تساقط فتات الخبز وذرات الملح عليها.

- ما هذا الصوت؟

- لم أسمع شيئًا.

لم تُعر الفتاة هذه الإجابة اهتمامًا. اقتربت من النافذة بخطواتٍ متسللة. التف الإيشارب حول رقبتها، بعد أن أزاحته عن رأسها؛ لتتمكن من الإنصات بطريقةٍ أفضل. تصلّب ظهرها، وارتفع كتفها في حذرٍ وتحفّز.

ليس لفنجان "أوليدا" مقبض، مجرد أثر صغير مكان المقبض المكسور. راحت تضربه بطرف إبهامها. تراقصت الشقوق السوداء في إصبعها على سطح الفنجان البورسلين. هؤلاء الفتية يجيدون اختيار التوقيت. لكن الفتاة، على الأرجح، لن يخطر ببالها سوى أن مَن بالخارج هو رجل أعمالها، أو أيًا ما كانت وظيفته، وأنه يحاول الإيقاع بها. أحست "أوليدا" بالضيق، مرّةً أخرى. الروس يحبون الملابس المترفة، والفنادق الفخمة، ولكن عندما يحين وقت الحساب، يجأرون بالشكوى والتذمّر. لكل شخص ثمن. الحماية ليست رخيصة. غمرتها رغبةٌ ملحةٌ في سحق الفتاة. إن أردتِ أن ترتجفي من الخوف، فلتفعلي ذلك بعيدًا عن الأعين، حيث لا يراك أحد.

- هناك حيواناتٌ كثيرةٌ في الجوار. الخنازير البرية. إن تركتِ البوابة مفتوحة، ستدخل الساحة الخارجية.

التفتت الفتاة نحو "أوليدا" باستغرابٍ ودهشة:

- ولكنني أخبرتكِ بشأن زوجي!

ضرب حجرًا آخر النافذة، وتبعه وابلٌ من الحصى الصغير.

فتحت الفتاة باب المطبخ، وتسَلَّت إلى ممر المدخل؛ لتستمع بوضوحٍ أكبر. ألصقت أذنها بالشق الموجود في باب المنزل. ارتطم شيءٌ بالباب، فارتجَّ بقوة. ارتدَّت قافزَةً إلى الخلف، ثم عادت إلى المطبخ.

على الفتاة أن تفكر في شيءٍ آخر. حين كانت "أوليدا" أصغر عمراً، كان لديها فائضٌ من الحِيل التي تتغلَّب بها على المواقف والأوضاع كافة، لكن عقلها الآن يرفض تذكُّر أيِّ منها. لم تجد تبريراً سوى الخنازير البريَّة.

غسلت يديها بحرصٍ ودقَّة، ثم تشاغلَت بتغيير الحليب في إناء اللبن المتخمر. حاولت أن تتصرَّف بشكلٍ طبيعي. تناولت العلبَة المعدنية من على الأرض، وفتحت غطاءها. صَفَّت محتواها في كوب، ثم غسلت ما التصق في العلبَة من قشطة. كرَّرت تفسير ما حدث، قائلةً بأنها الخنازير البرية. كلابٌ ضالَّةٌ ربما، أو بعض القطط. لكنها هي نفسها أدركت حماقة ما تقوله. لم تُظهِر الفتاة اهتماماً بتبريراتها. همست قائلةً إنه ينبغي عليها الرحيل الآن. لقد عثر زوجها عليها، وهو بانتظار أن يُدخِل الفريسة في الفخ. لاحظت "أوليدا" كيف تكوَّرت الفتاة على نفسها، ككلبٍ عجوز، ومطَّت جانبي شفيتها. استكانت الشعيرات على بشرتها، دون حركة. وضعت قدمها اليمنى على اليسرى، كما لو كانت تشعر بالبرد. صَبَّت "أوليدا" مزيداً من الحليب على اللبن المتخمر، ثم ناولت الفتاة كوباً منه.

- اشربي. إنه مفيد.

حدَّقَت الفتاة في الكوب، دون أن تأخذه. مشت ذبابة على حافَّته. اختلج جانب عينها، وتحركت أذناها. ظهر ذلك بوضوح بسبب شعرها القصير للغاية.  
همست من جديد:



- عليّ أن أرحل.

أضافت:

- حتى لا يؤذيانك.

رفعت "أوليدا" الكوب إلى شفتيها، وتناولت رشفةً طويلةً منه، لكنها لم تستطع ابتلاعها. حلقها يضيق. أعادت الكوب إلى الطاولة. زحفت عنكبوت تحت الطاولة، واختفت بين الألواح الخشبية للأرضية. "أوليدا" متيقنة من أن الفتاة مخطئة، ولكن كيف تشرح لها بأن فتیان القرية يأتون إلى ساحتها لإحداث الفوضى؟ سوف ترغب في معرفة السبب، وكيف ولماذا ومتى.. وكل تلك الأسئلة، وليس لدى "أوليدا" أي نية في شرح المسألة لهذه الغريبة. إنها لا تناقش الأمر مع مَنْ تعرفهم من الأصل.

لكن دُعر الفتاة الشديد كان كعدوى انتقلت إلى "أوليدا"، فجأة. يا إلهي! جسدها لا يزال يتذكّر ذلك الشعور. بل يتذكّره جيّدًا، لدرجة تمكّنها من التقاطه فور أن تلمحه في عيني أي غريب. وماذا لو كانت الفتاة مُحقّقة؟ ماذا لو كان هناك سبب وجيه يستدعي خوفها؟ ماذا لو كان ذلك زوجها حقًّا؟ إحساس "أوليدا" بالخوف يجب أن يكون ماضيًّا مَنْسِيًّا. لقد تركته وراءها، ولم ينجح مَنْ يقذفونها بالحجارة في إعادته إليها، أبدًا. ولكن الآن، بينما يتسرّب الخوف من جلد هذه الفتاة المجهولة، ويزحف على مفرش "أوليدا" البلاستيكي، لم يعد باستطاعتها تجاهله، كما ينبغي عليها أن تفعل. إنه يتمدّد وينتشر. تسلّل وراء ورق الحائط، وداخل الفجوات التي خلّفها الصور الفوتوغرافية التي خبّأها في بداية الأمر، ثم دمّرتها. الخوف يفرض نفسه على المكان، كما لو كان في بيته. كأنه سيستقر هنا إلى الأبد، ولن يرحل. كأنه كان في مشوار، وعاد مساءً لمنزله.

فركت الفتاة الشعيرات القصيرة في رأسها، ثم أحكمت لفّ الإشارب حوله. ملأت لنفسها كوبًا من الماء، من الدلو، تهمضت به، ثم بصقت الماء في دلوٍ

آخر. رمقت انعكاس صورتها على الباب الزجاجي للدولاب، واتَّجهت إلى الباب. شدَّت كَتفِها، ورفعت رأسها، وكأنها في طريقها إلى ساحة المعركة. أو كأنها تقف في طابور الحركة الطليعية باتحاد منظمات الشباب. استمرت الاختلاجات في طرف جفنها. اتخذت وضع الاستعداد. إنها مستعدة. فتحت الباب، وخطت إلى ساحة البيت الخارجية.

الصمت يحيط بالمكان، وظلمة الليل تزداد حلقة. سارت بضع خطوات، ثم وقفت تحت الضوء الأصفر لمصباح الحديقة. تعالت أصوات صراير الحقل. نبح كلب الجيران. رائحة الخريف تعبق المكان. الجذوع البيضاء لأشجار البتولا تلمع قليلاً في الظلام. البوابة مغلقة. تمكَّنت من رؤية الحقول الوادعة عبر فتحات السور المعدني، التي بدت كأعينٍ مُرهقة.

استنشقت الهواء بعمق، فاندفع بحدَّة داخل رتتيها. هناك أُمٌ يشبه ارتطام مكعبات الثلج بالأسنان. توقعاتها غير صحيحة. اكتسحها الإحساس بالارتياح، لدرجة شعورها بضعفٍ بالغٍ في ساقِها. خذلها جسدها، فألقت نفسها جالسةً على الدرجات القليلة لسُلم المدخل. لا "باشا"، ولا "لافرينتي"، ولا سيارة سوداء.

رفعت رأسها تجاه السماء. رأت مجموعة "الدب الأكبر" نفسها التي يمكنك رؤيتها في سماء "فلاديفوستوك"، لكنها هنا مختلفة بعض الشيء. كانت الجَدَّة تنظر إلى هذه النجوم، من هذا المكان نفسه بالضبط، في شبابها. "الدب الأكبر" الذي يشبه هذه المجموعة تمامًا. لقد وقفت جدَّتُها في هذه الحديقة، وأمام المنزل نفسه، وفوق الممر الحجري نفسه. كانت ترى هذه الأشجار أمامها، وتطوف النسيمات نفسها على خديها وبين الأغصان المحمَّلة بالتفاح. لقد جلست الجَدَّة في المطبخ نفسه الذي كانت فيه، واستيقظت من نومها في الحجرة نفسها، وشربت من البئر ذاتها، وخرجت من الباب نفسه. وطأت الجَدَّة بقدميها تراب هذه الحديقة، وعبرت هذه البوابة لتذهب إلى الكنيسة. وُجِدَت بقرتها في تلك

الخطيرة. العشب الذي يدغدغ قدمي "زارا" متأثر بلمسات جَدَّتْهَا، والنسيم الذي يمرُّ بين الأغصان هو همسات جَدَّتْهَا. أَحَسَّت "زارا" بأنها ترى النجوم من خلال عيني جَدَّتْهَا. حين رفعت رأسها باتجاه السماء، ثانيةً، أَحَسَّت كما لو أن جسد جَدَّتْهَا الشابة يقف بداخلها، وأنه يدفعها لأن تدخل البيت، بحثًا عن قِصَّة لم تخبرها بها.

تحسَّست "زارا" جييها. الصورة لا تزال داخله.

فور خروج الفتاة، صَفَّقت "أوليدا" الباب خلفها، وأغلقتة بالمفتاح، ثم جلست في مكانها أمام طاولة المطبخ، وفتحت الدُرْج المختبئ تحت المفروش البلاستيكي. لو استدعى الأمر، يمكنها أن تسحب منه بسرعة المسدس الذي تحتفظ به بداخله، منذ أن جعلها "مارتن" أرملة. لا صوت في الخارج، على الإطلاق. ربما غادرت الفتاة. انتظرت "أوليدا" لدقيقة. اثنتين. خمس دقائق. تحرَّكت عقارب الساعة بصوتٍ مسموع، صاحبه زفير النار، وطقطقة الحوائط، وأزيز الثلجة. في الخارج، واصل الهواء الرطب التهام سقف البيت، بينما خشخش فأرٌ في إحدى الزوايا. مرَّت عشر دقائق أخرى، تبعثها دَقَّات على الباب، ونداء. إنها الفتاة، تطلب منها أن تفتح لها الباب، وتؤكِّد بأن لا أحد معها بالخارج. هي فقط. لم تتحرك "أوليدا". ما الذي يُدريها أن الفتاة تقول الحقيقة؟ ربما كان زوجها يقف وراءها. ربما تحدَّث إليها في الحديقة بصوتٍ غير مسموع.

وقفت "أوليدا" وفتحت باب حجرة المؤن المؤدِّي إلى الإسطبل. سارت بجوار المعلف المهجور، إلى أن وصلت إلى مدخل الإسطبل ذي الدرفتين الكبيرتين. دفعت إحداهما بحرصٍ شديد، لتصنع شقًّا صغيرًا يُمكنها من رؤية ما بالخارج. ليس هناك أحد. دفعت الدرفة بأكملها، فشاهدت الفتاة تجلس بمفردها على السُلَّم. عادت إلى المطبخ، ثم فتحت لها الباب وأدخلتها. ساد الارتياح الأجواء. استعاد ظهر الفتاة استقامته، ولم تعد أذناها مرفوعتين في

انتباهه. كانت تتنفس بهدوء، وتستنشق الهواء بعمق. ما الذي جعلها تبقى في الخارج، كل هذا الوقت، إذا لم يكن الرجل هناك من الأساس؟ كررت إجابتها بأن لا أحد في الحديقة. صبت "أوليدا" فجاناً جديداً من مشروب بديل للقهوة، واقترحت إعداد بعض الشاي. تحدت لتشغل الفتاة عن التفكير في الحجارة والنافذة، لأطول وقتٍ ممكن. اقترحت أن تكتفيا ببديل القهوة، وذكّرتها بأنه سبق لهما تناول الشاي بالنهار. أومأت الفتاة. أضافت أن الحصول على هذه المنتجات لم يكن سهلاً، حتى وقتٍ قريب. أومأت الفتاة مرّةً أخرى. أردفت قائلة إن بدائل الشاي متوافرة بكثرة، إذ يمكن صنعه من التوت أو النعناع. هناك أشياءً عديدة تفي بالغرض في الريف. وسط هذه الثروة، أدركت "أوليدا" أن الفتاة ستسألها في أي لحظة عن أولئك المشاغبين. لقد هدأت تماماً الآن، ما يعني أنها لن تتقبل إجابات "أوليدا"، وغمغمتها حول الخنازير البرية. متى أصبحت خرفة لدرجة عدم إجادة تقديم مبررات مقنعة حول أمرٍ بسيطٍ كارتجاج زجاج النافذة؟ لم يعد الإحساس بالخوف يسيطر عليها، لكنه لا يزال موجوداً، ينفث هواءً بارداً على قدميها من مكمنه تحت الألواح الخشبية للأرضية. إنها لا تخشى أولئك المشاغبين، ولذلك لا تفهم لم لم يتلاش الشعور بالخوف من الفتاة، في اللحظة التي دخلت فيها حاملاً معها رائحة العُشب الباعثة على السكينة والراحة. فجأة، شعرت بأنها تسمع صوت القمر وهو يتخذ موضعه في السماء. أدركت على الفور أن شعورها غير منطقي، ولا معنى له. أمسكت بفنجانها، وضغطت على مكان المقبض المكسور بقوةٍ شديدة، حتى برزت عظام يدها.

شربت الفتاة بديل القهوة، وهي تنظر إلى "أوليدا" بطريقةٍ مختلفة. أحست "أوليدا" بذلك، على الرغم من أنها تحاشت الالتفات نحوها، وواصلت حديثها عن حظر "جورباتشوف" للمشروبات الكحولية، واستعادت ذكرياتها حول الطريقة التي تغلبوا بها على ذلك. قالت إنهم كانوا يصنعون مشروباً له تأثير المخدر، عن طريق إضافة كميات كبيرة من الشاي إلى القليل من الكحول. أضافت أن لذلك المشروب اسماً، ولكنها نسيتته تماماً. تظن أنه كان رائجاً في الجيش وفي السجنون.

استطردت بأنها نسيت تبديل المشروم الذي تركته في الماء لصنع شاي المشروم، بسبب البلبلة التي حدثت. تناولت أحد برطماناتها الزجاجية. أزالتي طبقة الشاش التي تُغطّي فوّهته، تأمّلت برضا المشروم الصغير الذي نبت من القطع الأكبر حجماً. بدأت بإعداد شاي جديد، وأضافت له السكر.

قالت وهي تشرح فائدته:

- إنه يعمل على تثبيت ضغط الدم في معدلاته الطبيعية.

قاطعتها الفتاة:

- "تيبلا".

- ماذا؟

- "تيبلا".

- أنا لا أفهمك مُطلقاً.

- كُتِبَ على الباب بالروسية كلمة "تيبلا"، واسم مدينة "ماجادان".

ذلك أمرٌ جديد، لا تعرفه "أوليدا".

قالت فجأةً، بعد لحظة صمت:

- أولاد يلعبون..

لم يكن التبرير مقنعاً. حاولت مرّةً أخرى. قالت إنها دأبت في شبابها على غسل الثياب على الضفة، وإن الفتيان كانوا يقذفون الحجارة وراءها. كانوا يسمّون ذلك "العبّة الشبح"، ويجدونها مضحكة ومسلّية.

لم تكن الفتاة تنصت إليها. سألت "أوليدا" إن كانت من روسيا.

- ماذا؟ كلاً!

علقت الفتاة بأن كلمة "تيللا"، التي تعني "الحثالة الروسية"، واسم مدينة "ماجادان" الروسية، يوحيان بذلك التفسير. ربما كانت "أوليدا" من "سييريا" إذًا؟  
- كلاً!

- لماذا إذًا كتبوا "ماجادان" على بابك؟

- كيف لي أن أعلم؟ منذ متى تتسم ألعاب الأولاد بالمنطق؟

- أليس لديك كلب؟ يمتلك الجميع كلابًا.

في الواقع، كان لديها كلبٌ يُدعى "هايسو"، لكنه مات. الحقيقة أن "أوليدا" كانت متيقنة من أنه تعرّض للتسمم، تمامًا كدجاجاتها الخمس، ثم تمَّ إحراق حمّامها الساونا. لكنها لم تقل شيئًا من ذلك للفتاة، ولم تخبرها بأنها ما زالت تسمع وقع خطوات "هايسو" بين الحين والآخر، إضافةً إلى صوت نقنقة دجاجاتها، وأنها تنسى - في ساعاتٍ كثيرة - أنه لم يعد لديها من تطعمه في هذا المنزل، سوى نفسها والذباب. أرادت أن تصارحها بأنها لم تستطع أبدًا الاعتياد على فكرة الحظيرة الخالية من الحيوانات. ودّت أن تُدير دفة الحوار تجاه موضوع "باشا"، لكنها كانت متأكدة من أن الفتاة لن تستسلم؛ لأن بداخلها الكثير من الأسئلة والاستفسارات، والدهشة والتعجب. ألا تقلق عليها ابنتها لبقائها دون كلب حراسة في هذه المنطقة الريفية؟

- أنا لا أزعجها بمثل هذه الأمور التافهة.

- ولكن...

تجاهلتها "أوليدا". سارعت بأخذ أحد الدلاء المعدنية لتجلب فيه بعض الماء. تآرجح الدلو في يدها، مصطدماً بما حولها، محدثاً صوتاً مرتفعاً. رفعت رأسها بجرأة، وخرجت من باب البيت بخطواتٍ قويةٍ وواثقة، لتثبت أنه لا خطر ينتظرها في الخارج. ظل ظهرها مفروداً ومستقيماً، وهي تخترق ظلام الحديقة.

"لانيما" - الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية

### بعد الحجارة، تأتي الأغنيات



كانت ليلة صافية معتدلة من شهر مايو عندما قُذفت فيها الأحجار للمرة الأولى باتجاه نافذة "أوليدا". أيقظها نباح "هيسو" من نومها. أزاحت إحساسها بالخوف، وكومتها جانبًا، كما لو كان حشرة لزجة. تقلبت على جانبها، مولية ظهرها للخوف. خشخش القش الذي حُشيت به مرتبة سريرها. لن تغادر فراشها من أجل حجرين قُذفا على شباكها. داخلها شعورٌ بالانتصار، حين بدأت الموجة الثانية من الأحجار. هل يظنون أن بإمكانهم إخافتها ببعض الحصى؟ هي، دون غيرها؟! يا لها من حماقةٍ مضحكة! أليس لديهم أسلحة أكبر من ذلك؟ لا شيء سيحركها من فوق سريرها، إلا اقتحام دبابة لسور حديقته، مثلًا. من يدري؟ قد يحدث ذلك فعلاً، إن اندلعت الحرب. إنها لا تود ذلك. لم تعد ترغب فيه. ليس الآن. تفضل الموت أولاً. إنها تعلم أن كثيرين قد بدؤوا استعداداتهم لمواجهة هذا الاحتمال. بدؤوا في تخزين شتى الأشياء في بيوتهم؛ علب الكبريت، والملح، والبطاريات. المطابخ تمتلئ بقطع الخبز المُعد للتجفيف. عليها أن تجفف مزيدًا من الخبز، وأن تشتري عددًا من البطاريات. لم يتبق لديها الكثير. ماذا لو بدأت الحرب، وانتصر الروس؟ وهي النتيجة

المتوقعة، دون شك؟ لو حدث ذلك، فليس لديها ما تقلق بشأنه، وهي العجوز الشيوعية. ومع ذلك، فإنها حقًا لا ترغب في الحرب.

بقيت "أوليدا" مستيقظة، تنصت لزمجرة "هيسو" إلى أن هدا قليلًا، ثم انتظرت الصباح لتعد بعض القهوة. إن كانوا يظنون بأنها ستغادر فراشها في منتصف الليل بسببهم، فإنهم يعيشون في الوهم. لن ترحل إلى أي مكان، على الرغم من خلو حظيرتها من الحيوانات، وعلى الرغم من بقائها في البيت بمفردها. لن تذهب إلى منزل "تالفي" في "فنلندا"، ولا لأي مكان. هذا بيتها. دفعت ثمنه غاليًا، ولن تجربها مجموعة من رماة الأحجار على هجره. لم تتركه سابقًا، ولن تتركه الآن. ستموت قبل أن تغادره. يمكنهم حرق البيت بأكمله، وستجلس فوق كرسيها، في مطبخها، تشرب القهوة المُلحاة بالعسل الذي تجمعه بنفسها. ستلوح لهم من النافذة، وتترك لهم قطع الخبز المعجون بالحَبَّان بجوار البوابة، ثم تعود إلى الداخل، بينما تلتهم النيران سقف مسكنها. كلما حدث ذلك في وقت مبكر، كان أفضل. فجأة، تفجرت بداخلها ينابيع من الحماس.. حسنًا، فليفعلوا ذلك! ليحرقوا المنزل بأكمله. إنها سيدة هذا البيت، سيدة الحظيرة الخاوية، وهي لا تخشى النار. إنها على استعداد لمُجابهة الموت. ما الفرق إن حدث هذا عاجلاً أم آجلاً؟ فليحرقوا كل شيء! أشعرها الحماس الشديد بجفافٍ في فمها. لعقت شفيتها، وقفزت من فراشها. اتجهت إلى النافذة. فتحتها على اتساعها. أطلت منها وهي تصيح:

- أنتم أيضًا تنتمون إلى "سيبيريا"! أنتم أيضًا تستحقون المعاملة ذاتها!



بعد الحجارة الأولى، جاءت الأغنيات. أحجارٌ وأغانٍ. أو أحجار فقط. أو أغنيات فقط. ثم ذهب "هيسو"، ومن بعده الدجاجات، وأخيرًا حَمَام الساونا. صار الأرق يسير بخطواتٍ عسكرية حول فراش "أوليدا"، ليلته تلو الأخرى.



باتت الليالي مُتعبَة وطويلة. تلاشى الأمان الذي عرفته في العقود الأخيرة، وتمزق في لحظات إلى قصاصات أقمشة قديمة، تنتظر مَنْ يرتبها ويعيد خياطتها ويحوّلها إلى سجاد. تنتظر مَنْ يتحمّل تلك المشاعر، مِنْ جديد. "آن الأوان لكي ننفذ عن أجسادنا غبار العبودية".. تسلّلت الأغنية بصوتٍ هامسٍ من نافذتها، ودخلت حجرتها. بقيت مستلقية فوق فراشها، ولم تتحرّك. جسدها مستقيم فوق قش المرتبة. ركّزت بصرها على السجادة المعلقة فوق الحائط المقابل، دون أن تلتفت نحو النافذة، أو تقوم بإغلاق ستارتها. فليصرخوا كما يشاؤون، وليفعلوا ما يريدون، وليغني أولئك الصغار القذرون المزعجون قدر ما يمكنهم. ليرقصوا فوق سقفها، إن أرادوا. سوف تأتي الدبابات عمّا قريب، لتُخرج أولئك المُتبعّجين من أرضها.

"الأرض، أرض الآباء، أرضنا المقدسة، حيث سنصبح أحرارًا. الأغنية، أغنية النصر، ليتردد صداها، لكي نرى إستونيا حرّة عمّا قريب".

قبل سنواتٍ قليلة - هل كان ذلك في 1988؟ - سار عددٌ من الشباب في طرقات القرية، وهم يغنون "كن صالحًا أيها الإستوني، وفخورًا كأسلافك، كي تتحرر". تعالَى صوت فتى مُراهق، وهو يهتف:

- أنا إستوني، وسأظل إستونيًا؛ لأنني خُلقتُ إستونيًا.

ضحك الآخرون، وهزّ ولدٌ ذو شعرٍ طويلٍ رأسه في إعجاب وفخر. كانت "أوليدا" قد خرجت لتوّها من محل البقالة. مفضّلات باب الدكان ما زالت تئنُّ، كبطنٍ جائع، والأجراس الصغيرة المعلقة فوق الباب مستمرة في الرنين والاصطدام ببعضها. وقفَتْ لتُحكّم عقد الإيشارب تحت ذقنها. وضعتُ الكيس الذي يحوي الخبز على الأرض. حين سمعت العبارات الأولى للأغنية، تسحبت ووقفت في أحد أركان الدكان. تابعتهم وهم يواصلون السير، وبقيت تحدّق في ظهورهم. غمرها إحساسٌ هائلٌ بالانزعاج، لدرجة أنها نسيت أخذ كيس الخبز معها، ولم تتذكره إلا وهي في منتصف المسافة إلى بيتها. كيف يجروؤون؟ أي

وقاحة هذه؟ كيف يفكرون هكذا؟ هل الحسد هو الذي جعلها ترتجف بهذه الطريقة،  
وقد تسارعت نبضاتها؟

الصوت خارج النافذة لشابٍ في مقتبل العُمر. يشبه، إلى حدٍّ ما، صوت "هانس" زوج  
أختها، حين التقت به للمرّة الأولى أيام الجمهورية الإستونية. قبل أن يغني كل تلك  
الأغنيات. قبل أن ينحني جسده فارع الطول، الذي يقترب من المترين. قبل أن تنثني  
عظامه. قبل أن يصبح وجهه الممتلئ شديد الهُزال. قبل أن يصمت صوته القوي. فليغنَّ  
أولئك الصغار الحمقى! ستسعد بسماعهم. ستفكر في "هانس". "هانس" الجميل. ابتسمت  
في الظلام. كان "هانس" يغني في الكورال. يا لجمال أسلوبه في الغناء! كان صوته البديع  
يسبقه في أي مكان.. في الحقول التي يعمل بها خلال أشهر الصيف، وفي الطريق إلى منزله.  
تتمايل أشجار الصفصاف على إيقاع أغنياته، بهجة، وتشاركها أشجار التفاح المرح. شقيقتها  
"إنجل" كانت فخورةً للغاية بزوجها. فخورةٌ أيضًا باختياره ضمن الحرس البرلماني، الذي لا  
يقبل في صفوفه سوى الرياضيين المتميزين وطوال القامة. "هانس" نفسه كان في أقصى  
حالات السعادة لهذا الاختيار. الفتى الريفي البسيط، يصبح ضمن المختارين لحماية  
البرلمان الإستوني!



1991

"لانيما" - إستونيا

العثور على البروش



بعد إعلان الاستقلال ببضعة أشهر، جاء "فولديمار" - صديق "مارتن" القديم - للزيارة. بدأ "هيسو" بالنجاح، قبل وصوله بفترة كبيرة. ذهبت "أوليدا" للساحة الخارجية، تستطلع الأمر. ركض "هيسو" إلى الشارع. من بين أعمدة السور الخشبي، ذات اللون الرمادي، استطاعت أن تلمح رجلًا. لا يختلف كثيرًا بجسمه النحيل ولونه الباهت عن تلك الأعمدة. كان يجر دراجته الهوائية بجواره، ويسير باتجاه بيتها. لا تزال الأسنان البرّاقة المصنوعة من بقايا الذهب القديم المسروق تلمع داخل فمه الغائر. التجاعيد الكثيرة تزيد من ضآلة وجهه الضامر. لطالما رغب "فولي" في تصدّر المشهد. الأول دائمًا في كل شيء. تتذكّر الطريقة التي كان يقتحم بها أي طابور، ببطنه السمين، ووجهه العريض، نافحًا صدره في استعلاء وتحذّر. يتراكم الغضب في الأعين المتعبّة للواقفين منذ ساعات الصباح الأولى. يرمقونه بغیظ، لكن نظراتهم تتوقّف عند قدميه، ولا يجرؤ أي منهم على رفعها لتصل إلى ساقيه القويتين على الأقل. يدخل الدكاكين قبل غيره،

ويغادر تاركًا وراءه سحابةً كثيفةً من الغضب. بعد أن ينتهي هو ورفاقه، لا يبقى شيء لبقية الزبائن المنتظرين سوى البضائع الرديئة. في المرآت التي تراه فيها "أوليدا"، تعتمد إلى الانكماش على نفسها، حتى لا يلمحها ويقوم بتحيتها. لا تريد أن يعلم أيُّ من الواقفين في الطابور أنها تعرف هذا الرجل. لا ترغب في أن يُحوَّلوا أعينهم الخاوية، المنهكة، تجاهها. لو قام بالسلام عليها، فلن يتوانوا عن إلقائها خارج الطابور، وقد يتعمد أحدهم أن يضرب جسدها بكوعه، بقوة؛ لكنهم - بطبيعة الحال - لن يفعلوا ذلك مع "فوي" أبدًا.

الآن، وفيما يقترب من بيتها، تحييه "أوليدا" بمرح، وتعرض عليه أن يشاركها شرب بديل القهوة. يثرثران لبعض الوقت في شتى الأمور، ثم يذكر لها بأنه قد يضطر للذهاب إلى المحكمة.

تصيبها المفاجأة بصدمة هائلة، ويزيغ بصرها لبعض الوقت.

يوصل حديثه:

- لقد اختلقوا عديدًا من الأكاذيب عني.

يضيف:

- قد يحتاجون لتوجيه بعض الأسئلة لك يا "أوليدا".

كان جادًا. من المفروض أن هذا الأمر قد انتهى منذ زمن. ما الذي يدفعهم الآن لإزعاج المُستئين؟

- حينها، كنا ننفذ الأوامر، لا أكثر. كنا أناسًا طبيين. والآن، فجأةً، صرنا أشرارًا! أنا لا أفهم ذلك حقًا.

قال ذلك، ثم أحنى رأسه، وهو يتمتم بعباراتٍ مستاءة حول "يلتسين"، وعقوق الجيل الجديد، وأمّتهم القوية المنظمة..

- صرنا نعاني للحصول على أي سلعة. هل هذا وضعٌ جيّد في نظرهم؟ ها؟

سَدَّتْ "أوليدا" أذنيها عن شكواه. عليها الآن أن تعيد ترتيب أوضاعها، وأن تضع خططًا جديدة. هكذا هو الوضع على الدوام. أشياء جديدة. لم يعد لديها الطاقة اللازمة لذلك. ليس بعد الآن.

استعدَّ "فولي" للمغادرة. تفحصته "أوليدا" جيدًا. يدها ترتعشان، لدرجة أنه اضطر للإمساك بالفنجان بيديه الالتهنين. لمحت الخوف في تلك اليدين.. لم تره في شحوب وجهه، ولا في تعبيراته الممتعضة، وإنما في اليدين فقط. ربما في فمه أيضًا. في الشفتين اللتين يمسح طرفيهما كل قليل، بمنديله الذي يمسكه بأصابع نحيلة ومرتجفة. أحسَّتْ بقشعريرة. أصبح ضعيفًا الآن. امتلأت بمشاعر السخط والتبرم، وسيطرت عليها رغبة قوية في ركله بقدميها، وضربه بالعصا، أو قذفه بجِوالٍ من الرمل، إلى أن لا يتبقى منه شيء. إلى أن تسيل أحشاؤه وتصبح كالشوربة. تلك طريقةٌ يألفها "فولي" ويعرفها تمام المعرفة، كما يألف الرجل حبيته. تقفز في خيالها صورة؛ "فولي" يتلوى على الأرض بجسدٍ مرتعش، وهو يحاول حماية رأسه بذراعيه. يتوسل ببؤس أن ترحمه. تنتشر بقعة بلل على ساق بنطلونه. جوال الرمل يرتفع مرّة تلو أخرى، ويهبط على جسده الكريه، الضعيف. الكدمات تغطي عينيه الغائمتين. تتهشم عظامه النخرة. أعظم ما في تلك الصورة، هو ثيابه المبللة، وأنيبه الذي يشبه أنين بهيمة تتعرّض للذبح.

تقطع أنفاسها وهي مستغرقةٌ بخيالها في ذلك التصور، وتنتقل منها تنهيدةً عميقة. يشاركها التنهّد ويقول:

- هذا ما آل إليه حالنا.

تعدّه بالمثل أمام المحكمة، لتشهد لصالحه. واقع الأمر أنها لن تفعل ذلك أبدًا. تغلق البوابة عقب مغادرته، وتقف بعض الوقت، تتأمله وهو يبتعد راكبًا دراجته. سوف يتبعه آخرون. سيأتي غيره لمناقشة المسألة ذاتها. لا شك في ذلك. يتعاملون معها كحليف. سيصرّون على أخذها معهم. تكاد تسمعهم وهم

يطلبون منها أن تدلي بشهادتها، وأن تقدّم تصريحاتها للصحافة؛ لأنها تجيد التحدّث بلباقة؛ كما أن الناس يميلون - في مثل هذه الظروف - لتصديق السيدات. هذا ما سوف يرددونه. سيأتون على سيرة "مارتن" أيضًا، ويؤكدون لها أنها هي كذلك جزء مهم من تأسيس هذه الدولة. سوف يسيئون لسُمعتهم، ويلطخونها بالطين. سيفعلون ذلك مع ذكرى الجنود والمحاربين، الذين سبقونا. من يدري سُمعة وذكرى من التي ستتأثر هذه المرّة؟ بعدها سيرددون باستياء أن الاتحاد السوفيتي ما كان سيسمح أبدًا أن يصل الانهيار بحياة أبطاله ومحاربيه إلى عدم تمكّنهم من شراء السلع الأساسية، واضطرارهم لشراء أكياس المكرونة باستخدام الكوبونات والقسائم.

كلّا. لن تذهب "أوليدا" إلى أي مكان، ولن تقول شيئًا عن هذه الأمور. فليهددوها كيفما شاؤوا. لن تذهب.

يصعب تصديق أن ينفذ أحدهم تهديداته من الأساس. للكثيرين خطايا، يخشون بسببها رمي الآخرين بالأحجار. الأصابع الملوّثة تتردد في نبش الماضي. بالإضافة إلى ذلك، ستجد دائمًا من يدافع عنك، عند إصابة الجماهير المهووسة بحالة هياج. قديمًا، كانوا سيصفونهم بـ"المخربّين" ويزجّون بهم في السجن، ليجدوا متسعًا من الوقت للتفكير في تبعات أفعالهم. هؤلاء الشباب الحمقى! ما الذي يتوقعون تحقيقه من التنقيب في أحداث الماضي؟ أولئك الذين ينخرون في الماضي الأقل سوءًا من وضعهم الحالي!

حين ابتعد "فوئي" تمامًا، ولم يعد مرئيًا، دخلت "أوليدا" البيت، واتجهت من فورها إلى درجٍ مُعَيّن في المكتب. أخرجت منه بعض الأوراق، وبدأت في فرزها. ثم فتحت درجًا ثانيًا، وثالثًا. فتحت كل الأدراج، دون استثناء. فتحت بعدها أدراج الـ"شيفونيرة". أخرجت من آخرها رزمة أوراق. تذكّرت الدرج السري في طاولة المطبخ. قامت بتفتيشه جيدًا. بحثت أيضًا داخل المكتبة المخصصة لجهاز الراديو، وفوق رف المرأة الكبيرة. وداخل حقائب السفر غير

المستخدمة. وفي الفتحات التي تفصل بين الجدران وورق الحائط، والتي تدسُّ فيها أحيانًا بعض الأشياء. في علب الحلوى، التي يُغَطِّيها الصدا. في حزم الصُحف مُصَفَّرَة الصفحات، والتي تساقط من بينها ذبابٌ ميت. هل كان لـ"مارتن" مخابئ أخرى؟

نفضت عن شعرها شبك العنكبوت الذي علق به. لم تجد شيئاً يدينهما. مجرد فوضى وقذارة في كل ركن. قذفت بأوراق الحزب وجوائزه في النار. فعلت ذلك أيضًا مع شارة اتحاد منظمات الشباب، التي كانت تضعها "تالفي" على صدرها في صباها المبكر. النشرات الثورية لاقت المصير ذاته. كان "مارتن" ينتظرها شهرياً بصبرٍ نافذ، ويقرؤها بحماسٍ ولهفة. "في عام 1960، كان هناك تسعة أطباء فقط لكل عشرة آلاف شخص من سكّان إنجلترا. يرتفع العدد قليلاً في الولايات المتحدة ليصل إلى 12 طبيباً. أما في الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية، فهناك 22! وفي جمهورية جورجيا السوفيتية يرتفع عدد الأطباء إلى 32! قبل الحرب، لم تعرف ألبانيا مدارس رياض الأطفال، لكنها تضم الآن 300 روضة! نحن نطالب بحياةٍ سعيدةٍ لكل أطفال العالم! كم نحن محظوظين بقادتنا!"

تُلقي نظرة على النشرة السنوية المجمّعة للحزب. ما زال صوت "مارتن" يتردّد في أذني "أوليدا"، وهو يرتعش من فرط الحماس. يقرأ بحرارة:

"إن المجتمع الاشتراكي يوفر أفضل المتطلبات للتقدّم العلمي، والاقتصادي، وأبحاث الفضاء!"

تهزُّ رأسها كي تنسى، لكن صوت "مارتن" يبقى بداخله:  
"لن يستطيع العالم الرأسمالي مواكبة التقدم الباهر الذي ستشهده جميع جوانب الحياة في مجتمعنا! سيحاول العالم الرأسمالي الوقوف، ولكن سينتهي به الحال للسقوط!"

يتبع ذلك أرقام وأعداد لا حصر لها.. كمية الفولاذ التي أنتجت في العام السابق، كيف فاق حجمها التوقعات، كيف تحققت أهداف سنة كاملة خلال شهر واحد فقط. كل شيء يتقدّم. هذا هو الحال في كل النشرات. تقدّم. نموّ مُطرد. المزيد. المزيد. الانتصارات عظمى. أرباح خيالية. النصر. النصر. النصر! "مارتن" لا يعرف كلمة "ربّما". كلامه لا يحتمل الشك. إنه لا يقول إلا الحقيقة فقط.

الأوراق كثيرةٌ جدًّا. تضطر "أوليدا" لانتظار احتراق الدفعة الأولى قبل أن تضيف المزيد للنار المشتعلة. الهباب يغطي "أوليدا". تغسل يديها حتى الكوعين، لكنها تتسخ على الفور، ما إن تمسك برزمة ثانية من المجلات. نسخٌ عديدة من "الاشتراكيون الإستونيون". تتأمل أغلفة الكتب التي تمّ طلبها بالبريد، حينها. "بقايا الخبرات الأيديولوجية في مدينة فيلياندي"، تأليف "ك. رافن". "تحليل إنتاج الثروة الحيوانية في الزراعة الجماعية"، تأليف "ر. هاجيلبيرج". "أسئلة الاشتراكي الشاب حول النمو"، تأليف "ناديزدا كروبسكايا". تتراكم الكتب التي تعلو أغلفتها طبقة من الأمل الضائع. بإمكانها حرق تلك المؤلفات على مراحل، لكنها قرّرت التخلص منها دفعةً واحدة. كان "مارتن" شديد الحرص على حماية نفسه من هذه المخاطر المحتملة، ولذلك ينبغي عليها الآن أن تركز اهتمامها في العثور على ما يمكن أن يتسبّب لها هي في أي مكروه. ستتخلّص أولاً من هذه المطبوعات المختلفة، فمنظرها أمام المدفأة مزعجٌ للغاية.

واصلت إحراق الكتب لبضعة أيام متوالية، وحين انتهت، أخرجت السلّم الطويل من الإسطل، وقامت بجّره إلى آخر البيت، رغم ثقله الشديد. ركض "هيسو" في الحديقة، محاولاً اللحاق بطائرةٍ عسكريةٍ تطير على علوٍ منخفض، وهو ينبح بصوتٍ مرتفعٍ للغاية. سرعان ما اختفى وراء السور. تسند "أوليدا" السلم على جدار المنزل. لم تصعد إلى تلك الجهة من السندرة منذ سنوات، ولذلك فإنها تتوقّع الكثير من الفوضى هناك، والكثير من الأوراق السرية عند كل الأركان والتي يجب إخفاؤها.



الرائحة المميّزة للسندرة. بيوت العنكبوت تتأرجح باتجاهها. مذاقٌ غريبٌ من الاشتياق والحنين. تعيد ربط طرفي الإشارب تحت ذقنها، وتتقدم إلى الأمام. تترك الباب مفتوحًا، وتنتظر لبعض الوقت إلى أن تعتاد عيناها الظلام. تنظر إلى الأشياء المكدسة أمامها. من أين تبدأ؟ هذا الجانب من السندرة يضم مختلف الأشياء.. أدوات نسيج وخياطة، وقوالب أحذية، وسلال قديمة لحفظ البطاطس، ونول نسيج، ودراجات هوائية، وألعاب أطفال، وزلاجات جليد، وإطارات نوافذ، وماكينة خياطة من النوع الذي يعمل بتحريك القدمين، ماركة "سينجر". أصرَّ "مارتن" على حملها ووضعها في السندرة، رغم رغبة "أوليدا" في الاحتفاظ بها داخل المنزل؛ لأنها كانت لا تزال تعمل بكفاءةٍ عالية. جميع النساء في القرية، تمسكن بماكينات "سينجر"، وحتى اللاتي اشتريتا ماكينات جديدة اخترن التصميم الذي يعمل بالقدمين، إذ ما الذي ينبغي عليهنَّ فعله في حالة انقطاع الكهرباء؟ "مارتن" الذي لم يكن يغضب، عادةً، ويحرص على عدم التدخل في الشؤون المنزلية، تشبَّث برأيه بعناد تلك المرّة، وأخفى الـ"سينجر"، مستبدلاً إيَّاه بنوعٍ كهربائي روسي، يحمل اسم "تشايقا". تغاضت "أوليدا" عن هذا التصرف، إذ أدركت بأنه يمقت البضائع التي تنتمي إلى المرحلة الإستونية، وأنه يريد أن يكون قدوة للآخرين، وأن يظهر ثقتهما العالية في الأجهزة الروسية. لكن الحقيقة أن الـ"سينجر" كانت الشيء الوحيد الذي أراد التخلص منه، ضمن العديد من المنتجات الإستونية. لماذا هي تحديدًا، دون غيرها من الأجهزة والمنتجات؟

"اخترني، دون غيري، لم يسبق لأحد تقبيلي. اخترني، ما زلتُ بكراً بتولاً، وقوية الجسد. اخترني، فلديّ ماكينة خياطة "سينجر". اخترني، فلديّ طاولة للعب البينج - بونج".

من التي كانت تغني هذه الأغنية؟ ليست واحدة من هنا، على كل حال. تداخلت الأصوات في رأس "أوليدا"، وامتزج معها صوت لهاث "مارتن" وهو

يرفع ماكينة الخياطة القديمة على السلم، ويضعها داخل السندرة. أين سمعت تلك الأغنية، يا تُرى؟ في "تالين"، حين كانت تزور إحدى قريباتها. ما الذي أخذها إلى هناك؟ هل كانت في زيارة لطبيب الأسنان؟ ذلك هو التفسير الوحيد المعقول. اصطحبتا قريبتها إلى المدينة. شاهدت مجموعة من الطالبات وهن يغنين "اخترني، فلديّ ماكينة خياطة سينجر"، وقد ارتفعت أصواتهن المرحّة بالضحك. أعوامٌ مديدةٌ لا تزال بانتظارهن. المستقبل يحملهن على جناحيه بسُرعة. فتيات بثياب قصيرة، وأحذية طويلة لامعة. الإشارات الشيفون الخفيفة تتماوج فوق رؤوسهنّ وحول رقابهنّ. علّقت قريبتها على ملابسهنّ بالغة القصر، دون انتقاد حاد. مثلهنّ تمامًا، كانت تحيط شعرها بإشارب من الشيفون. كانت تلك آخر صيحة رائجة في عالم الموضة، حينها. تلك الوجوه الفتيّة، كانت تفيض بالأمل؛ أمّا هي، فقد انتهى مستقبلها منذ زمن. ظلت الأغنية تتردد في أذنيها طوال اليوم. كلًّا طوال أسبوعٍ كامل. امتزجت باللبن الذي تحلبه من ضرع البقرة، وبالطين الذي يغطي الحذاء البلاستيكي وهي تسير في المزرعة الجماعية. كان "مارتن" متحمسًا لتلك المزارع، التي ولدت بداخله أملًا هائلًا في مستقبلٍ زاهر. حماسه الزائد كان يخرق قلب "أوليدا" كما لو كان مسمار قلاووظ، ويعتصره بقوة تشبه قوة "ستاخانوف"، عامل المناجم البطل.

سلّطت "أوليدا" ضوء البطارية على ماكينة الخياطة، مرّةً أخرى. "سينجر، أعلى من غيرها". ما زالت تتذكر تلك الإعلانات القديمة، رغم شعورها بمرور دهور عليها. كانت تراها في مجلة "تالوبرينين". فتحت الدُّرج الواقع أسفل لوح ماكينة الخياطة مباشرةً. وجدت فيه علبة تضم عبوة زيت للمحرك، وبضع فُرَش صغيرة، وعددًا من الإبر المكسورة، وبعض الكُلف الخاصة بتزيين الملابس. جلست على ركبتها، وفتّشت تحت ذلك الدُّرج. المسامير في تلك الجهة من الهيكل الخشبي للماكينة، أصغر حجمًا من غيرها. أمالتها جانبًا. نزلت

السلم بتمهّل، ثم جلبت فأسًا من المطبخ، وصعدت إلى السندرة ثانيةً. حطمت خشب الماكينة في لحظات.

عثرت على كيسٍ قماشيٍّ صغيرٍ بين الركّام. إنه كيس التبغ الخاص بـ"مارتن". عثرت بداخله على عمّلات نقدية من الذهب، وسنّ ذهبية. ساعةً ذهبيةً، حُفِر عليها اسم "ثيودور كروس". وجدت أيضًا البروش الخاص بأختها "إنجل"، الذي اختفى في تلك الليلة داخل قبو دار مجلس المدينة.

جلست "أوليدا" على الأرض.

"مارتن" لم يكن هناك في تلك الليلة. كلّ. ليس "مارتن".

كان رأسها مُغطّى، ولم تتمكّن من رؤية شيء، لكنها لا تزال تتذكر جيدًا كل صوت، وكل رائحة، وكل خطوة تنامت إلى سمعها. لا شيء من تلك الأمور له علاقة بـ"مارتن". هذا ما جعلها توافق عليه.

كيف إذًا حصل "مارتن" على بروش "إنجل"؟

في اليوم التالي، ركبت "أوليدا" الدراجة واتجهت إلى الغابة. حين ابتعدت لمسافةٍ كافية، تركت درّاجتها على جانب الطريق، وسارت نحو المستنقع. رفعت ذراعها عاليًا، وقذفت بداخله كيس التبغ القديم.



1992

"لانيما" - إستونيا

السيارة تقترب



شطفت "زارا" آخر حَبَّات حصاد التوت لذلك العام. نَقَّت الدود منها، ووضعت الثمار الفاسدة تمامًا في إناء، وقطعت الأجزاء الصالحة من الحَبَّات نصف الفاسدة. جمعت المغسولة منها في وعاء منفصل. خلال كل ذلك، راحت تُفكِّر في طريقة تسأل بها "أوليدا" عن الحجارة التي تُقَدِّف على نافذتها، وعن كلمة "تيبلا" المكتوبة على بابها. في بادئ الأمر، أَحَسَّت "زارا" بمزيجٍ من الصدمة والخوف، ظنًّا منها أنها هي المقصودة بالكلمة؛ لكنها أدركت بعد قليل أن هذه ليست إحدى حَيْلِ وألاعيب "باشا" و"لافرينتي". إن "أوليدا" هي المقصودة. ولكن ما الذي يدفع الناس لإيذاء امرأة عجوز؟ وكيف تستطيع "أوليدا" المحافظة على هدوء أعصابها، رغم ذلك؟ ها هي تقف أمام الموقد، وتتشاغل بالعمل، وكأن شيئًا لم يكن. بل إنها تُدندن بأغنيةٍ ما، وتُومئ برأسها مشجعة، وهي تتابع ما تفعله "زارا". ملأت المغرفة بالزَّبَد الذي يعلو المرَبِّي الآخذة في الغليان، وناولتها لـ"زارا". يبدو أن "تالفي" كانت تحب تذوَّق المرَبِّي خلال إعدادها. أخذتها "زارا" في استسلام، وتذوَّقتها. أَحَسَّت بما يشبه الوخزة

المفاجئة في أسنانها من شدة الحلاوة. زحفت الديدان فوق الثمار الفاسدة، فبدا كأن بتلات الورود المرسومة في الإناء هي التي تتحرك. "أوليدا" هادئة بشكلٍ غير معقول. تجلس على مقعدٍ قريبٍ من الموقد، وتراقب الأواني التي تعلوه. عصاتها تتكئ على الحائط المجاور. تمسك بالمنشفة في يدها، وتضرب بها الذباب الذي يطير قريبًا منها بين الحين والآخر. حذاؤها البلاستيكي يلمع على الرغم من الإضاءة الخافتة داخل المطبخ. انبعثت من القدور رائحة بالغة الحلاوة، اختلطت برائحة الكرفس المُعدَّ للتجفيف، والعرق الذي بدأ يتصبَّب من جسدي المرأتين بفعل سخونة المكان. أحسَّت "زارا" بشيءٍ من التشوُّش والاضطراب. انزلق الإيشارب عن رأسها، وبدأ يتهدَّل حول رقبتها. شمَّت فيه رائحة "أوليدا". صار التنفس صعبًا. لاحقتها أسئلةٌ أخرى، على الرغم من أنها لم تحظَّ بإجابة عن الأسئلة التي سبقتها. كيف تعيش "أوليدا ترو" في هذا البيت؟ ما معنى كذف نوافذها بالحجارة؟ هل ستصل "تالفي" إلى هنا قبل "باشا"؟ تململت "زارا" في جلستها، بصبرٍ نافذ. شعرت بجفاف في سقف حلقها.

"أوليدا" لم تقل شيئًا، منذ أن برَّرت مسألتي الحجارة والكلمة المكتوبة على الباب. صمتها عذاب. كيف يمكن لـ "زارا" أن تدفعها للكلام عن مشكلاتها؟ كانت "أوليدا" غاضبة حين تحدَّثت عن غلاء الأسعار. ربما يتوجَّب عليها استخدام هذا الموضوع مرَّةً أخرى، لفتح الحديث من جديد. هل هو اختيارٌ جيد في الأساس؟ أسعار البيض، ربما، أو أسعار العظام المستخدمة لعمل الشوربة؟ السُّكَّر مثلاً؟ كانت "أوليدا" قد قالت إنها تفكَّر في زراعة البنجر مرَّةً أخرى، بسبب غلاء السُّكَّر. ولكن ما الذي ستقوله لها "زارا"؟ خلال العام الماضي، نسيت تمامًا كيفية التصرف بطريقة طبيعية. لم تعد تعرف كيفية محاورة الآخرين، ولا التواصل معهم. هدوء "أوليدا" الشديد يشعرها بالخوف. ماذا لو كانت "أوليدا" مجنونة؟ ربما كانت الحجارة والنوافذ مسألة لا تخصُّ "زارا" على الإطلاق، بالفعل. عليها أن تركِّز في أداء أي مهمة تشغل بها نفسها. التصقت بذور التوت، متناهية الصَّغر، بين أسنانها. أحسَّت بطعم الدم في فمها.

دَقَّت الساعة بصوتٍ معدني. الأخشاب تحترق داخل النار. سلال التوت فارغة. "أوليدا" تزيل الفقاعات والديدان من على سطح المرَبّي وهي تغلي. تفعل ذلك بانتباهٍ ودقةٍ يقتربان من حدِّ الجنون. و"باشا" يقترب. كلما مرَّت دقيقة، يقترب أكثر فأكثر. لن تتعطلَّ سيارته، ولن ينتهي البنزين بداخلها، ولن يسرقها أحد. تلك الأمور تحدث للأشخاص العاديين الذين يتعرضون للموت والفناء، أمَّا "باشا" فإنه من نوع آخر تمامًا. المشكلات الاعتيادية لا تؤثر فيه مُطلقًا. الأهم، هو أن "باشا" يحصل دومًا على كل ما يريد. "باشا" لا يتعرَّض لسوء الحظ، مثل غيره. إنه لا يعرف سوء الحظ أصلًا. يعرف المال. يعرف حُسن الحظ. إنه يقترب دون أي عائق.

تطوف "زارا" بعينها في المكان. لا صُور قديمة. لا كُتب. عليها أن تفكِّر في أمرٍ آخر. الصورة في جيبها.

تذهب "أوليدا" لإحضار أغطية البرطمانات من حجرة المِوَن، فتقرر "زارا" أن تنفذ فكرتها.



1991

برلين - ألمانيا

صورة الجَدَّة



في الصورة، صيَّتان تقفان إلى جوار بعضهما، وتُحدِّقان في عدسة الكاميرا، دون أن تجرَّأ على الابتسام. قَصَّة الفستانين أسفل الخصر مائلة قليلاً. ذيل أحدهما غير متساوٍ. لعله ممزَّق. إحدى الفتاتين تقف باستقامة أكبر من الأخرى. صدرها ناهدٌ أكثر، ولها خصرٌ نحيل. تضع إحدى قدميها أمام الأخرى بثقةٍ بالغة، لتُظهر ساقها الرشيقَةَ - المُغطَّاة بجوربٍ أسودٍ خفيف - بوضوح. هناك شارةٌ على صدر ثوبها، على هيئة ورقة نبات النفل. شكلها غير واضح في الصورة، لكن "زارا" تعرفها وتعلم أنها شعار لإحدى الجمعيات الزراعية الريفية، فقد أخبرتها جدَّتها عنها. تمعَّنت "زارا" في الصورة، فرأت شيئاً لم تلاحظه من قبل. هناك شيءٌ يشي بالبراءة الشديدة في وجهي الفتاتين، وخصوصاً في الخدود المستديرة الممتلئة. ربما لم تنتبه لذلك سابقاً، لأنها هي نفسها كانت تمتلك التعبيرات ذاتها. البراءة نفسها. تلاحظها الآن؛ لأنها فقدتها تماماً. تلك

وجوه لم تحتك بالواقع. ملامح من ينتظر المستقبل بشغف، ويؤمن بأن كل الأحلام قابلة للتحقيق.

أعطتها جدّتها هذه الصورة، قبل أن تسافر إلى ألمانيا، خوفاً من أي مكروه قد يحدث لها خلال غياب "زارا". المُسنُونُ مُعَرَّضُونَ لَشَتَّى الأمور. إن حدث لها شيء، فسوف تكون صورتها مع "زارا"، التي لن تضطر للمجيء للحصول عليها. حاولت "زارا" إقناعها بالعدول عن هذه الفكرة، لكنها تمسّكت برأيها وقرارها. تؤمن والدة "زارا" بأن كل شيء قديم هو بالضرورة نوع من القمامة، ولذلك فإنها ستتخلّص من جميع الصور القديمة. أوامت "زارا" بالموافقة. إنها تعرف طبيعة أمها. أخذت الصورة واحتفظت بها، على الرغم من استحالة الوضع والظروف في كثير من الأحيان. لن تفرط فيها أبداً، رغم خسارتها لبقية الأشياء التي تمتلكها. لم يعد لديها شيء. حتى القميص الذي تلبسه، ملكٌ لـ"باشا". حتى جسدها لم يعد ملكاً لها، كل أعضائه تعمل وفقاً لأوامر "باشا". حتى دخولها الحمام، رهنٌ بإذنٍ من "باشا". هو أيضاً من يحدّد نوع الفوط الصحية التي تستخدمها، أو يُقرّر إعطاءها عبوة قطن مكانها؛ لأنه يجد الأولى باهظة الثمن.

بالإضافة إلى الصورة، أعطتها جدّتها بطاقة كتبت على ظهرها عنوان المكان الذي وُلِدَتْ فيه، واسم القرية والبيت. "بيت البلوط". في حال إن مرّت "زارا"، خلال رحلاتها الكثيرة القادمة، بإستونيا. أثارت الفكرة دهشتها واستغرابها، لكن الجدّة كانت تجدها واقعية ومنطقية.

- ألمانيا قريبة جداً من إستونيا! اذهبي لترىها. إنها فرصة! يمكنكِ فعل ذلك بسهولة.  
لمعتُ عينا الجدّة حين أخبرتها بأنها ستسافر للعمل في ألمانيا. لم تتحمّس أمها. إنها لا تتحمّس لأي شيء على الإطلاق، في العموم، لكنها - تلك المرّة - اعترضت بحدّة. لم تعجبها خطط ابنتها. تعتقد أن الغرب مكانٌ يتصف بالخطورة. معرفتها بالمبلغ الذي ستحصل عليه ابنتها، لم يغيّر رأيها. الجدّة أيضاً لم تهتم بمسألة المال، وأصرّت على أن تستغل أجرها في زيارة إستونيا.



- تذكّري يا "زارا" أنكِ لستِ روسية. أنتِ إستونية. اشترى لي بعض البذور من السوق هناك، وأرسلها لي. أرغب في زراعة أزهار إستونية على حافة نافذتي.

خلف الصورة، كتبت الجِدَّة:

"إلى أوليدا، من أختها".

كانت قد كتبت على ظهر البطاقة اسم "أوليدا ترو". لم تكن "زارا" قد سمعت بالاسم

من قبل.

- مَنْ هي "أوليدا ترو" يا جدّتي؟

- شقيقتي. أختي الصغرى. أو هكذا كانت. ربما تكون قد ماتت. بإمكانك أن تسألي

عنها. إن كان أحدٌ يعرفها.

- لمّ لم تخبريني أبداً بأن لكِ أختاً؟

- لقد تزوّجت "أوليدا" ورحلت منذ زمن. ثم جاءت الحرب، وانتقلنا نحن إلى هنا.

عليك أن تذهبي لرؤية البيت. أخبريني بعدها مَنْ يسكن هناك الآن، وكيف أصبح شكل

المنزل. وصفتُ لكِ شكله من قبل.

حينما أوصلتها أمها إلى الباب، قبيل سفرها، وضعت "زارا" حقيبتها على الأرض وسألتها

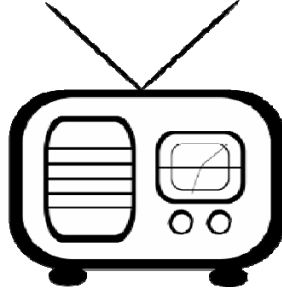
عن سبب عدم إخبارها لها بشأن خالتها. على غير العادة، أجابت الأم عن سؤال ابنتها.

- ليس لي خالة.

1992

"لانيما" - إستونيا

حكايات اللصوص



حين ذهبت "أوليدا" إلى حجرة المئون، أخرجت "زارا" الصورة من جيبتها، وراحت تنتظر. ينبغي على "أوليدا" أن تُبدي أي رد فعل، أن تقول شيئاً، أن تخبرها بأي شيء على الإطلاق. يجب أن يحدث أمر ما، عند رؤية "أوليدا" للصورة. تسارعت دقات قلب "زارا". ولكن عندما عادت "أوليدا" إلى المطبخ، ولوّحت لها "زارا" بالصورة، وقالت وهي تشهق بانبهارٍ مصطنع إن الصورة سقطت من بين الدولاب والجدار، عبر فتحةٍ في ورق الحائط، لم تُظهر "أوليدا" أدنى اهتمام يدل على معرفتها بالفتاة الموجودة في الصورة.

- ماذا في هذه الصورة؟

- كُتِبَ عليها: "إلى أوليدا، من أختها".

- ليس لي أخت.

قالت ذلك، ورفعت صوت الراديو عاليًا. كانوا يختتمون رسالة مفتوحة من إحدى الشخصيات الشيوعية، وعلى وشك الانتقال لعرض مزيد من الآراء.

- أعطيني إيّاها.

صوت "أوليدا" الأمر أجبر "زارا" على الطاعة، فناولتها الصورة. انتزعتها من يدها بسرعة.

سألته "زارا":

- ما اسمها؟

رفعت "أوليدا" صوت الراديو أكثر.

كرّرت "زارا" سؤالها:

- ما اسمها؟

- ماذا؟

".. وعندما كنا لا نملك حليبًا نُعطيه لصغارنا، ولا حلوى، فكيف كان بإمكانهم أن

يكبروا متمتعين بالصحة؟ هل علينا أن نُعوّدهم أكل الأشواك والأعشاب البرّية؟ أممّنى من

كل قلبي...!"

- كنا نشير للنساء أمثالها، قديمًا، بـ"أعداء الوطن".

".. أن نتممّن من توفير ما يكفي من الخبز، وأن يكون لدينا ما نأكله معه أيضًا..!"

- ماذا عن شقيقتك؟

- ماذا عنها؟ إنها لصة وخائنة.

خفضت "زارا" صوت الراديو.

تحاشت "أوليدا" النظر إليها. استطاعت "زارا" تمييز الاستياء والامتعاض في أنفاسها.  
احمرّت أذناها.

- حسنًا. كانت إنسانة سيئة. لأي درجة؟ ما الذي فعلته؟

- سرقت حبوبًا من مزارع الـ"كولخوز" الجماعية، وألقي القبض عليها.

- سرقت حبوبًا؟

- لقد تصرفت كما يفعل الخونة. لقد سرقت الشعب.

- لم لم تسرق شيئًا أكبر قيمة؟

رفعت "أوليدا" صوت الراديو من جديد.

- ألم تسألها؟

- عمّ أسألها؟

".. تمّت برمجة عقولنا، عبر العصور، لتُفكّر بطريقة العبيد، فلم تعد تُميّز سوى المال

والقوة. ولهذا لم يعد من المستغرب أن...".

- عن سبب سرقتها للحبوب.

- ألا تعرفون في "فلاديفيستوك" مِمّ تُصنّع الخمر؟

- سرقة الحبوب، كما يتراءى لي، هي فعلة إنسانٌ جائع.

قامت "أوليدا" برفع صوت الراديو لأقصى درجة.

".. علينا أن نستعين بقوة خارجية عظيمة، لتحافظ على الأمن في الداخل. ألمانيا، على

سبيل المثال. الديكتاتورية هي وحدها القادرة على إنهاء الفساد الراهن في إستونيا،

ووضع الاقتصاد على المسار الصحيح...".

- يبدو أنك لم تعرفي الجوع أبدًا يا "أوليدا"، ولذلك لم تسرقي شيئًا من الحبوب.  
تظاهرت "أوليدا" بالإصغاء إلى الراديو، وهممت تجاوبًا مع ما يُقال فيه، ثم تناولت رأس ثوم وتشاغت بتقشير فصوصه. تساقطت قشوره الخفيفة على الصورة التي وضعتها "أوليدا" فوق مجلة "نيللي تيتايا"، التي يعلو غلافها شعارها الذي يمثّل صورة مُظلمة بالأسود لامرأة عجوز. نزعت "زارا" فيشة الراديو. التهم أزيز الثلاجة الصمت المفاجئ. تساقطت فصوص الثوم في السُّلْطانية، وارتطمت بها كالحجارة. أحسّت "زارا" بحرارة حارقة تنبعث من الفيشة ليدها.

قالت "أوليدا":

- ألا تظنّين أنه ينبغي عليك أن تهدئي وتجلسي؟
- من أي مكان سرقت تلك الحبوب؟
- من الحقل. يمكنكِ رؤيته من هذه النافذة. ما الذي يجذبك لحكاية لصّة؟
- لكن الحقل يعود لهذا البيت.
- كلاً. ينتمي لنظام الـ"كولخوز"، أو الزراعة الجماعية.
- أعني قبل ذلك.
- قبل ذلك، كان هذا بيتًا فاشيًا.
- هل أنتِ فاشيّة يا "أوليدا"؟
- أنا شيوعية جيدة. لم لا تجلسين يا عزيزتي؟ تعلّمنا هنا أن يجلس الضيوف حين يُطلب منهم ذلك، وإلا فعليهم المغادرة.
- طالما أنك لم تكوني فاشيّة أبدًا، متى إذًا انتقلتِ لهذا المنزل؟
- لقد وُلِدْتُ هنا. والآن، أعيدي تشغيل الراديو.

- أنا لا أفهم. هل تقصدين بأن أختكِ سرقت حبوبًا من حقلها؟  
- بل من حقول الـ"كولخوز"! أعيدي تشغيل الراديو يا بنت. الضيوف لا يتصرّفون  
وكأنهم أصحاب البيت، أبدًا. لعل هذه هي طباعكم في المكان الذي أتيت منه!  
- أنا آسفة. لم أقصد أن أكون وقحة. لقد جذبتني قصة أختكِ. هذا كل ما في الأمر. ما  
الذي حدث لها؟

- أخذوها بعيدًا. ما سبب اهتمامكِ بقصة سارقة؟ إن حكايات اللصوص لا تعجب سوى  
اللصوص!

- إلى أين أخذوها؟  
- أينما يأخذون أعداء الشعب.  
- ثم ماذا؟  
- ما معنى هذا السؤال؟ "ثم ماذا"؟

قامت "أوليدا" واقفة، وأزاحت "زارا" عن طريقها، مستعينةً بعصاها، ثم أعادت وضع  
فيشة الراديو في مكانها.

".. إن أرواح العبيد تتوق إلى السياط، وتشتهي - من حينٍ لآخر - البسكويت الروسي  
بريانيكي...".

- أعني ما الذي حدث بعد ذلك؟  
الصورة مُغطّاةً بقشور الثوم، التي تهتزُّ في مكانها لشدّة ارتفاع صوت الراديو.  
- كيف أخذوا أختكِ فقط، وبقيتِ أنتِ هنا يا "أوليدا"؟ ألم تصبحي موضع شك؟  
لم تُبَدِ "أوليدا" أي إشارة تدل على أنها سمعت ما قالته "زارا"، واكتفت بالصياح أمرًا:

- ضعي مزيدًا من الحطب في النار.

- هل كان ذلك لتمتعكِ بخلفية قوية؟ هل كنتِ عضوًا فاعلاً في الحزب؟

تراقصت قشور الثوم، إلى أن وصلت إلى حافة الطاولة، ثم بدأت بالتساقط على الأرض.

جمعتها "أوليدا" لترميها في النار. خفضت "زارا" صوت الراديو، ووقفت أمام الجهاز.

- هل كنتِ رفيقة جيدة في الحزب، يا "أوليدا"؟

- كنتُ جيدة. وكذلك زوجي "مارتن". كان أحد منظمي الحزب. ينتمي لعائلة إستونية

شيوعية قديمة. ليس كأولئك الانتهازيين الذين ظهروا لاحقًا. حصل على أوسمة، وجوائز.

زاد لهب النار فجأةً، وغطى بصوته على الأصوات المنبعثة من الراديو. تسارعت نبضات

"زارا". وضعت يدها على صدرها، لتهدئ أنفاسها المتلاحقة. فتحت أزرار ثوبها. وجدت

صعوبة بالغة في تصديق أن هذه المرأة التي تقف أمامها الآن، هي ذاتها "أوليدا" التي

كانت تثرثر معها منذ قليل. تحوّلت بغتةً، وأمست باردةً وشديدة الصلابة. لم يعد بإمكان

"زارا" استخلاص أي معلومةٍ منها.

- أظن أنه ينبغي عليكِ أن تذهبي لتنامي الآن. هناك الكثير لنُفكّر به في الغد.. مثل

موضوع زوجك، هذا إن كنتِ ما زلتِ تتذكّرين هذه المشكلة.

تحت الأغطية الصوفية الثقيلة، في الغرفة الأمامية، ظلّت "زارا" تتنفس بمشقة. لقد

ميّزت "أوليدا" جدّتها.

لكن الجدّة ليست لصةً ولا فاشيّة.. أم تُراها كانت كذلك؟

ارتفع صوت المنشّة وهي تضرب حشرةً في المطبخ.

## الجزء الثاني

"سبعة ملايين سنة"

ونحن ننصت لخطب القائد "الفوهرر"

السبعة ملايين سنة نفسها

ونحن نرى أشجار التفاح وهي تُزهر".

- الشاعر الإستوني "بول إيريك رومو"





يونيو 1949

## عاشت إستونيا حُرّة!



فنجان "إنجل" معي هنا. أودُّ أن أحصل على وسادتها أيضًا، لكن "ليدا" ترفض إعطاءها لي. إنها تتصرّف بارتياحٍ وبلا كُلفة، مرّةً أخرى. حاولت تصفيف شعرها بطريقة "إنجل" ذاتها. لعلّها تحاول إسعادي، لكنها تبدو قبيحة. لا أستطيع مصارحتها برأيي هذا، فهي التي تجلب لي الطعام وكل ما أحتاج إليه. إن أثرتُ حنقها، فلن تسمح لي بالخروج من هنا. لن تُظهر غضبها، لكنها لن تخرجني، ولن تحضر لي أي طعام. في آخر مرّة، تركتني أعاني الجوع ليومين كاملين. أعتقد أن طلبي لقميص نوم "إنجل" كان السبب. منعت عنيّ الخبز.

حين تخرجني، أتلفّط معها وأحاول إسعادها. أثرتُ بمرح، وأجعلها تضحك قليلًا، وأثني على طبخها. إنها تحب ذلك. في الأسبوع الماضي، صنعت لي كعكة السّتّ بيضات. لم أسألها عن كيفية حصولها على ذلك العدد الضخم من البيض. هي التي حرصت على سؤالي. أرادت التأكيد مما إذا كانت كعكتها أفضل من تلك التي تعدّها "إنجل"، أم لا؟ لم أجبها. هأنا الآن أفكر في شيءٍ لطيف أقوله لها.

أنام واضعًا مسدسي الـ"فالتز"، وسِكينِي، بجواري. أتساءل ما الذي يؤخر إنجلترا عن

القدوم؟

"هانس بيك"، ابن "إيريك"، فلّاح إستوني

1936 - 1939

"لانيما" - إستونيا

## زهرة الليلك.. والوقوع في الغرام



في كل يوم أحد، وعقب خروجهما من الكنيسة، اعتادت "أوليدا" و"إنجل" السير إلى المقابر لمقابلة أصدقائهما، ومراقبة الفتيان، والمُغازلة بالقدر الذي تسمح به أصول اللياقة واللباقة. داخل الكنيسة، تجلسان دائماً بالقرب من قبر "أوجستا"، أميرة منطقة "كولفير"، وكل واحدة منهما تلف كاحليها حول بعضهما. تتلهفان على الخروج واستعراض نفسيهما وسيقانهما الرشيقة المغطاة بجوارب حريرية سوداء، وغالية الثمن. كل أحد، تبدوان في أبهى صورة؛ جميلتين، ومهيأتين لاستقبال العريس. صَفَّفت "إنجل" شعرها في جدائل جمعتها أعلى رأسها، كالتاج. "أوليدا"، ولأنها أصغر سنًا، تركت ضفيريتهما مسدلتين. ذلك الصباح، أعربت عن رغبتها في قَصَّ شعرها. لقد شاهدت فتيات المدينة بخصلات قصيرة متموجة، غاية في الجمال. يمكن تجعيد الشعر وفق

تلك الموضة مقابل كرونين فقط. لكن "إنجل" ارتعبت من الفكرة، وطلبت منها عدم ذكر شيء عنها أمام والدتهما.

لسبب ما، كان ذلك الصباح لطيفًا على نحوٍ خاصٍّ. شذى أزهار الليلك فوّاح وجدّاب. بدأت "أوليدا" تشعر بأنها كبرت ولم تعد طفلة. وقفت أمام المرأة، وقرصت خديها. يُدخلها إحساس يقترب من اليقين بأن أمرًا رائعًا سيحدث لها خلال هذا الصيف. ما الذي يعنيه إيدًا عثورها على زهرة ليلك بخمس بتلات؟ تلك نبؤة، ولا شك، وهو ما دفعها لأكل الزهرة. حين ينتهي القدّاس، وتبدأ جموع الناس في مغادرة الكنيسة، تخرج الفتاتان وتسيران تحت أشجار الصنوبر باتجاه المقابر. تحتك أرجلهما بنباتات "السرخس"، وتتراكض السناجب حولهما؛ وبين الحين والآخر، يعلو خرير الماء من البئر القريبة. من على مسافة بعيدة، يأتيهما نعيق غربان.. ما هذا الذي يقوله الغراب عن العرسان، دائمًا؟ ترمت "إنجل":

- انعق انعق أيها الغراب.. مَنْ مِنَّا سيقع في الغرام؟

المستقبل مشرق، والحياة حلوة. آمال الأعوام المقبلة تشعل صدريهما، كما يحدث لكل الفتيات في هذا العُمر.

أنهت الفتاتان دورةً كاملةً حول المقبرة، وهما تتبادلان الهمس حينًا، وتقفان للتحدّث مع أصدقائهما حينًا آخر. اشتبك طرف فستان "أوليدا" الحريري بجانب من السور الحديدي المحيط بأحد القبور. حين انحنت لتخلص ثوبها، لمحت رجلًا يقف قريبًا من قبور الألمان، بجوار الحائط الحجري. شاهدت عدّة أشياء معًا، في اللحظة نفسها.. هو، وشجر الصفصاف، والبريق المنعكس من أشعة الشمس، والجدران المُغطّاة بالطحالب الخضراء، والنور الساطع، وابتسامته الأخاذة. كان يضحك مع أحد. انحنى ليعقد رباط حذائه، وهو يواصل حديثه، ناظرًا إلى وجه صديقه. حين انتهى، وقف باستقامةٍ وسهولة.

نسيت "أوليدا" أمر فستانها، فوَقَّفت قبل أن تُحرِّره من اشتباكه بالسور. تنبَّهت على صوت الحرير وهو يتمزَّق. سحبت طرف ثوبها، ثم نفضت الصدا الذي علق بيديها. حمدًا لله أن التمزُّق صغير. ربما لن يُلاحظه أحد. ربما لن يُلاحظه هو. أعادت "أوليدا" ترتيب شعرها بأصابع تسلَّل إليها الخدر.

"انظر!..".

عصَّت "أوليدا" شفيتها، كي تُصباحا حماروين. قد يغادران في أي لحظة. قد يبتعدان عن الحائط الحجري.

"انظر نحوي.. هنا!".

"انظر إليّ!".

أنهى الرجل حديثه مع صديقه، والتفت نحوهما. في تلك اللحظة، ذاتها، التفتت "إنجل" أيضًا، لترى ما الذي يعيق أختها. سلَّطت الشمس أشعتها البرَّاقة على تاج الضفائر الذي يعلو رأسها، و..

"كلًا! كلًا! انظر إليّ أنا!".

رفعت "إنجل" عنقها بشكلٍ مستقيم، كما هي عاداتها. حين تفعل ذلك، تتحوَّل إلى بجة فاتنة. رفعت ذقنها، والتقت أعينهما. تبادلت "إنجل" النظرات مع الرجل. تيقَّنت "أوليدا" على الفور من أنه لن يراها أبدًا، حين لاحظت أنه صمت تمامًا، وأن يده الممسكة بعلبة السجائر التي أخرجها للتو من جيبه، ظلَّت مُعلَّقةً في الهواء. رأت الطريقة التي يُحدِّق بها في "إنجل"، وشاهدت طرف عبوة السجائر وهو يلمع كنصل سكين. اقتربت "إنجل" من "أوليدا"، وقد تركَّزت نظراتها عليه. بشرتها تزداد بريقًا. تناديه بقوة في صمت. دون أن تنظر إلى "أوليدا"، قبضت على يدها، وجرَّتها نحو الحائط الحجري، حيث يقف الرجل بجمود. لاحظ صديقه أخيرًا أنه لا يسمع شيئًا مما يقوله له. تنبَّه أيضًا ليده العالقة في الهواء. رأى "إنجل" وهي تسحب "أوليدا" وراءها، والأخيرة

تحاول مقاومتها بكل ما أوتيت من قوة. طرف حذائها يغوص في طين الأرض. تحاول التشبُّث بالأشجار والجذور والحجارة، دون جدوى. تدخل ذبابة إلى فمها، لا تستطيع بصقها؛ لأن "إنجل" ترفض التوقُّف، وتواصل جرَّها بسرعة. "إنجل" تسحبها، والدرب سالك، ولا يؤدي إلا إلى الجدار الحجري. شاهدت "أوليدا" وجه الرجل، الذي يخلو من أي تعبير، وكأنه خارج الزمان والمكان. شعرت بخطوات "إنجل" المحمومة، وأحسَّت بأصابعها وهي تلتف حول يدها بقوة متزايدة. نبض "إنجل" المتسارع، يتسرَّب إلى كفها. تصارعت مشاعرها المضطربة على صفحة وجهها. أحسَّت "أوليدا" بأن شقيقتها تصفعها بتلك الانفعالات المتضاربة. الغمازتان اللتان تزيَّنان خديَّها عندما تبتسم، كما حدث عندما ابتسمت لـ"أوليدا" هذا الصباح، غادرتا وجهها، وطارتا بعيدًا. عندما وصلتا إلى الجدار، كانت أخت "أوليدا" قد أصبحت غريبةً عنها. إنها "إنجل" جديدة، لن تبوح بأسرارها لـ"أوليدا" وحدها، ولن تشاركها شرب المياه الغازية في الحديقة العامة. ستفعل كل شيء، منذ هذه اللحظة، مع شخص آخر. "إنجل" جديدة، لديها شخص آخر.. شخصٌ ينصت لأفكارها، ويصغي لضحكاتها، وكل تلك الأمور التي تعشق "أوليدا" فعلها مع أختها. لديها شخصٌ ببشرة ذات رائحة متميزة، أحبَّت "أوليدا" لو أنها هي التي تستنشقها.. وبجسدٍ دافئٍ تمَنَّت لو أنها هي التي تنعم به. شخصٌ كان ينبغي أن يرى "أوليدا"، ويتجمَّد عند رؤيتها، وتتسمَّر يده في الهواء ممسكًا بعلبة السجائر الفضية؛ لكن ذلك كله حدث من أجل "إنجل" وحدها. علبة السجائر، تحوَّلت ببريقها - في تلك اللحظة - إلى سكينٍ لامعة، فرَّقَت بنصلها الحادِّ بين الأختين "إنجل" و"أوليدا".

ركضت الجارة "آينو" نحوهما. كانت تعرف صديق الرجل. عرَّفت "إنجل" إليهما. أصدرت أغصان الصفصاف حفيفًا. لم ينظر الرجل إلى "أوليدا" ليحييها. غمرت أشعة الشمس أسود إستونيا الثلاثة، التي تتوسط علبة السجائر، فضحكت.

"إنجل" مرّة أخرى. دائماً "إنجل". "إنجل" تحصل دوّمًا على كل ما تريد، ولن يتوقّف ذلك أبدًا؛ لأن الرب لا يكفُّ عن السخرية من "أوليدا". لا يكفي أبدًا أن "إنجل" تتذكّر كل توجيهات أمها، وأنها تشطف الأطباق عند غسلها بماء سلق البطاطس لتجعلها لامعة.. بينما الأطباق التي تغسلها "أوليدا" تظل غير نظيفة ومُغطّاة بطبقة من الدهون؛ لا يكفي طبعًا.. بل إن "إنجل" تجيد عمل كل شيء، حتى ما لم تُعلّمها إيّاه الأم. حين تحلب البقرة، يمتلئ دلوها حتى حافّته بالحليب الذي تعلوه طبقة من الرغوة النظيفة. حدث ذلك منذ المرّة الأولى. خطوات "إنجل" في الحقل، تجعله خصبًا ومُخصرًا. ولكن كل ذلك غير كافٍ بطبيعة الحال، عليها كذلك أن تحصل على الرجل الذي رأته "أوليدا" قبلها. الرجل الوحيد الذي أرادته "أوليدا" بشدّة.

من المنطقي السماح لـ"أوليدا" بالحصول على أي شيء.. على رجلٍ واحدٍ في حياتها غير المنظمة. الحصول على ما تريده، ولو لمرةٍ واحدةٍ فقط. منذ ولادتها، وهي تراقب نجاحات "إنجل".. اللبن الذي تحلبه بطريقةٍ نظيفةٍ للغاية، لا يحتاج معها لتصفيته لاحقًا. كل ما تقوم به يتّسم بالمثالية. فازت في مسابقة "حلب الأبقار للمزارعين الشباب"، دون مجهود. على عكس الجميع، لم تسقط شعرة واحدة من البقرة في دلوها. ما يتعرّض له الجميع، لا ينطبق على "إنجل" أصلًا.. حتى إن وجهها بقي صافيًا ولم تُعانِ أبدًا من مشكلة حَبّ الشباب. رائحة عرقها لطيفة وغير مُنْفرة. المشكلة النسائية الشهرية لا تجعل جسدها مُمتلئًا في تلك الأيام، ويظل خصرها نحيلًا كالمعتاد. البعوض لا يترك أثرًا، بلدغاته المؤلمة، في بشرتها. الدود لا يعرف طريقًا للكرب الذي تزرعه. المرّبي التي تصنعها ممتازة دائماً، وكذلك الكرب المخلل. الفاكهة التي تزرعها هي الأجود، ولذلك تزين شارة "المزارعين الشباب" صدرها في كثيرٍ من الأحيان. والشارة لامعةٌ على الدوام، دون خدش على سطحها الذي يصوّر زهرة نفل بأربع بتلات؛ أما أختها فقد أضاعت شاراتها عدّة مرّات. في البدء، كانت الأم تهزّ

رأسها بيأس ونفاد صبر، ثم اعتادت المسألة وتوقفت عن ذلك، إذ أدركت أن لا شيء سيغير من طباع ابنتها الصغرى.

كل ذلك غير كافٍ. وفوز "إنجل" بـ"هانس"، الرجل الوحيد الذي تعلّق به قلب "أوليدا"، ليس كافياً أيضاً. بعد لقاءها "هانس"، أصبحت "إنجل" أكثر جمالاً، وصارت ابتسامتها أكثر بهاءً. ازدادت تألقاً، حتى أمست تُضيء بوجودها الليالي الماطرة، حالكة الظلام. الوضع خائق، و"أوليدا" تستيقظ من نومها ليلاً غير قادرة على التنفّس. تترنّح حتى تصل إلى الباب وتفتحه بحثاً عن نسمة هواء. كل ذلك غير كافٍ. معاناة "أوليدا" تكبر وتتضخم؛ لأن "إنجل" لم تعد قادرة على الاحتفاظ بمشاعرها لنفسها. تبوح بها بصوت هامس لـ"أوليدا" طوال الوقت. "هانس" يفعل كذا، و"هانس" يقول كذا. وتلح عليها لتنظر إليه وتتأمل ملامحه ولفنتاته. هل تنمُّ عن الحب؟ هل يرمى الأخريات بالطريقة نفسها، أم أنه يختصّها وحدها بتلك النظرات؟ ما الذي قصده حين قال هذه العبارة أو تلك؟ ما دلالة الزهرة الزرقاء التي أهداها لها؟ هل تعني الحب؟ الحب لها وحدها؟ نعم.. هذا ما كانت تعنيه هديته لها. الحب لها وحدها! "هانس" كان يتبعها كظلّها، أو ككلبٍ اشتدَّ به الغرام والهيام!

انسابت في أرجاء البيت أصوات همساتهما وهمهماتهما، وقبل اكتمال عام على لقاءهما ظهرت زجاجة خمر، وتوسطت الطاولة، في إشارةٍ لطلبه يدها. بعدها، بدأت استعدادات الزفاف، وامتلأت صناديق "إنجل" باحتياجاتها في المرحلة المقبلة، واجتمعت نساء القرية في المنزل منهنمكات في حياكة الألففة وتطريزها. رقصت الفتيات الضاحكات في تلك الأمسيات. ثم ظهر الهلال، حاملاً معه الحظ الحَسَن وأمنيات الخير والصحة للعروسين. لا حديث سوى عن الزفاف، والزوجين السعيدين. الضيوف ينتظرون خروجهما من الكنيسة لبدء الاحتفالات. طرحة العروس وهي تتطاير بخفّة. "أوليدا" ترقص. ساقاها مُغطّاتان بجوربين حريرين أسودين. تخبر الجميع عن مدى سعادتها لفرحة



شقيقتها، وتعلن عن امتنانها لوجود رجل شاب في بيتهم. قفازا "هانس" يلمعان لبياضهما الناصع. رقص رقصةً واحدةً مع "أوليدا"، لكن أنظاره خلالها ظلَّت مُعلَّقةً بـ"إنجل"، تراقب بشغف رفيف طرحتها.

"هانس" و"إنجل" في الحقل معًا. "إنجل" تركض لاستقباله. "هانس" يزيل القش عن شعرها. "هانس" يحيط خصرها بذراعيه بقوة، ويدور بها في حديقة البيت. "إنجل" تركض وتختبئ خلف الحظيرة. "هانس" يجري وراءها ويلحق بها. يضحكان. يقهقهان. طويلًا. طويلًا. "هانس" يخلع قميصه. "إنجل" تسارع بمدَّ يديها نحوه. تتحسَّس جلده. "إنجل" تصبُّ الماء على ظهره. تغسل شعره. يضم أصابع قدميه إلى بعضها، في استمتاعٍ واضح. همسات. همهمات. الأصوات الخافتة لاحتكاك ثياب النوم بالأجساد. خشخشة القش داخل مرتبة الفراش. الاهتزاز الخفيف لهيكل السرير الحديدي. التقلُّب. الضحك. التنهُّدات. الأنين المكتوم على الوسائد. التأوُّهات وهي تفلت من وراء الأصابع التي تُغطِّي الفم. سخونة العرق وهي تتسرَّب عبر الحائط الذي يفصلهما عن سرير "أوليدا" المُعذَّب. الصمت. "هانس" يفتح الشباك، مستقبلاً نسمات الليلة الصيفية. يستند إلى حافة النافذة بصدرة العاري، وهو يُدخِّن سيجارة لفَّها بنفسه. رأسه يلمع في الظلام. لو وقفت "أوليدا" في شباكها، لراته، بيده المعروقة التي تمسك بين أصابعها الطويلة سيجارة، يتساقط رمادها الحارق على حوض أزهار القرنفل.



1939

"لانيما" - إستونيا

غربان الجَدَّة



ذهبت "أوليدا" لمقابلة "ماريا كريل" في مزرعتها الصغيرة. اشتهرت الجَدَّة "كريل"، بعينيتها الحاسدتين، وبقدرتها على إيقاف أي نزيه منذ زمنٍ طويلٍ عندما وُلدت "أوليدا"، والتي كانت تثق تمامًا في القدرات الخارقة لتلك المرأة.

أحسَّت "أوليدا" بشيءٍ من الحرج، لاضطرارها إلى الكشف عن معاناتها للجَدَّة "كريل". لكنها لم تكن تعرف شخصًا آخر يمكنها اللجوء إليه.

كانت "ماريا كريل" تجلس على مقعدٍ خشبيٍّ عريضٍ في حديقة بيتها، مُحاطةً بقططها. عند رؤيتها لـ "أوليدا"، أخبرتها بأنها كانت تتوقَّع حضورها.

- هل تعرفين طبيعة الأمر، آنسة "كريل"؟

- فتى بشعرٍ أشقر. صغير السن ووسيم.

دسَّت قطعة خبز في فمها الخالي من الأسنان، وابتلعته.

وضعت "أوليدا" برطمان عسل على السُّلَم القريب. تدلّت النباتات العشبية من على سور البوابة. وقف غرابٌ صامت، يحدّق بهما. أحسّت "أوليدا" بالخوف منه، فمنذ طفولتها وهي ترتعب من الحكايات التي تدور حول الناس الذين تمّ تحويلهم إلى غربان. المرّة الأولى التي جاءت فيها للجَدّة "كريل"، حين أصاب والدها قدمه إصابة بالغة بالفأس، كانت حديقته ممتلئة بالغربان التي لا تتوقّف عن النعيق. في مطبخها، حيث كانت تجلس، أصدرت أوامرها للجميع بالخروج، وتزكّها مع الرجل الجريح فقط. أحسّت الصغيرتان بالارتياح لذلك، إذ شعرتا بالانزعاج الشديد في المطبخ ذي الروائح الغريبة النفاذة، التي أركمت أنف "أوليدا". كان هناك برطمان كبير فوق الطاولة، يمتلئ بالديدان، لمعالجة الجروح.

رفرف الغراب بجناحيه خلف المقعد الخشبي. التفتت نحوه المرأة وأومات له، كأنها تحييه. طار مُختفياً بين الأغصان التي كانت تصدر حفيفاً متواصلًا. رغم سطوع الشمس، كان الجو باردًا في الحديقة. يمكن رؤية المطبخ المعتم، من خلال الباب المفتوح. لمحت "أوليدا" في مدخل المنزل مجموعة من الوسائد ناصعة البياض. تساقط الضوء على عددٍ منها، مُنيرًا الدانتيل الذي يزيّن حوافّها. تحرص الجَدّة "كريل" على جمع هذه الوسائد التي توضع بجوار رؤوس الموقى داخل التوابيت.

- هل أتاكِ زوّارٌ؟

- الزوّار لا يتوقّفون عن المجيء. البيت يمتلئ بهم دائماً.

ابتعدت "أوليدا" عن الباب.

- يبدو أن الجوّ سيُسوء.

قالت الجَدّة ذلك، وهي تضع قطعة خبز أخرى داخل فمها، ثم أردفت:

- لكنكِ لا تهتمين بمثل هذه الأمور، على الأغلب. هل تسمعين ما تقوله الغربان، يا

"أوليدا"؟

لاح الفزع على وجه "أوليدا"، فضحكت المرأة العجوز وقالت إن الغربان صامتة منذ بضعة أيام. تَلَفَّت "أوليدا" حولها. المكان يمتلئ بالغربان، لكن لا صوت يصدر من أيٍّ منها. سمعت مواء قطة، آتياً من وراء المنزل. كان الصوت أشبه بنحيبٍ أو عويل. القطة شبقة، في موسم التزاوج. نادتها العجوز. خلال لحظات، كانت القطة تتمسح في العجوز، التي دفعتها بعصاها تجاه "أوليدا".

- لا أعرف سرَّ إصرارها على هذه المسألة..

قالت العجوز ذلك، وهي تتفحص "أوليدا" بعينين غائمتين بعض الشيء. احمرَّ وجه "أوليدا" في ارتباك. واصلت المرأة حديثها:

- هكذا هي! حتى الغربان هادئة تماماً، في هذا اليوم تحديداً، ولكن من يستطيع

إسكات قطة في موسم التزاوج؟

ما الذي تقصده بـ"هذا اليوم تحديداً"؟ هل تشير إلى أن الطقس سيئ؟ هل سيؤثر ذلك على الحصاد؟ هل سيجوع الناس؟ هل تتكلم عن روسيا، أصلاً، أم عن حياة "أوليدا"؟ هل سيتعرَّض "هانس" إلى مكروه؟ تمسحت القطة على ساقَي "أوليدا"، التي انحنى لتربت عليها. ضربت القطة كَفَّ "أوليدا" بمؤخرتها، وابتعدت عنها. ضحكت العجوز بكآبة. ضحكة خافتة وعليمة ببواطن الأمور. أحسَّت "أوليدا" بقشعريرة في يدها، امتدت إلى كامل جسدها. كأن جسمها يمتلئ بأعواد قش حادة، تصارع من أجل اختراق جلدها والخروج منه. كان عقلها شبه المغيَّب قد ألحَّ عليها، بشكلٍ متواصل، بضرورة زيارة "كريل" بأسرع ما يمكن. تركت "هانس" بمفرده في البيت مع "إنجل". الأب مع الأم، يزوران الجيران. وهي هنا. عندما ستعود إلى المنزل، ستنبعث من "هانس" رائحة الذكورة.. أضعافاً مضاعفة. ستفوح من "إنجل" رائحة الأنوثة.. أضعافاً مضاعفة. كما يحدث في كل مرّة يكونان فيها بمفردهما، ولو للحظةٍ واحدة. عدَّبتها الفكرة، وتزايد الوخز المولم تحت جلدها.

بدأت "أوليدا" تتململ في وقتها، وتحركت قدمها قليلاً. غادرت "ماريا كريل" مقعدها، ودخلت البيت. أغلقت الباب وراءها. لم تدري "أوليدا" إن كان ذلك يعني ضرورة رحيلها، أم أنه ينبغي عليها الانتظار. سرعان ما خرجت العجوز، حاملةً زجاجة صغيرة بيضاء اللون، تسبقها ابتساماً عريضةً أدخلت شفيتها إلى داخل تجويف فمها الخاوي. تناولت "أوليدا" الزجاجة. حين أغلقت البوابة خلفها، همست العجوز:

- هناك نقطة سوداء في حياة ذلك الفتى ستؤثر عليه حتى آخر يوم في عمره.

- هل بإمكانني...

- أحياناً. وفي أحيانٍ أخرى، لا يمكنك فعل ذلك.

- حتى لا يعود باستطاعته رؤية غيري؟

- الطين المتعطش لا يُنبت إلا الأزهار الضعيفة يا صغيرتي.

غادرت "أوليدا" المزرعة بخطواتٍ متعجّلة، حتى كادت فردتا حذائها الجلدي، تسقطان من قدميها. قبضت الزجاجة بقوة، حتى أصبحت دافئة بين أصابعها الباردة. أليس هناك ما يمكنه إيقاف الألم المتصاعد في صدرها؟

كانت "إنجل" تضحك في حديقة المنزل، وهي تجلب الماء من البئر، بصفيرتين مفكوكتين، وخذنين أحمرين، وهي تلبس ثوبها الداخلي فقط.

على سرير "أوليدا"، يتمدد الكاتب "فرايدبيرت توجلا" داخل كتابه "أزهار الكرز"؛ أما على فراش "إنجل"، فيستلقي رجلٌ حقيقيٌّ في انتظارها. لم الأوضاع معكوسة على هذا النحو؟

لم يسعف الوقت "أوليدا" ملاحظة تأثير المشروب الذي أعطتها إيّاه الجدة "كريل". كان من المفترض أن يضاف لبعض القهوة، لكن "إنجل" لم تتمكن من شرب قهوتها صباح اليوم التالي، وركضت إلى الخارج لتتقياً. لقد تمّ الأمر الذي كان يُفترض بشراب الجدة أن يمنع حدوثه. "إنجل" حامل.

1939 - 1944

"لانيما" - إستونيا

الاضطراب على الجبهة



حين وجَّهت الدعوة إلى الألمان البلطقيين - ممن يعيشون في "لاتفيا" وإستونيا - لزيارة ألمانيا، مرَّت إحدى صديقات الفتيات بهما، وكانت زميلةً لهما في المدرسة وفي حصص الدروس الدينية. ودَّعتهما، ووعدت بالعودة السريعة. قالت إنها ستذهب لتتجوَّل في بلد لم يسبق لها رؤيته، وإنها ستحكي لهما عقب رجوعها عمَّا شاهدته في ألمانيا. لوَّحتا لها، مودعتين. راقبت "أوليدا" ذراع "هانس" وهي تحيط خصر "إنجل"، ويده وهي تستريح على مؤخرتها. يمكن سماع همساتهما، حتى من الحديقة الأمامية للبيت. غرزت "أوليدا" أسنانها في كفِّها. رؤية جسم "إنجل" الآخذ في التضخم، وتخيَّل جسد "هانس" وهو يحتويه، يعدَّبانها طوال الوقت. ليل نهار. في نومها ويقظتها. لا يمكنها رؤية أو سماع شيء آخر. لم يلحظ أيُّ منهما التجهُّم الذي بدأ يحتل وجوه الأشخاص الأكبر سنًّا. تجهُّم لا يختفي، بل يزداد عمقًا في قساماتهم. لم ينتبهوا إلى شرود والد الفتاتين، ومتابعته للغروب على حافة الحقل، وهو ينفث دخان

غليونه، كأنما ينتظر إشارة معينة ستلوح في الأفق. كان دائم التأمل لأوراق شجر "القيقب". يزفر ويتنهد وهو يقرأ الجريدة أو ينصت للراديو، ثم يترك ذلك ليستمع إلى تغريد الطيور. في 1940، وُلِدَت الطفلة. "ليندا". أَحَسَّت "أوليدا" بأن رأسها يوشك على الانفجار. طاف "هانس" بالمكان، حاملاً ابنته. لمعت عينا "إنجل" ببريق السعادة. غطى الدمع عيني "أوليدا". غاصت عينا الأب تحت كمّ هائل من القلق. انهمك في تخزين البنزين، واستبدال بالأموال الورقية التي يمتلكها قطعاً من الذهب والفضة. ظهرت الطوابير في القرية. الطوابير الأولى في البلد بأكمله. خلت الدكاكين من السُّكَّر. لم يصبح "هانس" مولعاً بـ"أوليدا"، رغم نجاحها في دس دمها داخل طعامه، ثلاث مرّات، إحداها بكمية كبيرة حقاً. عليها أن تجرب إضافة بولها، في المرّة المقبلة. كانت "ماريا كريل" قد قالت إنه أكثر فاعلية، في بعض الأحيان.

بدأ "هانس" في تبادل مناقشات جادّة، هادئة، مع الأب. لعَلَّهما تعمّدا عدم إخافة نساء الأسرة بكلامهما، ولذلك حرصا على عدم قول شيء يتعلق بالإشارات المُقلِّقة التي تلوح في الأجواء، على مسمعٍ منهن؛ أو لعَلَّهما تناولا المسألة في أحاديثهما بالفعل، لكن أياً من الأختين لم تُعر الأمر اهتماماً يُذكر. التقطية التي تعلو وجه الأب، لم تثر قلقهما.. إنه رجلٌ مُسن، من الزمن القديم، الذي يخشى أفرادَه الحرب. الطلّاب المنتمون لحركة "إستونيا الحرّة" لا يخافون تلك الأمور. لم يقوموا بارتكاب أي جريمة، فلمَ قد يلحقهم الضرر؟ لم يبدؤوا في فقدان تفاؤلهم إلا عقب انتشار الفِرَق والفصائل السوفيتية في البلد. أدركوا عندها أن مستقبلهم معرّض للخطر. فيما كانت "إنجل" تهدد صغيرتها، أسرّت لـ"أوليدا" بأن "هانس" صار يتشبّث بها عندما يحتضنها، وأنه يظل ممسكاً بيدها طوال ساعات الليل، عندما ينام بجانبها. قالت إن قبضته لا ترتخي ولو للحظة، حتى بعد استغراقه في النوم. الوضع غريب، كما تظن، لأنه

يتمسك بها كما لو كان يخشى اختفائها. أنصت إليها "أوليدا"، على الرغم من أن كل كلمة تُلْفِظت بها كانت كخنجر تغرزه في قلبها. في الوقت ذاته، أصبحت تشعر بأن الشيء الذي يسيطر على تفكيرها وحواسها، لم يعد بالقوة نفسها. اختفى بعضه، تاركًا مكانه شيئًا آخر.. الخوف على "هانس".

لم يعد بإمكان الشابتين تجاهل الحقيقة، بعد مرورهما بميدان القرية، حيث كانت أوركسترا الجيش الأحمر تعزف مارشات عسكرية سوفيتية. لم يكن "هانس" معهما، إذ لم يعد يجرؤ على الظهور في البلدة، ولم يكن يرغب في خروج الفتاتين أصلًا. في أول الأمر، بدأ ينام في الحجرة الصغيرة التي تقع خلف المطبخ، ثم صار يمضي اليوم بأكمله فيها، وأخيرًا توجه إلى الغابة وبقي هناك.

تصاعدت الضحكات غير المُصدِّقة في مختلف البلدات والقرى. سخر الناس من العبارات الآخذة في الانتشار.. "نحارب من أجل الهدف العظيم لستالين" و"سوف نقضي على الجهل والامية". هل هم جادون حقًا؟ النكتة الأكبر هي زوجات الضباط اللاتي يطفن الشوارع والقرى وحفلات الرقص، وهن يرتدين ملابس مبتذلة تشبه ثياب النوم، تزينها خيوط مدلاة و"شراشيب". أما جنود الجيش الأحمر، فيقومون بتقشير حبّات البطاطس المسلوقة بأصابعهم وأظفارهم! كأنهم لا يعرفون طريقة استخدام السكاكين! مَنْ يستطيع أخذ هؤلاء الناس على محمل الجدّ؟ لكن بعض الأشخاص بدؤوا في الاختفاء، وفقدت الضحكات مرحها وأمست مريرة. حين بدؤوا في القضاء على النساء والرجال والأطفال في مذابح جماعية، راح الناس يعيدون قَصّ تفاصيل تلك الأحداث، كما لو أنها صلوات يرددونها.

تعرّض والد "أوليدا" و"إنجل" للاختطاف، أثناء سيره في الطريق الرئيسي للقرية. أما أمهما، فقد اختفت فجأة، دون أثر. عادت البنتان إلى البيت، في أحد الأيام، فلم تجدا أحداً. راحتا تصيحان كالحیوانات. لم يتوقف الكلب عن انتظار سيده. ظل رابضًا في الحديقة الأمامية وهو يعوي باشتياق، إلى أن مات كمدًا. لم



يعد أحد يجرؤ على مغادرة منزله. غرقت الحقول في فيضانٍ من الأحزان والآلام. في كل مقبرة إستونية، أضيف شخصٌ جديد، لحق بمن سبقه من أفراد عائلته الراحلين. الفوضى السائدة على الجبهة، عرفت طريقها إلى كل جزءٍ في البلد؛ وكل جزءٍ في البلد راح يصرخ ويستغيث بالمسيح وبألمانيا وبجميع الآلهة.

صارت "أوليدا" و"إنجل" تنامان في السرير نفسه، والفأس تحت وسادتهما. سوف يحلُّ دورهما عمًا قريب. أرادت "أوليدا" أن تلجأ للاختباء، لكن كل ما خبأتاه في نهاية الأمر كان دراجة "إنجل" الهوائية، ماركة "دولار"، والتي تحمل رسمًا للعلم الأمريكي. أعلنت "إنجل" أن المرأة الإستونية لا تهجر بيتها ولا حيواناتها، تحت أي ظرف. حتى لو هاجمت منزلها كتيبةٌ كاملةٌ من الجيش، مُدجَّجة بالأسلحة. سوف تريهم المعنى الحقيقي لكبرياء المرأة الإستونية. وهكذا، في كل ليلة، تنام إحدى الشقيقتين، فيما تسهر الأخرى، تحرسهما نسخةٌ من الإنجيل وصورة للمسيح، على الطاولة المجاورة لفراسهما. خلال تلك الساعات الطويلة، تستغرق "أوليدا" في تأمل هذه الليلة المؤرقة، ثم تلقي نظرة على رأس شقيقتها اللامع، وتساؤل نفسها إن كان عليها الهرب بمفردها، دونها؟ لم تكن لتتردد في فعل ذلك، لولا المهمة التي عهد بها "هانس" إليها.. قومي بحماية "إنجل". أنتِ تعرفين كيف. ليس في مقدور "أوليدا" خيانة ثقته. عليها أن تكون جديرةً به. لذلك، بدأت بمتابعة أخبار الحرب من "فنلندا" بعينين حادتين وأذنين منتبهتين، كما كان "هانس" يفعل. من جانب "إنجل"، رفضت قراءة الصحف، واعتمدت على الدعاء والصلاة، وترديد أبيات الشاعر "يوهان ليف":

"موطني! كم أنا تعيسٌ بسببك

وأكثر تعاسةً من دونك!".

قالت "أوليدا" بحذر:

- لم لا نغادر، طالما ما زال بإمكاننا فعل ذلك؟
- وأين نذهب؟ ثم إن "ليندا" لا تزال صغيرة جدًا.
- لست متأكدة إن كان الذهاب إلى "فنلندا" قرارًا جيّدًا، ولكن "هانس" يعتقد أن السويد ستكون وجهة أفضل.
- كيف تعرفين ما يفكر به "هانس"؟
- سوف يلحق بنا "هانس" إلى هناك.
- لن أغادر بيتي للذهاب إلى أي مكان. سوف تتغيّر الأوضاع عمّا قريب، وسيتدخل الغرب لمساعدتنا. يمكننا التحمّل حتى ذلك الوقت، بالتأكيد. إيمانك ضعيف يا "أوليدا".
- كانت "إنجل" مُحقّقة. استطاعتا تحمّل الأوضاع. تحمّلها البلد بأكمله. وجاءت قوَّات التحرير بالفعل. دخل الجنود الألمان البلد بثقّة. أزالوا الدخان الأسود الناجم عن حرق البيوت، من الجوّ. أعادوا للسماء زرقتها، ولطين في الأراضي الزراعية لونه الداكن، وللشُّحْب بياضها. استطاع "هانس" أن يعود إلى المنزل. انتهى ذلك الكابوس، وبدأ كابوس جديد. بدأ الشيوعيون في المغادرة، ولأنه لم تعد تتوافر أي وسيلة مواصلات، فقد اضطروا للهروب على أرجلهم. ألجم "هانس" حصانه، وطاف البلدة كي يجمع أعلام ورايات جمعية المزارعين الشبّان، وكوَّوس وجوائز مسابقات الزراعة، والسجّلات والأوراق الرسمية المختلفة التي بقيت في البلدة عقب حظر الجمعية من قِبَل الجيش الأحمر. عاد من البلدة متسلحًا بابتسامةٍ عريضة. جميع الأوضاع في البلدة تسير على نحوٍ جيد. الألمان مهذبون. ذلك شعورٌ رائع. الناس في الشوارع يعزفون على آلة الهارمونيكّا. تتردّد في الطرقات أصوات الكعوب الخشبية للأحذية النسائية، مرّةً أخرى. لقد قاموا بتأسيس "جمعية الإغاثة المشتركة"، لإطعام ومساعدة الأسر التي اختفى أربابها على يد الجيش الأحمر. كل شيء سيكون على ما يُرام.

سيعود الجميع إلى منازلهم. الأب والأم وكل من اختفى. وستنمو الحبوب في الحقول من جديد. وستفوز "إنجل" بجوائز الجمعية الزراعية، كعادتها. وسيزورون المعرض السنوي في الخريف. عندما تكبر الشقيقتان قليلاً، ستتمكنان من الانضمام لرابطة نساء المزارع. بعد عودة الأب، سيقوم "هانس" بإعادة تخطيط الحقل معه. لقد اشترك "هانس" في حملة تشجيع زراعة التبغ وبنجر السُّكَّر. بعد فترةٍ قريبة، ستتوفر لديهم كمية كبيرة من محلول السُّكَّر، ولن تضطر "إنجل" إلى تناول المُحَلِّيات الصناعية لإشباع شهيتها الدائمة للحلويات. أضاف "هانس"، ببعض التردد، بأن "أوليدا" أيضاً لن تكون مضطراً لذلك. أطلقت "إنجل" ضحكةً عذبة، وبدأت تُفكِّر في وصفةٍ مبتكرةٍ لأفضل كعكة زنجبيل في إستونيا، بشراب سكر البنجر. سرعان ما راحت تتبادل مع "هانس" الهمسات والغمغات، التي ميزت حواراتهما قبل بدء الكابوس، ووجدت "أوليدا" نفسها محاصرةً بعذاب الحب مرةً أخرى. انهارت العوائق التي كانت تسد الطريق أمام مستقبل "إنجل" المشرق. حتى أزمة الملابس لم تؤثر في أنافة "إنجل"، على الإطلاق. أصلحت ثيابها القديمة، وحافظت على رونقها. اشترى "هانس" لحبيته قماشاً حريراً من النوع المستخدم في صناعة الـ"باراشوت"، لتفصل منه بلوزة. صبغت "إنجل" القماش باللون الأزرق، وحاكت لنفسها قميصاً أنيقاً، زينته بأزرار زجاجية، وبـ"بروش" من الزجاج الألماني. أصبحت أكثر جمالاً عن ذي قبل. ابتاع "هانس" بروشاً شبيهاً به لـ"أوليدا"، لكنه أصغر حجماً. للحظات، أحسَّت "أوليدا" بالسعادة. لقد تذكَّرها، ولو لدقيقة. ولكن من الذي سيلاحظ زينتها، و"إنجل" بجانبها.. بلوزتها الجديدة ذات الكتفين العريضتين؟ "جُنديي الصغير".. هكذا نادى "هانس" زوجته بحنانٍ لطيف. لطيف جداً.

أحسَّت "أوليدا" بألمٍ في رأسها، شعرت معه بأنها تعاني ورماً في المخ. يتزايد الألم، في بعض الأحيان، لدرجة أنها لا تعود ترى إلا الظلام، ولا تسمع إلا أزيزاً مزعجاً. أمضى "هانس" و"إنجل" أوقاتاً طويلة في تبادل الغرام، وكان على

"أوليدا" خلالها رعاية "ليندا". في بعض الأحيان، كانت تقرر الصغيرة، أو تشكها بدبوس. يمنحها بكاء الطفلة إحساساً خفياً بالرضا.

في وقت الحصاد، كانت ثمار بنجر السُّكَّر كبيرةً وبيضاءً، وظل الألمان موجودين. فاض المطبخ بالبنجر، وتضاعفت طاقة "إنجل" ونشاطها. نجحت في ملء الفراغ الذي خلّفته ربّة المنزل المختفية، بل وتفوّقت عليها في إدارة شؤونه. سارت الأوضاع بسلاسة، وخصوصاً أنها تجيد عمل كل شيء. عهدت ببعض المهام إلى "أوليدا". غسلت الأخيرة الثمار، بينما تولّت أختها بشرها، على أن تساعد "أوليدا" في عملية البشّر لاحقاً. فكّرت طويلاً في الطريقة الأنسب للتعامل مع الثمار الأصغر حجماً. حاولت في بادئ الأمر أن تفرمها بمفرمة اللحم، ثم وجدت أن بشرها، مثل الكبيرة، أكثر ملاءمةً. أمرت "أوليدا" بأن تراقب الإناء الموضوع على النار، حتى لا يصل السائل السُّكَّرِي إلى درجة الغليان. واصلت "إنجل" عملها، وهي تلتفت بين الحين والآخر تجاه الموقد. لم تكن تثق في قدرة "أوليدا" على صنْع محلول السُّكَّر، فقد تركه على النار أطول مما يجب، وعندها سيكتسب طعمًا غريبًا. كيف ستمكّن حينها من تقديمه للناس؟ سيعتقدون أنها هي الغبية، وأنها هي التي تركته يغلي. راحت تُردّد، مُحدّرةً:

- ليس أكثر من 80 درجة، أبدًا!

ظلّت تتشمّم الهواء بانتباه، حتى تلتقط أي رائحة شياط قد تتصاعد في أي لحظة من اتجاه الموقد. كلما بدأت الرائحة في التغيّر، صاحت في "أوليدا" لتسارع بإنقاذ الوضع. "أوليدا"، من جانبها، ما كانت لتلاحظ شيئاً على الإطلاق، لكنها - في نهاية الأمر - ليست "إنجل"؛ ثم إن رائحة "إنجل"، المفرطة في الحلاوة، حدّ الغثيان، كانت تملأ أنفها. الرائحة الوحيدة التي تستطيع تمييزها بسهولة، هي رائحة لُعباب "هانس" فوق شفتي "إنجل". كان ذلك يجعل الوجع يسري في شفتيها الجافتين، المتشققتين.

يومًا بعد الآخر، انهمكت "أوليدا" في غسل البنجر، وإزالة البقع السوداء من على سطح بعضه، واستبعاد الثمار الصغيرة. ظلّت "إنجل" تصدر أوامرها لأختها بمتابعة البنجر المبشور، المنقوع في الماء، وتغيير مائه بآخر جديد من البئر.

- نصف ساعة! لقد مرّت نصف ساعة كاملة! كان ينبغي صبّ الماء على الكمية الجديدة من البنجر.

في بعض الأوقات، تشعر "إنجل" بالتعب من عملية البشّر المتواصلة، فتلجأ لتقطيع الثمار إلى قطع مُتناهية الصّغر، وتظلُّ تُكرّر:

- لقد مرّ نصف ساعة! اسكبي مزيدًا من الماء!

واصلت "أوليدا" حَكّ القشور الخارجية للبنجر، فيما راحت "إنجل" تقطع الثمار. تولّت "أوليدا" تصفية السائل الناتج، تحت إشرافٍ مباشرٍ من "إنجل". خلال ذلك كله، انتظرت الشقيقتان عودة الأم والأب إلى البيت. تم استخلاص السُكَّر من محصول البنجر بأكمله، عبر تسخينه على درجة الحرارة اللازمة، وواصلتا انتظار أبويهما.

- أزيلى الرغوة من على سطح السائل! سريعًا! قبل أن يفسد!

تزايد عدد برطمانات المحلول السُكَّرِي، يومًا بعد يوم. واستمرّت الفتاتان في الانتظار. في بعض الأحيان، بلّلت دموع "إنجل" ياقة قميص "هانس".

انتظرت القرية بأكملها سماع أي خبر يطمئنهم على الغائبين، من مدينة "نارفا". متى سيعود الرجال؟ أعدت "إنجل" شوربة بنجر. تناولها "هانس" بتلذذٍ واستمتاع، وأعلن أنها جيدة. طهت بعدها طاجن مكرونة بالبنجر، وصنعت عصير توت بالبنجر، وظلت تنتظر مع أختها قدوم أمهما وأبيهما. قدّمت "إنجل" حلوى البنجر المطبوخ لزوجها وشقيقتها. استمرّ الانتظار. تناول "هانس" الفطائر والكعكات التي صنعتها من البنجر، مُثنيًا عليها. تشاغل بصنع الورد والطيور لـ"ليندا" من ثمار "الكستناء". أحسّت "أوليدا" بالغثيان من رائحة السُكَّر التي

تملاً المطبخ. إنها تحسد نساء القرية اللاتي لديهن أزواجٌ ينتظرونهم، ويتعلَّمن كيفية إعداد الفطائر الحلوة بالحبهان من أجلهم. لقد غدت امرأةً شابة، ومع ذلك فليس لديها مَنْ تنتظره سوى والديها! كانت تتمنى لو أنها تنتظر عودة "هانس" من مكانٍ بعيد. أن تجلس إلى المائدة في انتظار رجوعه إليها.. حاولت طرد الفكرة من رأسها. إنها خجولة، ولا تخلو من الجحود، فالنساء في القرية لا يتوقَّفن عن التهنُّد في أسي وإخبار الشقيقتين بأنهما محظوظتان لوجود رجلٍ معهما في البيت. يظن أن "إنجل" هي أوفر النساء حظاً. لا تملك "أوليدا" إلا أن توافقهم بشدة. تومئ في صمت، بشفتين مُغلقتين وجاقتين.

واصلت "إنجل" ابتكار مزيد من الوصفات. أعدت حلوى جديدة باستخدام الحليب ومحلول سُكَّر البنجر، والزبد والمكسرات. قامت بإبعاد "أوليدا" عن الموقد؛ لأن مسألة غلي اللبن بالسُكَّر إلى أن يتكثف تحتاج إلى دقةٍ ومهارة، تفتقر إليهما أختها. تولت المسألة بنفسها. حين انتهت من هذه الخطوة، أضافت الزبد والمكسرات، وواصلت تكثيف المزيج. سمحت لـ "أوليدا" بالجلوس إلى الطاولة، ومراقبة "ليندا"، ومتابعة إعدادها الحلوى، التي صبَّتها في قوالب مستطيلة. على "أوليدا" أن تتابع وتعلَّم، كي تتمكن من استخلاص السُكَّر من ثمار البنجر، لعائلتها، مستقبلاً. عليها أيضاً أن تحسّن من مهاراتها في رعاية الأطفال. أرادت "أوليدا" أن تسألها:

- أي عائلة؟

لكنها التزمت الصمت. بدا أن "إنجل" تخشى بقاء شقيقتها الصغرى في بيتها، إلى أن تصبح عجوزاً. صارت تتعمد ترك صحيفة "بايفلتهتي" بجوار "أوليدا"، وقد فتحتها بالـ "صدفة" على صفحة إعلانات التعارف وطلبات الزواج. لكن "أوليدا" لم تكن ترغب في الارتباط برجل يبحث عن فتاة دون العشرين، أو عن عروس شابة تتمتع بالرشاقة الفائقة. لم تكن ترغب في أي شخص، سوى "هانس".

امتدَّت الطواير أمام باب "ماريا كريل". نساءً يرغبن في معرفة مصير رجالهنَّ، على الجانب الآخر من الحدود. في نهاية الأمر، اضطرت إلى إغلاق بابها بالترباس، ورفضت مقابلة أي شخص، مَن في ذلك "أوليدا"، التي لم تتوقَّف عن جلب العسل لها، لسنوات. جاءت إلى القرية عجرية تقرأ الطالع عبر بطاقات الـ"تاروت"، فانتقلت طواير السيدات من أمام بيت "كريل" إلى منزلها. ذهبت "إنجل" و"أوليدا" لزيارتها مرَّة واحدة، فأخبرتهما بأن والديهما قد بدءا رحلة العودة بالفعل. استقبل "هانس" حماسهما بابتسامة، قائلاً إنه يصدِّق وعود الألمان، أكثر مما يصدِّق تنبؤات امرأة عجرية. لقد وعد الألمان الناس بإعادة كل من انتهى مصيره في الجهة الأخرى من الحدود. أحسَّت "إنجل" بالحرَج مما قاله زوجها، فتشاغلت بمطالعة كتاب الطهو الخاص بها. لم تُعلِّق "أوليدا"، لكنها كانت تؤمن بالغجر أكثر من الألمان.

- قمتُ بدعوة بعض الألمان للعب الكوتشينة الليلة. يمكن لـ"إنجل" أن تقدِّم لهم حلوياتها الشهية. تستطيعان ممارسة ما تعرفانه من اللغة الألمانية معهم. ما رأيكما؟  
شعرت "أوليدا" بالدهشة. لم يقم "هانس" بدعوة أي ألماني من قبل. هل ترغب "إنجل" في العثور على زوجٍ لها، حتى لو كان ألمانيًّا؟ إن "إنجل" لا تحبهم أصلاً.  
- إنهم يشعرون بالوحدة والحنين إلى وطنهم. هم بحاجة إلى صحبة.  
التفت "هانس" إلى "أوليدا"، مستطردًّا:  
- إنهم شباب في مقتبل العمر.  
نظرت "أوليدا" إلى "إنجل".  
ابتسمت "إنجل".



لعبوا الكوتشينة لوقتٍ طويل. فور دخولهم، خلع الألمان ستراتهم، وعلقوها على الشماعة المجاورة للباب. ابتسمت "إنجل" برضاء تام على هذا التصرف، وقدمت لهم فطائر الحبهان، وحلوى التوت بالبنجر. أنشد الألمان أغاني ألمانية، وتحدّثوا إلى "أوليدا" التي لم تفهم كل ما قالوه. استعان الطرفان بلغة الإشارة، وبعض الحركات التمثيلية. ورغم ضآلة ما تعرفه الأختان في اللغة الألمانية، فإن مفرداتهما القليلة كانت كافية لإسعاد الجنود. انسحبت "إنجل" إلى المطبخ، لتقوم بنقع القمح، من أجل إعداد مشروب بديل للقهوة. في اللحظات التي تفصل بين انتهاء أغنية، وبدء التي تليها، سمعت "أوليدا" صوت الحليب وهو يُسكَب فوق حبوب القمح. كثيرًا ما كانت "إنجل" توجه أختها، مذكرةً إيّاها:

- في هذه الطريقة، يجب أن يكون الحليب خالي الدسم، دائمًا.

سمعت "أوليدا" أيضًا صوت الحلة وهي توضع على النار، وشمّت رائحة الخبز المحمّص. تمثّت لو أنها كانت في المطبخ مع شقيقتها، بدلًا من جلوسها إلى المائدة مع هؤلاء الجنود، رغم مرحهم. اتّفقوا على العودة ثانيةً مساء اليوم التالي. أحسّت "أوليدا" بالانزعاج، بينما سرّت "إنجل" بذلك. لا ترغب "أوليدا" في أي شخص، عدا "هانس". أصرت "إنجل" على أن تتولّى "أوليدا" تقديم القهوة للضيوف، في الزيارة المقبلة.

- في البداية، تضعين قطعًا صغيرة من البنجر في الماء. قطعًا صغيرة جدًا! وتتركينها إلى أن يغلي الماء جيدًا، لحوالي عشرين أو ثلاثين دقيقة. ثم تقومين بتصفية الماء، وإضافة بديل القهوة والحليب. هل ستتذكرين غدًا ما قلته للتوّ؟ تذكّري.. حتى لا أضطر لشرح الطريقة أمام الضيوف. عليك أن تريهم أنك مضيّفة ممتازة.



في زيارتهم الخامسة، أعلن الجنود أنه سيتم نقلهم إلى "تالين". شعرت "أوليدا" بالارتياح. ظهر الانزعاج على وجه "إنجل". قال لها "هانس" مواسياً إن مزيداً من الجنود الألمان سيأتون للقرية، وإن الأب والأم سيعودان عمّاً قريب. وكل شيء سيكون على ما يُرام. قبل انصراف الجنود، أعطى أحدهم عنوانه لـ"أوليدا"، طالباً منها مراسلته. وعلى الرغم من أنها لم تكن تنوي فعل ذلك، فإنها وعدته بأنها ستكتب له. أحسّت بالنظرات المتبادلة بين "إنجل" و"هانس"، من ورائها.

لم تسمعا شيئاً على الإطلاق عن أبويهما بعد ذلك.

صنع "هانس" لـ"إنجل" زوجاً من الأحذية الخشبية البديعة، وزينَهما بقطع من الدانتيل الرقيق. أعلن بأنه سيلحق بالألمان.

أمست ليالي الأختين مؤرقة.

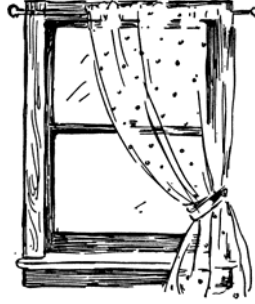
في إحدى الليالي، اختفى "آرمين جوف"، مع طفله، وزوجته، وأبويها. سرت الشائعات في

القرية بأنهم هربوا إلى الاتحاد السوفيتي، طلباً للأمان. كانوا يهوداً.



## الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية

## لنصنع ستارةً أولاً



كان الروس قد انتشروا في البلدة من جديد، حين دقَّ "هانس" على زجاج نافذة الحجرة الخلفية، في إحدى الليالي. سحبت "أوليدا" الفأس، على الفور، وراحت "إنجل" تُغمغم: "أبانا الذي في السماوات"، واختبأت "ليندا" تحت السرير. لكنهنَّ أدركنَ مَنْ يكون الطارق، عقب لحظات، حين نقر الشباك مرّةً أخرى.. دقتان طويلتان، واثنتان قصيرتان. لقد عاد "هانس" إلى المنزل.

بينما كانت "إنجل" تذرّف دموع السعادة، استغرقت "أوليدا" في تفكيرٍ عميق، محاولةً التوصل إلى كيفية تخبئته. اعترف "هانس"، هامساً، بأنه قرَّ من ثكنات الألمان، وعَبَرَ الخليج مدّعياً أنه فنلندي. قالت "إنجل" من بين دموعها وزفرائها بأنه كان بوسعه إرسال أي خطاب لهن، يطمئنهن عليه. أحسَّت "أوليدا" بالامتنان لأنه لم يفعل. كلما قَلَّ ما يُكْتَب عن نشاطه، كان ذلك أفضل بكثير. يمكن لحكاية هروبه مع الشبان الفنلنديين أن تُمحي من ذاكرة الناس،

وكانها لم تحدث أبداً. باستطاعة "إنجل" أن تفهم المسألة، أليس كذلك؟ ماذا عن الحجرة الصغيرة الملحقة بالمطبخ؟ هل بإمكانهم معاودة استخدامها كمخبأ، مرّة أخرى؟ لقد سبق لـ"هانس" الاختباء بها من قبل، حين أتى الروس للمرة الأولى. إنها مكانٌ جيد، وخصوصاً أنها تخلو من النوافذ.

لكن ما إن مرّت الليلة الأولى، حتى بدأ يتململ ويشعر بالاضطراب، ويسأل عن جماعة "إخوة الغابة". جلوسه بلا نشاطٍ أو عمل، جرح كرامته كرجل. أراد أن يساعد الفتاتين بأي طريقة. كان الوقت هو موسم صناعة القش. هناك غيره من الرجال الهاربين الذين يعملون في حقولهم، مُتَنَكِّرين في ثيابٍ نسائية، لكن "إنجل" لم تجرؤ على السماح له بفعل ذلك. يجب ألا يعرف أحد بأمر عودته، على الإطلاق. تمّ توضيح المسألة لـ"ليندا" أيضاً.

بعد أيامٍ قليلة، ركضت الجارة "آينو" - التي ترملت منذ فترةٍ قصيرة، وهي في المرحلة الأخيرة من الحمل - في حقلهم، ممسكةً ببطنها. انهارت جالسةً بجوار مجرفة "إنجل"، وأخبرتتهما بأن شُبَّان حركة "بيرج" في طريقهم إليهم. لقد مروا من أمام منزلها، سائرين بمنتهى العزم والتصميم. رأت عدداً من الفتية الأصغر سنّاً يرفعون راية بألوان الأزرق والأسود والأبيض. سريعاً، تركت "إنجل" و"أوليدا" القش الذي كانتا تقومان بجمعه، وسارعتا بالتوجه إلى المنزل. كان الشبان في الساحة الأمامية للبيت، يدخنون السجائر الروسية. حيّوا المرأتين، وسألوهما:

- هل رأيتما "هانس"؟

- لماذا تسألون؟

وقفت "إنجل" و"أوليدا" متجاورتين، في مواجهة الشبان، وقد تشابكت أصابعهما.

- لم يعد "هانس" إلى المنزل منذ أن غادر إلى حيث لا ندرى.

- لكنه سيعود إليكم قريبًا.

- لا نعرف شيئًا عن ذلك.

طلب الشبان منهما أن تبغا "هانس" تحياتهم، وأن تخبراه بأنهم بصدد تكوين جماعةٍ جديدةٍ. عليه أن يبحث عنهم. أعطتهم "إنجل" بعض الخبز، وثلاثة لترات من الحليب، ووعدهم بأن تبلغ رسالتهم لزوجها. ولكن ما إن اختفى الشبان وراء أشجار الصفصاف البعيدة، حتى همست "إنجل" لأختها بأن عليهما ألا تخبرا "هانس" بأي شيء، وإلا فإنه سوف يلحق بهم من فوره، بأسرع ما يستطيع! تجاهلت "أوليدا" دموع أختها، ونبراتها الشاكية، وقالت لها إن صوت محركات موتوسيكلات البوليس السري سيرتفع عمًا قليل، وهم يلاحقون هؤلاء الشبان؛ فتلك المسيرة تعدُّ تحدّيًا صارخًا للنظام، أليس بإمكانها فهم ذلك؟

تصرّفتا بسرعةٍ فائقة. بعد ساعة واحدة فقط، كان "هانس" يختبئ في أطراف الغابة. علا نباح "ليبسي" في الحديقة، عند سماعه صوت موتوسيكل يقترب من البيت. تبادلت "أوليدا" و"إنجل" النظرات. لقد تمكّن "هانس" من الهرب في آخر لحظة. أدركتا بغتةً أن مكوثهما في المطبخ، دون عمل، خلال موسم جمع وإعداد القش، سيبدو مريبًا للغاية، وكأنهما قد فرغتا للتوّ من أداء عملٍ ممنوع، وتجلسان في انتظار أن يصوّب أحد مسدسه إلى مؤخرتي رأسيهما. ينبغي عليهما إذاً العودة إلى الحقل بأقصى سرعة. غادرتا المطبخ، ومنه إلى مخزن المون، فحظيرة الأبقار، والإسطبل. تكسّرت أوراق الشجر اليابسة تحت أقدامهما، وهما تعبران الرقعة المزروعة بالتبغ للوصول إلى حيث القش. في تلك اللحظة، دخل موتوسيكل الساحة، تتقاذف بجواره عربته الجانبية الصغيرة. قالت "إنجل" بصوتٍ لاهث:  
- لقد تركنا إبريق الشاي فوق الموقد! سيعرفون أن أحدنا كان في المنزل منذ قليل.

لم تقوما بإقفال باب المنزل عند خروجهما. سيبدو الوضع مثيراً للشك. سيصل بقية أفراد البوليس السري الروسي في أي لحظة، وسيسمعون صوت حبّات البيض وهي ترتطم ببعضها بخفة، في الماء، على الموقد. كانتا تسلقان البيض من أجل غداء "هانس". وقفنا في منتصف الحقل، تطلان من وراء كومةٍ حجرية، باتجاه البيت. أوقف الرجال ذوي السترات الجلدية موتوسيكلاتهم، ودخلوا المنزل. لبثوا فيه للحظات، ثم خرجوا منه وتلفتوا حولهم، ثم غادروا. تعجّبت "إنجل" من السرعة التي رحلوا بها، وراودها شعورٌ بالندم لسماحها لـ"هانس" بالذهاب إلى الغابة، بتلك البساطة. ربما كان من الأفضل لو بقيتا في المطبخ، وتحدثتا مع أفراد البوليس السري، بشكلٍ طبيعي، بينما يظل "هانس" مختبئاً في الحجرة الخلفية الصغيرة، وراء المطبخ.

يا لها من فتاةٍ غبية. لا نفهم "أوليدا" كيف اختارها "هانس" زوجةً له! قالت لها:

- علينا أن ننظم أمورنا.

- كيف؟

- دعي المسألة لي.

ليلاً، بكت "إنجل" طويلاً، بينما بقيت "أوليدا" ساهرةً تفكّر في الخيارات المطروحة أمامهم. لن تعتمد على "إنجل"، التي توقّف عقلها عن التفكير المنطقي، ولم تعد تلاحظ شيئاً مما يحدث حولها. لدرجة أنها لم تلاحظ العفن الذي يغطي قطعة الخبز التي قدّمتها لـ"ليندا"، ولم تعد تستطيع تمييز معارفها في كثيرٍ من الأحيان. صباحاً، راحت "إنجل" تنشر الثياب المغسولة، شاردة الذهن، تحت المطر، وهي تتمتم بصلواتها؛ بينما واصلت "أوليدا" التفكير. إن نجحتنا في إنقاذ "هانس"، فسوف ينبغي عليهما محو ماضيه

وأنشطته في الحرس الوطني، والبرلمان الإستوني "ريحيكوجو"، والحرب في فنلندا. ليس من السهل فعل ذلك، ولم يعد الهروب ممكنًا.

لقد استطاع "ثيودور كرؤس"، زميل "هانس" القديم في الدروس الدينية، أن يتخلّص من ماضيه في قضية المنشورات المعادية للتواجد السوفيتي. "أوليدا" تعرف جيدًا الثمن الذي دفعه مقابل ذلك. "إنجل" تجهل التفاصيل. من الأفضل أن تظل على جهلها.

الميليشيا المحكمة في القرية، تحب التهام اللحوم الصغيرة، والخدود الحمراء، وابتلاعها في بطنها الآخذ في النمو والاتساع. كلما كُن أصغر سنًا، كان أفضل. كلما كبرت جرائم الآباء، صغرت أعمار البنات، أو تعددت الليالي المطلوبة للتكفير عن ذنوبهم.. فليلة واحدة، أو عذرية فتاة واحدة ليست كافية على الإطلاق. لقد تم العفو عن "ثيودور كرؤس" لأن ابنته الرائعة افتدته بالذهاب إلى أعضاء الميليشيا ليلاً، وخلع فستانها وجواربها الطويلة، والركوع أمامهم. اختفى سجل "ثيودور كرؤس" المليء بالتحريض والمشاغبات؛ وألصقت تهمة المنشورات المناهضة للسوفييت، التي تولى كتابتها بنفسه، بشخص آخر. وحُكِم على ذلك الشخص الآخر بعشر سنوات من الأعمال الشاقة في المناجم، وخمس سنوات بعدها في المنفى. إن عقوبة أنشطة "هانس" يمكن أن تصل إلى الإعدام، أو لسنواتٍ طويلةٍ في "سيبيريا" على أقل تقدير.

هل يعرف "ثيودور" بما فعلته ابنته؟ ربما أخبره أعضاء الميليشيا بذلك. تخيلت "أوليدا" ساقى أحد أفراد الميليشيا، المتباعدتين، وقد انتعل في قدميه "بوت" سميك، وهو يميل على أذن "ثيودور"، ويهمس له بما جرى.

لن تستطيع "إنجل" فعل ذلك. كل ما يمكنها فعله هو أن تسند رأسها على السجادة الصوفية، المُعلّقة على الحائط، وهي تبكي في أسى. "إنجل" لم تعد فتاةً في مقتبل العمر، كما يفضّل أعضاء الميليشيا. ولا "أوليدا" كذلك. إنهم يرغبون في البنات الصغيرات فقط. ثم إن "أوليدا" لا تقدر على فعل ذلك.. أم

لعلّها تقدر؟ واصلت السهر، إلى أن أحاطت الهالات السوداء بعينيها. ليس لديها مَنْ تستشيرهُ وتسأله عن التصرف الأمثل في هذا الوضع.

بعد ليالٍ عديدةٍ من السهر المتواصل، توصلت "أوليدا" إلى فكرة الستائر. حدّقت طويلاً في الليل حالك السواد، وتأمّلت القمر، وغياب القمر، والهلال الوليد، وتابعتهُ وهو يكبر، آخذاً معه الوقت المُتسرّب من حياتهم. ظلت مستلقيةً، يملأ روحها شوقٌ جارفٌ لأمها، التي كانت ستلجأ إليها طلباً للنصيحة. يملأ روحها شوقٌ جارفٌ لأبيها، الذي كان سيجيد التصرف. يملؤها الشوق لأي شخص يعرف ما ينبغي عليه قوله لطمأنتها. أرادت أن تستعيد نومها المفقود، وأن يعود "هانس" إلى البيت، وأن يغيب القمر المتطفل من نافذتها. وبينما كانت تفكر في النقطة الأخيرة، مرّ بها خاطر مُباغت.. عليهما أن تصنعا بعض الستائر. أحبّت "إنجل" الفكرة على الفور. يمكن لـ"هانس" أن يمضي بعض الوقت داخل المطبخ، لو كان لشبّاكه ستارة. المسألة بسيطة جداً. مجنونةٌ جداً. بدت الأختان في حالة جنون بالفعل، وهما تعملان على تنفيذها. شرعت "أوليدا" في نسج قماشٍ على النول، وسارعت "إنجل" بتطريزه، رغم حاجتهما إلى تلك الخيوط في حياكة أشياء أخرى. في أحاديثهم المتبادلة، قال أهل القرية لبعضهم بأن الحرب أثرت على عقليهما، وصارت تصرفاتهما تتسم بالحماسة. لم تنزعجا من ذلك، مُطلقاً. قالت "أوليدا" لـ"إنجل"، إنه ينبغي عليها أن تعلن للناس أن الخياطة والتطريز يشعرانها بالارتياح، ويخففان من حزنها وبكائها المتواصل. أطاعت "إنجل" شقيقتها التي وجهتها بضرورة الثثرة مع الآخرين، وإخبارهم بأن قريبتهما التي تعيش في "تالين" تقول إن الستائر الطويلة صارت موضة رائجة في باريس ولندن. جميع الستائر في المجلات الأجنبية المصورة التي تمتلكها قريبتهما، طويلة. لم تعد الستائر القصيرة هي الدّارجة، كما هو الحال هنا في الريف. تلك موضة قديمة للغاية!

في بعض الأحيان، تشعر "أوليدا" بأنهما كلما توغلنا في شرح مسألة الستائر وتبريرها، حملت أعين الناس اتهامات صامتة بالكذب. لكن أحدًا منهم لم يُعلّق. تركوا المسألة تمرّ بهدوء، وتصرفوا كما لو أنهم يصدقونهما. ذلك الوضع، جعل "أوليدا" تفرط في تقديم مزيد من التبريرات، والقول إنه في مثل هذه الظروف الخانقة تحديداً، ينبغي على الناس إمتاع أنفسهم بأقصى قدر ممكن من الرفاهية المتاحة.. وأنه حتى لو كنتَ من سُكَّان القرى الريفية، فما الذي يمنعك من اتباع مواضع المُدُن الكبرى؟ كثيراً ما ردّدت "أوليدا" بأنها امرأةٌ عصرية، ترغب في اقتناء ستائر عصرية! ستائرٌ طويلةٌ، هي الأولى من نوعها في القرية. صارتا تسدلان الستائر كل مساء. في بعض الأوقات، تتعمّدان إبقاءها مفتوحة، حتى يرى المارة أن الحياة داخل المنزل تسير بشكلها الطبيعي المعتاد، وأنه ليس لديهما ما تخفيانه.

بدأ الآخرون أيضاً في تغطية نوافذهم بالستائر، تجنّباً لأعين المتجسّسين. صحيحٌ أنها قصيرة، لكنها تفي بالغرض، وهو ما منع الناس من رؤية ومتابعة ما يحدث داخل البيوت. فهم الكثيرون السبب الحقيقي لاختيار "إنجل" و"أوليدا" أن تكون ستائرهما طويلة، لكنهم حرصوا على البقاء صامتين، ولم يقل أي منهم شيئاً.

بعد فتح وإسدال الستائر لشهرين متتابعين، قررت الشقيقتان بأنه صار من الملائم إعادة "هانس" إلى المنزل، وإبقاؤه فيه على الدوام. بإمكانهما حفر مخبأ تحت الأرض في الحجرة الصغيرة الواقعة خلف المطبخ، أو بناء غرفة جديدة بين المكانين. هل سينجح ذلك؟ المكان يتمتع بالدفء، وسوف يكون "هانس" على مقربةٍ منهما، وستتمكنان من استقبال الضيوف والزوّار دون أدنى قلق من أن يلمحه أحد. لطالما استُخدِمت تلك الحجرة الصغيرة كمكانٍ للتخزين، وكغرفة نوم للضيوف. عددٌ قليلٌ جدّاً من أهل القرية دخلها. كما أن بابها مُعلّقٌ على الدوام. ليس لبابها مقبض، أصلاً. مجرد حُطّاف. من الذي سيتذكر مساحتها الأصلية؟



ليس لها نافذة، ما يعني أنها مُعتمة دائماً. آن الأوان لإعادة "هانس" من الغابة. سوف تحتاجان إلى مساعدته في بناء الحجرة الجديدة.

يحتوي الإسطبل على بعض الألواح الخشبية. تسلَّتا بها إلى داخل المنزل، عَبْرَ الحظيرة وحجرة المؤن. اقتصر عملهما على الأيام العاصفة أو المطيرة فقط، حين يقوم الطقس بالتغطية على ضربات الشاكوش. تعمل إحداها في تثبيت الألواح، بينما تشاغل الأخرى "ليندا" داخل الحظيرة، أو في أي مكان آخر. لا يمكن الوثوق بألسنة الأطفال، على الإطلاق. لن تخبرا "ليندا" بختتهما، ويمكن أن تقصَّا عليها حكايات الشبح الذي يقطن تلك الحجرة الصغيرة. لاحقاً، حين استقرَّ "هانس" في الحجرة، حرص على عدم دخول المطبخ أو الحمام، إلا في غياب "ليندا" عن المنزل، أو عقب نومها. إن استيقظت ليلاً، ودخلت المطبخ، يشرحون لها بأن بابا قد جاء من الغابة للتَّو، لزيارتهم.

لوحٌ خشبيٌّ واحدٌ، وثانٍ، وثالثٌ.. بدأت الحجرة في التكوُّن. "إنجل" تضحك، و"أوليدا" تبتمس، و"هانس" يدندن بهرح. نُزِعَ هيكل السقف القديم، وقاموا بتثيته فوق الحائط الجديد، مع توفير وسيلة تهوية عبر فتحةٍ في السقف، متصلة بالسندرة، يمرُّ عبرها أنبوب. عثرت "إنجل" على لفافة متبقية من ورق الحائط القديم، المستخدم في الحجرة الصغيرة. عند تغطية الجدار الجديد به، لم يعد بالإمكان تخمين أن الجدار يخفي وراءه غرفة كاملة. حرَّك "هانس" دواب الحجرة الصغيرة، ووضعها أمام الجدار الجديد، حتى لا يصبح ورق الحائط المُلصَق حديثاً، بدرجة لونه الأفتح بعض الشيء عن القديم، لافتاً للنظر. يقع باب الغرفة وراء الدواب. في بادئ الأمر، وضعوا دلوًّا في جانب من الغرفة السريّة، ليستعمله في قضاء حاجته، إن استدعى الأمر؛ ثم فكَّروا في حَفَر حفرة في الأرضية، لوضع الدلو بها وتغطيتها عند عدم الاستخدام. أو ربما يمكن صنع فتحة في الحائط الذي يفصل بين الحجرة الصغيرة والحظيرة. يمكن استغلال الحظيرة كمرحاض، في حال عدم وجودهما في البيت، لتفتحا له الغرفة السرية.

كان الوقت مساءً، تحمَّم "هانس"، وتناول طعامه بشهية. جهزت "إنجل" حقيبة ظهره، وقالت لـ"ليندا" إن بابا مضطر للمغادرة الآن، لكنه سيعود قريبًا. أقرب مما تخيل. بدأت "ليندا" بالبكاء. قام "هانس" بتهدئتها، وأخبرها بأن عليها أن تكون بنتًا شجاعة، لكي يفتخر بابا بابنته الإستونية.

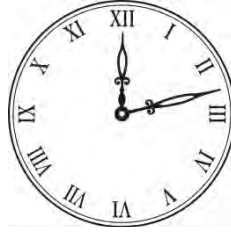
صاحبه مع أمها وخالتها إلى باب الحظيرة، ووقفن يتابعنه إلى أن اختفى في الغابة. في الليلة التالية، عاد "هانس" ثانيةً، واستقرَّ في الحجرة الصغيرة. بعد يومين، انتشرت في القرية أنباء النهاية المرؤعة لـ"هانس بيك"، على طريق الغابة.



1946

"لانيما" - الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية

هل أنت متأكّدة؟



في المرّة الأولى التي أُخِذت فيها "إنجل" و"أوليدا" إلى دار مجلس المدينة للتحقيق معهما، استقبلهما رجلٌ بادر بالاعتذار منهما إن كان معاونوه قد تعاملوا معهما بقسوة واصلف عند إحضارهما.

- هؤلاء الرِّفاق الأعزّاء يفتقرون إلى التهذيب.

أُخِذت "إنجل" إلى غرفة، و"أوليدا" إلى أخرى. فتح لها الرجل الباب، وأحضر لها كرسيًّا، وألحَّ عليها في الجلوس.

- سألقي نظرةً على هذه الأوراق المتعلقة بك، أولًا، ثم نبدأ على الفور.

تصفّح بعض الأوراق. تتابعت تكّات الساعة. توالى وقع خُطى كثيرة في الممر الخارجي. أحسّت "أوليدا" بإيقاع تلك الأرجل وهو يمدُّ ذبذباته إلى باطن قدميها. الأرض تهتزُّ قليلًا في كل مرّة يعبر فيها أحدهم الممر. حاولت التركيز في شيءٍ ما، فراحت تتمعّن في الإطار الخارجي للباب. بدا أنه يتحرّك. الشقوق المتقاطعة بين بلاطات الأرضية تتمايل كأرجل عنكبوت. عقارب الساعة تعلن

عن مرور ستين دقيقة كاملة. الرجل لا يزال يواصل تصفح الأوراق. ساعة أخرى قد بدأت. يرمق الرجل "أوليدا"، ويوجّه لها ابتسامة ودودة. يقف ويخبرها بأنه آسف، لكنه مضطّر لإنجاز أمر معيّن، وسوف يعود سريعًا. وعندما يفعل، سيدآن فورًا. خرج واختفى. دقّت الساعة الثالثة. أعقبها الرابعة. نهضت "أوليدا" عن المقعد، واتجهت إلى الباب. أدارت المقبض، فانفتح الباب. هناك رجل يقف خارجه. أغلقته، وعادت إلى الكرسي. كانت "ليندا" تلعب في منزل "آينو" عندما أتى الرجال لاصطحابهما إلى هنا. لا بدّ أن "آينو" تتساءل الآن عن مكانهما.

فُتِحَ الباب.

- يمكننا أن نبدأ الآن. أين كنتِ تنوين الذهاب، منذ قليل؟ علينا أن نوضّح هذه النقطة أولًا.

- كنت أبحث عن الحمّام.

- حسنًا.. لم تقولي ذلك؟ هل ما زلتِ ترغبين في استخدامه؟

- كلاً. شكرًا.

- هل أنتِ متأكّدة؟

أومأت "أوليدا". أشعل الرجل سيجارةً روسيّةً، وبدأ بسؤالها إن كان بإمكانها إخباره عن مكان "هانس بيك". أجابت "أوليدا" بأن "هانس" قد توفّي منذ زمنٍ طويل. تعرّض لجرّيمة سرقة، انتهت بقتله. سألتها الرجل عن بضعة أمور حول مسألة وفاة "هانس"، ثم قال:

- لتتحدّث بجديّة، أيتها الرّفيقة "أوليدا". بعيدًا عن المزاح.. هل أنتِ متأكّدة من أن

"هانس بيك" كان سيمتنع عن إخبارنا بموقعك، لو كان في وضعك الآن؟

- "هانس بيك" ميت.

- هل أنتِ متأكّدة، أيتها الرّفيقة "أوليدا"، أن شقيقتكِ، في هذه اللحظة تحديداً، لا تخبرنا بأنكما قمتما، على سبيل المثال، بتأليف حكاية وفاة "هانس بيك"؟ وأن كل ما تقولينه الآن ليس سوى كذب؟

- "هانس بيك" ميت.

- شقيقتكِ، يا رفيقة، لا ترغب في محاكمة، أو دخول السجن. أنا متيقن من أنكِ تعرفين

ذلك؟

- شقيقتي لن تردّد تلك الأكاذيب.

- هل أنتِ متأكّدة يا رفيقة "أوليدا"؟

- أجل.

- هل أنتِ متأكّدة من أن "هانس بيك" لن يخبرنا بأسماء الأشخاص الذين ساعدوه في ارتكاب جرائمه، وخيانتته؟ هل أنتِ على ثقة من أن "هانس بيك" لن يذكر اسمكِ من بينهم؟ أنا فقط أفكّر في مصلحتك، أيتها الرّفيقة "أوليدا". يسعدني جداً تصديق أن شابةً جميلةً مثلكِ لم تتورّط في هذه المشكلة، ولم تتعرّض للخداع، لتقديم المساعدة لمجرم. مجرم ماهر في الخداع، لدرجة نجاحه في السيطرة على عقل فتاةٍ شابة. الرّفيقة "أوليدا".. تعقّلي. أتوسّل إليك. أنقذي نفسك.

- "هانس بيك" ميت.

- أرينا جتته، ولن نواصل التحقيق في المسألة. الرّفيقة "أوليدا".. لا تلومي إلا نفسك، إن ثبت تورّطكِ في هذه القضية من أجل "هانس بيك" أو زوجته. لقد فعلتُ كل ما بوسعي لمساعدة جميلة مثلكِ على مواصلة حياتها بشكلٍ طبيعي. ليس بإمكانني فعل المزيد. ساعديني، كي أساعدكِ.

أمسك الرجل بيدها، وضغط عليها بين أصابعه:

- لا أريد سوى مصلحتك. أمامكِ حياةٌ بأكملها.

انتزعت "أوليدا" يدها من بين أصابعه:

- "هانس بيك" ميت.

- فلنكتفِ بهذا القدر اليوم. سنتقابل ثانيةً أيتها الرفيقة "أوليدا".

فتح الباب، متمنياً ليلة سعيدةً لها.



كانت "إنجل" بانتظارها في الخارج. سارتا في صمتٍ تام، استمرَّ حتى بدأ منزل "آينو"

يظهر أمامهما. عندئذٍ فقط، تنحنت "إنجل" ثم قالت:

- ما الذي سألوكِ عنه؟

- سألوني عن "هانس". لم أقل شيئاً.

- ولا أنا.

- ما الذي قالوه أيضاً؟ ماذا سألوكِ؟

- لا شيء آخر.

- ولا أنا.

- ماذا سنقول لـ "هانس"؟ ولـ "آينو"؟

- سنقول إنهم سألونا عن شيءٍ آخر، وأنا لم نعطيهم أي معلومات عن أي أحد.

- ماذا لو تكلم "هندريك ريستلا"؟

- لن يتكلم.

- كيف لنا أن نتأكد؟

- قال "هانس" إن "هندريك ريستلا" هو الشخص الوحيد الذي يثق بأنه سيؤكِّد أقوالنا.

- ماذا لو قالت "ليندا" شيئاً؟

- "ليندا" تعرف أن أباهما قد مات حقيقةً، وليس كذباً.

- لكنهم سيأتون لمساءلتنا والتحقيق معنا، ثانيةً.

- لقد نجحنا هذه المرّة، أليس كذلك؟ وسوف ننجح في المرّة المقبلة أيضاً.

"لانيما" - الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية

سوف تحتاج إلى سيجارة



رحلت طيور "السنونو"، لكن طيور "الكركي" كانت لا تزال تجوب السماء، وقد مدّت أعناقها الطويلة باستقامة. تساقطت صيحاتها على الحقول، مثيرَةً الألم في رأس "أوليدا". على عكسها، بإمكان تلك الطيور المغادرة. لديها حرية التنقُّل أينما شاءت. حرَّيتها تنحصر في الخروج لجمع المشروم. امتلأت سلَّتها بحبَّات المشروم الأصفر والأبيض. "إنجل" تنتظر في المنزل. ستسعد بهذه الحصيلة. ستقوم "أوليدا" بغسلها، وربما سمحت لها "إنجل" بعد ذلك بسلقها وتبريدها بالماء المثلج، لكنها ستظل تراقبها عن كثب طوال الوقت. ستتولى "إنجل" تعليب المشروم، وتطلب من أختها متابعة ما تفعله، وإلا فإنها ستفشل في إدارة منزلها مستقبلاً، إن لم تعرف كيفية تنبيل المشروم على النحو الصحيح. قد تجيد تمليح المشروم، لكن تنبيله مسألة تحتاج لموهبة. برطماناتٌ جديدةٌ ستظهر على رفِّ حجرة المُوْن. ثمرة جهد "إنجل". إضافةً تبعد عنهم الجوع قليلاً هذا الشتاء.

حملت "أوليدا" السِّلَّةَ بيد، ووضعت الأخرى فوق أذنها. أعدادُ هائلةٌ من طيور "الكركي"! وذلك الصباح! أحسَّت ببرد الخريف وهو يتسلَّل داخل حذائها. شعرت بالعطش يחדش حنجرتها. فجأةً، سمعت صوت موتوسيكل يقترب، وشاهدت رجلًا يرتدي جاكيت من الجلد، يتوقَّف به بجوارها. قال بخشونة:

- ماذا لديك في تلك السِّلَّة؟

- مشروم. جمعته لتوي.

انتزع السِّلَّةَ من يدها، ونظر بداخلها، ثم قذف بها بعيدًا. تدرجت حبَّات المشروم على الأرض. راقبتها "أوليدا". لم تجرؤ على النظر للرجل. سوف يحدث الأمر الآن. عليها أن تبقى هادئة، وألا تتوتَّر. عليها ألا تُظهر الخوف الذي يعتمل بداخلها. العرق البارد يسيل من وراء ركبتيها، على ساقها، ويصبُّ داخل حذائها. الخدر يسري في جسدها بأكمله. الدم يهرب من أطرافها. ربما لن يحدث شيء. لعلَّها خائفة دون سبب.

- ألم تأتِ للقائنا من قبل؟ مع أختك؟ أنتِ شقيقة زوجة اللص.

واصلت "أوليدا" تحديقها في حبَّات المشروم. استطاعت رؤية الجاكيت الجلدي بطرف عينها. كان يُصدر صريرًا، كلما تحرَّك. ضحك في صمت. أذناه حمراوان. حذاؤه المصنوع من الجلد المدبوغ، يلمع بشدَّة، على الرغم من أن الطريق مُغبرٌّ، ومن أنه غير ألماني. هل عليها أن تركض مبتعدة؟ هل تثق في أنه لن يطلق النار على ظهرها؟ أو تأمل في أن لا تصيبها رصاصته؟ لكنه سيتوجه إلى منزلها، ويلقي القبض على "إنجل" و"ليندا"، ويبقى هناك في انتظار عودتها.. ثم ألا يعدُّ الهروب اعترافًا بالذنب؟

داخل دار مجلس البلدية، قال الرجل ذو الأذنين الكبيرتين إن "أوليدا" تزوَّد للصوص، وقُطِّع الطرق بالطعام. اخترقت الإضاءة حلمتي أذنيه. دفع بـ"أوليدا" إلى منتصف الغرفة، ثم غادر.

- أشعر بخيبة أمل تجاهك، أيتها الرِّفيقة "أوليدا".



الصوت نفسه في المرّة الأولى. الرجل نفسه.. "هل أنت متأكّدة، أيتها الرّفيقة أوليدا؟"..  
وقف بجوار طاولة المكتب، التي لم تكن واضحة في الظلام. تمعّن فيها، وهزّ رأسه، ثم تنهّد  
بعمق. إنه حزينٌ جدًّا.

- حاولتُ مساعدتكِ قدر استطاعتي. لا يمكنني فعل المزيد.

أشار إلى رجالٍ يقفون خلفه، فاقتربوا منها. غادر الغرفة.

يدا "أوليدا" مقيدتان خلفها. كيسٌ من القماش يغطي رأسها. غادر الرجال الغرفة. لا  
يمكنها رؤية شيء عبر القماش. ماءٌ يتساقط على الأرضية، في مكانٍ ما. تستطيع شم رائحة  
الزنازنة، عبر الكيس. فُتح الباب. صوت نعل بوت. فُتح قميص "أوليدا" عنوةً. تطايرت  
أزراره، وتساقطت على الأرض، بجوار الحوائط. أزرارٌ ألمانيةٌ من الزجاج.. ثم تحوّلت إلى  
فأر، في أحد أركان الحجر. أصبحت ذبابة على مصباح الإضاءة، تطير مبتعدة. مسمار في  
الحائط الخشبي. دبوس صدئ. دبوس صدئ مثبّت في الجدار الخشبي. إنها ذبابة. إنها  
تسير فوق ثدي عارٍ لامرأة. المرأة في منتصف الحجر، ورأسها مغطّى بكيس من القماش.  
إنها تطأ كدمةً جديدة. الدم يتجمع تحت جلد ثدي المرأة. عبرت الذبابة فوق ندبةٍ طويلة،  
ومرّت على الكدمات التي انتشرت حول الحلمة المتورّمة، كما تنتشر القارات على  
مجسم الكرة الأرضية. لم تعد تتحرّك. المرأة ذات الكيس فوق رأسها، التي تتوسط  
الغرفة، غريبة، و"أوليدا" لم تعد موجودة، ركض قلبها فوق سيقان ضئيلة مختبئًا في  
الشقوق والزوايا والأركان. توحدّ مع الجذور الممتدة تحت تراب الغرفة. "هل نضع  
صابونًا من تلك؟" المرأة في منتصف الحجر لم تتحرّك. لم تسمع. صارت "أوليدا" بصقة  
على الطاولة. غلّة من النمل الأبيض، تقف بمحاذاة جحرها.. داخل فتحة مستديرة في  
جذع شجرة. شجرة "نغت". شجرة "نغت" تنمو في تراب إستونيا، تشعر بالغبابة،  
وتشعر بالماء، والجذور وحيوانات الخلد. تغطس عميقًا، تحت الماء. إنها خلد يدفع  
كومة من التراب، في حديقة المنزل. في الحديقة التي تلامسها فيها قطرات المطر،

والريح. طينٌ رَطْب، يتنَفَّس ويهمس. رأس المرأة التي تتوسط الحجرة، يُدْفَع داخل قصرية الفضلات. "أوليدا" في الخارج. "أوليدا" تقف فوق الطين الرطب. الطين في منخريها، الطين في شعرها، الطين في أذنيها. الكلاب تعدو فوقها، تغرز براثنها في الطين. الطين الذي يتنَفَّس ويهمس. المطر يذوب فيه. القنوات ممتلئة، والمياه تندفع وترطم بحوافها.. هناك حذاء بوت من الجلد المدبوغ، في مكانٍ ما، وجاكيت جلدي، في مكانٍ ما، ورائحة باردة لبعض الخمور، في مكانٍ ما، يمتزج فيها الروسي والإستوني، ويتعَفَّن، ويثور ويهيج.

لم تتحرَّك المرأة التي تتوسط الغرفة. جسم "أوليدا" يصارع. القدر يحاول إبقاءها لنفسه، ويربت على لحم جسدها المهترئ، ويلعق الدم من على شفثتها، ويلثم الشعر المنتف المتساقط داخل فمها. لقد حاول القدر مساعدتها قدر المستطاع، لكن ذلك لم يكن كافيًا. أعادوها من جديد. جلجل صوت حلية حزام، وتحركت المرأة قليلًا. بابٌ يُصَفَّق. وقع نعل بوت. رنين كأس زجاجية. قوائم كرسي تحتك بالأرضية. إضاءةٌ تتمايل في السقف. تحاول أن تهرب بعيدًا، وأن تمسي ذبابة فوق المصباح، تتشبَّث بأسلاكه الداخلية المتوهجة.. لكن الحزام يهوي على ظهرها. حزامٌ مخرَّمٌ على نحوٍ جيِّد، حتى أنك لا تسمع له صوتًا. أكثر جودةً من المنشئة. ما زالت تحاول. إنها ذبابة. تطير بعيدًا. تطير نحو السقف. تطير بعيدًا عن الضوء. لها جناحان شفافان، ومئة عين. لكن جسد المرأة الملقاة على الأرض الحجرية يختلج ويتشجج، ويصدر عنها أزيز مسموع. هناك كيسٌ يُغطِّي رأسها. للكيس رائحة قية. ليس للكيس فتحة تسمح بدخول ذبابة. لا يمكن للذبابة أن تجد طريقًا لفم المرأة، وإلا لحاولت أن تسكتها، وأن تدفعها للتقيؤ مرةً أخرى، وأن تجعلها تختنق. للكيس رائحة البول. إنه مُبلَّل بالبول. القية أكثر قدمًا. الباب يُصَفَّق. نعل البوت يطرق الأرض. تتنوع الأصوات القادمة من المساحة التي تعلو فردتي البوت.. شفتان تلتصقان وتتفرجان، لسانٌ يتحرَّك. فتات خبز يتساقط على الأرض، كما تتساقط قطع الجليد. صوت الشفتين يتوقَّف.

- رائحتها ننته. خذوها من هنا.

أفاقت داخل حفرة ضحلة. الوقت ليل. أي ليلة هي؟ هل مرَّ يوم؟ يومان؟ أم لعلَّها لم تكن سوى ليلة واحدة؟ نعقت بومة. انسابت غيومٌ سوداء عبر السماء المُنارة بضوء القمر. شعرها مُبلَّل. جلست، ثم زحفت باتجاه الطريق. عليها أن تصل إلى البيت. قميصها الداخلي، تُورثها الداخلية، فستانها، مشابك جوربيها.. كل شيءٍ سليم وفي مكانه. الإيشارب غير موجود، ولا الجوارب. لا يمكنها العودة إلى المنزل دون جوارب. مستحيل. لأن "إنجل"... هل "إنجل" في البيت أصلًا؟ هل "إنجل" بخير؟ ماذا عن "ليندا"؟ بدأت "أوليدا" تركض، ساقاها تعجزان عن حملها. تتهاوى، تزحف، تتسلَّق، تترنَّح، تعرج، تتعزَّر.. تفعل كل ذلك وهي مستمرة في التقدُّم إلى الأمام. لا بد أن "إنجل" في البيت. كانوا يريدونها هي فقط هذه المرَّة. سوف تكون "إنجل" في البيت. ولكن كيف ستفسَّر لـ"إنجل" سبب عودتها دون الجوارب التي كانت تلبسها حين خرجت من المنزل؟ يمكنها أن تقول إنها نسيت الإيشارب في القرية. يمكنها رؤية برك الماء الصغيرة في كل مكان. لا شك أنها أمطرت. جيد. ستقول إنها خلعت الإيشارب الذي بلَّه المطر، ثم نسيت في أي مكان في القرية. ماذا عن الجوارب؟ لا يمكنها العودة للبيت دون جوارب. لا توجد امرأة محترمة تخرج دون جوارب، حتى لو كانت لن تتجاوز حدود حديقة منزلها. المخزن في الحظيرة. هناك بعض الجوارب في ذلك المخزن. يمكنها الحصول على زوجٍ منها، هناك. لكن باب الحظيرة مُقفَل. المفتاح لدى "إنجل". لا يمكنها الدخول إلى هناك. إلا إذا نسي أحدهم إغلاقه بالمفتاح.

رغزت "أوليدا" تفكيرها على الجوارب، في طريقها للبيت. لم تفكِّر في "إنجل"، ولا "ليندا"، ولا في أي شيء مما تعرَّضت له. أخذت تردّد أنواع الجوارب، بصوتٍ مرتفع: جوارب حريرية، جوارب قطنية، جوارب من اللون البني الداكن، جوارب سوداء، جوارب وردية، جوارب رمادية، جوارب صوفية،

سوسيس الكريسماس المصنوع على شكل جوارب.. إنها تقترب من الحظيرة، بدأ الفَجْر.. جوارب أطفال، تدور حول المرعى لتصل إلى الجهة الخلفية من المنزل.. جوارب مُطرَزة، جوارب من المصنع، جوارب تساوي كيلو جرامين من الزبد، جوارب تساوي ثلاثة برطمانات من العسل، تساوي أجرة يومين من العمل. لقد قامت هي و"إنجل" بتأدية بعض المهام في بيوت الناس وحصلت كل واحدة منهما على زوج من الجوارب الحريرية في المقابل. جوارب حريرية سوداء، بمقدمة من الصوف، عند الأصابع. خشخش شجر الصفصاف على جانبي الطريق المؤدِّي إلى المنزل. أطلَّ البيت من بين أشجار "البتولا" في الحديقة. النور مُضاء في الداخل. "إنجل" في البيت! جوارب من الصوف غير المصبوغ. جوارب من نسيج الـ"كابرون" الاصطناعي.. لقد وصلت إلى الحظيرة. حاولت فتح الباب. مُقفَل. سوف تضطر للدخول دون جوربيها. ستجلس بعيداً عن الضوء، ستجلس وتضع ساقيها أسفل الطاولة. ربما لن يلاحظ أحد. ثَمَّنت لو أنها تحمل مرآة معها. تتحسَّس خَدَّيها. تعيد ترتيب شعرها. تلمس رأسها. إنه لزجٌ للغاية.. جوارب حريرية، جوارب قطنية، جوارب صوفية، جوارب "كابرون". تصل إلى البئر، تسحب منه دلوًا ممتلئًا بالماء. تغسل يديها. تفركهما بحجر. لا توجد فرشاة.. جوارب بُنيَّة، جوارب سوداء، جوارب رمادية، جوارب غير مصبوغة، جوارب مُطرَزة. عليها أن تدخل الآن. هل باستطاعتها فعل ذلك؟ هل يمكنها رفع قدمها فوق عتبة الباب؟ هل تقدر على التحدُّث معهم؟ تأمل في أن تكون "إنجل" لا تزال تشعر بالنعاس، حتى لا تتمكن من التحدُّث في أي موضوع. "ليندا" نائمةٌ على الأريج في هذه الساعة. لا يزال الوقت مبكرًا.

تجبر جسدها على دخول حديقة البيت. تراقب نفسها بعيني خيالها.. الكيفية التي تسير بها، والتي ترفع قدميها بها، والتي تدير بها مقبض الباب، والتي تنادي بها:

- لقد جئت!

فتحت الباب. أتت "إنجل". "هانس" في الغرفة السريّة، لحسن الحظ. تنهّدت "أوليدا".  
"إنجل" تُحدّق بها. رفعت "أوليدا" يدها مشيرةً إلى أختها بعدم قول أي شيء. تقع عينا  
"إنجل" على ساقي أختها العاريتين. تدير "أوليدا" رأسها، وتنحني لتداعب "ليبيسي". "ليندا"  
تقبل مسرعةً من الحجرة الخلفية، ثم تتوقّف فجأةً حين تلمح زاويتي فم "إنجل"،  
المقلوبتين إلى الأسفل. "إنجل" تأمر "ليندا" بالاعتسال. "ليندا" لا تتحرّك.

- نفّذي ما طلبته منك!

تطيعها "ليندا".

يرتفع صوت ارتطام الماء بحوائف الحوض المعدني. تظل "أوليدا" واقفةً في مكانها.  
رائحتها نتنة. هل لمحت "ليندا" ساقيها العاريتين؟ تنسحب من داخل جسدها، مرّةً أخرى.  
تدفع بنفسها باتجاه الفراش. تستعيد روحها حين تحسُّ بالملمس المألوف للمرتبة القش  
أسفلها. تجيء "إنجل" وتعلنها بأنها ستجهز لها حمامًا، عقب ذهاب "ليندا" للمدرسة.

- أحرقني ثيابي.

- جميعها؟

- نعم. لم أخبرهم شيئًا.

- أعرف ذلك.

- سيأتون من أجلنا، ثانيةً.

- علينا أن نرسل "ليندا" بعيدًا عن هنا.

- سوف يرتاب "هانس" في المسألة. يجب ألا يشكّ في شيء. لا يمكننا مصارحته.

كرّرت "إنجل" وراءها:

- لا يمكننا مصارحته.

- يجب أن نرحل من هنا.

- أين نذهب؟ و"هانس"...

1947

## الجمهورية السوفيتية الاشتراكية دخلوا وكأنهم أصحاب البيت



في ذلك المساء الخريفي، كنَّ يصنعن الصابون. "ليندا" تلعب بعصافيرها المصنوعة من خشب "الكستناء"، وتعبث بـ"بروش" "إنجل" الألماني، وتقوم بتلميع فصوصه الزرقاء، وتحرص على ألا تُفوّت دروسها. برطمانات مربى التفاح، الذي أعدّته بالأمس، تصطفُ بانتظام فوق سطح الطاولة، في انتظار وضعها في حجرة المُوْن؛ يقف بجوارها دورق عصير تفاح، عُصر من المحصول نفسه، وضُبَّت محتوياته في عددٍ من الزجاجات. كان ذلك اليوم جيداً. أول يومٍ تستيقظ فيه "أوليدا" دون أن تفكّر مباشرةً في تلك الليلة التي أمضتها محتجزة في قبو دار مجلس المدينة، بل تأمّلت للحظة فيضان أشعة الشمس في حجرتها، قبل أن تتذكّر ما مرّت به. على الرغم من أن أحداً لم يأت ليحقق معهم ثانيةً، منذ تلك الليلة التي عادت فيها "أوليدا" للبيت بمفردها، فإنهما صارتا ترتعبان عند سماع أي دقة على الباب.. لكن هذا كان وضع كثير من الناس غيرهم في تلك الأيام.

صباح ذلك اليوم، على أي حال، أَحَسَّت "أوليدا" ببذرة أمل تنمو داخلها.. ربما سيدعونهما وشأنهما. ربما صدقوا فعلاً بأنهما لا تعرفان شيئاً. ربما سيتكونهما تمارسان أعمالهما في سلام، تصنعان المرقيات والأطعمة المحفوظة، دون إزعاج.

جاءت "آينو" لزيارتها، لتجلس معها إلى الطاولة، وتثرثر. لقد سُرِقَ برميل اللحم الذي كانت قد أعدته تهيئاً لصناعة صابونها الخاص. وعدتا بمنحها جزءاً من صابونهما. الحوار معها منحهما شعوراً جيداً. التَّحَدُّثُ مع شخص غريب يخفف من حدة الأجواء الصامتة التي تسيطر على المطبخ عادةً. لحديث "آينو" العادي أصداءً لطيفة تتردّد في المكان. حكايتها عن المصير المجهول للحم خنزيرها الذي يزن مئة كيلو جرام بعثت في نفسيهما الارتياح. الرفقة في ذلك المطبخ، أضفت على كل جملة شعوراً طيباً. أُصِيبَ خنزيرها بحمى الخنازير، فاضطرت لذبحه على الفور، والتَّخْلُصُ من دمه، وتمليح لحمه؛ لكن البرميل الذي وضعته فيه اختفى من داخل السندرة، حيث وضعت، بينما كانت تزور أمها.

قالت وهي تهزُّ رأسها:

- هل تصدّقان ذلك؟ سوف يأكل أحدهم ذلك اللحم! كان من المفترض أن أستعمله

لصناعة الصابون!

- لا شك أن ذلك الشخص ليس من هنا. كل مَنْ في القرية يعرف سبب موت خنزيرك.

- حمدًا لله أن السندرة كانت تخلو من أي شيء آخر.

كانت مكونات الصابون قد عُسِلَت وُنُقِعَت لبضعة أيام، وفي ذلك المساء كن يغليها في قدرٍ كبيرٍ على نارٍ هادئة. بدأت "إنجل" بإضافة الصودا الكاوية. تلك تحديدًا كانت مهمة "إنجل"؛ لأن "أوليدا" تفتقر إلى الصبر الذي تتطلّبه تلك الخطوة. "إنجل" تجيد صنع الصابون، تمامًا كما تجيد جميع الأعمال

النسائية. قطع الصابون التي تحضرها تتمتع بجودة عالية وكثافة. قطعٌ ممتلئة وعظيمة؛ لكن حتى ذلك الأمر لم يزعج "أوليدا" ذلك المساء، فقد كان ذلك أول يوم تشعر بأنه طبيعي بعض الشيء. في ذلك الصباح، مرَّ بهما بائع متجول، عارضًا عليهما بضاعته من الأصباغ المهزَّبة من مصنع "أورتو". ذاع خبر قدومه في القرى المجاورة. ها هو الصابون يغلي على النار، تُغطِّي سطحه الفقاعات، و"إنجل" تقلِّبه بمغرفة خشبية، و"آينو" تواصل ثرثرتها، وهي تهزُّ رأسها بين الحين والآخر. تحدَّثت عن مزارع "الكولخوز" الجماعية، وتساءلت عن الكيفية التي ستتمكن فيها من تحقيق الناتج المطلوب، في ظل رفع نسبته بشكلٍ مستمر؟ الأمرج يثير قلق الشقيقتين أيضًا، لكن "أوليدا" قررت أنها لن تستسلم للتوتر المتعلق بتلك المسألة. سيكون لديها متسعٌ من الوقت للقلق بشأن تحقيق المحصول المطلوب من المزرعة. انقطع الحوار بغتةً، حين شقَّته صرخة من الجهة الثانية من الطاولة. لقد شكَّ دبوس البروش الخاص بـ"إنجل" إصبع "ليندا". أخذته "إنجل" وقامت بتثيته على صدر بلوفر "ليندا"، وأمرتها بعدم العبث به. راحت "ليندا" تبكي في ركنٍ بعيدٍ من المطبخ، حيث جلست مع عصافيرها الخشبية، بعد أن حذرتها "إنجل" من أن تطاير محلول الصودا الكاوية قد يؤدِّي لتآكل لحم يدها. الأنشطة المنزلية المألوفة رسمت الابتسامة على شفتي "أوليدا". أشارت إلى النافذة لتجعل "ليندا" تراقب "آينو" وهي في طريقها لحلب بقرتها. سوف تعود "آينو" في الغد. حينها، سيكون الصابون جاهزًا للتقطيع، وستأخذ "آينو" نصيبها من تلك القطع لتجففها في منزلها. تمطَّت "أوليدا" طويلًا. ستذهب إلى الحظيرة بعد قليل، لتطعم الحيوانات، بصحبة "ليندا". عندها، سيتمكن "هانس" من دخول المطبخ وحمل قدر الصابون الثقيل، ووضعه على الأرض ليبرد.





كانوا أربعة رجال.

لم يترقوا الباب. دخلوا وكأنهم أصحاب البيت.

كانت "إنجل" تضيف مزيداً من الصودا الكاوية للقدر.

أنكرت "أوليدا" معرفتها بأي شيء يتعلق بـ"هانس".

سكبت "إنجل" محتويات الزجاجاة بأكملها في القدر.

فَارَ الصابون وانسكب على الموقد.

لم تخبرهم عن مكان "هانس".

لم تنطق "ليندا" بكلمة.

انبعثت الأدخنة من الموقد، واشتعل حريق، وانسابت رغاوٍ من القدر.

في دار مجلس المدينة، فُصِلَت "ليندا" عنهما، وأخذت مكانٍ آخر.

مصباحان عاريان، بلا غطاء، يتدلّيان من سقف القبو.

هناك فتّيان من قريتهما. ابن الرجل العجوز "ليميت"، و"آرمين جوف" الذي كان قد فرَّ

إلى الاتحاد السوفيتي قبل قدوم الألمان. لم ينظر أيُّ من الشائِبين باتجاههما.

كان الجنود في دار مجلس المدينة يدخنون سجائر "ماهوركا" ويشربون الخمر. من

أكواب زجاجية. يمسحون أنوفهم بأكمامهم، كما هي العادة الروسية، على الرغم من أنهم

كانوا يتحدثون بالإستونية. عرضوا على "أوليدا" و"إنجل" بعض الشراب. رفضتا.

قال أحد الرجال:

- نحن نعرف أنكما تعرفان مكان "هانس بيك".

من المفترض أن أحدًا شاهد "هانس" في الغابة. ادَّعى أحد من خضعوا للتحقيقات، أنه و"هانس" كانا في جماعةٍ واحدة، وأنهما اختبأَ معًا في مكانٍ واحد.

- ستممَّگان من المغادرة والعودة إلى البيت، فور أن تخبرانا عن مكان "هانس بيك".  
أضاف آخر:

- ابنتكِ حُبوبة للغاية!

قالت "إنجل" إن "هانس" ميت. قُتِل خلال جريمة سرقة، عام 1945.

- ما اسم ابنتكِ؟

قالت "أوليدا" إن "هندريك ريستلا"، صديق "هانس"، شاهدٌ على ما حدث. كان "هانس" و"هندريك" يركبان حصانًا، حين تعرَّضا لهجومٍ شرس، قُتِل "هانس" خلاله، بمنتهى البساطة. بدأت "إنجل" تتوتَّر. استطاعت "أوليدا" أن تشمَّ خوفها، على الرغم من حرص "إنجل" على عدم إظهاره. وقفت "إنجل" بكبرياء واستقامة. ظل أحد الجنود يقطع الحجرة سيرًا، وراءهما. يمشي، ويمشي.. وشخص آخر يمشي في الطُّرقة. صوت الـ"بوت".

- يا له من اسم جميل، لبنت صغيرة وجميلة.

"ليندا" بلغت السابعة مؤخرًا.

- سوف نُوجِّه هذه الأسئلة نفسها لابنتكِ، بعد قليل.

بقيتا صامتين. ثم دخل رجلٌ آخر. قال الرجل الذي كان يُحقِّق معهما، للقادم الجديد:

- اذهب لتحدَّث مع البنت. لا تضيِّع الوقت. افصل المصباح عن السِّلِك.

انتبه حتى لا تحرق أصابعك. لا، أحضر البنت إلى هنا، بدلًا من ذهابك إليها.

أطل سلك المصباح، إلى أن يصل إلى الطاولة. من هناك. انتظر حتى نضع البنت فوق سطح الطاولة.

انتهى الرجل للتو من أكل طعامٍ ما. ما زال يمضغ شيئاً. الدهون تلمع على يديه وزوايا فمه. أبوابٌ تُفتَح وتُغلق. أحذية "بوت" تضرب الأرض بقوة. سترات جلدية تصدر صريراً. تمّ تحريك الطاولة. أدخَلت "ليندا". قميصها بلا أزرار. تضم جانبيه بيدها.

- ضعوها فوق الطاولة.

"ليندا" هادئة وصامتة. عيناها...

- افتحوا ساقيها. ثبّتوها جيداً.

تنهّدت "إنجل" وتأوّهت، في ركنٍ من الحجرة.

- "أوليدا تام"، يمكنكِ تولّي الأمر. تعالي هنا إلى الطاولة.

لم تقولا شيئاً. لم تقولا شيئاً.

- دعيها تمسك المصباح.

لم تقولا شيئاً. لم تقولا شيئاً. أي شيء. أي شيء.

- أمسكي المصباح يا عاهرة!



1948

"لانيما" - الجمهورية السوفيتية الاشتراكية

رائحة البصل تتسلل للفرش



اختارت "أوليدا" "مارتن" قبل حتى أن يعرف أي شيء عنها. رآته بالصدفة في مركز إنتاج الألبان. كانت تنزل سلم المركز بشيء من الخُيلاء، وقد أعجبها القطن ناصع البياض المعلق على الحائط، والذي يُظهر مدى بياض الحليب الخاص بهما. حليب المزارعين الآخرين يميل إلى الصُفرة، أما إنتاجهما فقد جعل القطن يظل على بياضه نفسه. الحقيقة أنه مجهود "إنجل" وحدها، فهي التي تولى الأبقار عناية فائقة، ولكن ما أهمية ذلك؟ إنه منزل "أوليدا" أيضًا، وبالتالي فالأبقار أبقارها كذلك. انتفخ صدرها مُمتلئًا بالإعجاب، وهي تغادر مكتب المركز، وتهبط درجاته. في تلك اللحظة، سمعت صوتًا. صوتٌ غير مألوف لرجل. عميق. يفيض بالثقة. يختلف عن أصوات الرجال الآخرين في القرية، التي أنهكها التقدم في العمر، أو أضعفها الإفراط في الشرب منذ الصباح حتى الليل.. ما الذي يمكن لرجال هذا البلد فعله غير الشرب؟ اتجهت "أوليدا" إلى

الطريق، محاولةً العثور على صاحب ذلك الصوت، ونجحت في ذلك. كان يسير بخطوات عسكرية قوية، متجهًا إلى مركز الألبان، يتبعه ثلاثة أو أربعة رجال. لاحظت "أوليدا" أن ذيل معطفه مرتفع، وكأنه يستعد للطيران في الريح. لاحظت كيف يلتفت مرافقوه نحوه حين يتحدثون إليه، وكيف أنه لا يلتفت اتجاههم حين يجيبهم. يواصل النظر إلى الأمام، بجبين عالٍ، متطلعًا إلى المستقبل. وعندها أدركت "أوليدا" بأنه الرجل الذي سينقذها، ويحمي حياتها. "مارتن ترو". تتذوق "أوليدا" الاسم بانتباه، حين يتردّد همسًا بين جنبات القرية. له مذاقٌ طيب. لـ"أوليدا ترو" طعمٌ أطيب. إنه يذوب على لسانها، كندف الثلج الأولى. خَمَّنت "أوليدا" بسهولة المكان الذي ستجد فيه "مارتن ترو"؛ أو بمعنى آخر المكان الذي سيجدها "مارتن" فيه. في "الركن الأحمر"، في الطابق الثاني من بيت المزرعة الكبير، والذي تحول إلى مركز ثقافي.

بدأت "أوليدا" بمراقبته، بين التماثيل النصفية التي تجسّد "لينين". تتصفّح الكتب ذات الأغلفة الحمراء، تحت ظل العَلَم الأحمر الكبير. خلال قراءتها لتلك الكتب، تنظر للمدفأة بين الحين والآخر، وتتأمّل زخارفها المشوهة. أشباح نساء المزرعة - من الألمان البلطيقين - تنن تحت قدميها. التشاؤم الرطب يضيف ظلالًا داكنة على ورق الحائط. حين تكون بمفردها في المكان، تسمع أحيانًا صوتًا للنوافذ، وكأن أحدًا يحاول فتحها. يرتفع صريرٌ من إطار النافذة، تتبعه هَبّة هواء، على الرغم من أن النافذة تظل مغلقة. لم تسمح لتلك الأمور بإزعاجها، وإن لازمها الشعور بأنها في بيت شخص آخر. في المكان الخطأ. داخل منزل رجل نبيل. شعورٌ يقترب من إحساسها عند دخول الكنيسة الروسية التي تم تحويلها إلى مخزنٍ للحبوب. توقّعت أن يضربها الرب بالبرق، وهي هناك؛ لأنها لم تعترض الرجال الذين حوّلوا الأيقونات إلى أدوات لحفظ الحبوب. تُذكّر "أوليدا" نفسها بأنها ليست كنيستها، وليس من المفترض أن تفعل هي شيئًا حيال تلك المسألة. ما الذي يمكنها القيام به؟ تكرر لنفسها أن بيت المزرعة صار ملكًا للشعب، من أجل خدمتهم والانتفاع به. الشعب هو الذي تحمّل كل تلك المحن، على أي حال. بنظراتٍ حاملة، تتأمّل التمثال النصفي

لـ"لينين" الباسم، الذي يسند رأسه بيده. تطالع قائمة الناتج المقرر على المزارع الجماعية، ثم تعاود تصفح "الأركان الخمسة" و"الشيوعيون الإستونيون"، بجدٍّ ومثابرة. في إحدى المرّات، يقع الكتاب على الأرض، فتنحني لتتناوله من تحت الطاولة. تلاحظ اسمين محفورين أسفل سطحها.. "آجنس" و"ويليام"، يتوسطهما قلب. القلب في عقدة خشب، كانت بداية فرعٍ في الشجرة. تُحدِّق العقدة بها. 1938. لا يوجد أحدٌ هنا يحمل اسم "آجنس" أو "ويليام". الطاولة البديعة المصنوعة من خشب الورد، سُرِّقت من مكانٍ ما، وقُطعت الحليّات والزخارف التي تزينها. هل استطاع "آجنس" و"ويليام" النجاة بحياتهما؟ هل يعيشان بسعادةٍ وحبٍّ في مكانٍ ما بالغرب؟ تعتدل "أوليدا" في جلستها، وتمدّ ظهرها باستقامة، وتبدأ في حفظ "أغنية الجرّار الزراعي":

"أسرع أيها الجرّار الحديدي! أسرع يا رفيقي!

الحقل كالبحر أمامنا، بلا حدود

أنت وأنا نعبّر أرضًا مترامية الأطراف

وصدى أغنية الانتصار يتردّد في الحقل والغابة".

ليس كافيًا أن تحفظها عن ظهر قلب. عليها أن تفهمها جيدًا وتصدّقها، حتى تغدو عقيدةً تؤمن بها. هل باستطاعتها فعل ذلك؟ إنه واجبٌ عليها اتباعه. فكّرت في تعاليم "ماركس" و"لينين"، ولكن أليس من الأفضل أن تجعل "مارتن" يعلمها؟ إن أغنية سائق الجرّار الزراعي بسيطة وسهلة. عليها أن لا تُشعر "مارتن" بأنها ذكيّة أكثر مما ينبغي.

شاهدها أحدهم في "الركن الأحمر"، وأبلغ "إنجل". "إنجل" أبلغت "هانس"، و"هانس" لم يتحدّث مع "أوليدا" لأسبوع كامل. لكن "أوليدا" لم تهتم. ما الذي يعرفه "هانس" عن حياتها؟ ما الذي يعرفه "هانس" عن الوضع في قبو دار مجلس المدينة؟ الأرض الحجرية وبول الضباط الكبار وهو

يسيل على ظهره؟ الواقع أنها اهتمت قليلاً برأيه.. أكثر من ذلك ربما، لكنها بحاجة إلى شخص. شخص مثل "مارتن". عينا "مارتن" بدأتا تلمحان الفتاة المثابرة التي تواظب على القراءة في "الركن الأحمر". في أحد الأيام، ألقى "مارتن" خطبة. ذهبت "أوليدا" إليه، ووقفت بانتظار أن يخفّ الزحام حوله، ثم قالت:

- علّمني.

كانت قد شطفت شعرها بالخل في اليوم السابق، فراح يلمع في العتمة. حاولت أن تضيفي على نظراتها جهل وبراءة عجل حديث الولادة، لتوقظ بداخله رغبة ملحة في تعليمها، وليدرك بأنها أرض خصبة لبذور كلماته.

سقط "مارتن ترو" أسيراً لعيني العجل النديتين. سقط بخفة وسهولة. اقترب منها، ووضع يد المعلم الناصح، الضخمة، أسفل ظهرها. له رائحة كريهة.



1948

"لانيما" - الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية

خطوات أكثر خفة



ما إن وضعت "أوليدا" قدمها خارج مكتب السَّجِلِ المدني، حتى أصبحت خطواتها أكثر خِفَّةً عمَّا كانت عليه عند دخولها إليه، كما صار ظهرها أكثر استقامة؛ لأن يدها ترتاح على ذراع "مارتن" الآن، و"مارتن" أضحى زوجها. زوجها الشرعيّ، الرسميّ، وهي زوجته الشرعية، الرسمية. "أوليدا ترو". يا له من اسمٍ جميل! وعلى الرغم من أنها اكتسبت نوعًا من الأمان بزواجها من "مارتن"، فإن الأمر الآخر الذي لا يقل عن ذلك أهمية هو أنها أصبحت كأى امرأة طبيعية أخرى. النساء الطبيعيات يتزوجن وينجبن أطفالًا. إنها واحدة منهنَّ الآن.

لو بقيت دون زواج، لظن الجميع أن بها عيب ما. سيظنون ذلك، على الرغم من أن عدد الرجال المتاحين قليلٌ جدًّا. كان الروس سيتساءلون عمَّا إذا كان لها عشيقٌ يختبئ في الغابة. الآخرون سيواصلون تخميناتهم عن الأمر الذي يجعلها لا تناسب أي أحد. هل تقل أنوثةً عن الأخريات؟ هل لا تليق بالرجال؟ أم لعلَّها



لا تتحمل فكرة الارتباط برجل؟ هل هناك سبب لتجاهلهم لها؟ ربما اخترع أحدهم سبباً لوضعها. المهم أن مجرد اقترائها برجلٍ مثل "مارتن"، سيمنع الناس من الادّعاء أنها تعرّضت لشيء خلال التحقيق معها. لن يصدّق أحد أن امرأة مرّت بتجربةٍ كتلك، ستتزوج من شيوعي. لن يجرؤ أحد على مَسّها بكلمة.. قد يحاول أحدهم. لن يجرؤوا؛ لأنها صارت زوجة "مارتن ترو". إنها امرأة محترمة.

ذلك مهم. يجب أن لا يعرف أحد ما حدث لها.

تستطيع تمييز رائحة النساء في الطريق. الرائحة التي تدل على أن شيئاً مماثلاً قد حدث لهن. يمكنها تمييز الأيدي المرتعشة. ها هي واحدة أخرى. تعرفهنّ من الاختلاجات التي تهاجمهنّ عند سماع صيحة جندي روسي، ومن الاضطراب الذي يصيبهنّ مع كل خطوة من بوت عسكري. هل يحدث لها ذلك هي أيضاً؟ تعرفهنّ حين يعبرن الطريق فجأةً، عند اقتراب أي رجل ينتمي للسلك العسكري. وتلاحظ التكتل عند حضورهن، والذي يشير إلى ارتدائهنّ لأكثر من قطعة من الملابس الداخلية التحتية. تميزهنّ أيضاً عندما يتهربن من النظر إليك مباشرةً. هل أخبروهنّ، هنّ أيضاً، ما قالوه لها؟ سوف تتذكريني في كل مرة تذهبن فيها إلى الفراش مع زوجك.

حين تجد نفسها بالقرب من إحداهن، تحاول الابتعاد بأقصى ما تستطيع. حتى لا يلاحظ أحد التشابه الذي يميّز تصرفاتهما. حتى لا تكرر إحداهما تعبيرات وملامح الأخرى، ولا تزيد من توترها الظاهر. في مناسبات وتجمعات القرية، تتجنّب "أوليدا" تلك النسوة؛ لأنك لا تدري تحديداً متى سيمر بالقرب منك أحد أولئك الرجال. رجلٌ ستتذكرينه إلى الأبد. لعله الرجل نفسه الذي فعل ذلك لكما أنتما الاثنتين. لن تستطيعا منع نفسيكما من الالتفات في الاتجاه نفسه، والتحديق به. لن تتمكننا من إخفاء الرجفة التي ستنتابكما في اللحظة ذاتها، عند سماعكما لصوته المألوف لأذانكما. لن تنجعا في رفع كأسَي شرابكما،

دون أن تسكبا منهما شيئاً، بأصابعكما المرتعشة. سيكتشف الناس سرّكما. سيعرفه أحد. أحد أولئك الرجال سيتذكر أن "أوليدا" كانت ضمن النساء اللاتي كن في قبو دار مجلس المدينة. إنها واحدة منهنّ. وكل ما خططت له من محو تلك الذكرى، بزواجها من "مارتن ترو"، سيضيع سُدًى. ربما سيظنون أن "مارتن" لا يعرف، وسوف يقومون بإخباره. "مارتن"، من جانبه، سيعتبر الأمر تشهيراً، وسيغضب بشدّة. ثم ما الذي سيحدث؟ كلّاً.. لا يمكنها أن تسمح لذلك بالحدوث. يجب ألا يعرف أحد.

حين يحدث موقف مشابه، تفكر على الفور في أمر شنيع تصف به تلك النساء. تحقّر من شأنهنّ، حتى تفرّق نفسها عنهنّ.

هل أنت متأكّدة، أيتها الرّقيقة "أوليدا"؟

انتقلا للإقامة في حجرة داخل منزل "روسيبو". لم يجرؤ أي فرد في عائلة "روسيبو" على السخرية من "مارتن"، بشكلٍ مباشر. كانوا يخافونه. لكن توجب على "أوليدا" الحذر في كل خطوة وحركة.. هناك دائماً شيء ما على وشك السقوط أو التداعي. يضع الأطفال الملح في سكرّيتها، ويجرّون ثيابها المغسولة من على الحبل، ويدسّون الدود في إناء الدقيق الخاصّ بها، ويمسحون مخاطهم على مقبضي الإناء. يراقبون "أوليدا"، واقفين بجوار مغازل أمهاتهنّ، وهي تشرب الشاي المالح، أو تمسك بمقبضي إناء الدقيق. تحرص على أن لا تتغير تعبيرات وجهها، حتى حين تشعر بهلمس المخاط الجاف على أصابعها، أو عندما تسمع صوت الديدان وهي تتحرك داخل الإناء. لن تسمح لهم بمتعة رؤية انزعاجها من تصرفاتهم. إنها زوجة "مارتن"، وهي فخورة بذلك، وتحرص على تذكير نفسها بتلك النقطة في كل خطوة تخطو بها. تحاول محاكاة الفخر والمباهاة اللذين يميزان مشية "مارتن". تفتح بابها وتخرج منه بطريقة تجعل الآخرين هم الذين يخضعون لها، وليس العكس. لكن المسألة تفشل في كل مرّة، في الواقع، وما يحدث هو أن سُكّان البيت يصفقون الباب في

وجهها، ويتعين عليها فتحه من جديد. قام بعض الجنود الروس، الذين يتقاسمون غرف البيت، بتعليم أفراد عائلة "روسيو" كيف يقولون "صباح الخير" و"نهارك سعيد" بالروسية. كانوا يحيون "أوليدا" بهذه العبارات التي حفظوها مؤخرًا.

هناك دائمًا بقايا بصل عالقة بين أسنان "مارتن"، الذي يمتلك شهيةً عظيمة. له عضلاتٌ ثقيلة، وذراعين مترهلتين. المسام في إبطيه كبيرة. أكبر من تلك التي تغطي جبهته. الشعر في إبطيه مائلٌ للاصفرار بفعل العرق، وأشبه ما يكون بالطحالب، رغم كثافته. أقرب في شكله لليفة من السلك الصديء. سُرته تشبه المغارة. خصيتاه متدلّيتان حتى تكادان ملامسة ركبتيه. من الصعب تخيل أنه امتلك يومًا ما خصيتين متماسكتين، كأى شابٍّ في مقتبل العمر. المسام التي تُغطّي بشرته دهنية، ولها رائحة تتغير وفقًا لما يتناوله من طعام. أو ربما كان ذلك الأمر من وحي خيال "أوليدا". على أي حال، حاولت أن تطهو بلا بصل، ومع مرور الوقت حاولت جاهدةً أيضًا أن تنظر إلى "مارتن" بالطريقة التي تنظر بها المرأة إلى الرجل، وأن تتعلم كيف تصبح زوجة. تدريجيًا، نجحت في ذلك، وخصوصًا حين لاحظت الطريقة التي يصغي بها إليها عندما تتكلم معه. بداخل "مارتن" مزيجٌ من النار والسُّلطة. يستطيع أن يجعل الناس ينصتون إليه، وبإمكانه منحهم الثقة بالنفس التي يحتاجون إليها. كان له قدرات "ستالين" نفسه، على نحوٍ ما. كلمات "مارتن" حادّة وقاطعة كالمنجل، وقوية كضربة مطرقة. حين يتكلم، يرفع يده في الهواء، ويكور قبضته، ويهزّها مهاجمًا الفاشيين والخونة واللصوص. قبضةٌ كبيرة، وإبهامٌ قوي، ويدٌ تذكّر برأس ثور. يدٌ تصلح للاحتماء تحتها. حلمتا أذناه كبيرتان ومتدلّيتان، ويمتلك القدرة على تحريكهما. يشي مظهر أذنيه بأنه قد سمع كل شيء. ولأنه يسمع كل شيء، فإن "مارتن" يستطيع معرفة المخاطر قبل حدوثها.

في الصباح، تعلق رائحة إبطي "مارتن" بشعر "أوليدا" وبشرتها. تلازم رائحته أنفها طوال اليوم. كان يحب أن ينام محتضناً إيّاها بقوة تحت ذراعه. كان ذلك جيداً. منحها إحساساً بالأمان. صار نومها أفضل بكثير مما كان عليه لسنوات. تنام بسهولة، وتعتّش، وكأنها تحاول تعويض ليالي الأرق التي عانت منها طويلاً. لم تعد تخشى أن يطرق أحدُ باب بيتهم ليلاً. لن يستطيع أحد أن يسحبها من تحت ذلك الذراع. علاقتها نموذجية ونادرة الحدوث أو التكرار.

سعد "مارتن" حين لاحظ العمق الذي تنام به "أوليدا" وهي إلى جواره، وكيف أن ذلك أضفى على جمالها بهاءً إضافياً. كان قد لاحظ توترها وفزعها في بداية علاقتها، وحيّره الأمر. تلاشى توتر "أوليدا" شيئاً فشيئاً، خلال ساعات النهار. نظراتها الفَرّعة، أضحت أكثر هدوءاً. عيناها الحمراوان بسبب الأرق صارتا صافيتين. كل تلك المسائل جعلت "مارتن" رجلاً سعيداً. سعى هذا الرجل السعيد لتوظيف زوجته في منصب "مفتش". كان من ضمن مهامها جمع المستحقات المالية، وإصدار أذون بها. الوظيفة سهلة، لكنها غريبة. لم تعد عائلة "روسيبو" الوحيدة التي تغلق بابها فور رؤية دراجة "أوليدا" وهي تقترب من منزلهم. وعدها "مارتن" بتدبير وظيفة أفضل، ما إن يحصل على ترقية في عمله.

ولكن.. تلك الرائحة. في بادئ الأمر، حاولت "أوليدا" أن تتنفس من خلال فمها، طوال اليوم؛ لكنها اعتادتها في نهاية الأمر.

علّقت "إنجل" بأن رائحة "أوليدا" بدأت تشبه روائح الروس. مثل أولئك الناس الذين يجلسون في محطات القطار، حاملين صُراً قماشية. تجلب القطارات الكثير منهم، طوال الوقت، وسرعان ما تبتلعهم أفواه المصانع الجديدة.

1949

"لانيما" - الجمهورية السوفيتية الاشتراكية

الاختبارات



لم يفصح "مارتن" لـ "أوليدا" عن سبب رغبته في ذهابها إلى دار مجلس المدينة ذلك المساء، ولذلك أحسّت بصعوبة المشوار. هل أنتِ متأكّدة، أيتها الرفيقة "أوليدا"؟ ظل صوت الرجل يتردّد داخل رأسها، ولم تعد متأكّدة من شيء، سوى ضرورة تشبّثها بـ "مارتن". بحثت عن سجائرها، وهي على عتبة البوابة الأمامية، وأدركت أن علبتها خاوية. اضطرت لدخول المنزل، ثانيةً، على الرغم من أن ذلك كان فألاً سيئاً. حاولت تعبئة علبتها، لكنها فشلت. راحت السجائر تتكسر بين يديها المرتعشتين. بدأت تبكي. قميصها يبلله العرق، شعرت بالبرد. برد فظيع وكريه. لم تستسلم للشهقات المصاحبة للبكاء، ونجحت في وضع بضع سجائر داخل العلبّة، ثم غادرت المنزل بخطوات متعثرة. قذفها طفل عائلة "روسيو" بحجر، قبل أن يختبئ بين الشجيرات القريبة، وهو يضحك بصوت مرتفع. لم تلتفت "أوليدا". لحسن الحظ، كان بقية أفراد العائلة منهمكين في أعمالهم، فلم يرَ أحد منهم - عدا الولد - ارتجاف

جسدها، وحييات العرق التي تغطي أعلى شفيتها. في تلك اللحظة تحديداً، كان التواجد داخل مطبخ "روسيبو" أكثر إبهاجاً من التوجه إلى دار مجلس المدينة. خلال سيرها في الشارع العام، استدارت مرّتين وقرّرت العودة، لكنها أكملت طريقها نحو الدار، في نهاية الأمر. ارتاعت حين لمحت قطة سوداء، وبصقت من فوق كتفها ثلاث مرّات. هل أنتِ متأكّدة أيتها الرّفيقة "أوليدا"؟ في منتصف المسافة، أشعلت سيجارة، ووقفت تدخنها. أفزعته زقرفة عصافير مفاجئة، فواصلت السير، وهي تعضّ كفيها، محاولةً السيطرة على الرغبة في الحكّة التي انتشرت بهما. إن استسلمت لتلك الرغبة، فسوف تدميهما. راحت تضغط عليهما بأسنانها. هل أنتِ متأكّدة أيتها الرّفيقة "أوليدا"؟ عند اقترابها من مبنى مجلس المدينة، دخنت سيجارة أخرى. اصطكّت أسنانها. إنها تشعر بالبرد. عليها أن تتقدم بخطواتها أكثر. لسانها مشقق من شدّة الجفاف. تتقدم نحو مدخل المبنى. المكان يعجّ بالبشر. ارتفع صوتٌ من سيارة قريبة. فزعت "أوليدا". سرى الوهن في ركبتيها. وقعت على الأرض. تظاهرت بتنظيف طرف ثوبها. غطّى الطين الحذاء المطاطي الذي ترتديه فوق فردتي حذائهما لتحميهما من البلل والأتساخ. نظفّتهما ببعض الماء من بركة صغيرة. دسّت يديها المرّجفتين داخل جيبيها. اصطدمت أصابعها بأوراق إنذار الدفع الموجهة للأزواج الذين ليس لديهم أبناء. أخرجت يديها من جيبيها. في ذلك اليوم، كانت قد طافت بيوت أسرّتين ممن ليس لديهم أبناء، وثلاث أسرّ ممن لديهم عدد قليل جداً من الأطفال. لم يسمح أيّ منهم بدخولها. في الباب السفلي لدار مجلس المدينة، تعاقب مرور رجال يحملون أجولة رمل إلى الداخل، يضعونها كسواتر أمام نوافذ المبنى. فهمت من تهامس المارّة بأنهم يتأهبون لمواجهة هجوم محتمل من الخارجين على القانون.

المبنى يمتلئ بالناس، على الرغم من أن الساعة قد تجاوزت السابعة مساءً. تردّد في الأرجاء صوت دقّ متواصل على حروف آلة كاتبة. اندفعت أقدامٌ متحمسة، جيئةً وذهاباً. لمحت أطراف معاطف جلدية سوداء، بطرف عينيها.

أبوابٌ تُفْتَحُ وتُغْلَقُ. قهقهات سكارى. ضحكة فتاة شابة. امرأة تكبرها ببضع سنوات قليلة، تخلع في الممر حذاءها المطاطي الواقي. تظهر من تحته فردتا حذاء، تتميزان بالجمال والرقّة، وبكعبين عاليين. تهزُّ المرأة رأسها، لتعيد الرونق لخصلاتها المتموجة. قرطها يلمع في الإضاءة الخافتة، كسيفٍ أُخْرِجَ من غمده.

هل أنت متأكدة أيتها الرّقيقة "أوليدا"؟

للممر رائحةٌ معدنية.

صاح صوت:

- "لينين" .. "لينين" .. ومرةً أخرى "لينين"!

الشقوق على الجدران ذات الألوان الفاتحة، ضبابية، حتى بدت كما لو كانت تتحرّك. ببرود، استقبلتها رائحة خمر على باب مكتب "مارتن". دخان السجائر يغطي جنبات الغرفة بسُحُبٍ داكنة. لم تكن الرؤية واضحة.

- اجلسي.

ميّزت "أوليدا" مكان "مارتن" من صوته. يقف في أحد أركان الغرفة، ويمسح يديه بفوطة، كما لو أنه انتهى للتوّ من غسلهما. جلست "أوليدا" على المقعد الذي قدّمه لها. العرق بركتين لزوجتين تحت إبطيها. مسحت أعلى شفيتها بباطن كفّها الجاف. يقترب "مارتن" منها، وينحني ليلثم جبينها، بينما تمتد يده إلى صدرها، ويعتصره بخفة. القماش الصوفي لمعطفه يحكُّ طرف أذنها. يخلف بقبلته بقعةً رطبة فوق جبينها.

- هناك شيء ينبغي على حُبّوتي الصغيرة أن تراه.

تمسح "أوليدا" أعلى شفيتها، مرّةً أخرى، وتلّف كاحليها حول قوائم المقعد.

يفلت "مارتن" صدرها، وتبتعد أنفاسه عن أذنها. يتناول بعض الأوراق من على الطاولة. يعطيها ورقة منها. يداها مترددتان. تواصل النظر أمامها. "مارتن"

يقف بجوارها. الورقة تسقط على حِجرها. تشعر بنيرانٍ تسري في فخذيها، تحت الورقة، على الرغم من أن الإحساس بالبرودة ما زال يلزمها، وقد حوّل أطراف أصابعها إلى اللون الأبيض. أنفاس "مارتن" تتحرّك في الغرفة، كالريح. اللعاب يملأ فم "أوليدا"، لكنها لا تجرؤ على ابتلاعه. ابتلاعه سيثي بتوترها.

- انظري إليها.

توجه "أوليدا" نظراتها إلى الورقة.

إنها قائمة. هناك أسماء في القائمة.

- اقرئها.

لم يتوقّف عن مراقبتها.

بدأت ترتّب الحروف إلى كلمات.

اسمي "إنجل" و"ليندا" في السطر الأول.

تتوقّف عيناها عن متابعة القراءة. يلاحظ "مارتن" ذلك.

- ستغادران.

- متى؟

- التاريخ مدوّن في أعلى الصفحة.

- لماذا تُريني هذا؟

- لأنني لا أخفي سراً عن حبيبتى الصغيرة.

يتّسع فم "مارتن" بابتسامة. تلمع عيناها ببريق واضح. يرفع يده ويمررها على رقبتها.

- حبيبتى الحلوة تمتلك رقبة جميلة.. رشيقة وبديعة.



حين تغادر "أوليدا" مبنى مجلس المدينة، تتوقّف لتحية رجل يدخن بجوار الباب. علّق بأن هذا الربيع غريب.

- جاء مبكرًا أكثر مما يجب، ألا تعتقدون ذلك؟

تومى "أوليدا"، وتتسلل من جواره لتدخن سيجارة وراء شجرة، حتى لا تبدو هي أيضًا غريبة، بتدخينها على الملأ. ربيعٌ غريب. فصول الربيع الغربية، وفصول الشتاء الغربية تثير الخوف دائمًا. 1941 كان شتاءً غريبًا. شديد البرودة. 1939، و1940 كانا كذلك أيضًا. سنواتٌ غريبة. فصولٌ غريبة. هناك طنينٌ داخل رأسها. ها هو مرّةً أخرى. فصلٌ غريب. إعادة وتكرار للسنوات الغربية. كان والدها مُحقّقًا. الفصول الغربية، تنبئ عن أحداثٍ غريبة. كان عليها أن تدرك ذلك. تهزُّ "أوليدا" رأسها في محاولة لترتيب أفكارها. هذا ليس وقت حكايات المُسنّين الخرافية.. يكفي أنهم لم يقولوا شيئًا عن كيفية التصرف في المواسم والفصول الغربية. جهّز حقائبك، وتوقّع الأسوأ.

من الواضح أن "مارتن" يودُّ اختبارها. يريد معرفة إن كانت أهلًا للثقة. إن هربت "إنجل" و"ليندا" الآن، أو لم تكونا في المنزل في الليلة المقصودة، فإن "مارتن" سيدرك من المسؤول عن ذلك. تتزايد الآلام في أسنان "أوليدا" وتنتقل إلى فكّيها.

سيتم أخذ "إنجل" و"ليندا". لن يأخذ أحد "أوليدا". ولا "هانس". عليها أن تفكر بوضوح. تفكر بوضوح في "هانس". عليها أن تطلب من "مارتن" الانتقال إلى بيت "إنجل"، بعد إبعادها. لن يناسب "أوليدا" بيت آخر، حتى لو كان أجمل، أو أكبر، أو أصغر. لا تريد بيتًا غيره. على "أوليدا" أن تكون في قمة جاذبيتها خلال الأيام القليلة المقبلة.. فاتنة ومتوهجة، وأن تدير رأس "مارتن" من فرط اللذة على فراشهما كل ليلة، حتى يفعل كل ما بوسعه ليحصل على البيت لهما. يجب أن تبقى الحيوانات أيضًا! هي لا تريد حيوانات أشخاص آخرين. "ماسي" هي بقرتها! إن لم تجدها في الحظيرة، سيطلق "مارتن" رجاله وراء اللصوص الذين سرقوها، ثم سينفيهم في "سيبيريا"! تعجبت من

الغضب الذي اندلع داخلها، في اللحظة التي تخيلت فيها أن يلمس شخص غريب حيواناتها. إنهم ملكها الآن. "إنجل" ستقوم بحلبها لبعض الوقت فقط. سيتوجب عليهم تسليم بقرة واحدة إلى حظيرة المزرعة الجماعية، ليتمكنوا من البقاء داخل إطار كوتة الإنتاج المطلوب، ولكن "مارتن" سوف يعمل على استردادها لاحقًا. على كل حال، لن يجرؤ أحد على عدّ الحيوانات الموجودة في حظيرة منسق الحزب.

لم ترغب "أوليدا" - في بداية الأمر - في التفكير في السؤال الأكثر أهمية: كيف سيتمكن "هانس" من البقاء مختبئًا تحت السقف نفسه الذي يجمعه بـ "مارتن"؟ صحيح أن "هانس" لا "يُشخّر" في نومه، ولكن ماذا لو بدأ يفعل ذلك؟ ماذا لو عطس فجأة في هدوء الليل؟ ماذا لو أصيب بالكحة؟ "هانس" يجيد التزام الصمت التام عند زيارة الضيوف، هذا صحيح، لكن "مارتن" سيكون مقيمًا في المنزل بصفةٍ دائمة.. إن التحجج بوجود أشباح، وليكن شبح جدةٍ قديمةٍ لن يقنع "مارتن" على الإطلاق. ضغطت "أوليدا" بيديها على جبينها وخذّتها. كم مرّ عليها وهي تقف هنا؟ تحركت أخيرًا، وبدأت في السير نحو المنزل. أحسّت بطعم دم في فمها. لقد عضّت خدّها من الداخل. السندرة. عليها أن تنقل "هانس" إلى السندرة. أو القبو. عليها أن تبني قبوًا تحت حجرة المون، أو تحت الغرفة الصغيرة. لعل السندرة أفضل؟ السندرة تمتد فوق سقف البيت، لتشمل أعلى الحظيرة والإسطبل. إنها تمتلئ بالقش. حزم القش متجاورة وملتصقة ببعضها بطريقة يصعب معها رؤية ما وراءها. لو وضعت خزانة هناك، فلن يلاحظها أحد. يمكنها صنع واحدة، ووضعها وراء حزم القش. فوق الحظيرة بالضبط. ستتواجد "أوليدا" في الحظيرة كثيرًا لإطعام الأبقار. ستصعد لأعلى لإلقاء حزم القش لها. لن يضع "مارتن" قدمه في الحظيرة أبدًا، على الأغلب. إنه لا يعرف كيف يحلب الأبقار. ولا يحبُّ الدجاج، فقد كاد يفقد عينه وهو طفل صغير بعد أن نقرتها دجاجة، كما أن بقرة دهست قدمه في إحدى المرات. لا عجب أن "مارتن" اختار العمل مع الجماهير.

لم يكن لينجح في التعامل مع الحيوانات. على كل حال، الحيوانات تصدر أصواتًا باستمرار. بإمكان "هانس" أن يعطس ويكح كيفما شاء. كما أن الدعامات التي تعلقو الحظيرة أكثر سُمًا من غيرها في مواضع أخرى. هناك ثلاثون سنتيمترًا من الرمال، تفصل بين الألواح الخشبية. لن يسمع أحد شيئًا.

ستقوم ببناء حجرة هناك، فور أن يتم ترحيل "إنجل" و"ليندا". يمكنها تنفيذ ذلك بنفسها. توجد ألواحٌ خشبية مهملة في السندرة. ستضع أكوامًا من القش أمامها. ستختار حزمًا خفيفة، يسهل تحريكها. لن تكون لافتةً للنظر، حتى لو صعد أحد إلى السندرة.

حين كانت "أوليدا" تزور "إنجل"، كانت تراقبها عن كثب في بعض الأحيان، وتستصعب مجرد النظر إليها في أحيانٍ أخرى. بعد تلك الليلة الأولى في دار مجلس المدينة، حاولت "أوليدا" تجنب نظرات أختها، وفعلت أختها الشيء ذاته. لكن بعد رؤيتها للقائمة، تملكت "أوليدا" رغبةً ملحّة في الذهاب لمنزل "إنجل"، لمجرد النظر إليها. في بعض الأحيان، كانت تتسلل لمتابعتها أثناء عملها. تُحدّق في "إنجل"، على النحو الذي تنظر فيه إلى شيءٍ يذوب ويذوي. شيءٌ لن يرى ثانيةً أبدًا. كانت تفعل ذلك بطريقةٍ خفيّة.. حين تكون "إنجل" منهمة في العناية بالحيوانات، أو تقديم عُشب النفل للأبقار الموشكة على الولادة. عندما تكون مستغرقة تمامًا في أداء واجباتها.

الأمر ذاته ينطبق على "ليندا". عقب تلك الليلة في دار مجلس المدينة، أصبحت "ليندا" صامتة إلى حد يقترّب من الخرس. تنطق بكلمتين فقط، هما "نعم" و"لا"، حين يسألها أحد عن شيء. ولم تعد تتفوّه بهما أصلًا للغرباء. صارت "إنجل" تفسر الوضع للناس في القرية، بالقول إن حصانًا مندفعًا كاد يدهس ابنتها، وأن الصغيرة فقدت القدرة على الكلام منذ تلك اللحظة، من شدة الخوف. كانت تضيف أنها متأكدة من أن الطفلة ستجاوز الأمر مع الوقت.

حين يكونون في المطبخ، تُكثر "إنجل" من الثرثرة والضحك، متعمدةً، حتى لا يلاحظ "هانس" صمت "ليندا".

في إحدى المرّات، شاهدت "أوليدا" "ليندا" وهي تطعن يدها بشوكة طعام. ورغم ما بدا على البنت من شroud، فقد تركّز اهتمامها على مواصلة ما تفعله. صفيرتاها مشدودتان بقوة من على جانبي رأسها. لم تلاحظ وجود "أوليدا". أخذت تضرب كفها بأسنان الشوكة. نظراتها ثابتة، وملامح وجهها جامدة، دون أي تعبير. فمها مفتوح في صمت.

للحظة سريعة، عابرة، هتف صوتٌ داخل "أوليدا"، يحثُّ "ليندا" على مواصلة طعن نفسها. طعناتٌ أكبر. طعناتٌ أقوى.. لكن ما إن استوعبت الفكرة، حتى أخرجتها الصدمة. عليكِ ألا تفكري بهذه الأفكار الشريرة. الأشخاص ذوو الأفكار الشريرة هم أشرارٌ بالضرورة. عليها أن تقترب من "ليندا"، وأن تحتضنها بين ذراعيها، وأن تربت عليها. لكنها لم تستطع. لم ترغب في لمس تلك المخلوقة. أحسّت بالتقزز. تمقت جسدها، وجسد "ليندا"، وتلك الطبقة الشمعية التي ظهرت على بشرتها. "ليندا" تواصل الطعن بالشوكة. ترفع يدها وتطعن من جديد، و"أوليدا" تراقبها، وكفُّ "ليندا" يتحول للون الأحمر. يدا "أوليدا" تتكوران إلى قبضتين محكمتين. "ليبيسي" ينبح في الحديقة. النباح يعيد "أوليدا" إلى حواسها. إنها لا تزال في المطبخ. "ليندا"، بعينها الزجاجيتين، لا تتحرّك. لا تزال تقبض على شوكة الطعام بين أصابعها، لكنها توقّفت عن طعن نفسها بها. "أوليدا" تأخذ الشوكة منها. تدخل "إنجل"، وتركض "ليندا" خارج المطبخ.

- ما الذي حدث لها؟

- لا شيء.

"إنجل" لا توجه مزيداً من الأسئلة. تعلّق فقط بأن الربيع غريبٌ هذه المرّة.

- سوف نذهب إلى الحقل بـ"بلوفر" صوفي خفيف، فقط، عمًا قريب.



اليوم الموعود يقترب. أسبوعان. ثلاثة عشر يومًا. اثنا عشر. أحد عشر. عشر ليالٍ. تسع. ثمانٍ. سبع مساءات. سترحلان خلال أسبوع واحد. لن يعود المنزل مِلْغًا لـ"إنجل". لن تغسل "إنجل" هذه الأطباق بعد اليوم، ولن تطعم هذه الدجاجات. لن تصنع علفًا للدجاج في هذا المطبخ، ولن تصبغ فيه الخيوط الصوفية. لن تصنع الصلصة البنية لـ"هانس"، ولن تغسل شعر "ليندا" بمزيج رماد أوراق شجرة البتولا والماء. لن تنام فوق هذه الأسرة، بعد اليوم. "أوليدا" هي التي ستنام عليها.

"أوليدا" تسمع لهاثها المستمر. إنه لا يتوقف. تسحب الأكسجين بفمها. أنفها لا يمتلك القوة اللازمة لشطف كل ذلك الهواء إلى الداخل. ماذا لو أن أحد الأشخاص المسؤولين عن مثل هذه الأمور غيّر رأيه؟ ولكن.. لمَ قد يفعلون ذلك؟ أو ماذا لو أن أحدًا عرف ما سيحدث، وقام بتنبيه "إنجل"؟ مَنْ الذي قد يفعل ذلك؟ مَنْ الذي سيرغب في مساعدة "إنجل"؟ لا أحد. لماذا تشعر بكل هذا التوتر؟ ما الذي يزعجها؟ لقد تقرر كل شيء. يمكنها أن تستريح وتطمئن. كل ما عليها فعله الآن هو الانتظار. تنتظر أسبوعًا واحدًا، ثم تنتقل لذلك المنزل.

مساء كل ليلة، يهمس لها "مارتن" بأنهما سينتقلان قريبًا إلى منزلهما الجديد. يده فوق رقبتها، وشفته تطوفان بصدرها. يستلقيان بجوار بعضهما. من خارج حجرتهما الصغيرة، تصلهما الأصوات المزعجة لأطفال عائلة "روسيبو"، وفوضى الغرباء الذين يتحركون داخل البيت. الوقت العنيد يتزحزح بصعوبة.. ستة أيام. خمس ليالٍ. عقارب الساعة تتحرك كما لو كانت حجري رحي، تطحن ببطء خمسة عشر أعياد كريسماس ماضية وتحولها إلى ذرّات غبار.. بأشجارها المزينة بالشموع، وتيجانها المصنوعة من قشور البيض المفرغ.. الرحي تطحن كعكات أعياد الميلاد، والترانيم التي تغنيها "إنجل" في كورال الكنيسة، وأناشيد الأطفال التي كانت ترددها

في صغرها، والتي قامت بتحفيظها لاحقاً لـ "ليندا" .. قط ذي، شكله بهي، يجلس بحذر، أمام الشجر. هناك ذرة غبار في عين "أوليدا". تتقاطع الشرايين الحمراء في بياض عينيها. لن تضطر للجلوس إلى المائدة نفسها مع "إنجل" و"ليندا"، ثانيةً. لن يتكرر ذلك الصباح الذي شهد عودتهنَّ معاً من دار مجلس المدينة. سرن لعدّة كيلومترات، عقب الفجر مباشرةً. هواء الصُّبح منعشٌ وهادئ. قبل كيلو متر واحد من المنزل، جذبت "إنجل" ذراع "ليندا"، لتوقفها عن مواصلة السير، ثم بدأت تعيد تضفير شعرها. مشطت شعر "ليندا" بأصابعها، ومسحت على خصلاته المشعثة بباطن يدها، ثم جدلته في ضفيرتين مشدودتين بقوة. وقفن في منتصف طريق القرية. بدأت الشمس تعلو في السماء. صفق باب في أحد المنازل. واصلت "إنجل" تسريح شعر "ليندا". انتظرت "أوليدا". ركعت على الأرض. ضغطت بكفيها على الأرض، تتحسّس الجير الأبيض. تحاشت النظر إليهما. فجأةً، أحسّت بعطشٍ شديد يُغلق حنجرتها. اتجهت إلى مجرى مائي قريب، احتفنت بعض الماء وسكبته في فمها. طعم تراب. ترفع بيدها مزيداً من الماء. "إنجل" و"ليندا" تواصلان السير، وهما تمسكان بيدي بعضهما. ابتعد جسداهما وتضاءلا. تلحق بهما "أوليدا"، وهي تواصل النظر باتجاههما، إلى أن وصلت إلى باب المنزل. هناك، التفتت "إنجل" نحوها وقالت:

- نظّفي وجهك.

رفعت "أوليدا" يديها إلى خديها، ومسحتهما. في البداية، لم تشعر بخديها ولا بيديها، ثم أدركت أن نصف وجهها السفلي مُغطى بالمخاط، وأن رقبتها مبللة. تمسح أنفها وذقنها ورقبتها بكُمها. تنظف وجهها. تفتح "إنجل" الباب، ويدخلن إلى المطبخ الأليف، الحميم. يشعرن باغتراب عن بعضهنَّ.

تبدأ "إنجل" في إعداد فطائر الـ"بان كيك".

تحمل "ليندا" برطمان مربّي توت إلى المائدة.

تبدو حبّات التوت الداكنة كدمٍ متجلّط.

تدفع "أوليدا" "ليسي" إلى الخارج. يجلسن إلى المائدة، ويضعن الفطائر في أطباقهنّ. تضيف "ليندا" العسل على فطائرها. يمررن برطمان المرَبّي بينهنّ. لأطباقهنّ بريقٍ أعينٍ لامعة. تتقاطع السكاكين مع الشُّوكِّ بحركاتٍ منتظمة. يأكلن الفطائر بشفاهِ مطاطية، وأعين زجاجية لامعة وجافة، وبشرات ناعمة ويابسة كقطعة من القماش المشمّع.



بقي خمسة أيام. تستيقظ "أوليدا" وقطُّ ذِي، شكله بهي تتردّد في رأسها، بصوت "إنجل". تجلس على حافّة السرير. الأغنية ترفض التوقّف. الصوت لا يختفي. "أوليدا" متيقنة من أنهما ستعودان ثانيةً.

تبدأ في خلع قميص نومها. ترفعه حول رقبتها. الغليون في فمه، وعصاه في يده. تلبس ثيابها الداخلية المكرمشة، وجوربها. ترتدي ثوبها ومعطفها، وتضع الإيشارب في يدها. تركض إلى الخارج، عبر المطبخ. تمسك بمقبض درّاجتها، ثم تتركها تسقط على الأرض. تقطع الحقول، التي تعدُّ أسرع طريق يؤدي لدار مجلس المدينة، حيث توجه "مارتن" في ساعة مبكرة من ذلك الصباح. تعيد ترتيب خصلاتها، دون أن تتوقف، وتضع الإيشارب فوق رأسها. تركض مسرعة. يضرب الحذاء المطاطي الواقي قدميها، وتتطاير أطراف معطفها ورائها. تواصل الجري عبر الحقول الربيعية، وتقطع الطريق. تمر بجوار المجرى المائي الذي تجلجل فيه أصوات خفيفة. يتواصل صوت "إنجل" في أذنيها، مستكملاً النشيد.. القط يضرب مهارة، كل من لا يعرف القراءة. النشيد ينتشر فوق الأراضي الباردة، ويستقبل الأسراب الأولى من الطيور المهاجرة، التي تحرّك أجنحتها مع إيقاع "إنجل" المنمّم. النشيد يدفع "أوليدا" إلى الأمام. تواصل الركض، وتحمّل وخزات أطراف الصفصاف. أسراب الطيور تسبقها، وتحلق أمامها طوال الطريق. تستمر، إلى أن تجد

نفسها أمام "مارتن"، الذي يتبادل الحديث مع رجل يرتدي معطفًا جلدًا داكن اللون. عينا "مارتن" تُسكتان صوت "إنجل"، أخيرًا. قال لرجاله إنه سيواصل النقاش معهم لاحقًا. يمسك بمرفق "أوليدا"، ويأمرها بأن تهدأ.

- ما الذي حدث؟

- ستعودان.

يخرج "مارتن" زجاجة خمر صغيرة من جيبه. يدير غطاءها، ويدفعها باتجاهها. تتناول رشفة، ثم تسعل قليلاً. يمسك بها، ويفحصها جيدًا. لا تزال تتشبّث بالزجاجة. ينتزعها من بين أصابعها. يضعها على شفيتها، لرشفة أخرى، ثم يسألها:

- هل تحدّثتِ في المسألة مع أي شخص؟

- كلاً.

- لقد أخبرتهما.

- كلاً!

- ما الأمر إذًا؟

- سوف تعودان!

- لن يسمح "ستالين" بحدوث ذلك.

يجذب "مارتن" "أوليدا" نحو معطفه الآمن. تتوقّف ساقاها المنهكتان - من أثر الركض -

عن الارتجاف.

- ولن أسمح أنا بعودتهما، كي لا تخيفان حُبّوتي الصغيرة.





تسير "أوليدا" باتجاه منزل "إنجل". تتوقّف تحت شجرة الصفصاف في الدرب المؤدي إلى حديقة بيتهم. تسمع صوت الكلاب والعصافير. الهمهمة المألوفة، والرييح الغريب المُبَكِّر، يمتصّان الرطوبة التي تعشش بداخلها. كيف يمكنها أن تتخلى عن هذا المكان؟ مستحيل! ليس بإمكانها فعل ذلك. تراب هذه الأرض، ترابها. أتت من هنا، وستبقى هنا، ولن تغادر. لن تتخلى عن هذا المكان أبدًا.. ولن تتخلى عن "هانس". هل حقًا كانت ترغب في الهروب، عندما سنحت لها الفرصة؟ هل حقًا بقيت فقط لأنها وعدت "هانس" برعاية "إنجل"؟

تضرب ناصية الطريق بطرف قدمها. هذا طريقها. ملكها.  
تبتعد عن السور الخشبي المحيط بحديقة المنزل. أغصان أشجار البتولا عارية ومنحنية.  
"ليندا" تلعب في الحديقة، وتغني:

"الرجل القصير المُسن"

في فمه نصف سن

من الفأر يخاف.. من الجرذ يخاف

من كل شيء يخاف

حتى من شوال الدقيق القديم".

تلمحها "ليندا". تتوقّف "أوليدا". تتوقّف "ليندا" عن الغناء، وتحدّق بها بعينين واسعتين وباردتين، تشبهان مستنقع. تعود "أوليدا" إلى طريق القرية.

"من الفأر يخاف.. من الجرذ يخاف".

مساءً، يرفض "مارتن" مصارحتها بخبطه. يكتفي بالقول إن تفاصيل المسألة ستنتهي في الغد. بقيت ثلاثة أيام. "مارتن" يأمر "أوليدا" بالبقاء هادئة. لا تستطيع النوم.

طائر قطة أسود، يزقزق ويستعرض نفسه قبل شروق الشمس.



ما زال الذهاب إلى دار مجلس المدينة يشبه السير فوق نصل فأس. تجذب "أوليدا" مقبض الباب، فتتذكر بخته كيف تجمد لسانها والتصق مرةً بسطح معدني. نسيت الوضع بالضبط، والتفاصيل، ولكنها تتذكر ذلك الإحساس الجليدي الحادّ فوق لسانها. لعلّه كان فأساً. لا تتذكر كيف أفلتت من ذلك الحادث، لكنها استعادت الشعور ذاته على لسانها فور أن فتحت الباب ووجدت نفسها بين أحضان "مارتن". ناولها قلماً وورقة. فهمت المطلوب على الفور. عليها أن توفّع باسمها على شهادة قوية، تستحيل معها عودتهما ثانيةً، أبداً. شمّت رائحة خمر. تراقصت خيوط الصوف المتداخلة في نسيج معطف "مارتن"، أمام عينها. نبح كلب، في مكانٍ ما. نعق غراب خارج النافذة. حاولت عنكبوت تسلُّق ساق الطاولة. سحقها "مارتن" على الأرضية. وفتت "أوليدا" ترو" الوثيقة. ربت "مارتن" عليها، مرةً أو اثنتين.

سوف يبقى في المبنى للاهتمام ببقية شؤون هذه المسألة. عادت "أوليدا" إلى البيت بمفردها، على الرغم من أنها أخبرته بأنها يمكنها أن تنتظر معه حتى ينتهي من عمله. لم تكن ترغب في انتظاره، ولكنها لم تكن تريد العودة للبيت كذلك. أن تسير عبر حديقة "روسيبو"، ثم تدخل مطبخهم، لينقطع حوارهم فجأة، فور أن تفتح الباب. سيخاطبونها ببعض الكلمات الروسية. على الرغم من أن معنى الكلام مهذب، فإن طريقتهم تبدو ساخرة. سيخرج الولد الصغير لسانه لها، من وراء الدولاب. سيكون الشاي، في العلبه الخاصة بها، مختلطاً بالملح.

تتوقّف على جانب الطريق، وتتأمل الطبيعة الجميلة، الهادئة. سرعان ما ستبدأ "إنجل" في حلب البقرات، للفترة المسائية. سيقراً "هانس" الصحيفة،

على الأغلب، داخل حجرته الصغيرة. يدا "أوليدا" توقفتا عن الارتعاش. باغتتها سعادة مفاجئة انتشرت داخل صدرها. شعرت بشيء من الحرج. لكنها على قيد الحياة. لقد تمكنت من النجاة. اسمها ليس في القوائم. لا يمكن لأحد أن يقدم شهادة زائفة ضدها. إنها زوجة "مارتن". ولكن بإمكانها هي أن ترسل عائلة "روسيو" إلى حيث لا يعود بإمكانهم سوى استعادة ذكرياتهم في الأراضي الإستونية. تسارعت خطواتها، وواصلت سيرها بقوة. دخلت بيت "روسيو" بخطوات راقصة. اصطدمت بالألم وكادت توقعها أرضاً. ابتعدت عنها وشفقت الباب في وجهها. صنعت لنفسها شيئاً، من العلب المعدنية الخاصة بـ"روسيو"، وأخذت بعض السُّكَّر من سُكَّريتهم، وقسمت رغيف خبزهم إلى نصفين، أخذت أحدهما معها إلى حجرتها. حين وصلت إلى عتبتها، التفتت نحوهم وقالت لهم إنها ستسديهم نصيحة أخوية؛ لأنها إنسانة لطيفة وتحب الخير لكل الرفاق. إن كانوا يتمتعون بالقدر الكافي من الحكمة، عليهم أن ينزلوا صورة المسيح المعلقة على جدار حجرة نومهم. الرفيق "ستالين" لن تعجبه فكرة أن يكافئ عمال العالم الجديد مجهوداته بتعليق مثل هذه الصور.

في اليوم التالي كانت صورة ابن الرب قد اختفت.



أربعة أيام. ثم ثلاثة فقط. كانت "أوليدا" قد أخبرت "إنجل" بأنها ستزورها خلال أحد هذين اليومين. لكنها لم تفعل.

"قطُّ ذكي

شكله بهي

يجلس بحذر

أمام الشجر  
الغليون في فمه  
وعصاه في يده  
يومان. ثلاث ليالٍ.  
القط يضرب بمهارة  
كل من لا يعرف القراءة  
أما من يفهم الدرس من الصغار  
يربت عليه القط لأنه من الشُّطَّارِ".  
لم يبقَ يومٌ واحد. لم تبقَ ليلة واحدة.



1949

"لانيما" - الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية

"هانس" لا يضرب "أوليدا"



هَبَّت رِيحٌ مِنْ اتِّجَاهِ أَشْجَارِ الْبَتُولَا، الَّتِي تَتَجَاوَرُ الْعَصَافِيرَ عَلَى أَغْصَانِهَا الْعَارِيَةِ. هُنَاكَ طَيْنٌ دَاخِلَ رَأْسِ "أَوْلِيدَا"، وَكَأَنَّهَا لَمْ تَنْمَ لِعَشْرِ لَيَالٍ مُتَوَالِيَةٍ. حِينَ وَصَلَتْ إِلَى الْبَابِ الْأَمَامِيِّ، أَغْمَضَتْ عَيْنَيْهَا وَتَقَدَّمَتْ إِلَى الْأَمَامِ فِي الظَّلَامِ. تَحَسَّسَتْ مَا حَوْلَهَا، بَحْثًا عَنِ الْمَقْبُضِ. اصْطَدَمَتْ بِالْمَنْشَارِ الْمُعَلَّقِ عَلَى الْجِدَارِ، فَسَقَطَ أَرْضًا. دَخَلَتْ، وَفَتَحَتْ عَيْنَيْهَا فِي الْعَتَمَةِ.

الدولاب أمام حجرة "هانس" الصغيرة، لا يزال في مكانه.

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ فَقَطْ، بَدَأَتْ دَقَّاتُ قَلْبِهَا تَتَسَارَعُ. انْشَقَّتْ شَفْتِهَا السِّفْلَى الْجَافَةَ، وَسَالَ الدَّمُ فِي فَمِهَا. مَدَّتْ أَصَابِعَهَا الْمَتَعَرِّقَةَ عَلَى جَانِبِي الدُّوَلَابِ. أَتَتْهَا الْأَصْوَاتُ الْمَأْلُوفَةُ لِلْمَطْبَخِ.. خَطَوَاتُ "إِنْجَلْ"، كَحَّةُ "لِينْدَا"، قَعْرُ الْفَنْجَانِ وَهُوَ يَضْرِبُ سَطْحَ الْمَائِدَةِ، احْتِكَاءُ أَقْدَامِ "لِيْسِي" بِالْأَرْضِيَّةِ. لَمْ يَتَزَحَّزِحِ الدُّوَلَابِ. دَفَعْتَهُ بِقُوَّةٍ، مُسْتَعِينَةً بِكَتْفِهَا وَرَدَفِهَا. أَصْدَرَ الْخَشَبُ أُنِينًا، يَشْبَهُ الشُّكُوى، تَرَدَّدَ صَدَاهُ فِي أَرْجَاءِ الْبَيْتِ الْفَارِغِ. تَوَقَّفَتْ "أَوْلِيدَا" لِتَنْصِتَ لِلْأَصْوَاتِ. خَشَّخَشَ

الصمت. اختفت الأصوات التي تخيّلتها ما إن سكنت حركتها. الآثار على الألواح الخشبية للأرضية تشير إلى تحريك الدولاب باستمرار. يجب إخفاء هذه الآثار. هناك شيء أسفل قوائم الدولاب. انحنى "أوليدا" لتتمكن من رؤيته. قطعتان مُثَلَّثتان من الخشب السميك تحافظان على عدم ميل الدولاب. متى وضعتهما "إنجل" هناك؟ أزالتهما "أوليدا". تحرك الدولاب بسهولة، بعيدًا عن الحائط.

- "هانس" .. إنها أنا.

حاولت "أوليدا" فتح باب الحجر، بسحبها نحوها، لكن يدها المُتعرِّقة انزلقت حين مدّتها تجاه الفتحة الصغيرة التي صنعوها في الباب، عوضًا عن المقبض.

- "هانس" .. هل تسمعني؟

ليس هناك أي صوت.

- "هانس"، ساعدني. ادفع الباب. لا يمكنني فتحه.

دقّت على الباب، ثم راحت تطرقه بقبضيتها.

- "هانس"! قل شيئًا!

صاح ديكٌ في مكانٍ بعيد. اضطربت "أوليدا"، وأحسّت بالفزع. واصلت ضرب الباب بقبضيتها. شعرت بألمٍ في أصابعها، امتدّ إلى باطن قدميها. اهتز الجدار، لكن الصمت استمر. في نهاية الأمر، ذهب إلى المطبخ وجلبت سكينًا، دفعت نصلها في شق الباب، وتمكنت من الإمساك بحافته. دفعت بقوة، وفتحته. كان "هانس" متكومًا في ركنٍ من الحجر، دون حراك، وقد أسند رأسه على ركبتيه. لم يرفع رأسه، إلى أن لمست "أوليدا". طلبت منه مغادرة الحجر. كررت ذلك ثلاث مرّات. خرج مترنّحًا إلى المطبخ. لم يقل شيئًا، إلا بعد أن سألته عمّا حدث.

- لقد أخذوهما.

ذلك الصمت. النوع الذي لا يعرفه بيتٌ ريفي في منتصف النهار. لا شيء سوى صوت خدوش مصدرها فأرٌ يختبئ في الزاوية. وقفنا في وسط المطبخ. انبعث بداخلهما طنين. شقت أنفاسهما الصمت، بصوتٍ حاد. جلست "أوليدا"

ووضعت رأسها فوق ركبتيها، إذ لم يكن بمقدورها تحمُّل النظر إلى وجه "هانس"، الذي أنهكت ملامحه ليلة كاملة من البكاء المتواصل.

تنامى الصمت والطين، وفجأةً انتزع "هانس" حقيبة ظهره من فوق الشماعة..

- عليّ أن ألحق بهما.

- لا تكن مجنوناً.

- عليّ أن أفعل ذلك، بالطبع.

فتح الدولاب السفلي للمطبخ ليأخذ بعض الطعام، لكنه كان شبه فارغ. اتجه إلى حجرة

المؤن.

- لقد أخذتا الطعام معهما.

- "هانس".. ربما سرقه الجنود. لعلمهم أخذوهما إلى دار مجلس المدينة للتحقيق معهما.

أنت تتذكر يا "هانس" أن هذا الموقف قد حدث من قبل. ربما ستعودان إلى المنزل بعد

قليل.

أسرع "هانس" إلى الغرفة الأمامية، وفتح الدولاب.

- لقد اختفت جميع الملابس الشتوية.. كل الثياب الدافئة. لقد أخذت "إنجل" الذهب

معها، على الأقل.

- الذهب؟

- كانت قد خاطته داخل معطفها الفرو.

- "هانس".. ستعودان سريعاً.

لكنه كان قد بدأ في المغادرة بالفعل. ركضت "أوليدا" وراءه، وقبضت على ذراعه. حاول انتزاع

ذراعه من بين أصابعها. تمزَّق كُم قميصه. سقط كرسي على الأرض. انقلبت الطاولة. لم تفلت يدها

من حوله. لن تدع "هانس" يرحل. أبداً. مُطلقاً. أمسكت به بكل قوتها. التفت حول ساقه. لم

تفلته، حتى بعد أن أمسك بها من شعرها، وأخذ يجذب خصلاتها. لن تفلته. ستعمل على إرهاقه

أولاً. أخيراً.. استلقيا على الأرض الباردة وهما يلهثان ويتعرقان بغزارة. كادت "أوليدا" تضحك. حتى خلال هذا الموقف الشائك، لم يضربها "هانس". كان بوسعه فعل ذلك. لقد توقّعت أن يضربها.. أن يتناول الزجاجاة من فوق الطاولة ويخبط بها رأسها، أو أن يجلب الجاروف ويهوي به عليها. لكنه لم يفعل. لهذه الدرجة هو طيب. لهذه الدرجة يهتم بها "هانس"، حتى في مثل هذا الوقت. لا دليل أقوى من هذا على عمق مشاعره تجاهها.

لا أحد يماثل "هانس" في روعته. "هانس" "أوليدا" الجميل. أجمل الرجال على الإطلاق.

- لماذا يا "ليدا"؟

- لا يحتاجون إلى سبب.

- أنا أحتاج إلى سبب!

نظر إليها، متوقّعا إجابة. أملت "أوليدا" أن يدعن لما حدث. الكل يعلم أنهم ليسوا بحاجة لسببٍ معيّن. لا يبحثون عن أدلة تبرّر طغيانهم، وتساند اتهاماتهم الملفةقة.

- ألم تسمع شيئاً؟ لا بدّ أنهم قالوا شيئاً حين أتوا إلى هنا.

"إنهم".. أحسّت بثقل الكلمة على لسانها. ذكّرتها بالكلمات التي كانت تتعرّض للعقاب عند النطق بها، وهي طفلة صغيرة.. الربّ، الجحيم، إله الصاعقة، الموت. في إحدى المرّات، جرّبت أن تقولها بسرّية. أخذت ترددها، كلمة تلو الأخرى. بعد يومين، ماتت إحدى الدجاجات.

- لم أسمع كل شيء. كان هناك الكثير من الصراخ، وأصوات ارتطام. حاولت فتح الباب، والخروج إليهم بمسدسي الـ"فالتز"، لكن الباب استعصى على الفتح. ثم ذهبوا جميعاً. حدث كل شيء بسرعة، وكنتُ أنا حبيس الحجر. كان "ليبي" ينبح بقوة. تكسّر صوته، وتلاشى.



- ربما كان ذلك بسبب...

تعثرت الكلمات في فم "أوليدا". تحرك رأسها إلى الجهة الأخرى. تمّ ذلك كأنها دون تدخل منها. تذكّرت الدجاجة التي ماتت.

- ربما.. لأنها أرملتك؛ ولأن "ليندا" ابنتك. أعني أنكم "أعداء الوطن".

المطبخ بارد. اصطكّت أسنان "أوليدا". مسحت ذقنها. سال لونٌ أحمر على يدها. شفتها المشقوقة تنزف دمًا.

- تعنين أن ذلك بسببي. إنه خطئي.

- "هانس".. لقد وضعت "إنجل" قطعتي خشب أسفل قوائم الدولار. أرادتك أن تبقى مختبئًا.

- أحضري لي شرابًا.

- سأعدُّ لك مخبأ أفضل.

- لم أحتاج إلى مخبأ أفضل؟

- ليس جيدًا أن تبقى في المكان نفسه لوقتٍ طويل.

- هل تلمحين إلى أن "إنجل" سوف تشي بي؟ "إنجل" حبيبتي؟

- كلاً، بالطبع.

أخرجت من جيبها زجاجةً صغيرةً من الخمر المصنوع منزليًا.

لم يسأل "هانس" عن "ليبي".

قال بصوتٍ مُتعب:

- اذهبي لتحلبي الأبقار.

ارتفعت أذنا "أوليدا"، وهي تنصت لما حولها في حذر. ربما كان طلبه بريئًا، والأبقار

تنتظر من يحلبها فعلاً، لكنها لا تستطيع تركه بمفرده هنا في المطبخ. ليس وهو على هذا

الحال. قد يهرب ويذهب إلى دار مجلس المدينة.

1949

الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية

بطانة زفاف "إنجل"



بعد أسبوعين من إبعاد "إنجل" و"ليندا"، انتقل "مارتن" و"أوليدا" وكلبهما إلى المنزل. كان صباحًا مشرقًا. تهادت شاحنة النقل، التي حملت أغراضهما، على الطريق. فعلت "أوليدا" كل ما بوسعها، طوال ساعات الصباح، لتضمن سير الأمور بسلاسة. حرصت على ألا يفوتها شيء مما يتوجب عليها عمله، لتجنب الفوضى المحتملة. حين استيقظت من نومها، وضعت قدمها اليمنى على الأرض، أولًا. تخطت العتبة والباب الأمامي بالقدم اليمنى. فتحت الأبواب بيدها اليمنى. سارعت بفعل ذلك، قبل أن يفسد "مارتن" حظهما بيده اليسرى. ما إن وصلا إلى المنزل، حتى هرعت لفتح البوابة بيدها اليمنى، ثم باب البيت باليد ذاتها. دخلت بقدمها اليمنى أولًا. سار كل شيء كما ينبغي. أول شخص مرت به الشاحنة أثناء سيرها كان رجلًا، وهو فألٌ حسن. لو كانت امرأة، للمحتها من بعيد، ولألحت على "مارتن" بالتوقف، ولاختبأت بين الأحراش، مدعيةً أنها تعاني من مغص. كانت ستنتظر عبور المرأة. صحيحٌ أن ذلك كان سيبعد عنها هي شخصيًا الحظ السيئ، لكنه سيلازم الشاحنة و"مارتن". ماذا لو قابلوا امرأة ثانية خلال

سيرهم؟ كانت ستكرر الأمر ذاته.. تتوقّف وتختبئ في الأحرار. سيثير ذلك قلق "مارتن" عليها. لا يمكنها مصارحته بمسألة الحظ الحسن، أو الحسد. سيضحك ويسخر من إيمان زوجته بتلك المعتقدات العتيقة. ما الذي يخيفها ولديهما بعضهما، و"لينين" و"ستالين"؟  
لحسن الحظ، مرّت الرحلة على أكمل وجه. التفت أصابع قدميها حول بعضها في ترقّب، ولمعت خصلات شعرها من فرط السعادة. "هانس"! لقد أنقذت نفسها و"هانس". إنهما بأمان. إنهما معًا!

بينما كان "مارتن" يفرغ العربة من أشياءهما، ألقت نظرة خاطفة على نفسها في مرآة الغرفة الأمامية. لعلّها أعجبت قليلاً بالانعكاس المرح لصورتها. كم كانت ستبتهج لو أن "مارتن" أمضى الليلة خارج المنزل، في العمل، أو في أي مكان، لتتمكن من إخراج "هانس" من السندرة، والسهر معه طوال الليل. لكن "مارتن" لم يكن سيذهب إلى أي مكان. أراد تمضية ليلته الأولى في هذا المنزل، مع زوجته، ورفيقته، وحببته.. معها هي. حاولت تغيير رأيه، بسؤاله إن كان لن يفتقد صحبة رجاله. وضّحت له أيضًا أنها لن تغضب إذا فضّل إتمام واجبات وظيفته عليها؛ لكنه ضحك على هذا الهراء. يمكن للحزب أن يستغني عنه لليلة واحدة.. لكن زوجته لن تستطيع ذلك!

ما زالت رائحة "إنجل" تملأ البيت. ما زالت النوافذ تحمل بصمات أصابعها، أو بصمات "ليندا". لا بدّ أنها لـ"ليندا"؛ لأنها في موضع منخفض على الزجاج. عصفور "ليندا" المصنوع من خشب "الكستناء" موجود على الأرض، أسفل النافذة. يقف في تجويف صغير على سطح الأرضية الخشبية، فاردًا ذيله. لا شيء هنا يدل على التعجّل عند المغادرة، أو الهلع عند جمع الملابس والمتعلقات الشخصية. درف الدواليب غير مفتوحة، ومن الواضح أنها لم تتعرّض للنهب أو التفتيش. الأثر الوحيد الموحى ببعض الفوضى هو باب الدولاب الذي فتحه "هانس" فيما بعد. أغلقته "أوليدا".

تركت "إنجل" كل شيء على قدر عالٍ من النظام والترتيب. أخذت فساتينها وثياب "ليندا" من الدولاب الأبيض، ثم أغلقت بابها جيداً، رغم صعوبة ذلك عادةً. عليك دائماً أن تدفعه بقوة وببطء، في آنٍ واحد. إن لم تحرص على الشئئين معاً، يُفْتَح من تلقاء نفسه، ثانيةً. لقد أغلقتة "إنجل"، بطريقةٍ متأنية، كما يبدو. أفرغت الأدرج من الجوارب والملابس الداخلية، لكن المفرش الذي يغطي الأدرج نفسها مفروود ومستقيم؛ والسجاد على الأرض كذلك.. عدا تلك التي انزلت من مكانها الأصلي، حين حاولت "أوليدا" منع "هانس" من المغادرة. لم تكن قد لاحظت ذلك. شغلها بناء الحجرة الجديدة في السندرة، ولم تنتبه لما في الغرف. كانت تصعد إلى السندرة، مباشرةً، دون التلكؤ في المطبخ، أو إعداد وجبة ساخنة لـ"هانس". أراد "هانس" الخروج من القبو لمساعدتها في بناء حجرة السندرة، لكن "أوليدا" رفضت ذلك تماماً. أحسّت بأن حالته النفسية غير مستقرة، ولذلك رأت أنه من الأفضل أن يبقى في حجرته القديمة، يبكي ويشرب الخمر الذي تحضره له.

في تلك الفترة فقط، لاحظت "أوليدا" بأن الفوضى القليلة، والوحيدة، في المنزل.. هي تلك التي تسببت فيها خلال صراعها مع "هانس" عندما أتت للمرة الأولى، عقب إبعاد "إنجل" و"ليندا". لا أثر يشير إلى أن أفراد هيئة الـ"تشيكال" الروسية قاموا بالتفتيش عن أسلحة. حجرة المؤون نظيفة. ربما أمرهم "مارتن" بإبقاء البيت مرتباً؛ لأنه سينتقل إليه مع زوجته. هل يسمعون كلامه حقاً؟ كلاً، على الأغلب. أفراد الهيئة ليسوا مضطرين لتنفيذ أوامر أي شخص. الأثر الوحيد المتبقي من زيارتهم، موجودٌ على الأرضيات. هناك طينٌ جافٌ متساقط من أحذيتهم، في كل غرفة بالبيت. نظفت المكان من الطين، قبل أن ترتب أغراضهما. سوف تفحص الحديقة لاحقاً.. لا بد أنهم أطلقوا الرصاص على "ليبسي"، وتركوه هناك.

أمسكت "أوليدا" بأحد فساتينها، وأدخلته الدولاب، بيدها اليمنى. استردتْ بهجتها، رغم فشلها في إقناع "مارتن" بتمضية الليلة خارج المنزل. وضعت فرشاة شعرها على الطاولة، أسفل المرأة، بجوار فرشاة "إنجل". توزيع متعلقاتها الشخصية في أماكنها أشعرها بأنها و"هانس" يتشاركان المكان.. بيتنا. سوف تجلس "أوليدا" إلى المائدة، في المطبخ، وسيجلس "هانس" أمامها، في الطرف الآخر، وسيكونان مثل رجل وزوجته تقريبًا. سوف يرى "هانس" بأنها هي الأفضل في إعداد المخبوزات، وحياسة الجوارب الصوفية، وطهي أطعمة أكثر لذة. سوف يجد "هانس"، أخيرًا، فرصةً ليرى كم هي جميلة، ولأي درجة يمكن أن تكون لطيفة، وخصوصًا في غياب "إنجل" التي لن تطوِّح ضفائرها باتجاهه طوال الوقت. سيضطر الآن لمحدثتها، بدلًا من "إنجل". سيضطر لرؤيتها. سيدرك أخيرًا أن "أوليدا" تتمتع بصفاتٍ خاصةٍ متميزة، ومعرفة واسعة بعالم النباتات العلاجية. لطالما كانت الأفضل في هذا المجال، مقارنةً بـ"إنجل"، ولكن.. مَنْ الذي كان سيلاحظ ذلك؟ الأهم لدى الجميع هو أن تمتلك الزوجة الريفية الإستونية القدر الكافي من مهارات العجن والخبز وحلب الأبقار. في الوقت الذي تركز فيه إعجاب الناس بطريقة تخليل "إنجل" للخيار وإضافة الفجل إليه، مَنْ الذي كان سيهتم بقدرة "أوليدا" على معالجة آلام البطن باستخدام الفجل ذاته؟ حسنًا.. سوف يلاحظ "هانس" ذلك، الآن! عَضَّت "أوليدا" شفتها. لا يمكنك استعراض مثل هذه الأمور.. الغرور آفة كل علاج. أول العلاج هو التواضع، ونجاحه مرهونٌ بالصمت.

ثم قطع "مارتن" حبل أفكارها، وجذبها إلى الوراء، مُحاذاة جسده، همس في أذن حبيبته الصغيرة، قائلاً بأنه فخورٌ بزوجته، أكثر فخراً بها من أي وقتٍ مضى. وضع يديه على خصرها، ودارَ بها في الغرفة، ثم ألقى بجسده على الفراش، وقال:

- هذا فراش يليق حقًا برجل! رجل البيت! ترى ما كل الأشياء التي يمكن للرجل أن يفعلها في فراش كهذا؟

في تلك الليلة، استيقظت "أوليدا" من نومها على صوتٍ يشبه تغريد الكروان. كان "مارتن" يُشخّر بجوارها. انبعثت من إبطيه رائحةٌ نفاذة. لم يكن صوت الكروان سوى نحيب "هانس". لم يستيقظ "مارتن". استلقت "أوليدا" في الظلام، تحدّق في اللوحة المعلقة على الحائط، والمقسمة إلى خطوط مطرزة وفق تصميم ألماني. والدتها هي التي خاطتها. طرزتها بيديها. ما كمية الذهب التي حملتها "إنجل" معها؟ ما يكفي لشراء حرّيتها؟ بالكاد. كونها الابنة الكبرى، فقد منحها والديها ما يوازي عشرة روبلات من الذهب، إن لم يكن أقل. لعلّها ستستخدم الذهب في شراء ما يكفي من الخبز للبقاء على قيد الحياة.



صباح اليوم التالي، وضعت "أوليدا" فرشة شعر "إنجل"، في الدُرج الأخير من التسريحة الخشبية. الدُرج ذو المقبض المكسور، الذي لا يُفتح إلا بطرف سكين. تعمّدت الإمساك بالفرشة بيدها اليسرى.

داخل الدُرج، رأت بطانية زفاف "إنجل" الحمراء، التي خاطت عليها كنيسةً، وبيتًا بجوانب مستديرة.. كحبة مشروم، وزوجًا وزوجة، ونجومًا بزوايا سداسية. تناولت "أوليدا" مقصًا، وقصّت جميع النجوم، ثم مزّقت بأصابعها الشرائط الملونة المتعرجة التي تزيّن حوافّ خارطة السعادة هذه. اختفى الزوج والزوجة، من الصورة، وتحولت البقرة إلى نُتف من الخيوط، وكذلك الصليب الذي يعلو الكنيسة. "أوليدا" موجودةٌ في الصورة أيضًا.. إنها الحَمَل الذي يعنيه اسمها. حين أرّتها إياه "إنجل"، مستعرضةً مهارتها الفائقة، كانت تظن أن "أوليدا" ستسعد بالحَمَل المطرز بعناية على بطانية زفافها؛ لكن "أوليدا" أحسّت بانزعاجٍ بالغ، وفهمت "إنجل" ذلك، فركضت وراء المنزل وهي تبكي. اضطرت "أوليدا" للحاق بها، ومراضاتها، وإخبارها بأن الحَمَل بديع، وأن الفكرة جميلة، وأن

حرصها على صنْع بطانية زفاف مطرزة، في الوقت الذي توقف فيه معظم الناس عن فعل ذلك، يُعَدُّ أمرًا رائعًا. وماذا لو اعتبرها الناس عادة بالية؟ "أوليدا" لا تراها كذلك. احتضنت "إنجل" بين ذراعيها، وراحت تهددها إلى أن هدأت. تمسكت ببطانية زفافها، في نهاية الأمر، ولم تتخلَّ عنها. كانت تقوم بتطريزها كل مساء. والدتها كانت تمتلك بطانيةً مماثلة، ولم يكن هناك زوجة أسعد منها، على الإطلاق. لا يمكن لـ "أوليدا" إنكار الأمر، أليس كذلك؟ واصلت "أوليدا" تمزيق الخيوط عن الحَمَل، وعن الشجرة الأنيقة.. سرعان ما اختفت ملامح خارطة السعادة، ولم يبقَ سوى البطانية الحمراء نفسها، المصنوعة من الصوف الجيد، المأخوذ من الحَمَل الذي صار الآن ملكًا لها. أطلَّ "مارتن" من الباب، فشاهد "أوليدا" تجلس على ركبتها، وحولها مجموعة من الخيوط الممزقة، وفي يدها مقص، وبجانبتها سكين. أنفها مُحمَّر، وعيناها لامعتان. لم يقل شيئًا، وغادر بهدوء. أنفاس "أوليدا" الساخنة ملأت الغرفة بالضباب، الذي تسرَّب عبر ثقب المفتاح في الباب، وانتشر في البيت بأكمله.

خرج "مارتن" متوجهًا إلى عمله. سمعتُ الباب وهو يغلق. راقبته من النافذة، إلى أن وصل إلى الطريق الرئيسي. شربت ماءً باردًا، من الحوض الكبير، وغسلت وجهها، لتهدئ أنفاسها الساخنة. هذا بيتها الآن، وهذا مطبخها. طائر "السنونو"، الذي يعيش في الحظيرة، سيجلب لها الحظ. تريد حظًا حسنًا. حظًا حقيقيًا. تريد سحر الأنخاب المتبادلة، التي لم تحدث يوم زواجها. الكؤوس المرفوعة تحت الأسود الثلاثة التي تصوِّر رمز النبالة الإستوني. طيور السنونو تجلب مثل ذلك الحظ. إنه أمرٌ أكيد. تلك الطيور المحظوظة تفعل الصواب دومًا. هي أيضًا تفعل الصواب.. إنها تنقذ المنزل. تحافظ على منزل أبويها من أحذية العساكر الروس، وتحافظ على سيِّد البيت. هو، وليس "إنجل". قد تضيع الأرض الزراعية، لكن البيت سيبقى. قد يأخذ الأغراب الحبوب من الحقول، لكن سيِّد البيت و"أوليدا" - السيِّدة الجديدة للبيت - باقيان. لم يضع كل شيء.

وضعت "أوليدا" بقايا بطانية الزفاف داخل الدولاب، وألقت بالخیوط الصوفية في الموقد. احتفظت بجزءٍ منها، لتستخدمه في عملية التبخير. ربما كان الحرق أفضل، لكن الاحتياط واجب. يقول الجميع بأن التبخير أفضل من الحرق. يتم تعريض ملابس الشخص الذي لا يبادلک الحب - أو قطعة واحدة منها - لعملية تبخير. تمارس العملية في هذه القرية منذ قرون. كان هناك كونتيسة ألمانية تقطن بيت المزرعة الكبير، اعتادت تبخير قميص شخص تحبه من طرف واحد.. لكن "أوليدا" فشلت في تذکر كيفية إجراء ذلك. هل وُضع القميص حينها داخل الفرن، أم تمّ تعليقه فوق النار المشتعلة خلال عيد منتصف الصيف؟ كان عليها أن تنصت بشكلٍ أفضل لحكايات الكبار حين كانت أصغر عُمرًا. لو أنها فعلت، لعرفت الآن الطريقة الصحيحة والناجحة لتبخير الملابس. يمكنها أن تسأل "ماريا كريل"، بطبيعة الحال. لكنها، عندئذٍ، ستعرف ما تنوي "أوليدا" فعله. يجب أن تنفذ الأمر بنفسها، في سرّية تامّة. هناك شيءٌ آخر أيضًا ينبغي عمله عند تنفيذ هذه التميمية، لكنها لا تتذكر ما هو تحديدًا. ربما تنفيذ جزءٍ منها سيكون كافيًا. دسّت "أوليدا" مجموعة الخیوط في جيب مريلة المطبخ، وجلست في صمت، للحظة، تصغي إلى أصوات البيت. بيتها. أحسّت بالاهتزاز الخفيف للأرضية تحت قدميها. سوف ترى "هانس" بعد قليل، وتجلس معه أخيرًا إلى المائدة. هما الاثنان فقط.

سرّحت شعرها، وقرصتُ خديها، ثم غسلت أسنانها بالفحم، لفترةٍ طويلة. اعتادت "إنجل" فعل ذلك، ولذلك كانت أسنانها ناصعة البياض على الدوام. لم تكن "أوليدا" ترغب في تقليد "إنجل" سابقًا، ولذلك فإنها لم تهتم أبدًا بغسل أسنانها بالفحم. لكن الأوضاع اختلفت الآن. أسدلت ستائر المطبخ، وأغلقت الباب المؤدي إلى الغرفة الأمامية، حتى لا يلمح أحد ما يجري في المطبخ. "بيلمي" يركض في حديقة المنزل. سوف ينبح إن جاء أحدٌ إلى البيت. سوف ينبح بمجرد اقتراب أي شخص من الحديقة. سيكون هناك متسعٌ من الوقت



ليعود "هانس" إلى حجرته في السندرة. "بيلمي" مُدَرَّب ليكون حذرًا ومتيقظًا، وهو أمرٌ جيد.

أرادت "أوليدا" أن تضيف للمطبخ شيئًا من الألفة. أعدت مائدة الإفطار لـ"هانس"، ثم أحضرت الورد المجفف من الغرفة الأمامية. خلق ذلك جوًّا لطيفًا في المكان. جوٌّ من الحُب. حركة تعبر عن الحُب. خلعت قرطبيها، ووضعتهما دخل علبة في الغرفة الأمامية. إنهما هدية من "مارتن"، ولا توذُّ تعكير مزاج "هانس" بتذكيره بالشخص الذي يبغضه. حين تأكدت من أن كل شيء مرتَّب على المائدة، ذهبت إلى الحظيرة، عبر حجرة المُوْن، وصعدت إلى السندرة. أزال أكوام القش من أمام الحجرة السريّة. الجدار الجديد ممتاز. طرقت الباب، قم فتحتة. زحف "هانس" إلى الأمام. لم ينظر إليها. تمطى لبعض الوقت.

- الإفطار جاهز. لقد ذهب "مارتن" إلى العمل.

- ماذا لو عاد إلى البيت في منتصف النهار؟

- لن يفعل. ذلك لا يحدث أبدًا.

تبعها "هانس" إلى المطبخ. دفعت كرسياً باتجاهه، وصبت فنجاناً من القهوة الساخنة.

لكنه لم يجلس. قال:

- للمكان هنا رائحة الروسي.

قبل أن تجيبه "أوليدا"، كان "هانس" يبصق على المعطف المُعلَّق على ظهر كرسي "مارتن"، ثلاثاً. راح يتشمم المطبخ، بحثاً عن الأشياء التي تركها "مارتن" قبيل خروجه.. طبقه وسكّينه وشوكته.. ثم توقف أمام الحوض. تلمّس بإصبعه الصابونة الرطبة التي تركها "مارتن" على الحافة. نقر بطرف إصبعه قالب السبّة. كانت قطرات الدم المتخلفة عن الحلاقة، والامتساقطة عليه، قد بدأت في التحوُّل للون البني. غمر المغرفة داخل الماء المختلط بالصابون في

الدلو، والذي كان لا يزال دافئًا. أسقط الشبّة فيه، وكان على وشك إلقاء فرشاة الحلاقة  
والموس وراءها. أَلقت "أوليدا" بنفسها عليه، وقبضت على ذراعه.

- توقّف.

ظلت ذراعه مرفوعًا.

- أحسن التصرف.

انتزعت الفرشاة من بين أصابعه، ووضعتها في مكانها، وكذلك الموس.

- عدّة الحلاقة الخاصّة بـ"مارتن" لا تزال في الصناديق. سأفرغها اليوم. سأخرج المرأة

التي يستخدمها عند الحلاقة أيضًا. كُن لطيفًا من فضلك، واجلس لتتناول طعامك.

- هل هناك أيُّ أخبار عن "إنجل"؟

- لقد فتحتُ زجاجةً من عصير التوت.

- هل نام على وسادة "إنجل"؟

قبل أن تتمكن من إيقافه، كان "هانس" يدفع باب الغرفة بعنف. اعتلى السرير،

وجذب وسادة "إنجل" إليه.

- اخرج من هناك يا "هانس". قد يراك أحد من النافذة.

لكن "هانس" جلس على الأرض، واعتصر وسادة "إنجل" بين ذراعيه. غاص بوجهه فيها.

من مكانها في المطبخ، سمعت "أوليدا" محاولاته للولوج داخل الوسادة، داخل رائحة

"إنجل".

- أريد فنجان "إنجل" أيضًا في غرفتي.

كان صوته مكتومًا، بفعل الوسادة.

- لا يمكنك نقل جميع حاجيات "إنجل" إلى تلك الحجرة!

- لِمَ لا؟

- هكذا! لا يمكنك فحسب! تعقّل. ألا تكفيك الوسادة؟ سأخبّي فنجانها في الجهة

الخلفية من الدولاب. لن يبحث "مارتن" في تلك الجهة. ما رأيك؟ هل يرضيك ذلك؟

عاد "هانس" إلى المائدة، وضع الوسادة على الكرسي بجواره. صبّ لنفسه كمية كبيرة

من شراب الفجل، الذي أعدّته "أوليدا"، في كوب. كان هناك عود قش عالق بشعره. أحسّت

برغبةٍ ملحةٍ تجتاح أصابعها، كي تمسك بفرشاة الشعر وتُسرّح خصلات "هانس". ثم أعلن

"هانس" فجأة أنه يرغب في الذهاب إلى الغابة، حيث يجتمع بقية الرجال الإستونيين.

حيث ينتمي حقًا.

لم تصدّق "أوليدا" أذنيها:

- ما هذا الذي تقوله؟

يبدو أن القَسَم لا يزال ساريًا. القَسَم! قَسَم الجيش الإستوني؟ لماذا نتكلم عن قَسَم دولة

لم تعد موجودة؟ ها هو يجلس إلى مائدتها، ويدير ملعقته داخل عسلها.. والسبب الوحيد

الذي جعل جلوسه على هذا النحو ممكنًا هو "أوليدا". ليترك غيره من الحاملين يطوفون في

أنحاء الغابة، تلاحقهم السُلطات. يعانون الجوع، وملابسهم متيِّسة من شدة الاتساخ،

يشعرون بالبرد من فرط خوفهم من تلك الرصاصة الأخيرة. أما هو، فإنه يجلس هنا، كسيّد

محترم، يغمس ملعقته في صحن العسل!

قال "هانس" بأنه لا يستطيع تحمّل رائحة "مارتن" في المنزل.

- هل تعقّن عقلك من بقائك داخل تلك الحجرة؟ هل فكرت للحظة فيما

يمكن أن يحدث لو جاء غيرنا ليسكن هنا؟ هل رأيت ما حدث لبيوت الناس الآخرين؟

هل تفضّل أن يأتي الروس للإقامة هنا؟ هل تحب أن تغطي قشور بذور عبّاد الشمس أرضيات منزلك؟ وكلما مشيت، تشعر بأنك تطأ فوق خنافس؟ وكيف تنوي الذهاب إلى غابتك العزيزة؟ إن البيت تحت المراقبة. نعم.. نعم.. إنه مراقب حقًا! إننا قرييون من الغابة، لدرجة أن المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية مقتنعة بأن مجموعة "إخوة الغابة" يأتون إلى هنا للحصول على الطعام.

توقّف "هانس" عن العبث بالعسل. تناول الوسادة، ووضع زجاجة شراب الفجل تحت إبطه، وقام واقفًا ليعود إلى السندرة.

- لست مضطرًا للعودة إلى حجرتك الآن. "مارتن" لن يعود إلى البيت.

لم يستمع "هانس" إليها. ركل برميل البيرة الموجود بجوار باب الحجرة الصغيرة خلف المطبخ. سقط البرميل، وارتطم خشبه بعتبة الباب. غاب "هانس" في حجرة المون، واتجه منها إلى الحظيرة، ثم السندرة. رفعت "أوليدا" البرميل، وأعادته إلى مكانه، ثم لحقت به. أرادت أن تقول إن "هانس" لم يحظَ بصديقٍ أفضل منها، لكنها اكتفت بأن ترجمته هامسة:  
- "هانس".. لا ترتكب حماقة تفسد بها كل شيء.

عطست "أوليدا". هناك شيءٌ في أنفها. مسحته بمنديلها. خرج خيطٌ أحمر. بطانية زفاف "إنجل".

ثم أدركت أنها لم تنظر في عيني "هانس" حتى الآن، ولا مرّة، على الرغم من أنها كانت تحلم بتلك اللحظة منذ أعوام. راقبت لسنوات كيف يلتفت "هانس" و"إنجل" تجاه أحدهما الآخر فجأةً، وهما منهماكمان في أعمالهما. الشوق يبلل رموشه، والرغبة تنتفض في العروق الدقيقة تحت عينيه. لطالما حلمت "أوليدا" بلحظاتٍ مماثلة.. بالنظر إلى عيني "هانس" دون المخاطرة بأن تلاحظ "إنجل" طريقتهما في ذلك.. ويحساسها لو بدلها "هانس" النظر. لكن حين حانت الفرصة، لم يفعلها "هانس". الآن، بينما تحتاج "أوليدا" لتلك النظرة لتشعر

بالجرأة، وبالنقاء ثانيةً، وبالقوة.. فإنه لا يبذل أي مجهود في هذا الاتجاه. الآن، يلتصق خيطٌ من بطانية زفاف "إنجل" داخل أنفها، ويحملك فيها طائر "ليندا" الخشبي من أحد جوانب الدولاب. "هانس" يفكر في "إنجل" باستمرار، كما في السابق، ولا يرى في "أوليدا" المنقذ. معظم كلامه يدور حول تيقنه من أن إنجلترا ستأتي لإنقاذهم، وعندها سيصبح كل شيء على ما يُرام. أمريكا ستأتي. "ترومان" سيأتي. إنجلترا ستأتي. النجدة ستأتي على ظهر حصان أبيض، وعَلَم إستونيا سيكون ناصع البياض.

- "روزفلت" سيأتي.

- "روزفلت" مات.

- لن ينسانا الغرب!

- لقد نسينا بالفعل. لقد انتصروا، ونسوا.

- إيمانك قليل.

لم تنكر "أوليدا" ذلك. سيأتي يوم يدرك فيه "هانس" أن المنقذ ليس في الجهة الأخرى من المحيط، لكنه هنا.. أمامه بالضبط، وأنه على استعداد لفعل أي شيء، مدى الحياة، مقابل نظرة واحدة فقط. ولكن على الرغم من أن "أوليدا" أصبحت الشخص الوحيد في حياته الآن، فإن "هانس" ما زال لا ينظر إليها. سوف يتغير ذلك في يومٍ ما. يجب أن يتغير. "هانس" هو الذي يمنح كل شيء معنى. إن وجود "أوليدا" مرتبطٌ بـ"هانس".

أحدثت الحوائط صريراً قليلاً، وزفرت النار في الموقد، وهففت الستائر المسدلة أمام زجاج النوافذ، وقمعت "أوليدا" أحلامها وأمنياتها. أجبرتها على السكون، في انتظار اللحظة المناسبة.

كانت متحمسة أكثر مما ينبغي، وغير صبورة. هذه أمور لا يمكن التعجُّل فيها. المنزل الذي يُبنى على عجلة، لن يصمد. الصبر يا "ليدا".. الصبر! ابتلعي شعورك بالإحباط. تخلّصي من فكرتكِ السخيفة بأن الحب سيزدهر ما إن تغيّب القطة. لا تكوني غبية. اركبي دراجتك، واقضِ مشاويرك ومهماتك اليومية، ثم عودي لتحلبي الأبقار.. كل شيء سيكون على ما يُرام. فكّرت في الوضع بروية، وأدركت كم كانت خيالاتها وتوقعاتها، خلال الأيام الماضية، بالغة السذاجة.

"هانس" بحاجة لبعض الوقت، بطبيعة الحال. لقد مرَّ بكثير من الأحداث، خلال وقت قصير جدًّا. من الطبيعي أن يكون شارد الذهن. "هانس" ليس جاحدًا أو ناكراً للجميل، وبإمكان "أوليدا" أن تصبر لتنال الكلام اللطيف الذي تحتاج لسماعه. ومع ذلك، فاضت عينها بالدموع، كطفلةٍ مدللة؛ بينما خَلَفَ الغضب طعمًا يشبه الرماد في فمها. كان الإفطار الذي تعدُّه "إنجل" يقابل دومًا بقبلاّتٍ دافئة، وكلمات متغزلة. كم من الوقت ينبغي على "أوليدا" أن تنتظر، لتنال كلمة شكر واحدة؟

وجدت جثة "ليسي" في ممر الحديقة. كان الدود قد بدأ في مهاجمة عينيه. ظنت "أوليدا" بأنها عقب أن تحتل مكان "إنجل"، ستتخلّص من الأفكار التي طالما عذبتها عن السعادة المحيطة بـ"هانس" و"إنجل" وهما بينيان حياتهما معًا، بينما تمضي هي ليلة وراء أخرى بصحبة "مارتن". تصورت بأنها لن تتألم بعد اليوم، لأنها لن تتخيّل "إنجل" أمام عجلة المغزل، و"هانس" بجوارها يقوم بأعمال النجارة، بينما تقبع هي في منزل عائلة "روسيو"، محاولَةً التسرية عن "مارتن".

لكن العذاب اتخذ شكلًا آخر في المسكن الجديد، إذ صارت تفكر في "هانس" طوال الوقت. هل استيقظ، أم لا يزال نائمًا؟ هل يقرأ الصحيفة؟ العدد الجديد الذي جلبته له؟ أم هل يقرأ الصُّحف القديمة التي أصرَّ على وجودها معه في حجرته العلوية؟ لم تعد هناك أماكن كثيرة لبيع الصُّحف الإستونية القديمة.

لعله يقرأ كتابًا؟ من الصعب العثور على الكتب التي تثير اهتمامه. لقد أراد إنجيلًا معه.  
إنجيل العائلة. كان ذلك جيدًا، وإلا لتعرض للحرق.

استمرت أمسيات "مارتن" و"أوليدا" في المنزل الجديد، كالمعتاد.. "مارتن" يطالع الصحف، وينظف تحت أظافره بمطواة الجيب، وبين الحين والآخر يقرأ أجزاءً من الأخبار بصوتٍ مرتفع، مضيفًا إليها تعليقاته. يجب زيادة الأجور في الريف! نعم ينبغي ذلك فعلاً.. علقت "أوليدا" وهي تومئ برأسها. يجب أن يفعلوا ذلك بالتأكيد. قرى الـ"كولخوز"! العمل أيام الأحاد خلال فصل الصيف. بالتأكيد. تقول ذلك بإيماءةٍ أخرى. لكنها كانت مستغرقة في التفكير في "هانس"، الذي تفصلهما عنه أمتار قليلة، وهي تمضغ قطع الفحم، لتكون أسنانها في بياض أسنان "إنجل". أرسلوا البنائين الشباب من أعضاء الحزب إلى الريف! نعم، بكل تأكيد. تعلن موافقتها التامة، فكل من يمتلكون أجسادًا معافاة انتقلوا للمدن الكبرى.

- "أوليدا" .. إنني فخورة بك. أنت لا تتحرقين شوقًا لمغادرة الريف.

أومأت. نعم.. نعم.

- أم لعل حبّوتي الصغيرة تودُّ الانتقال إلى "تالين"؟ كل أصدقائي هناك. الرجال من هذه

الأنحاء سيكونون ذوي فائدة عظيمة في المدينة.

هزّت "أوليدا" رأسها. ما الذي يقوله؟ لا يمكنها ترك هذا المكان.

- أردتُ أن أتأكد فقط من أن حبيبتى سعيدة وراضية.

- أنا أحب المكان هنا!

احتضنها "مارتن" بين ذراعيه، ودار بها في المطبخ.

- لا دليل أقوى من هذا على أن حبيبتى ترغب حقًا في المساهمة في بناء هذا

البلد. هناك كثير من الأعمال التي ينبغي إتمامها هنا، أليس كذلك؟ أفكر في

تقديم طلب لشراء شاحنة جديدة لمزرعة الـ"كولخوز". يمكننا أيضًا دعوة الناس إلى دار مجلس المدينة، حيث سنعرض عليهم أفلامًا حول إنجازات وطننا العظيم. كما سننظم لهم دروسًا مسائيةً أيضًا، بالطبع. سيساهم ذلك في خلق روح اشتراكية. ما رأيك في ذلك؟

دار بـ"أوليدا"، ثم أعادها إلى مقعدها، وهو يواصل حديثه بحماس عن خطته المستقبلية. استمرت "أوليدا" في الإيماء، في اللحظات المناسبة. أزالته بسرعة عددًا من حشائش العلف التي سقطت من قميص "هانس" على سطح الطاولة، ودسّتها في جيبها. إنه لا يلمح لحصوله على منصب في "تالين"، أليس كذلك؟ لو كان الأمر كذلك، لصارحها به مباشرةً. أمسكت "أوليدا" بالأمشاط المستخدمة في تسوية خيوط الصوف. أصدرت صريرًا. واصلت النار زفيرها. تفحصت زوجها بطرف عينها، كل ما في الأمر هو أنه متحمسٌ بشدة، كالعادة. لا سبب حقيقي لقلقها. لقد ظن "مارتن" بأن زوجته توذُّ الانتقال إلى "تالين". والحقيقة أنها كانت ستوذُّ ذلك، لولا "هانس". كانت جولات تحصيل الرسوم والفواتير التي تقوم بها على دراجتها، تضطرها لمغادرة البيت كثيرًا، وإن كان بشكل غير يومي. في كل مرة، كانت تعود إلى البيت بأعصابٍ متعبة ومتوترة.. هل قام أحد بتفتيش البيت خلال غيابها؟ لكن لا أحد يجروء على اقتحام مسكن مسؤول في الحزب. لن يفعلوا ذلك. يمكن لـ"مارتن" تعيين موظف آخر يقاسمها مهامها. سوف يتفهم جيدًا رغبة زوجته في الاهتمام بمنزلها وحديثتهما، بشكلٍ أكبر.

في تلك الأثناء، كان الذهب الذي حُمِلَ إلى "سيبيريا" قد تحوّل إلى أسنانٍ جديدة، داخل أفواهٍ جديدة. ابتساماتٌ ذهبيةٌ تكاد تتفوّق في بريقها على الشمس. ابتساماتٌ تلقي بظلالها الضخمة على أعدادٍ هائلةٍ من الأعين التي تتحاشى تبادل النظرات، والوجوه ذات القسّمات الملتوية في يأسٍ وألم. تقابلهم في ميادين الأسواق، وفي الطرقات والحقول. دوامةٌ لا نهائية. حدقاتٌ غائمة



وضباية. أعينٌ مُحَمَّرَة. حين أُخِذَ آخر الحقول، وأضيف لمزارع الـ"كولخوز" الجماعية، تلاشى الكلام بين الناس، واختفى تمامًا. في بعض الأحيان، تظن "أوليدا" أن هذه الأجواء تسرّبت إلى "هانس" عبر جدران المنزل. إنه يتبع عادة الصمت التي أصبحت سائدة بين الناس، وعادة تحاشي تبادل النظر بين بعضهم البعض.. "أوليدا" نفسها تفعل ذلك. لعله اكتسب العادة الأخيرة من "أوليدا"، التي أصيبت بها من الآخرين.

الفارق الوحيد، هو أن كلام "هانس" ما زال واضحًا ومفهومًا، فهو ما زال يؤمن بمبادئه القديمة نفسها. أمّا جسده، فقد تغيّر كالعالم الخارجي، الذي لم يعد يحتك به على الإطلاق.



1950

الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية

فتى أحلام فتاة الأبقار



- لماذا لا تذهب أمك لمشاهدة الأفلام، أبداً؟ أمنا تقول إنها لا تذهب.

رَنّ الصوت الصافي للطفل في المدخل الخارجي لمكتب الـ"كولخوز". واصل "جان"، ابن أول عاملة على الجرار في معسكر العمل الجماعي، التحديق في ابن العاملة في قسم الدواجن، الذي بدأ العرق يتصبَّب منه. كانت "أوليدا" على وشك التدخل، وتوضيح أن الاستمتاع بمشاهدة الأفلام ليس فرضاً على الجميع، لكنها قررت السيطرة على لسانها في اللحظة الأخيرة. لا يمكن لزوجة "مارتن" أن تقول شيئاً كهذا، وخصوصاً عن هذه الأفلام. لديها عملٌ جديد. وظيفةٌ جيدة في الحقيقة، بساعات عمل أقل. تسجيل الحسابات في مكتب الـ"خولكوز".

تمعن ابن عاملة قسم الدواجن في الرمل الذي يغطي مقدمة حذائه.

- هل أمك فاشية؟

أحسَّ "جان" بالانتصار. ركل بعض الحصى باتجاه الصبي الآخر. أدارت "أوليدا" رأسها، وابتعدت عنهما قليلاً. كانت قد أخذت الرجال المسؤولين عن تشغيل الأفلام، في جولةٍ في أرجاء المكتب. سيحضر "مارتن" بعض الأشخاص في الشاحنة الجديدة. ووضَعَ بعض أشجار "البتولا" في أركان صندوق الشاحنة. بدت جميلةً على هذا النحو، كما عملت الأشجار على حماية الركاب من الريح، في الوقت ذاته. غادر البيت سعيداً ومبتسماً هذا الصباح. هناك عرضٌ هذا المساء. في البداية، ستقدّم "وحدة الدراسة البحثية لإستونيا السوفيتية" فيلمًا بعنوان "أيّام ستالينجراد المباركة"، يليه فيلم "معركة ستالينجراد" الذي يتكرر عرضه على الدوام.. أم لعَلَّهم سيعرضون فيلم "نورُ الكولخوز" هذه المرّة؟

راح عاملُ آلة العرض يستعرض جهاز الـ"بروجيكتور" أمام الأطفال. دار الصغار حول الشاحنة بدراجاتهم، بحماسٍ بالغ، وقد تعلّقت أعينهم بالجهاز. أعلن أحدهم أنه يرغب في أن يصبح رجل أفلام عندما يكبر؛ سيقود الشاحنة وسيشاهد جميع الأفلام. انهمكت موظفة السجلات في ترتيب الدكك الخشبية بالداخل. غُطيت نوافذ القاعة ببطاطين الجيش. ستعرض المدرسة في الغد فيلمًا مجانيًا بعنوان "حكاية بطل: قصة حقيقية". ألقت والدة "جان" بجسدها المتعب على المقعد، دون أن تستبدل "أوفرول" العمل الذي تلبسه. مسحت جبينها، وقالت شيئًا عن سريّة الجرّارات. إنهم أسرةٌ إستونية، قدّمت من روسيا. لكنهم ما زالوا يحتفظون بلغتهم. الكثير من هؤلاء، كالروس تمامًا. أتوا إلى الـ"كولخوز" بأيدي فارغة، ليس فيها حتى صرّة صغيرة، ولكن صار فم الأم الآن يلمع ببريق الذهب، وأصبح "جان" صيادًا ماهرًا للفاشين. في المنزل الذي أسكنوهم فيه، حوّلت الأسرة الغرفة الأمامية إلى حظيرةٍ للخراف. حين زارتهم "أوليدا"، رأت الخراف وهي مربوطة بقوائم البيانو الذي تركه أصحابه في البيت. بيانو ألماني بديع.

حضرت الفتاة في ساعة مبكرة جدًا، لتنتظر وصول عمّال الأفلام. فتاةً في السادسة عشرة، تعمل في حلب الأبقار. بدا واضحًا أن العامل المسؤول عن تصليح جهاز الـ"بروجكتور" يعرفها جيدًا. ذهب ليكلّمها، وألحَّ عليها لتبقى بعد الفيلم، وتشارك في حفل الرقص الذي يعقبه. سيُشغل الـ"جراموفون"، ويجعل الفتيات الجميلات يرقصن إلى أن تتعب سيقانهن. "صو صو.. حاولت فتاة الأبقار أن تضحك بطريقةً لطيفةً، تقترب من صوت العصافير، لكن الصوت لم يُلائم شكلها الريفي وخديها شديدي الحمرة، في لون العَلم. "صو.. صو.. انزعجت "أوليدا" من نظرات الفتاة التي تفيض بالحماس والأمل، وهي تتأمّل عامل الأفلام ذا الطاقية، والسيجارة الـ"بابيروسّي" الروسية. تلكاً بالقرب من الفتاة. عبث في حمّلات بنطولونه، وهو يصفر بفمه أنغامًا لبعض أغنيات الأفلام. تصرّف كما لو كان نجمًا سينمائيًا. حمل هواء اليوم الصيفي رائحة عرق البنت، المنبعثة من تحت ثديها. أرادت "أوليدا" أن تدنو من تلك الغيبة لتصفعها على وجهها، وتخبرها بأن عامل الأفلام هذا يمرح مع كل الفتيات اللاتي يحلبن الأبقار، في جميع القرى.. مع كل البنات اللاتي يبلغن السادسة عشرة.. وأن أعينهنَّ جميعًا تحمل النظرة ذاتها، الطامعة في مستقبلٍ أفضل. جميعهن يملكن نهودًا مغرية، تطل من الفتحات المتسعة، المزينة بالكشكشة لأثوابهنَّ. الإغراء نفسه، في كل مرّة، في كل قرية. صفة على وجه الفتاة الصغيرة. صفة. هل تفهمين ما أعني؟ أسندت "أوليدا" جسدها على السيارة، وشاهدت بطرف عينها الرجل وهو يتحمّس ذراع الفتاة الممتلئ، بلمساتٍ سرّية. وعلى الرغم من أن "أوليدا" تعرف ما لا تعرفه فتاة الأبقار، من أن الشابّ يكرر العبارات نفسها على مسامع كل الفتيات اللاتي يملكن نهودًا، فإنها أحسّت بنوعٍ من الغيرة من البنت التي لا تزال تؤمن بالمستقبل، ولو للحظة. مستقبلٌ يضمّها وعامل الأفلام.. يرقصان معًا، ويشاهدان الأفلام معًا، وربما - في يومٍ ما - ستعدُّ له العشاء في بيتهما الصغير. مهما بلغت ضالة احتمال مستقبل مشترك بين الفتاة التي تحلب الأبقار وعامل تشغيل الأفلام،

تظل تلك النسبة أعلى بكثير من احتمالات مستقبل يجمعها هي بـ"هانس". يا إلهي! أي اثنين، مهما بلغت الاختلافات والفروق بينهما، يمتلكان فرصة أفضل لحياة مشتركة، أكثر منهما.

ركض الولد ابن مسؤولة الدواجن بالقرب منها، يتبعه "جان"، مثيرين سحابةً من التراب. عطست "أوليدا". ثم سمعت خطوات مألوفة، وإيقاعًا مألوفًا. انطلقت تحية، بصوت يشبه نفير آلة البوق النحاسي. لم تضطر لرفع رأسها. إنها تعرف ذلك الصوت. إنه صوت الرجل الذي أتى لأخذ "ليندا" من الحجرة المجاورة في قبو دار مجلس المدينة.

صاح صوتٌ من داخل المكتب:

- مرحبًا بك في وظيفتك الجديدة.

أضاف:

- هذا هو الرئيس الجديد لقسم تسجيل الحسابات.

اضطرت "أوليدا" للجلوس. خارت قواها تمامًا. لاحظ عامل الـ"بروجكتور" إعياءها، فوضع المولد الكهربائي من يده. واصل الميكانيكي مغازلة فتاة الأبقار. قاد العامل "أوليدا" إلى دكة خشبية، وانحنى فوقها، وهو يسألها ما الأمر. كانت "سوستة" ينظرونه القطني السميك قريبة من أنفها، بينما تتابعها نظراته الفضولية المزعجة. أخبرته "أوليدا" بأنها تشعر بدوار من الحرّ، وأن ذلك يحدث أحيانًا. ذهب ليحضر لها بعض الماء. أسندت رأسها إلى ركبتيها، وعقدت ذراعيها حولهما، وهي ترتعش. بدأت ساقها في الارتجاف أيضًا. مرّت فردتا حذاء "بوت" من الجلد المدبوغ، على بُعد ذراعٍ منها. أطلقتا سحابةً من الغبار، لتتنفسها. احتضنت ساقها بقوة أكبر، وألصقت فخذها بالدكة، محاولةً إيقاف ارتعاشها. رثاها جافتان ويملؤهما الغبار. جزيئاتٌ صغيرةٌ تدور داخل رثتيها. عاد عامل الـ"بروجكتور" بكوبٍ من الماء. انسكب

نصفه بين أصابعها المرتجفة. أمسك العامل بالكوب وأعانها على الشرب. صاح لأحدهم بأنه لا شيء يستوجب القلق. إنها تشعر بالإعياء بسبب حرارة الجو. حاولت "أوليدا" أن تومئ. جلدها شديد السخونة، لدرجة أنها شعرت بحكة. تهاوى جسدها، وسقطت على الأرض بقوة. العصفير الصغيرة فوق الأشجار واصلت تغريدها، وراحت تنقر وتقطع نتفاً من السماء الزرقاء بأطراف مناقيرها.. تنقر، تقطع، تبتلع، تبصق.. تنظر إليها بعيونها السوداء المستديرة. كان كل نفس مُتربّ تستنشقه، يفزعهم.

أوصلها الرجال المسؤولون عن تشغيل الأفلام إلى بيتها، بالشاحنة. ركبت فتاة الأبقار معهم، بحجة أن الفتية سيحتاجون إلى من يدلّهم على طريق العودة إلى المكتب. غدت رائحة عرق الفتاة مرّكة داخل الجزء المغلق من الشاحنة. التصق طرف الباطو، الذي تلبسه أثناء عملها في الحلب، بساق "أوليدا". لم تستطع الفتاة إيقاف ضحكاتها، من فرط الإثارة التي أحست بها.. "صو.. صو".. الصوت يعلو أحياناً في جراءة. في تلك اللحظات، يميل رأسها باتجاه رأس "أوليدا". تكاد أذنها تلامس أذن "أوليدا". لفتاة الأبقار شعراً ينمو داخل أذنيها. قطع من الإفرازات الشمعية تلتصق بذلك الشعر، الذي يُحرّكه الهواء، بينما هي منغمسة في قصص مصير ابنة "ثيودور كروس" عليهم. لقد انتحرت شقاً. فتاة شابة. كيف أمكنها فعل ذلك؟ لعلها اشتاقت لأبويها. كانت نهايتهما هما أيضاً مؤسفة. كانا رهيبيين، لكن الابنة كانت بالغة اللطف، ولم يتم إبعادها. لا يمكنها أن تصدق أن فتاة لطيفة مثلها، هي ابنة هذين الاثنين. "صو.. صو".



حين اختفت الشاحنة على الطريق الرئيسي، أحسّت "أوليدا" بأن الضغط الذي يجثم على صدرها قد خفّ قليلاً. استندت على الأساس الحجري في الحظيرة. عملية الحلب بانتظارها؛ يمكنها القيام بها. ستفكر بعدها فيما يتوجّب عليها فعله. أطلق كروان صيحةً وحيدة. شعرت بأن أطراف الغابة

تراقبها. ذهبت لتحضر بالطو الحَلَب. لبسته كيفما اتَّفَق. غسلت يديها، ثم دخلت الحظيرة بخطواتٍ مترنحة. عليها أن تركِّز تفكيرها في أمور الحياة اليومية.. حفيف القش، أعين الحيوانات التي تفيض بالتعاطف معها، ملمس الدلو الخشبي في يدها. يا له من خشب مصقول! غرزت باطن قدميها في القش. أرجحت "ماسي" ذيلها. حگَّت "أوليدا" رأس البقرة. ربما لم يتعرف الرجل عليها. لقد أطرقت برأسها بسرعة. وكان هناك العديد من الأشخاص الذين خضعوا للتحقيقات والمساءلة، طوال الوقت. لن يتذكر أيُّ من هؤلاء الرجال جميع الأسماء والوجوه. الوجود في الحظيرة أمرٌ مريح. لست مضطراً لتجنب نظرات الحيوانات. يداها لا ترتعشان حين تكون معهم. إنها لا تثير توتر "ماسي" بيديها المرتجفتين. يمكنها أن تهمس في أذن "ماسي" بأي شيء. لسان "ماسي" لن يتحدَّث أبداً بلغة البشر. قوائم المقعد الخشبي القصير، الذي تستخدمه عند الحَلَب، تدعم جسدها. البقرة تنفت داخل الدلو المعدني. "زينج.. زينج.. اندفق الحليب في الدلو الخشبي. "زينج.. زينج" الحياة تستمر. الحيوانات تحتاج إليها. لا يمكنها أن تستسلم لليأس. عليها أن تفكر في حل.

خارج الحظيرة، أحسَّت بضيق شديد في رئتيها ثانيةً. لم تستطع النوم في تلك الليلة. ماذا لو تعرَّف الرجل إليها؟ استحالت أنفاسها إلى أزيز يشبه صوت فأر في مصيدة. استيقظ "مارتن" من نومه. طلبت منه أن يعاود النوم. لكنه ظل ساهراً، يراقب معاناتها وهي تحاول التنفس والحصول على الأكسجين. مضت الليلة بطيئة. لم تستطع "أوليدا" الحصول على أي هواء. كان هناك حذاء من الجلد المدبوغ يطاء صدرها ويضغط عليه، ولم تستطع إزاحته.

لم تجرؤ على النوم. خافت أن تتكلم أثناء نومها، أو تصرخ، أو تهذي.. أن يتكشف ما بداخلها بطريقةٍ أو أخرى من خلال أحلامها المزعجة. تماماً كما حدث لها في القبو، حين غمروا رأسها داخل دلو الفضلات. ماذا لو سمع الرجل اسمها في المكتب، وتذكره؟ ولكن.. كلاً.. إنها "أوليدا ترو" الآن. لم تعد "أوليدا تام".

صباحًا، بدا "مارتن" قلقًا، وتردد في الخروج، طويلًا. لم يشأ أن يتركها بمفردها. أصرت على ذهابه إلى العمل. ابتسمت وقالت إن مشروع راديو الـ"كولخوز" يحتاجه أكثر منها.. كيف سيعرف الناس معلومات عن القنبلة الذرية، دون وجود الراديو؟ طمأنته بأنها ليست مريضة، وأكدت أنه لا سبب يستدعي قلقه. بعد أن نجحت في إخراجه من المنزل، أزالَت الابتسامة المصطنعة من على وجهها، ثم غسلت يديها، وغمرت وجهها بالماء، واتجهت بخطوات مترنحة إلى الحظيرة. ودّت أن تؤجل عملية الحلب اليوم بأكمله، لكنها لم تفعل. غمرت الدلو في حوض التبريد، دون أن تعقمه. لقد نسيت ذلك تمامًا. لم تكن في مزاج يسمح لها بتسليم الحليب إلى مركز إنتاج الألبان، أو التوجه إلى مكتبها في الـ"كولخوز". ذهبت إلى الغرفة الأمامية، تناولت نصف زجاجة من الشراب، وأمضت الصباح في البكاء. ثم أعدت لنفسها حمامًا، وغسلت شعرها. قامت بتسخين الماء أولًا، على الرغم من أنها في جوٍ حارٍ كهذا، ما كانت لتشعل الموقد من الأساس. أصيبت مسام بشرتها بالصدمة، وتهدّجت أنفاسها. سوف يتذكرها ذلك الرجل، بمرور الوقت. لا يمكنها مواصلة عملها في المكتب. ستحضر أوراقًا تثبت جنونها، لو استدعى الأمر. ستفعل أي شيء. يمكن لـ"مارتن" أن يساعدها. الرجل لا يعرف "مارتن"، أليس كذلك؟ ارتفع طنين الذباب. ضربته بالمنشأة. تصبّب العرق منها بغزارة، كنبع ماء. ضربت الذباب على المصباح، والكرسي، وبرميل البيرة، والمقص، وحوض الاستحمام، والمنشار المعلق على الحائط.

لا يمكنها أبدًا العودة إلى هناك.

لن يحصل "هانس" على وجبةٍ ساخنةٍ ذلك اليوم.

لقد عثرت على بيض ذباب أسفل طبق اللحم، في غرفة المؤن.



شهادة مَرَضِيَّة من اللجنة الصحية منحت "أوليدا" إعفاءً تاماً من العمل، لمدة عام كامل. بعد انقضاء العام، يمكنها تجديد الإعفاء إن استدعى الوضع ذلك.

ما إن حصلت على الورقة التي تثبت معاناتها من الربو، حتى عادت رثتها للعمل بكامل كفاءتهما.. تستقبلان شحنات من الأكسجين المُسكِر، وأريج أزهار "الفاوانيا" والحشائش المجزوزة للتَّوُّ.. وشذى "الكاموميل" في حمّامات الساونا. اختلطت الروائح وتدافعت داخل صدرها. الأصوات الحادّة للعصافير الصغيرة لا تزعج أذنيها، ولا نعيق الغربان بجوار أكوام الروث. تسكعت في حديقة البيت إلى أن ظهرت النجوم، فتذكرت بعض ما كانت تحسّه منذ سنوات. تذكّرت معنى الإحساس بالخفة وراحة البال. لو أن ذلك الشعور يلازمها على الدوام! جلس "بيلمي" مع طبقه أمام باب الحظيرة، منتظراً رواسب الحليب ورغوته. الجوّ يتحسّن. خلال الجوّ السيئ، يفسد الحليب المخصص لـ"بيلمي"، دائماً.



## الثمانينيات

"لانيما" - الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية

### التشخيص



مع اقتراب عيدي العمّال والربيع، في الأول من شهر مايو، عام 1986، كانت "أوليدا" متيقنة من أن ساقى "مارتن" أضعف من أن تتحمّلاً مشاركته في الاحتفالات؛ لكن "مارتن" لم يوافقها الرأي، وشارك فيها بحماس، مصطحباً "أوليدا" معه، شابكاً ذراعها بذراعه. رفر ف وجه "لينين" على القماش الأحمر، مصوباً نظراته تجاه المستقبل. حملت ملامح "مارتن" التعبير ذاتها. تدفّق جوٌّ من المزاج الحسّن، ومرّ بين الرايات والناس. عبق المكان برائحة الأزهار الآخذة في التفتح، وانتشر فيه دويّ الطبول.

اتصلت "تالفي" من "فنلندا"، في اليوم التالي.

- ماما.. ابق في البيت.

- ماذا؟ لماذا؟ ما الذي حدث؟

- هل لديكِ بعض اليهود؟

- كلاً.

- لقد انفجر مفاعل نووي في "أوكرانيا".

- كلاً.. غير صحيح.

- نعم. صحيح. هناك تلوٲ إشعاعيٌّ مرتفعٌ في كلِّ من "فنلندا" و"السويد". "تشيرنوبل".

لم يقولوا لكم شيئاً عن الأمر، بطبيعة الحال.

- كلاً.

- أبقى بابا في الداخل، وأحضري بعض اليهود. لا تخبريه شيئاً. لن يصدقكِ على كل حال.

لا تأكلا أي نوعٍ من التوت أو المشروم. ولا تقطفا شيئاً منهما.

- هذا ليس موسمهما.

- أنا أعني ما أقول يا ماما. لا تقطفيهما في الخريف إذًا. الزما المنزل ليومين. أسوأ

التأثيرات ستكون قد انتهت حينها. لقد منعوا الناس من أخذ أبقارهم خارج الحظائر، حتى

لا تأكل شيئاً من العشب الملوٲ. قد يستمر هذا المنع طوال الصيف. لقد أغلقنا الموقد

أيضاً.

قُطِعَت المكالمة.

وضعت "أوليدا" السماعة. صوتُ "تالفي" خائف، على غير طبيعتها. صوتها المعتاد بارد.

أصبح صوتها بارداً عقب انتقالها إلى "فنلندا"، مع زوجها، للإقامة هناك. ولم تكن تتصل بهما

كثيراً. نادراً ما تتصل، وهو أمر يمكن تفهمه.. إذ عليك أن تقوم بحجز مكالمة أولاً، وليس

بوسعك دائماً الحصول على واحدة. إن نجحت في ذلك، ينبغي عليك الانتظار لساعاتٍ

طويلة، كي تحظى بصوتٍ واضح، غير متقطع. إلى جانب ذلك كله، فإنك تشعر بالاشمئزاز

لعلمك بأنهم يتنصتون على المكالمات.

نادى "مارتن" من غرفة المعيشة:

- مَن كان المتصل؟

- "تالفي".

- ماذا تقول؟

- لا شيء تقريبًا. لقد قاموا بقطع المكالمة.

ذهبت "أوليدا" لتشاهد الأخبار. لا شيء عن "تشيرنوبل"، على الرغم من أن الانفجار حدث قبلها بعدة أيام. لم يُبدِ "مارتن" مزيدًا من الاهتمام بمكالمة "تالفي". أو إن كان مهمتًا، فإنه تعمّد عدم إظهار ذلك. ساءت الأمور بين "مارتن" و"تالفي" منذ أن غادرت البلد. وضع "مارتن" خطأً لابنته، صغيرته المتميزة في الحركة الطليعية، كي تحظى بوظيفة ممتازة في الحزب. لم يتقبل أبدًا هروبها إلى الغرب.

اليوم التالي هو موعد وصول البضائع إلى دكان القرية. ركبت "أوليدا" دراجتها، كي تصل هناك وتقف في الطابور. توقّفت أولًا لدى الصيدلية، لتشتري بعض اليود. اشتراه كثير من الناس أيضًا. الأمر صحيح إذًا. حين عادت إلى المنزل، كان "مارتن" قد سمع بالخبر من صديق له.

- المزيد من الأكاذيب. بروباجاندا غريبة.

أخرجت "أوليدا" زجاجة اليود، وكانت على وشك صبّ القليل من محتوياتها في طعام "مارتن"، ثم غيرت رأيها، وقرّرت أن تدع الأمور تمضي كما هي.



في التاسع من مايو، بدأت لجنة الحرب في استدعاء رجال الـ"كولخوز". قالوا إنها مجرد تدريبات. تم إرسال أربعة من سائقي الشاحنات، في يوم عيد النصر على النازي. ومن بعدهم أطباء ورجال إطفاء. لم يتم الإعلان رسميًا عمّا حدث في "تشيرنوبل". انتشرت شائعاتٌ مختلفة. قال البعض إنهم يرسلون السجناء السياسيين إلى "تشيرنوبل". أحسّت "أوليدا" بالخوف.

قال "مارتن":

- إنهم يستدعون عددًا من الناس.

لم يقل شيئًا آخر، لكنه توقف بعدها عن التذمّر بخصوص البروباجاندا الغربية الفاشية. كان الناس من كبار السن متيقنين من أن الاستدعاءات هي بادرة حرب. قام ابن عائلة "بريكس" بكسر قدمه متعمدًا. المرجح أنه رمى بنفسه من فوق سطح بيته، ليحصل على شهادة طبية تعفيه من التجنيد. لم يكن الوحيد الذي فعل شيئًا مماثلًا. مقابل كل شخص حصل على الإغفاء، تم إرسال شخص آخر مكانه.

"أوليدا" نفسها لم تكن متأكدة ما إذا كان كل ذلك لا يعني أن الحرب وشيكة. هل كان فصل الربيع غريبًا، بأي شكل من الأشكال؟ ماذا عن الشتاء؟ لقد حَلَّ الربيع مبكرًا بعض الشيء، على كل حال. هل كان عليها أن تتوقّع حدثًا مهمًا بسبب ذلك؟ هل كان عليها ملاحظة أن التربة كانت أكثر جفافًا من المعتاد، بالنسبة لذلك الوقت من السنة، وهي تزرع درنات البطاطس؟ أو أن تنتبه إلى أن أمطار الربيع كانت خفيفة للغاية، وأن الجو كان حارًا لدرجة أنها كانت تلبس بلوزة بكُمٍ قصير في ذلك الفصل؟ هل كان عليها أن تخمن بأن الأوضاع ليست طبيعية؟ هل أصبحت عجوزًا، لدرجة تعطل حدسها؟

في أحد الأيام، لمحت "مارتن" وهو يقطف ورقة من شجرة، ويتأملها باهتمام. قلبها بين يديه، ثم قطعها. تشمم يده، وتشمم الورقة. ذهب ليتفحص السماد الطبيعي. أزال حبوب اللقاح من على سطح الماء في البرميل المخصص لمياه الأمطار، وراح يتمعن فيها.

- ليس بإمكانك رؤيته يا "مارتن".

أصيب بالفزع، كأنها صُبط متلبسًا بأداء فعلٍ غير مستحب.

- بماذا تخرفين؟

- إنهم يحبسون الأبقار داخل الحظائر، ولا يسمحون لها بالخروج، في "فنلندا".

- ذلك جنون.

اختفى الأسمنت من إستونيا تمامًا، لاحتياجهم له في "أوكرانيا". امتلأت إستونيا بكمياتٍ وفيرةٍ من الأطعمة القادمة من "أوكرانيا" و"روسيا البيضاء". منعت "تالفي" أمها من شرائها. قالت "أوليدا" نعم، نعم. ولكن ما الذي ينبغي عليها ابتياعه؟ روسيا كانت في أمس الحاجة للأغذية الإستونية، وإستونيا - في المقابل - كانت تحصل على المواد الغذائية التي لا تريدها روسيا.



لاحقًا، سمعت "أوليدا" قصصًا عن الحقول المغطاة بمعدن "الدولوميت"، وعن القطارات المكدّسة بالسكّان المبعدين.. عن الأطفال الباكين، والجنود الذين يخلون البيوت من العائلات، والرفاقات البرّاقة التي تملأ حدائق المنازل، والصغار الذين يحاولون التقاطها خلال سقوطها على الأرض، والبنات الصغيرات اللاتي يرغبن في تزيين خصلاتهن بها؛ ثم اختفت تلك الرفاقات اللامعة، ومعها شعر الأطفال. في أحد الأيام، أمسكت امرأة عائلة "بريك" بذرّاع "أوليدا" في السوق، وراحت تهمس لها. نشكر الرب بأن الابن كسر ساقه. نشكر الرب لأنه فكّر في ذلك. قالت إن أصدقاء ولدها، ممن انتهى بهم المطاف في التجنيد، أخبروها بما يحدث هناك. ليسوا سعداء بالأجور المرتفعة التي يحصلون عليها في "تشرينوبل". الخوف يتسرّب ويشع منهم. لقد روّوا أشخاصًا ينتفخون، إلى أن يصعب تمييزهم أو معرفتهم. شاهدوا أناسًا حزاني لفقده منازلهم، ومزارعين يترددون على حقولهم خلسة، في المناطق الممنوعة. البيوت التي فارقتها أصحابها تعرّضت للسلب والنهب، وبيعت محتوياتها في الأسواق: تليفزيونات، ومسجّلات، وأجهزة راديو. إنها منتشرة في كل مكانٍ بالبلد. كذلك الموتوسيكلات، والمعاطف المصنوعة من فراء الخراف والحملان. لقد قتلوا الكلاب والقطط، ودفنوها في مساحاتٍ شاسعةٍ من الأرض. الأجواء تمتلئ برائحة اللحم العفن، والبيوت والشجر. أزيلت طبقاتٌ من التربة. تم وضع محاصيل البصل والكرنب، بالإضافة إلى عددٍ من الشجيرات، داخل حُفَر. الناس يسألونهم إن كانت هذه آخر أيام العالم، أم إنها حرب، أم ماذا تحديدًا؟

ومَن الذي يحاربونه؟ ومَن الذي سينتصر؟ العجائز لا يتوقفن عن رشم الصليب. الجميع يشرب الفودكا والخمور المصنعة منزليًا، طوال الوقت.

أضفت امرأة "بريك" باهتمام، بأن أحد الشَّبَّان نَبَّه زملاءه المغادرين بألا يقولوا أبدًا إنهم كانوا في "تشرينوبل"، وإلا فإن الفتيات سيبتعدن عنهم تمامًا. لا تصارح أحدًا بذلك، وإلا فلن ترغب أي شابة في إنجاب أطفال منك. قالت السيدة "بريك" أيضًا بأن لابنها صديق، هجرته زوجته، وأخذت معها أبناءهما، لأنها لم تكن تريده أن يلمس الصغار ويلوثهم. أردفت بأنها سمعت عن رجلٍ آخر من العائدين من "تشرينوبل"، تركته زوجته بعد أن لازمتها الكوابيس. صارت تحلم بعجول ذات ثلاثة رؤوس، تتكاثر بشكلٍ مطرد، وبقططٍ تغطيها الحراشف بدلًا من الفراء، وبخنازير لا سيقان لها. لم تعد تتحمل تلك الأحلام، ولم تعد تتحمل البقاء بجوار زوجها، ولذلك قررت المغادرة إلى مكان أفضل صحيًا.

أصيبت "أوليدا" بالصدمة عند سماعها لحكايات النساء اللاتي تخلين عن أزواجهن، بكل تلك البساطة. ارتجف جسدها جرأً تلك الصدمة. بدأت تتأمل الشَّبَّان في الشارع، بنظراتٍ جديدة. لاحظت في العائدين أمرًا مألوفًا، تعرفه جيدًا. رأته في نظراتهم. تلك النظرات الغائمة. أرادت أن تمدَّ يدها وتربت على خدودهم.



في نهاية الأمر، سقط "مارتن ترو" في حديقة المنزل، أثناء تفحصه لورقة من شجرة البتولا، بعدسةٍ مكبرة. حين وجدت "أوليدا" زوجها، وقلبته على ظهره، ليواجه السماء، رأته التعبير الأخير المرتمى على وجهه. كانت تلك هي المرة الأولى التي تراه فيها مندهشًا.

## الجزء الثالث

"يجب أن تكون سعيدًا، قالت الأم

حينما نأتي لمشاهدتك".

- الشاعر الإستوني "بول - إيريك رومو"





30 مايو 1950

## عاشت إستونيا حرة !



تركت "أوليدا" وظيفتها. تلك التي تطوف فيها على الناس، وتعذبهم بأمر الرسوم والضرائب والحصص الإنتاجية. لم تخبرني عن السبب. ربما كان ما قلته لها قد أثر بها. حين صارحتها بأن وظيفة كتلك، لا تعدو كونها خدمة للوحوش. أو لعلها تعرّضت للضرب. أعلم أن أحدهم قام بتفريغ عجلتي دراجتها من الهواء. أحضرت الدراجة إلى الحظيرة، وطلبت مني تغيير العجلتين، لكنني رفضت ذلك. قلت لها إن عليها تكليف أحد المخفلين بأداء التفاهات التي تريدها. واحدٌ من الحمقى الذين تستعبدهم الحكومة. قام "مارتن" بإصلاح دراجتها ذلك المساء.

أخبرتني "أوليدا" بأنها تركت وظيفتها، بعينين لامعتين، وكأنها تتوقّع مني أن أشكرها. فكرتُ في أن أبصق عليها، لكنني تشاغلْتُ بمداعبة "بيلمي". إنني أعرف ألعبيها جيداً. فجأةً، أرادت أن تعرف إن كنتُ قد قابلتُ أحدًا، حينما كنتُ في الغابة. لم أجبها.

أرادت أيضًا أن تعرف الأوضاع والأحوال في الغابة. وكيف هو الحال في "فنلندا"، ولماذا ذهبْتُ إلى هناك.

لم أجِب.

لاحقتني بهذه الأسئلة الفضولية لوقتٍ طويل. سألتني عن السبب في عدم ملازمتي للألمان، عقب انضمامي إليهم.

لم أجِب.

رأيتُ أمورًا لا ينبغي قولها لامرأة.

عدتُ إلى حجرتي.

"ليدا" لا تريدني أن أعود إلى الغابة. لن توافق على ذلك. أنا الشخص الوحيد الذي بإمكانها أن تتحدّث إليه، دون أن يجيبها باقتباسات وجم شيعوية. كل إنسان بحاجة إلى شخص يتكلم معه بطريقةٍ عاديةٍ وبسيطة. هذا هو السبب في رفضها لمغادرتي.

الحبوب تنمو في حقلي، ولا أستطيع حتى رؤيتها.

أين فتاتاي، "ليندا" و"إنجل"؟ القلق يستبدُّ بي.

- "هانس بيك" - ابن "إيريك" - فلاح إستوني

1992

"لانيما" - إستونيا

الشعور بالوحدة



لم تفهم "أوليدا" كيف وصلت صورتها و"إنجل" إلى يد "زارا". قالت الفتاة شيئاً عن ورق الحائط والدولاب، لكن "أوليدا" لا تتذكّر أنها خبّأت أي شيء تحت ورق الحائط. لقد أتلفت جميع الصُور، ولكن هل خبّأت "إنجل" بعض الصُور، حين كانت لا تزال تقيم في البيت؟ ذلك ليس منطقيّاً على الإطلاق. لماذا تفعل ذلك أصلاً؟ لماذا تخبّي صورة تجمعهما معاً؟ إنها تضع شارة "المزارعين الشُّبان" على صدرها. لكنها صغيرة الحجم جدّاً. لا يمكن لأحدٍ، سوى "إنجل" نفسها، أن يلاحظ وجودها.

حين ذهبت "زارا" لتنام، غسلت "أوليدا" يديها، ثم راحت تطرق الجدران والدواليب، وتنقر ورق الحائط، وتغرز طرف سكين في شقوق الخزانة، وفي الفتحات بالغة الضيق بين الجدران والإطار الخشبي الذي يمتدّ بمحاذاتها من الأسفل؛ لكنها لم تعثر على شيء. ليس هناك سوى الققععة الصادرة عن

ارتظام الأطباق ببعضها، وعددٌ كبيرٌ من كوبونات الخمر، مكدسة في الصندوق المخصص للزجاجات.

الفتاة نائمة، وأنفاسها منتظمة. تعالت أصواتٌ حادَّةٌ من الراديو، تناقش قضية الانتخابات، وفي الصورة، جمالٌ "إنجل" خالد للأبد. تذكَّرت "أوليدا" اليوم الذي ذهبنا فيه لـ"إستوديو ب. فايدنباوم للفوتوغرافيا الحديثة" لالتقاط هذه الصورة. كانت "إنجل" قد بلغت الثامنة عشرة مؤخرًا. ذهبنا إلى مقهى "ديتريتش"، حيث شربت "إنجل" قهوة "وارسو"، بينما تناولت "أوليدا" فنجانًا من الشوكولاتة الساخنة. كان هناك قطعٌ من حلوى الـ"بروفيتيرول"، التي تذوب في الفم لوجودتها. فاض المكان برائحة الياسمين. اشترت "إنجل" بعض الفطائر الهشة لتأخذها إلى المنزل، وقامت "هيلين ديتريتش" بتغليفها بورقٍ أبيض، مزود بعصا خشبية صغيرة. كان ذلك اختصاصهم الذي تميزوا به. تغليفٌ بديعٌ، سهلُ الحمل. تذكَّرت رائحة السجائر، وخشخشة أوراق الصحف. حينها، كانتا لا تزالان تفعلان كل شيء معًا.

أعدت "أوليدا" تثبيت "بنسة" الشعر في خصلاتها، فصارت يدها رطبة. العرق يغطي جبينها وفروة رأسها.

التوت أطراف الصورة، وانثنت، بفعل السخونة المنبعثة من فحم الموقد. قذفت "أوليدا" ببعض الحطب داخله.

أحسَّت بحكَّة في أذنها. فركتها بأصابعها. طارت ذبابة، مبتعدة.



لمعت شمس الصباح بين الستائر، واتجهت نحو عيني "زارا"، فأيقظتها. الباب المؤدِّي إلى المطبخ مفتوح. "أوليدا" تجلس إلى الطاولة، وتنتظر إليها. هناك شيءٌ غير طبيعي. "باشا"؟ هل يبحثون عنها عبر نداءات في الراديو؟ ما الأمر؟ جلست وقالت "صباح الخير".

- لن تأتي "تالفي".

- ماذا؟

- لقد اتصلت وقالت إنها غيّرت رأيها.

مدّت "أوليدا" يدها، وغطّت بها عينيها، وقالت مرّة أخرى بأن "تالفي" لن تأتي.

لم تعرف "زارا" بمّ تجيب. لقد تحطّمت خطتها الرائعة، وتحوّلت إلى فتات مزعج يتجمع وراء مقلتيها. لن تُحضر "تالفي" سيارتها إلى هنا. اهتزّ عقربا الساعة في حركتهما. "باشا" يقترب. تشعر بلسعة في قدميها. نظارته المُعظّمة مصوبة وراءها. يتعالى الأزيز من سيارته على الطريق العام. الحصى يتطاير. لكنها لم تتحرك من مكانها. النور يتغير في الخارج، لكنها بقيت في موضعها. لم تعرف المزيد عن "أوليدا"، أو عن أحداث الماضي. واصلت الجلوس في مكانها، يعتريها الضعف والإحساس بالتفاهة، دون أي إجابات. أعلنت محطة "راديو كوكو" الساعة، ثم بدأت نشرة الأخبار. ستنتهي سريعاً، وسيمضي النهار، ولن تأتي "تالفي" وسيارتها، لكن "باشا" قادم.

عادت "زارا" إلى المطبخ، ورأت كيف انتفض جسد "أوليدا" فجأة. بدا أنها تبكي، دون صوت. يداها في حِجرها. لاحظت "زارا" أن عينيها جافّتان.

بادرتها "زارا" بالقول:

- أشعر بالأسف. لا بد أن الأمر محيِّط بالنسبة لكِ.

تنهّدت "أوليدا". تنهدت "زارا"، ورسمت تعبيراً يشي بالتعاطف على وجهها، لكنها لم تستطع إيقاف أفكارها. لا وقت للتخمين. هل ما زال بإمكان "أوليدا" مساعدتها؟ هل ما زالت تملك مزيداً من الخطط؟ إن كان الأمر كذلك، فينبغي على "زارا" أن تكون لطيفةً معها. عليها ألا تشير إلى الصورة أو تذكر جدّتها، فذلك يجعل "أوليدا" عدوانية. لم ترَ الصورة في أي مكان، ولم تجرؤ

على السؤال عنها. أم ربما عليها أن تتخلى عن فكرة الهروب، من الأساس، وأن تستسلم للظروف كيفما أتت؟

ستكون الجَدَّة قد استلمت الصور التي أرسلها "باشا"، بحلول هذا الوقت. لن ينتظر أكثر من هذا، بطبيعة الحال. ربما حصل "ساشا" على بعض منها، أيضًا. وربما أمَّها كذلك. ومن يدري من أيضًا. ربما فعل "باشا" شيئًا أكبر من ذلك، أساسًا. ترى هل الجميع بخير هناك؟ كلا، عليها ألا تفكر بذلك. عليها أن تركز على وضع خطة جديدة. اتكأت "أوليدا" على عصاها، على الرغم من أنها لا تزال جالسة، وقالت:

- تدَّعي "تالفي" أنها مشغولة جدًّا، ولكن ما الذي يجعلها مشغولة؟ تجلس بلا عمل! إنها ربَّة منزل، كما أرادت على الدوام. ماذا تريدان أن تكوني؟  
- طيبة.

لاحظت الدهشة على وجه "أوليدا". أوضحت "زارا" بأن سبب ذهابها للغرب هو توفير مصاريف الدراسة. كانت تنوي العودة فور ادِّخارها مبلغًا مناسبًا، ثم جاء "باشا"، وتغيَّر كثير من الأوضاع نحو الأسوأ. زوت "أوليدا" حاجبيها، وطلبت من "زارا" أن تحدثها عن "فلاديفوستوك". فوجئت "زارا". هل هذا وقت استعادة الذكريات؟ يبدو أن "أوليدا" قد نسيت أن هناك رجالًا يطاردون "زارا". لعلَّها لم ترغب في إظهار عواطفها، أو ربما كانت أكثر حكمة من "زارا". ربما ليس هناك ما يمكن فعله، أصلًا، سوى الجلوس والثرثرة. ربما كان ذلك هو التصرف الأكثر عقلانية؛ التمتع بهذه اللحظة، واستعادة ذكريات "فلاديفوستوك". أجبرت "زارا" نفسها على الجلوس إلى الطاولة، والاستكانة. مدَّت يدها بالفنجان نحو "أوليدا"، حين عرضت عليها أن تشرب شيئًا من بديل القهوة. تناولت قطعة من فطيرة القشطة، والتي يبدو أنها النوع المفضَّل لـ"تالفي". لقد صنعتها "أوليدا" في الليلة الماضية.

- يبدو أنك لم تنامي البارحة، على الإطلاق.

- وما حاجة شخص مُسن للنوم؟

رَما كان ذلك سبب النظرات الشاردة في عيني "أوليدا". كانت تقف بجوار الطاولة، ممسكة بإبريق القهوة، كأنها لا تعرف أين تضعه. بدت "أوليدا ترو" وحيدة. تنحنحت "زارا"، وقالت:

- "فلاديفوستوك".

انتبهت "أوليدا" من شرودها. وضعت الإبريق على الأرض، وجلست على المقعد.

- أخبريني عنها.

بدأت "زارا" بإخبارها عن التمثال الذي يحمل عَلَمًا، تَكرِيمًا لمن قاتلوا على الجبهة الشرقية. تحدثت عن الموانئ، ورائحة بحر اليابان التي يمكن شَمُّها في الألواح الخشبية التي تغطي الجدران، والزخارف الخشبية التي تزيّن البيوت، وصديقة أمها التي تعدُّ أشهى الأطعمة الأرمينية: الدوملا، والمخللات، والباذنجان المقلي اللذيذ جدًّا، وبسكوت "شكريشي" الذي ما إن يلامس سقف الفم، حتى يَمْنَحك شعورًا بأن نُدْف الثلج في الخارج لها طعم السُكَّر، ويلازمك ذلك الشعور حتى اليوم التالي. والاستماع إلى أسطوانات "زارا دولوخانوفا"، وهي تشدو بالأغاني الأرمينية الفلكلورية، باللغة الأرمينية؛ وإلى أعمال "بوتشيني"، باللغة الإيطالية ومختلف اللغات. لقد سُمِّيَت "زارا" تيمَنًا بها. أمها مهووسة بصوت "دولوخانوفا". كانت تحرص على متابعة أخبارها؛ رحلات "دولوخانوفا" إلى الغرب، جميع الأماكن التي تزورها، كل المدن والبلدان. بإمكانها الذهاب إلى أي مكان، بذلك الصوت الخلاب! لسبب ما، فإن صوت "دولوخانوفا" هو الشيء الوحيد القادر على إثارة اهتمام أمها وحماسها. حين تغني "دولوخانوفا"، ينبغي على "زارا" التزام الصمت. تشعر بالضيق، فتذهب لزيارة صديقتها، لتستمع إلى شرائط كاسيت فرقة "مامي ترو"، وخصوصًا



أغنية "قمر إبريل الجديد". مطرب الفرقة "إليا لاجوتينكو"، رائعٌ حقًا. كان يذهب إلى مدرسة "زارا" نفسها. في بعض الأحيان، كانت جدّة "زارا" تصطحبها لرؤية السفن المبحرة إلى اليابان. كان ذلك هو المكان الوحيد - إلى جانب حديقة النباتات - الذي يُسمَح لها بزيارته. تتابع السفن، ويضرب هواء البحر جبينها، وهو في طريقه إلى اليابسة. المسافة إلى "موسكو" هي تسعة آلاف كيلو متر، لكنهم لم يذهبوا إلى هناك قط. توذُّ "زارا" زيارة المدينة في يومٍ من الأيام. والصيف. الصيف الـ "فلاديكي". جميع فصول الصيف الـ "فلاديكية"! في إحدى المرّات، خطرت على بال أحدهم فكرة إضافة مسحوق الألومنيوم إلى زجاجات طلاء الأظافر، لجعل الأظافر برّاقة، وسرعان ما أصبحت أظافر كل فتاة في البلدة تلمع كشمس الصيف.

ما إن بدأت "زارا"، حتى انجرفت في حكاياتها. للكلمات طعمٌ طيب. بل إنها تفتقد "زارا دولوخانوف"، و"مامي ترول" كذلك.



"كاتيا" أيضًا أرادت التعرف إلى "فلاديفوستوك"، لكن "زارا" - مهما حاولت - كانت تفضل دومًا في قول أي شيء لها، له علاقة بالمكان. في تلك الأوقات، لم يخطر على ذهنها سوى صُور قليلة لـ "فلاديكي"، وهي الصُور ذاتها التي تستعيدها عندما تتحدّث "كاتيا"، لكنها لم تكن ترغب في إخبار "كاتيا" عنها؛ مثل حرص الجدّة على تجفيف البسكوت الناشف، في فترة أحداث "تشيرنوبل"، تحسبًا لاندلاع الحرب؛ وكيف أنهم تابَعوا التلفزيون عقب الحادث، دون أن يفهموا ما حدث، وكيف أظهر التلفزيون الناس وهم يرقصون في شوارع "كييف". "تشيرنوبل" موضوعٌ شائك، لأن "كاتيا" من هناك، ولذلك ترغب في الزواج من أجنبي، ولذلك أيضًا لديها اهتمام بـ "فلاديفوستوك". أرادت أن تنجب أطفالًا. إن حدث والتقت رجلًا مناسبًا، فسوف تخبره أنها من أي مكان آخر، وليس "تشيرنوبل". "زارا"، بدورها،

رأت أنها فكرةٌ جيدةٌ. أرادت أن تعرف المزيد. "كاتيا" لا تُنير في الظلام، ولا تبدو مختلفة عن أي فتاة أخرى. لكنها كانت تردد بأنه كلما قلَّ حديث الناس عن "تشيرنوبل"، وقلَّت كتابتهم عنها، وقلَّت معرفتهم بها، كان ذلك أفضل.

كانت مُحِقَّةً. "زارا" نفسها لم تكن ترغب في أخذ "كاتيا" في حضنها، ولا حتى عندما تبكي لافتقادها أَسرتها، أو عقب لقائها زبونًا سيئًا. كانت تفضّل التَّسرية عنها بالحديث معها عن شيءٍ آخر. أي شيءٍ، عدا "فلاديمير". التفكير في بلدتها، وهي في ذلك المكان، كان خاطئًا على نحوٍ ما. وكأنها لا تستحق تذكُّر بلدتها. ستلوِّث ذكرياتها الجميلة، إن سمحت لنفسها باستعادتها وهي في ذلك المكان، وتلك الظروف. كانت تكتفي بلمس الصورة الفوتوغرافية المخبَّأة بين ثيابها، بين الحين والآخر، عبر الأقمشة، لتتأكد من أنها لا تزال موجودة. بطبيعة الحال، لم يكن "باشا" يعرف أن "كاتيا" من "تشيرنوبل"؛ لأنه التقطها من مكانٍ قريبٍ من "كليف"، لكنه طلب منها أن تقول إنها من روسيا إن سألها أحد الزبائن عن ذلك؛ لأنه لا أحد يرغب في إقحام عضوه داخل منطقة الموت.



حاولت "زارا" إزاحة "كاتيا" من رأسها. لم تكن تريد إخبار "أوليدا" عن "كاتيا". عليها أن تلتزم بالحديث عن "فلاديمير" فقط. تهلل وجه "أوليدا" وهي تنصت لثرثرة "زارا"، حتى كادت تبتسم. ألحَّت على "زارا" لتتناول قطعة أخرى من الفطيرة. أخذتها "زارا" وهي تشعر بالجرأة. لقد نسيت كيف عودها "باشا" على الاستئذان منه قبل أن تقوم بأي شيء. أحسَّت بالجرأة لأنها تناولت مزيدًا من الفطير، دون إذنٍ مسبقٍ من "باشا". أحسَّت بالجرأة لأنها تقصَّ حكايات لأحد، دون أن تطلب الإذن من "باشا" بالكلام. إنها جريئة لأنه لا يُفترض بها أن تكون هنا، في مكانٍ لا تحتاج فيه لاستئذان "باشا" كي تتبول. إن أوجعها رأسها، فسوف تقوم "أوليدا"، على الأرجح، بتقديم الدواء لها، حتى دون أن تطلب ذلك. إن بدأت دورتها الشهرية، فسوف تحضر لها "أوليدا" شيئًا، وتعدُّ لها حمامًا، وتعطيها قربةً من الماء الساخن،

دون أن تنتظر منها أي مقابل. في أي لحظة، ستختفي هذه الظروف غير الواقعية، وستسقط "زارا" من جديد في وسط الواقع، والزبائن، والديون. قد يدخل "باشا" و"لافرينتي" حديقة المنزل في أي لحظة، وعندها لن تستطيع الاستمرار في التفكير في "فلاديكي". لن تلوّث ذكريات بلدتها بذلك العالم. لكن ما زال بإمكانها التفكير فيها الآن.

قالت "أوليدا" باندهاش:

- كنتِ سعيدةً هناك!

- بالطبع.

- ماذا تعنين "بالطبع"؟

فجأةً، بدت "أوليدا" مبتهجة، وكأنها فكّرت في أمرٍ جديدٍ تمامًا. أضافت:

- هذا رائع!

أمالت "زارا" رأسها قليلاً.

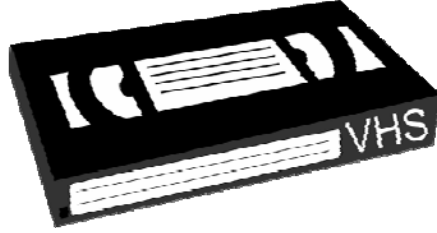
- نعم. إنه كذلك. وكنت مستمعة بكوني ضمن الحركة الطليعية.

لم تكن متميزة في المشي بخطوات عسكرية، أو أي من تلك الأمور، لكن الغناء الجماعي حول نار المخيم، كان مُسلّيًا. وكانت فخورة بشارة الحركة الطليعية. تحب لونها الأحمر، وتحب لمس جبهة "لينين" وأذنيه المصبوغة جميعها بالذهبي.

ولكن حين تحدثت "زارا" عن "فلاديفوستوك"، استمرت "كاتيا" في الظهور في ذهنها. لم يعد بإمكانها إخبار "كاتيا" عن "فلاديكي"، أبدًا. لقد فات الوقت. كان طلبُ "كاتيا" بسيطًا. اعتقدت "زارا" بأنها ستنجح في يومٍ ما في تحويل "كاتيا" إلى فتاة من "فلاديفوستوك"، لكن ذلك اليوم لم يأتِ أبدًا. هل تخاطر بالبوح بهذه الأسرار لـ"أوليدا"، حتى لو عنى ذلك بالألّا تساعدها "أوليدا" في الهروب من "باشا"؟

1991

برلين - ألمانيا  
فتاة كيوم ربيعي



قام "باشا" بتشغيل شريط الفيديو. أول ما ظهر على الشاشة هو عضو ذكري، أحمر ومنتصب، ومن بعده بطنٌ مُتدَلٌّ، مليء بالشعر، لرجل في منتصف العُمر. ثم نهدي فتاةً شابّة. أمرها الرجل بأن تعترضهما. قامت بتدليك صدرها. بدأ الرجل بمداعبة عضوه. ظهر رجلٌ آخر في الصورة، باعدَ ساقي الفتاة، وجعلها تستلقي مفتوحة الساقين، ثم أخرج موس حلاقة، وحلق شعيراتها.

جلس "باشا" على الكنب، واتخذ وضعيةً مريحة، ثم فتح "سوستة" البنطلون.

- تعالي وشاهدي هذا.

لم تُطعه "زارا" بالسرعة المناسبة، فافترب منها "باشا" وجرّها إلى أمام الشاشة، وهو يسبّها، ثم جلس على الكنب مرّةً أخرى، وهو يُخرج عضوه. تواصل عرض الفيلم على الفيديو. "باشا" يستمني. معطفه الجلديّ يصدر صريراً. الوقت في الخارج نهار. الناس يترددون على الدكان ويشترون سجق

"براتفيست"، والكرنب المخلل "زاوركاوت". يتحدثون الألمانية. هناك ذبابة تطنُّ من على المصباح الكهربائي للدكان.

- شاهدي!

يضربها "باشا" على مؤخرة رأسها، ويجلس بجوارها ليتأكد من أنها تشاهد الفيديو. يجذب الروب الذي تلبسه وينزعه عنها. يأمرها بالانحناء، مستندةً على أطرافها الأربعة، وأن توجه مؤخرتها نحوه، بينما وجهها للشاشة.

- افتحي ساقيكِ.

تُباعدهما.

- أكثر.

تُطيعه.

"باشا" يستمني وراءها.

الرجل ذو البطن الكبير على الشاشة، يدفع بعضوه باتجاه الفتاة. سوف يقذف على وجهها.

للفتاة وجه "زارا".

وجه الفتاة مغطى بالمني. الرجل الآخر يضع عضوه داخل الفتاة، ويبدأ في التأوه. "باشا" يسترخي. يسيل مخاط دافئ على فخذ "زارا". "باشا" يغلق سوستة البنطلون، ويذهب ليحضر بيرة. تصدر العلبة هسيسًا عند فتحها. يتردد صوت رشقات "باشا" الطويلة، في أنحاء الغرفة شبه الخاوية. "زارا" لا تزال على يديها وركبتيها. تشعر بألمٍ في ركبتيها.

- استديري لهذه الجهة.

تُطيعه "زارا".

- داعبي فرجكِ. افتحي ساقيكِ على النحو الصحيح.

تستلقي "زارا" على ظهرها، وتمسح مِنِّي "باشا" بداخلها.

يخرج "باشا" كاميرته، ويلتقط عددًا من الصُّور.

- أنا متأكد من أنكِ تدركينِ مصير هذه الصور وأفلام الفيديو إن حاولتِ ممارسة أي

الأعيب.

تتوقَّف "زارا" عن لمس نفسها.

- سأرسلها إلى جَدَّتِكَ. ثم سأرسلها إلى "ساشا"، وإلى والدي "ساشا". لدينا أسماءهم

وعناوينهم.

هل أخبرتهم "أوكسانكا" عن "ساشا"؟ لم تعد "زارا" تؤدُّ التفكير في "ساشا". لكنه ما زال

يمرُّ ببالها. صوتٌ ينطق باسمها.. "زارا". كان ذلك الصوت يوقظها من نومها في بعض

الأحيان. في بعض الأحيان، كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي يذكرها بأنها "زارا" وليست

"ناتاشا"، وخصوصًا حين تكون على عتبة النوم، تلك الأرض الإسفنجية، سكرانة أو مَحْدَرَة،

تشعر فجأة بأن "ساشا" يحتضن جسدها. لكنها تُبعد ذلك الإحساس، على الفور. لن يكون

لها بيتٌ مع "ساشا"، أبدًا. لن يشربا الشمبانيا، احتفالًا بتخرجهما. من الأفضل ألا تفكر في

تلك الأمور. من الأفضل أن تشرب، وأن تبتلع الحبوب، وأن تتوسل "لافرينتي" لـ "شَمَّة"

مخدَّر. وأفضل شيءٍ على الإطلاق هو عدم التفكير بكثرة. الأمر أسهل على ذلك النحو. عليها

فقط أن تتذكر شيئًا واحدًا: على الرغم من أن "باشا" يمتلك وجه "زارا" في فيلم الفيديو، إلا

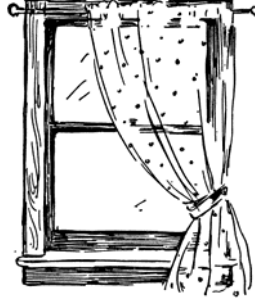
أن ذلك الفيلم لا يقدم قصَّة "زارا"، بل قصَّة "ناتاشا"؛ لن تكون قصة "زارا" أبدًا. قصة

"ناتاشا" موجودة على الفيديو. قصة "زارا" في مكانٍ آخر.

1992

"لانيما" - إستونيا

الكلب لا يستطيع كسر السلسلة



حين بدأت الفتاة تتحدّث عن "فلاديفوستوك"، هدأت الاختلاجات التي تهاجم حاجبيها، ونسيت أن تفرك حلمة أذنها. قفزت غمازة على خدّها، واختفت، ثم ظهرت ثانيةً. أنارت أشعة الشمس المطبخ.

للفتاة أنفٌ بديع. من ذلك النوع الذي يبعث السعادة في نفس مَنْ يراه منذ لحظة ميلادها. حاولتُ "أوليدا" أن تتخيل "تالفي" مكانَ "زارا"، تجلس إلى الطاولة، تثرثر، بوجهٍ مُضيء، تتحدّث عن حياتها، لكنها لم تستطع ذلك. منذ أن غادرت "تالفي" المنزل، وهي تتعجل الرحيل كلما جاءت في زيارة خاطفة. لو كانت "أوليدا" أمًّا من نوعٍ آخر، هل كانت شخصية "تالفي" ستغيّر عمًّا هي عليه الآن؟ لعلّها لم تكن ستجيبها بطريقةٍ هازئةٍ، كلما سألتها على التليفون إن كانت قد زرعت حديقتها، وتقول لها بأنه يمكنها شراء الأغذية جميع من المحلات في "فنلندا"، ولا داعي لزراعتها. لو كانت "أوليدا" مختلفة، هل كانت "تالفي"

ستأتي لمساعدتها في موسم جني التفاح، بدلاً من إرسالها صورًا فوتوغرافيةً لامعةً لمطبخها الجديد، أو غرفة المعيشة الجديدة، أو أجهزتها المنزلية المتعددة الاستخدامات؟ ولا صورة، ولو واحدة، لنفسها، أبدًا؟ ربما لو كانت مختلفة، لما أُعجبت "تالفي" بخالة صديقتها التي تقيم في السويد، وتمتلك سيارة، وترسل لبنات شقيقتها أعداد مجلة "بوردا" للأزياء. لعلها، عندئذٍ، لم تكن ستلعب لعبة تغيير العملات، ولا ستتدرب على رقصات الديسكو. ربما لم تكن سترغب في الرحيل. لكن الآخرين أرادوا الرحيل أيضًا. ربما لم تكن غلطة "أوليدا" إذًا. ولكن ما الذي جعل هذه الفتاة - التي اتضح فجأةً أنها ثرثرة - تغادر "فلاديفوستوك" إلى الغرب؟ إنها ترغب في كسب بعض المال. ربما كان الأمر ببساطة أن إستونيا مليئة بالناس الذين لا يكفون عن ترديد أنه كان ينبغي عليهم الرحيل إلى "فنلندا" أو "السويد"، خلال الحرب. العبارة تتكرر، وتنتقل إلى الجيل التالي، مع تهويدات ما قبل النوم. أو ربما فكرت "تالفي" في زوجٍ أجنبي؛ لأن زواج والديها كان مثلاً لشيءٍ لم ترغبه لنفسها. هذه الفتاة أرادت أن تصبح طبيبة، ثم تعود إلى بلدها؛ أمّا "تالفي" فمنذ كانت في سنوات المراهقة وهي تريد الذهاب إلى الغرب، والزواج من رجل من الغرب. بدأ الأمر منذ أن كانت تلعب بالدمى الورقية. كُنَّ يرسمنَ لهنَّ ملابس تشبه تلك التي يرينها في "بوردا". استمر الوضع في ذلك الصيف الذي أمضته، هي وصديقاتها، في فرك بنطلوناتهنَّ الجينز - ماركة "سَنَجَر" - بالطوب، لجعلها تبدو رثة، كتلك التي تُباع في الغرب. في ذلك الصيف ذاته، بدأ أولاد الجيران في ممارسة لعبة أطلقوا عليها اسم "الذهاب إلى فنلندا". قاموا ببناء طَوف خشبي، كانوا يطلقونه في خندقٍ مائيٍ لبعض الوقت، ثم يعودون به ثانيةً، لعدم معرفتهم بما يفعلونه في "فنلندا". "مارتن" بدأ يفيق من أوهامه، يومًا بعد يوم. لم تستطع "أوليدا" مشاركته مشاعر خيبة الأمل، ولكن حين أصبح استرداد الأراضي موضوع الساعة، اضطرت للاعتراف بأن "تالفي" أصابتها بخيبة أمل حقيقية، لأنها لم تُبَدِ أدنى



اهتمام بعملية تقديم الطلبات وإنهاء المعاملات الورقية. لو كانت "أوليدا" أمًا من نوعٍ آخر، هل كانت "تالفي" ستتواجد هنا لمساعدتها في هذه الأمور؟

حين وصلت الفتاة هنا بالأمس، جاءت "آينو" لتتحدث عن مسألة الأرض من جديد. كررت "أوليدا" نصيحتها الدائمة، التي زودتها بها مرّات لا تُحصى. عليها وإخوتها إنهاء الإجراءات الورقية معًا، حتى لو كانوا سُكاري. بتلك الطريقة، لو تعرض أحدهم لمكروه، سيتمكن الباقون من الاهتمام بممتلكاتهم. أرادت "آينو" الانتظار إلى أن ينسحب الجيش من البلاد، على الأقل. لديها هاجسٌ من عودة الروس بكامل قوتهم. وما الذي سيحدث حينها؟ هل سيأخذونهم إلى محطة القطار، ويركبونهم في العربات المخصصة للماشية؟ اعترفت "أوليدا" بأن الجنود باقون، كما يبدو. إنهم يأتون إلى القرية، بين الحين والآخر، للسرقة. يأخذون الماشية، ويفرغون الدكاكين من التبغ. وجودهم مفيدٌ، على كل حال، إذ يمكن شراء الوقود المخصص للجيش من خلالهم.

زوت "أوليدا" حاجبيها، وأحسّت بَغَصَّة. هذه الفتاة الروسية التي تجلس على الكرسي ذي القوائم المهتزة، تُظهر اهتمامًا بما يحدث في هذا المطبخ، أكثر من ابنتها ذاتها. "تالفي" لا تذكر طفولتها بالجمال الذي تتحدّث به هذه البنت. "تالفي" لم تسألها أبدًا عن كيفية إعداد مرهم من زهور الأقحوان. هذه البنت تريد معرفة المكونات. ربما ستهتم بالأسرار التي تعلّمتها "أوليدا" من العجوز "كريل". أي نباتات ينبغي قطفها صباحًا، وأيها لا يُقَطَف إلا مع ظهور الأهلّة. إنها متأكدة من أن هذه الفتاة ستذهب معها لجمع أزهار نبتة القديس يوحنا، الصفراء، وأزهار "القيصوم" البيضاء، لو أُتيحت لها الفرصة. "تالفي" لن تفعل شيئًا مماثلًا، على الإطلاق.

1956 - 1953

الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية

نوم الليل بهدوء



حين وصلت "أوليدا" إلى مستشفى الولادة، كانت النساء الروسيات يصرخن:

"فليرعانا أبونا لينين!"

كن مستمرات في الصراخ، ومناداة "بابا لينين" لمنهنَّ مزيدًا من العون، عندما غادرت ومعها "تالفي"؛ عند وصولها البيت بالرضيعة الباكية، قام "مارتن" بشكر "لينين". لوقتٍ طويل، انتظر "مارتن" طفلًا. أصيب بخيبة أمل، أكثر من مرّة، وبات مقتنعًا بأنه لن يصبح أبًا أبدًا. "أوليدا" لم تشعر بالأسى حيال الأمر. لم تعد ترغب في الأطفال، ولم تكن تريد تنشئة طفل من سلالتها، في هذا العالم الجديد، ليصير من النوع الجديد من أشخاص هذا العالم؛ لكن في السنة التي توفي فيها "ستالين"، ووسط حالة الذهول السائدة لاختفاء الأب العظيم، نما طفلٌ في أحشائها. بدأ "مارتن" بالكلام مع الطفلة،

قبل حتى أن تولد.. لكن "أوليدا" لم تعرف كيف تكلمها بعد أن جاءت إلى الدنيا. تركت المناغاة لـ"مارتن"، وتفرغت لغلي زجاجات الخمور وتعقيمها، لاستخدامها كزجاجات رضاعة للصغيرة. تراقب غليان الحلمات المطاطية داخل الإبريق، إلى أن يصبح لونها داكنًا، ثم تثقبها لاحقًا بإبرة خياطة. تولى "مارتن" إرضاع "تالفي". حرص على العودة إلى البيت في فترة الراحة المخصصة للغداء، ليقوم بهذا الواجب المهم. في بعض الأحيان، حاولت "أوليدا" القيام بذلك، دون جدوى. الصغيرة لا تتوقّف عن البكاء إلى أن يعود بابا إلى البيت. كان لـ"أوليدا" طرقٌ أخرى لتأمين طفولة هادئة لابنتها.

مساء أحد الأيام، عاد "مارتن" إلى المنزل، تنبعث منه رائحة الكحول. راح يغسل الجدران، ويتوقّف بين الحين والآخر لتدخين سيجارة "بريما"، ثم يعاود التنظيف. في الراديو، كانوا يتشدّقون بتكاليف العمّال الاشتراكيين، الذين تخطّى إنتاجهم الحدود الطبيعية. كانت "أوليدا" تصنع عصيرًا، باستخدام مرّي العليق. أفرغت محتويات أنبوب مرّي "كوزمو" في إناء، وأضافت له الماء الساخن وملح الليمون. تحول الماء إلى اللون الأحمر. ناولت "أوليدا" الأنبوب نصف الفارغ للبنّ الصغيرة، التي راحت تمصّ المرّي من فوّهته.

- إنهم عائدون.

فهمت "أوليدا" على الفور عمّن يتحدث.

- لست جادًا.

لكنه كان كذلك.

- إنهم يعيدون تسكينهم.

- ما معنى ذلك؟

- أن "موسكو" ستسمح لهم بالعودة. إنهم يناقشون المسألة في "تالين".

أوشكت "أوليدا" على التعليق بأن "نيكيتا" رجلٌ مجنون، لكنها التزمت الصمت؛ لأنها لم تكن تعرف بعد رأي "مارتن" به، عدا قوله بأنه يشبه العمّال. رأت "أوليدا" أنه يشبه خنزيرًا، وأن زوجته تشبه مُرَبِّيات الخنازير. العديد من الناس كانوا يشاركون "أوليدا" رأيها، على الرغم من أنها لم تفصح عنه مطلقًا. أن يسمح لهم بالعودة؟ "نيكيتا" يخرج بفكرة مجنونة بعد أن بدأت الحياة تستقر وتتخذ لها طابعًا روتينيًا هادئًا، كيف يفكر؟ أين سيضعون كل تلك الأعداد، في تصوره؟

- لا يمكنهما العودة إلى هنا. افعل شيئًا.

- ماذا؟

- لا أدري! قم بشيء حتى لا ترجعا إلى هنا! حتى لا ترجعا إلى إستونيا مُطلقًا. لا

يمكنهما العودة!

- اهدئي! لقد قاموا جميعًا بالتوقيع على المادة اثنين - صفر - ستة، من قَسَم الصمت.

- ما معنى ذلك؟

- أنه لا يمكنهم التحدُّث عن أي شيء له علاقة بقضيتهم. وأتصور أنه سيتعين عليهم

التوقيع على واحدٍ آخر، قبل السماح لهم بالمغادرة. عن الوقت الذي أمضوه في المعسكرات.

- حتى لا يقولوا شيئًا عن تلك الأمور، على الإطلاق؟

- إلا إذا كانوا يريدون العودة رأسًا إلى المكان الذي أتوا منه!

الأصوات المتوترة جعلت "تالفي" تبكي. حملها "مارتن" بين ذراعيه، وراح يهدئها. بحثت

"أوليدا" باضطراب عن زجاجة "النردين" في الدولاب. أحسَّت بأن الأرض ليئنة تحت قدميها.

قال "مارتن":

- سأهتّم بالأمر.

صدّقت "أوليدا" زوجها؛ لأنه يفني بوعوده دائماً. وفي بوعده هذه المرّة أيضاً.

لم ترجعا.

بقيتا حيث كانتا.

ما كان سيُسَمَح لهما بدخول هذا المنزل أصلاً. ولا الاقتراب منه، أساساً. ولكن، أينما

ستكونان في إستونيا، فلن تتمكن "أوليدا" من....

أرادت "أوليدا" أن تنام الليل بأكمله في هدوء. أرادت أن تخرج ليلاً في الظلام، وأن تقود

دراجتها تحت ضوء القمر، وأن تسير في الحقول عقب الغروب، وأن تستيقظ صباحاً دون

أن تخشى أن يحرقها أحد، هي و"تالفي"، داخل المنزل. أرادت أن تجلب الماء من البئر، وأن

تشاهد باص الـ"كولخوز" وهو يحضر "تالفي" من المدرسة. أرادت أن تكون "تالفي" بأمان،

حتى حين لا تراقبها. أرادت أن تعيش حياتها دون أن تلتقيهما. هل هذه أمورٌ يصعب

تحقيقها؟ يمكن ذلك، بطبيعة الحال.. من أجل ابنتها على الأقل.

حين عاد أولئك الذين كانوا في المعسكرات، واستقروا في حيواتهم الجديدة، باتت

تستطيع التقاطهم من بين بقية الناس. تميّز نظراتهم الكئيبة. كلهم يمتلكونها. الشبان

والعجائز، على حدٍ سواء. تفسح لهم الطريق حين تراهم، من مسافةٍ بعيدة. ينتابها الخوف

قبل أن تبتعد عن طريقهم. خوفاً، قبل أن تشيح بوجهها عنهم. خوفاً، قبل حتى أن

تكتشف بأنها تستطيع تمييز رائحة المعسكرات فيهم، وانعكاس المعسكرات في أعينهم. ذلك

الانعكاس موجودٌ في أعينهم على الدوام.

أَيُّ أَحَدٍ مِنْهُمْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ "إِنجِل". أَوْ "لِيندَا". الْفِكْرَةُ تَجْعَلُ صَدْرَهَا ضَيْقًا. كَبُرَتْ "لِيندَا"، وَلَيْسَ بِالضَّرُورَةِ أَنْ تَسْتَطِيعَ "أُولِيدَا" التَّعَرُّفَ عَلَيْهَا. أَيُّ شَخْصٍ مِنْهُمْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ وَاحِدًا مِمَّنْ أَقَامُوا فِي مَعْسَكَرِ "إِنجِل" نَفْسَهُ. فِي الثَّكْنَةِ نَفْسَهَا. شَخْصٌ تَحَدَّثَتْ مَعَهُ "إِنجِل"، رُبَّمَا. شَخْصٌ أَخْبَرْتَهُ عَنْ شَقِيقَتِهَا، مِثْلًا. رُبَّمَا أَخَذَتْ "إِنجِل" مَعَهَا صُورًا فُوتُوغْرَافِيَّةً. "أُولِيدَا" لَيْسَتْ مُتَأَكِّدَةً. رُبَّمَا قَامَتْ "إِنجِل" بِعَرْضِ صُورِ أَخْتِهَا عَلَى أَحَدِ مِمَّنْ مَعَهَا، وَالآنَ يَقْتَرِبُ هَذَا الشَّخْصُ مِنْ "أُولِيدَا"، وَرُبَّمَا اسْتَطَاعَ تَمْيِيزَهَا وَالتَّعَرُّفَ عَلَيْهَا. رُبَّمَا كَانُوا يَعْرِفُونَ شَيْئًا مِنَ الْأَفْعَالِ الشَّرِيرَةِ لـ"أُولِيدَا تَرُو". تَنْقَلَّتِ الْقِصَّةُ فِي أَرْجَاءِ الْمَعْسَكَرِ، رُبَّمَا. رُبَّمَا سَيَتَّبِعُونَهَا، وَيَحْرِقُونَ مَنَازِلَهَا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ. أَوْ رُبَّمَا سَيَقْذِفُونَهَا بِحَجَرٍ فِي مَوْخِرَةِ رَأْسِهَا، وَهِيَ فِي طَرِيقِهَا إِلَى الْبَيْتِ. رُبَّمَا سَيَتَّعَمِدُونَ فِعْلَ ذَلِكَ وَهِيَ تَعْبُرُ الْحُقُولَ، لِتَسْقُطَ أَرْضًا هُنَاكَ. هَذِهِ الْأُمُورُ تَحْدُثُ. حَوَادِثُ غَرِيبَةٍ. أَنَا سُّ يُتَعَرَّضُونَ لِلدَّهْسِ، دُونَ سَابِقِ إِنْذَارِ. كَانَ "مَارْتِن" قَدْ قَالَ بِأَنَّهُ لَا صَحْفَ فِي الْمَعْسَكَرَاتِ. إِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا عَنْ أَيِّ شَيْءٍ. وَلَكِنْ لِكُلِّ ثَكْنَةٍ حَيْطَانٌ. وَأَيْنَمَا كَانَتْ الْحَيْطَانُ، فَلَهَا آذَانٌ.

العائدون من المعسكرات لا يشتكون أبدًا، لا يتجادلون ولا يتذمرون مُطلقًا. الوضع لا يطاق. رغبةٌ ملحةٌ تسيطر على "أوليدا" لانتزاع التقطية من على وجوههم، والتجاعيد من على خدودهم.. رغبةٌ في التلويح بهم وقذفهم باتجاه الأماكن التي أتوا منها. باتجاه القطارات التي تعبر الحدود في "نارفا".



1960

"لانيما" - الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية

"مارتن" فخورٌ بابنته



غضب "مارتن" من "تالفي"، خلال سنوات طفولتها، مرّة واحدة فقط. عادت إلى البيت راکضة، قبل حلول السنة الجديدة بأسبوعين. كانت "أوليدا" في المنزل بمفردها، ولذلك اضطرت "تالفي" إلى البحث عن إجابة لسؤالها لديها. لم تستطع الصبر إلى حين عودة والدها.

- أمي! أمي! ما الكريسماس؟

واصلت "أوليدا" تقليب الصلصة البنية على النار، بهدوء.

- عليك أن تسأل والدك يا حبيبتي.

ذهبت "تالفي" إلى الردهة في مدخل البيت. جلست، مستندةً إلى الحائط الخشبي،

وهي تركل بقدمها عتبة الباب.

عندما وصل "مارتن"، أصيب بنوبة غضب. ليس بسبب الكريسماس، فلا بد أنه كان مستعدًا لهذا السؤال بتفسيرٍ ما. لقد غضب قبل حتى أن تطرح "تالفي" مسألة الكريسماس، إذ أرادت أولًا معرفة ما هي "حرب التحرير" تلك التي قرأت عنها في كتاب.

- أيُّ كتاب؟

- هذا.

ناولته إيَّاه.

- أين حصلتِ على هذا؟

- الخالة أعطتني إيَّاه.

- أيُّ خالة؟ "أوليدا"!

صاحت "أوليدا" من المطبخ:

- لا أعرف شيئًا عن الأمر.

- حسنًا، "تالفي"؟

- والدة "ميلفي". كنتُ أَلعب في بيتهم.

خرج "مارتن" على الفور. حتى دون أن يأخذ معطفه. اصطحب "تالفي" معه، لتريه أين

تسكن "ميلفي".

سبقته "تالفي" إلى البيت في طريق عودتهما وهي تبكي. لاحقًا، في تلك الليلة، اقتربت من أبيها

بخطواتٍ متثاقلة لتعتذر. تسلل دخان السجائر إلى المطبخ، وسرعان ما ارتفعت ضحكات "تالفي".

جلست "أوليدا" وأمامها البطاطس الساخنة. صينية الدجاج جاهزة. الصلصة التي أعدتها للعشاء

فوق الطاولة بدأت تبرد وتحوَّل إلى هُلام. تكوَّنت طبقة لزجة فوق سطحها اللامع



جورب "مارتن" فوق الكرسي، بانتظار أن ترتقه. تحت المقعد سلّة من الصوف المُعدّ للغزل. غدًا في المدرسة، سوف تتعمّد "تالفي" إغاطة الأطفال الذين تحتفل عائلاتهم بالكريسماس، هذا مؤكد. مساء الغد، ستخبر والدها كيف قذفت ولد عائلة "بريك" بكرة ثلج. سوف تسأل طفلًا آخر ممن يحتفلون بالكريسماس، السؤال الذي يلقنه لها والدها الآن:

- هل أظهر المسيح نفسه بعد؟ هل أمك عاشقة له؟

وسوف يمتدحها والدها، وسوف تقهقه بطريقةٍ مزعجة، وسوف تمتعض من "أوليدا"، لشعورها بأن عبارات المديح التي تقولها ينقصها شيء، كما هو الحال دائماً. ينقصها الصدق. ستنشأ ابنتها على مديح وتشجيع "مارتن"، وعلى حكايات "مارتن" التي تخلو من كل ما هو إستوني. ستترّبّي على قصص لا شيء صادق فيها. لا تستطيع "أوليدا" قصّ حكايات عائلتها على "تالفي".. الحكايات التي تعلمتها من جدّتها، والتي غفت عليها في ليلة الكريسماس. لا يمكنها أن تخبرها بأي من القصص التي تربت عليها، هي وأمها وجدّتها، وأم جدّتها. ليس مهمًّا أن تحكي قصتها هي، بل القصص الأخرى، التي نشأت عليها. ما الشخص الذي ستتمو الطفلة لتصبح عليه، إن لم تنشأ على حكايات مشتركة تجمع بينها وأمها، وخيوط صوفية، ودعابات؟ كيف بالإمكان أن تصبح أمًّا إن لم يكن هناك مَنْ تطلب منه النصيحة؟ مَنْ تسأله عمًّا يتوجّب عليك فعله في موقف كهذا؟

لم تعد "تالفي" تلعب مع "ميلفي" بعد ذلك.

كان "مارتن" فخورًا بـ"تالفي". اعتقد بأنها رائعة. رائعة على الأخص حين أعلنت أنها ترغب في أن يكون لها طفل من "لينين" عندما تكبر. لا يكتربث أبدًا لعدم قدرتها على التفريق بين أصناف الأعشاب، أو أنواع المشروم. لم يخطر ببال "أوليدا" يومًا أن يكون ذلك ممكنًا لطفل أو طفلة يشترك في جيناته معها و"إنجل".

## السُّنِّيَّات

"لانيما" - الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية

### المُعَانَاة تَغْسِلُ الذَّاكِرَةَ



بينما اهتم "مارتن" بالأمور المختلفة المتعلقة بتنشئة الطفلة، تولّت "أوليدا" مسؤولية كل ما يتضمّن الوقوف في طوابير. مع مرور السنوات، وعدم استدعاء "مارتن" إلى "تالين"، تلاشت فرص ترقيته في عمله، ولم تعد "أوليدا" تتوقّع أن يُحضر لهم ما يحتاجون إليه من خلال الحزب. تقف في طابورٍ، يسلمها إلى آخر، وقد شبّكت ذراعاها بذراع "تالفي". علّمتها المعنى الحقيقي لحياة امرأة تنتمي للاتحاد السوفيتي. لم تكن تقف في طابور اللحم؛ لأن صديقتها "سييري" تعمل في محل الجزارة. حين تُخبرها "سييري" بوصول شحنة جديدة من اللحوم، تخترق "أوليدا" الطريق بين صناديق القمامة الممتلئة، لتصل إلى الباب الخلفي للمحل، وهي تجذب "تالفي" وراءها. لم تستطع أبداً أن تبطئ من خطواتها، من أجل الطفلة على الرغم من حُسن نيتها. استمرّت في السير بسرعة، واضطرت الطفلة للركض لمجاراتها. تدرك "أوليدا" بأنها تبدو كما لو كانت ترغب في الابتعاد عن الطفلة، لكنها لم تشعر بالذنب حيال الأمر.

حين تحاول أن تبدو في مظهر الأم الصالحة، تشعر بغرابةٍ أكبر. من الأفضل أن تركّز على تفاخرها أمام النساء الأخريات بشأن مهارات "مارتن" كأب. كانت تتعمّد تهميش دورها كأم. وبما أن "مارتن" في نظرهنَّ جوهرٌ حقيقيٌّ كوالدٍ مثالي، فقد اعتبرن "أوليدا" - بالتالي - أوفر السيدات خطأً.

لحسن الحظ، كبرت الطفلة، وباتت تمشي بخطواتٍ أكبر وراء أمها، وهما تشقان طريقهما بين أسراب الذباب، خلف محل الجزارة. في بعض الأحيان، يدخل الذباب في أنفيهما، أو آذانهما؛ في أحيانٍ أخرى، كانتا تعثران عليه بين خصلات شعرهما. كانت "أوليدا" تشعر أحياناً بحكّةٍ شديدة، تقتنع معها بأن الذباب قد وضع بيوضه على فروة رأسها. لم تُظهر "تالفي" انزعاجاً من الذباب، على الإطلاق. لم تهتم حتى بإبعاده عنها. تتركه يتبختر فوق ذراعيها وساقها، ما يثير تقزُّز "أوليدا". حين تغادران محل "سييري"، تسارع "أوليدا" بفكّ ضفائر "تالفي"، وهزّ خصلاتها. كانت تعلم بأنها حركاتٌ سخيّة، لكنها لم تستطع التوقف عنها.

في يوم الكشف الطّبي على أسنان الطلبة في مدرسة "تالفي"، ذهبت "أوليدا" بمفردها إلى المخزن الخلفي في محل "سييري". كانت "سييري" تغسل السجق الوارد من مدينة "سيميبالاتينسك" بالماء المملح، وتفركه بفرشاةٍ في يدها، ووراءها أكوامٌ من سجق "تالين" و"موسكو". غطى الدود الحيّ سطحها جميعاً.

- لا تقلقي. سنعرض هذه المنتجات في الجزء الأمامي من المحل. ستصلنا بضاعةٌ طازجةٌ عمّا قريب.

حين وصلت البضاعة الجديدة، وانتهت، ملأت "أوليدا" شنطة التسوق بمنتجاتٍ مختلفة: سجق بولندي ملفوف، وكمية من سجق "كاراكوف"، وأخرى من الـ"فرانكفورتر". كانت تُريهم لـ"مارتن"، حين دخلت "تالفي" وقاطعت عملية استعراض المشتريات بإعلان خبرٍ غير متوقع:

- تسوسٌ في مكانين.

- ما معنى ذلك؟

استفسرت "أوليدا"، ثم أحسَّت هي نفسها بالدهشة من نبرة صوتها، الذي بدا أشبه بأنين كلب تعرَّض للضرب. عقدت "تالفي" حاجبيها. سقطت حبَّات سجق الـ"فرانكفورتر" على سطح الطاولة. ضغطت "أوليدا" بيديها على المفرش المشمَّع. يداها ترتعشان، ثانيةً. أحسَّت بالشقوق التي خلَّفتها السكين على المفرش، وبفتات الخبز وبعض القذارة المتجمعة بداخل تلك الفتحات الضيقة. سقط شيء من داخل المصباح البرتقالي، الشبيه بقبة برتقالية. وقعت قاذورات ذبابة من على سطح المصباح، فوق مؤخرة رقبتها. زجاجة خلاصة "النردين" داخل الدولااب. هل بإمكانها صب بضعة قطرات منها في كوب ماء، دون أن يلاحظ "مارتن"؟

ضحك "مارتن"، قائلاً:

- ما معنى ذلك؟! معناه أنكِ ستذهبين لرؤية الرفيق "بوريس".

أضاف:

- هل تذكِّرين العم "بوريس" يا "تالفي"؟

أومأت "تالفي". لمع بعض الدهن على إحدى زوايا فم "مارتن". تناول قضة أخرى من السجق. قطع الدهون في الـ"كراكوفا" لامعة. هل كانت عينا "مارتن" جاحظتين على الدوام، هكذا؟

قالت "أوليدا":

- هل هم متأكدون؟ أعني الناس الذين قاموا بالكشف على أسنانك؟ لديكِ تسوس

فعلًا؟ ربما لسنا بحاجة لفعل شيء حيال هذا الأمر.

- كلاً.. أريد الذهاب إلى البلدة.

ابتسم "مارتن" ابتسامَةً عريضة، وقال:

- لقد سمعتها!

أضفت "أوليدا":

- سوف يشتري لكِ والدكِ بعض الآيس كريم هناك.

قال "مارتن" بدهشة:

- ماذا؟! "تالفي" فتاة كبيرة الآن، صار بإمكانها ركوب الباص إلى البلدة، بمفردها.

تقافزت "تالفي" بسعادة:

- نعم! نعم! نعم!

سيطرت فكرةٌ واحدةٌ فقط على "أوليدا" .. يجب أن يرافق "مارتن" "تالفي" إلى طبيب الأسنان. ستكون بأمان مع "مارتن". هناك طنين في أذني "أوليدا". أدخلت السجق الثلاجة، ثم بدأت في توزيع الأطباق في أماكنها بصوتٍ مرتفع. صبّت الزدين في كوبها، بحركاتٍ مختلصة. أضفت له الماء. تناولت بعض الخبز، لتزيل رائحة الدواء من أنفاسها.

- يمكنك أن تسلّم على "بوريس"، وأنت هناك. ألن يكون ذلك لطيفًا؟

- نعم، صحيح.. ولكن عملي...

قاطعته "تالفي" بحماس:

- نعم! نعم! نعم!

- حسنًا إداً. سنفكر في شيءٍ ما. سنستمتع برحلةٍ رائعةٍ إلى طبيب الأسنان.

عينا "تالفي" تشبهان جدًّا عيني "ليندا". وجه "مارتن" وعينا "ليندا".

1952

"لانيما" - الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية

رائحة سمك القُد



تطايرت رائحة الكلوروفورم من الباب، لاستقبالها. داخل غرفة الانتظار، أمسكت "أوليدا" بأحد أعداد مجلة "المرأة السوفيتية"، الذي يصرِّح فيه "لينين" بأن المرأة تتعرَّض لاضطهادٍ مزدوجٍ تحت النظام الرأسمالي، فهي عبدةٌ لرأس المال، والوظيفة والأعمال المنزلية. كان خَدُّ "أوليدا" منتفحاً بشدَّة. التسوُّس في سِنِّها عميقٌ لدرجة أن العصب أصبح مكشوفاً. كان عليها أن تهتم بعلاج ذلك منذ فترة، ولكن مَنْ الذي يرغب في الجلوس طوعاً على أحد تلك الكراسي الشبيهة بكراسي الحَلَاقين؟ لقد فرَّ الأطباء الحقيقيون إلى الغرب، وذهب اليهود منهم إلى الاتحاد السوفيتي. عاد بعضهم، لكن عددهم لا يزال ضئيلاً. تهجَّات "أوليدا" الحروف، حاولت أن تركز تفكيرها في أي شيء عدا الألم القاتل في رأسها.

"فقط في الاتحاد السوفيتي، وفي الديمقراطيات الشعبية كذلك، تعمل المرأة كرفيق، جنبًا إلى جنب مع الرجل، في جميع المجالات. في الزراعة والنقل، كما في التعليم والوظائف الثقافية، وتلعب أيضًا دورًا هامًا في الحياة السياسية، وفي إدارة المجتمع".

عندما حان دور "أوليدا"، نقلت عينيها من المجلة إلى المشمّع البُنِّي الذي يغطي الأرضية. تَبَّتْ نظراتها عليه، إلى أن جلست على الكرسي، وتشبثت أصابعها بذراعيه. كانت الممرضة تغلي الإبر والقطع المستخدمة في الحفر. وضعتها جانبًا، وحقنت "أوليدا" بإبرة مخدرة، ثم ذهبت لتعدّ مادّة الحشو. غلى الماء في الإناء، على الموقد الكهربائي. أغمضت "أوليدا" عينيها، وانتشر الخدر في ذقنها وخديها.

ليديّ الرجل رائحة بصل ومخلل وعَرَق. كانت "أوليدا" قد سمعت بأن يدا طبيب الأسنان الجديد بهما شعرٌ كثيفٌ جدًّا، ولذلك فمن الجيد أن تكون مخدّرًا، حتى لا تشعر بهما وبشعيراتهما الكثيرة. سمعت أيضًا بأن إغماض العينين أفضل، حتى لا ترى كل ذلك الشعر الأسود. فعليًّا، لم يكن طبييًّا بحق؛ ولكن خلال الحرب، حاول أحد الأسرى الألمان - وكان طبيب أسنان - تعليمه قدر استطاعته.

بدأ بالضغط على مضخة جهاز الحفر بقدمه. أصدرت المضخة صريرًا مزعجًا اخترق أذنيها. سمعت صوت احتكاك الجهاز بضرسها. حاولت عدم التفكير في اليدين المشعرتين. طارت طائرةٌ مقاتلةٌ في مناورة على ارتفاعٍ منخفض، فاهتزت النوافذ. فتحت "أوليدا" عينيها.

إنه الرجل نفسه.

في تلك الحجرة.

اليدان المُشعرتان نفسيهما.

هناك.. في قبو دار مجلس المدينة، حيث اختفت "أوليدا"، حيث كان كل ما ترغب فيه هو الخروج من هناك وهي على قيد الحياة. لكن الشيء الوحيد الذي بقي حيًّا هو العار. حين غادرت، لم ترفع عينها من على الأرض، والسلم، والطريق. انطلقت بجوارها شاحنة جيش بسرعة كبيرة، فغطتها بالغبار الذي التصق بلبثها وعينيها، وحول جلدتها الساخن إلى رماد.

من خلال النافذة المفتوحة لدار الثقافة، سمعت تدريبات الكورال الغنائي:

"في أغنيتي وفي عملي..".

مرّت شاحنة أخرى. تطاير حصى صغير، ضاربًا ساقي "أوليدا".

"أنت دائماً معي.. ستالين" العظيم".



استقبلها "مارتن" عند الباب الأمامي، وأوماً باتجاه الطاولة. فوقها عبوة من كبد سمك القد المعلّب. وجبة احتفالية من أجل حبّوبته الصغيرة، لتأكلها متى ما استطاعت. استلقت نصف بصلة، آخذة في الذبول، فوق لوح التقطيع. هي ما تبقى من إعداد ساندويتش. رائحتها كريهة، ورائحة كبد السمك كذلك. علبه أخرى فارغة من كبد السمك، بجوار لوح التقطيع. حواف غطائها المسننة تمنحها مظهرًا غاضبًا. أحسّت "أوليدا" بالغثيان.

- لقد تناولت طعامي، لكنني سأحضّر ساندويتش لحبّوبتي الصغيرة بمجرد أن تكون

مستعدةً للأكل. هل كنتِ غاضبةً منّي؟

- كلاً.

- هل أنتِ غاضبةٌ منّي الآن؟



- إطلاعًا. لا أشعر بشيء. أحسُّ بخَدَر.

أصدر الجزء الصغير الباقي من درسها صريخًا. حدّقت "أوليدا" في النصف المتبقي من ساندويتش "مارتن"، الذي لا يزال فوق الطاولة. لم تستطع قول شيء، على الرغم من علمها بأن "مارتن" كان ينتظر منها أن تشكره لإحضاره كبِد السمك لها. ليته أزال البصل.

- "بوريس" شخصٌ لطيف.

- هل تتحدّث عن طبيب الأسنان؟

- مَنْ غيره عساني أن أتكلّم عنه؟ أنا متأكد من أنني حدثتك عن "بوريس" من قبل.

- ربما. لكنك لم تخبرني بأنه طبيب أسنان.

- لقد تم نقله إلى هناك، مؤخرًا.

- ماذا كان يعمل قبل ذلك؟

- العمل نفسه بطبيعة الحال.

- وكنت تعرفه حينها؟

- أدّينا المهام نفسها للحزب، معًا. لا أظن أنه أرسل لي تحياته؟

- ولماذا سيرسل تحياته لك من خلالي؟

- لأنه يعلم بأننا متزوجان، بالطبع.

- آه.

- ما الأمر؟

- عليّ أن أحلب البقر.

اتّجهت "أوليدا" إلى غرفة النوم مباشرةً، وخلعت فستان الحرير الاصطناعي. كان الفستان المنقّط باللون الأحمر، فائق الجمال هذا الصباح، لكن شكله الآن صار منفردًا، ربما لأنه أجمل قليلاً مما يجب، ولأنه محبوبٌ جدًّا

عند الصدر. قطع القماش المثبته في إبطي الفستان، لحمايته من بُقع العرق، كانت مُبلّلة تمامًا. الجزء السفلي من وجهها لا يزال مخدرًا. لا تشعر بالخطأين اللذين يتعلّق منهما القرطان في أذنيها. تلبس بالطو الحلب، وتضع "إيشارب" على رأسها، ثم تغسل يديها. في الحظيرة، تتناسى "أوليدا" رائحة البصل. تستند على العمود الحجري. يداها حمران. لقد فركتهما بالفرشاة والماء البارد. إنها مُنعبّة. الأرض تحت قدميها متعبّة أيضًا.. إنها تعلو وتهبط كصدر شخص محتضر. سمعت صوت الحيوانات وراءها. إنهم بانتظارها، وعليها الذهاب إليهم. أدركت أنها هي بدورها كانت تنتظر أيضًا. تنتظر شخصًا، كما حدث في ذلك القبو، وهي تتضاءل وتحاول الاختباء كفأرٍ في زاوية، أو كذبابةٍ فوق مصباح. وبعد خروجها من القبو، واصلت انتظارها لشخصٍ ما. شخصٌ ليفعل شيئًا لمساعدتها، أو على الأقل ليحمل عنها جزءًا ممّا حدث في ذلك القبو. يمسح على رأسها، ويخبرها بأن ما صار لم يكن غلطتها. يقول لها بأن الأمر لن يحدث مرّةً أخرى. يعدها بأن ذلك لن يتكرّر أبدًا، تحت أي ظرف.

حين أدركت ما كانت تنتظره، فهمت بأن ذلك الشخص لن يأتي أبدًا. لن يأتي أحد ليقول لها تلك الكلمات من قلبه. لن يعمل على التأكد من عدم تكرار الأمر. لن يأتي أحد ليفعل ذلك من أجلها، ولا حتى "مارتن"، على الرغم من أنه حريصٌ على مصلحتها، بكل صدق وإخلاص.

جَفَّ كبد السمك داخل الساندويتش، وأصبحت حوافه غامقة اللون. صبَّ "مارتن" لنفسه شرابًا، وانتظر عودة زوجته من الحظيرة. صب كأسًا أخرى، ثم آخر أيضًا. مسح فمه بكُمّه، على الطريقة الروسية. صبَّ كأسًا رابعة. لم يلمس ما تبقى من الساندويتش. إنه بانتظار زوجته. نجمة المستقبل المشرق تلمع فوقه بلونها الأحمر، وقد انعكس عليه الضوء الأصفر للمصباح. أسرةٌ سعيدة.

راقبته "أوليدا" عبر النافذة، ولم تستطع إجبار نفسها على الدخول.

1992

"لانيما" - إستونيا

العثور على عَجَلَة غَزْل وخميرة



أخذت "زارا" نَفَسًا طويلًا. واصلت حديثها عن "فلاديفوستوك"، وهي تشعر بحماس لم تعرفه منذ مدة طويلة. لفرط حماسها، نسيت الزمان والمكان. لكن حركة "أوليدا" حول الموقد أعادتها للوقت الراهن. انتبهت إلى الكوب الذي وُضِعَ في يدها. غُسِلَ إناء اللبن المتخمر، ووُضِعَ مكانه حليب طازج. ما تمَّ صبُّه في كوب "زارا" هو بقايا اللبن المتخمر. تناولت رشفة منه في استسلام، لكنه كان شديد الحموضة لدرجة أنها أغمضت عينيها. حين خرجت "أوليدا" إلى حديقة البيت لتغسل الفجل، سارعت "زارا" بوضع الكوب وراء الأطباق فوق الطاولة. انبعثت الرائحة المألوفة لصلصة الطماطم من على سطح الموقد. استنشقتها "زارا" بعمق. إحساسٌ لطيف. هناك أجواءٌ حميميةٌ داخل المطبخ؛ الأواني التي ينبعث منها البخار، وصفوف البرطمانات المفتوحة إلى أن تبرد محتوياتها. حين تقوم الجَدَّة بإعداد الأطعمة للتعليب، والتخزين للشتاء،

تكون في مزاجٍ حسن. إنه الجانب الوحيد من العمل المنزلي الذي تشارك فيه. الواقع أنها تقوم به بمفردها. نادرًا ما تطلب من أم "زارا" مساعدتها، ويكون ذلك عند تقطيع الكرنب فقط. "زارا" تجلس الآن إلى الطاولة، بصحبة "أوليدا ترو"، التي تكره الجَدَّة. عليها أن تتطرق إلى الموضوع ثانيةً، وألا تنتظر اللحظة المناسبة التي لن تأتي أبدًا. كانت "أوليدا" مستغرقة في بَشْرِ الفجل.

- هذا للصلصة الشتوية. ثلاثمائة جرام من الفجل، ومثلها من الثوم والتفاح والفلفل. كيلو واحد من الطماطم، مع الملح والسكر والخل. تضعين كل ذلك في برطمان كبير. لا داعي لظهو أو تسخينه. بهذه الطريقة، تحافظين على الفيتامينات.

سرى الخدر في يدي "زارا" وهي تقطع الطماطم إلى شرائح. لسانها لا يزال معقودًا. ربما ستتعرض هي أيضًا لغضب "أوليدا" إن عرفتُ مَنْ تكون. قد ترفض مساعدتها، فأين تذهب عندها؟ كيف تكسر المزاج الرائق الذي خلقته بحكاياتها عن "فلاديفوستوك"؟ ليس من المعقول أن يكون سبب الخلاف بين الجَدَّة و"أوليدا" هو بعض الحبوب. ذلك غير ممكن، مهما كان ما تردده "أوليدا" حول المسألة. ما الذي حدث هنا بالضبط؟

راقبت "زارا" "أوليدا"، بنظراتٍ متلصصة، كلما التفتت إلى الجانب الآخر، أو انهمكت في أداء الأعمال المنزلية. لاحظت ضعفها الواضح، والسواد المحيط بأظافر يديها، وجلدها القاسي، المائل للِسْمرة بفعل الشمس، الذي تظهر من تحته عروقها الزرقاء. حاولت أن تجد فيها شيئًا مألوفًا، لكن المرأة التي تتحرك في المطبخ لا تشبه الفتاة في الصورة الفوتوغرافية على الإطلاق؛ ولا علاقة لها بالجَدَّة، مُطلقًا. قررت أن تركِّز اهتمامها على المنزل. حين لم تكن "أوليدا" منتبهة، مدَّت "زارا" أصابعها وتحسَّست المنجل والمفتاح الضخم الذي يغطيه الصدأ، المعلقين فوق الجدار. هل هذا مفتاح الحظيرة؟ كان يتدلى من الحائط المجاور للموقد عندما كانت الجَدَّة لا تزال هنا. شاهدت جَرَّافة يدوية مسننة، مصنوعة من الخشب، فوق العتبة العلوية للباب.. هل صنعها والد الجَدَّة؟

شاهدت حوض اغتسال، وشماعة من الخشب الأسود، عليها معطف "أوليدا". هل ذلك الدولاب هو الذي احتفظت بداخله الجدة بجهاز عرسها؟ هذا هو الموقد الذي جلست بجواره لتتدقًا، وهناك - وراء الدولاب - عجلة غزل. هل هي العجلة ذاتها التي استعملتها الجدة في غزل الخيوط، وهي تدوس جانبها السفلي بقدمها؟ ها هي البكرات التي استخدمتها للخيوط عليها، وها هو الجزء الذي تحركه بقدمها، وها هو المغزل.

حين ذهبت "زارا" إلى حجرة المؤن، لإحضار برطمانات فارغة، وجدت برميلاً وراء مبرد الحليب. لمست البرميل. تشمتمته. هناك شيء يابس على حوافه. خميرة الخبز الحامض؟ هل هي الخميرة نفسها التي استخدمتها الجدة في إعداد أرغفتها؟ كانت تقول:  
- يومان ونصف.

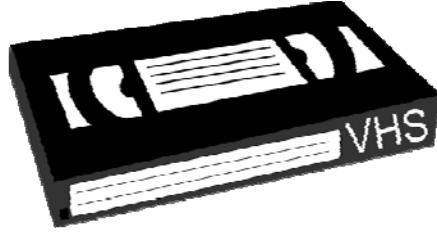
يجب أن تختمر العجينة ليومين ونصف، في الغرفة الخلفية، وهي مغطاة بقطعة قماش، قبل البدء في عجنها. رائحة الخبز خلال عملية الاختمار عالقة بأنحاء الحجرة. في اليوم الثالث تبدأ عملية العجن. تعجن الجدة الدقيق، وقد غطى العرق جبينها. تلف العجينة وتديرها بين أصابعها. هذه الخميرة التي يبست دون أن يستخدمها أحد لعقود، وغطاها الغبار، هي ذاتها التي أضافتها الجدة لأرغفتها، بيديها الفتيبتين حين كانت لا تزال شابة سعيدة، هنا بصحبة الجد. كان عليك أن تحضر بعض الماء، بين الحين والآخر، لمن يقوم بالعجن، ليزيل العجين الملتصق بيديه. كان يتم إشعال الفرن بحطب من شجر "البتولا". لاحقًا، يتم وضع قطعة من لحم الخنزير المملح، في سلطانية داخل الفرن. حين تذوب دهون اللحم، بفعل الحرارة، يتم مسح سطح الأرفة الطازجة بها. ذلك الطعم! وتلك الرائحة! والحبوب التي زرعتها أنت في حقلك! مزيج مدهش وحزين في الوقت نفسه. أحسست "زارا" فجأة بأن البرميل قريب منها، على نحوٍ أو آخر.. كأنها تلمس يدي جدتها في شبابها. كيف كانتا في

شبابها، يا ترى؟ هل كانت تضع عليهما شحم الإوز كل ليلة؟ ودّت "زارا" لو تستكشف جوانب ساحة البيت الخارجية وحديقته. عرضت على "أوليدا" أن تجلب لها بعض الماء من البئر، لكن "أوليدا" قالت إن بقاءها داخل البيت أفضل. "أوليدا" مُحقّقة، ومع ذلك ظلت الرغبة في الخروج تلازم "زارا". أرادت أن تمشي حول البيت، لترى كل ما يحيط به، وتشم رائحة الطين والحشائش. أرادت أن تشاهد أرضية الحظيرة. كانت الجِدّة تخاف ذلك المكان في طفولتها. تخيلت أن أرواح الموتى تعيش تحته، وأنهم سيجرّونها إليهم، ولن تتمكن من الخروج ثانيةً. سوف تراهم يبحثون عنها، ويفتشون المكان. أمها مذعورة، وأبوها يركض وهو ينادي اسمها، ولن تتمكن من فعل شيء؛ لأن الموتى سيغلقون فمها. لأيديهم طعم الحبوب المتعفنة. أرادت "زارا" أن تكتشف ما إذا كانت شجرة تفاح جدّتها لا تزال موجودة، إنها شجرة تفاح ذهبي بجوار الحظيرة. على مقربةٍ منها، تقع شجرة أخرى، من النوع الذي يُعرف بـ"شجر التفاح المزروع في حقل البصل". ربما ستنجح في التعرف عليها، على الرغم من أنها لم يسبق لها تذوق هذا النوع من الثمار أبدًا. أرادت أيضًا رؤية الأنواع المختلفة لأشجار البرقوق، المزروعة في الأرض الحجرية، في الحقل الخلفي، الذي يحتوي على الثعابين. الأمر مخيف، لكن تلك الرقعة تضم شجر التوت كذلك، ولذلك فإنك تتردد على المكان باستمرار. والكّمون.. هل ما زالت "أوليدا" تزرعه في المكان نفسه؟



1991

برلين - ألمانيا  
ثمن الأحلام المرّة



منذ البداية، حرص "باشا" على إفهام "زارا" بأنها مدينةٌ له. يمكنها المغادرة، فور سداد دينها له، وليس قبل ذلك أبدًا! والطريقة الوحيدة لفعل ذلك هي أن تعمل في خدمته، بنشاطٍ وجدية، في مهنةٍ توفر دَخلًا جيدًا.

لم تفهم "زارا" مصدر ذلك الدين، لكنها - مع ذلك - ظلت تحسب كم دفعت منه، وكم تبقى عليها. كم شهرًا، وكم أسبوعًا، ويومًا، وساعةً. كم صباحًا، وكم ليلة، وكم دُش استحمام، وجنس فموي، وكم زبونًا. كم فتاة تراها. من كم بلد. كم مرّة توجب عليها فيها صبغ شفتيها بالأحمر. كم مرّة خاطت لها "نينّا" جروح جسدها. كم مرّة تعرّضت فيها للأمراض والعدوى. كم عدد الكدمات. كم مرّة تم فيها دفع رأسها داخل المرحاض. كم مرّة أمسكت فيها قبضة "باشا" الحديدية برقبتها لإبقاء رأسها تحت ماء الحوض. يمكنك حساب الوقت دون الحاجة إلى عقارب الساعة. الروزنامة الشهرية تتجدد

دائمًا؛ لأنها تتعرّض دومًا لغرامةٍ ماليةٍ ما، لسببٍ أو لآخر. ما زالت ترقص بطريقةٍ سيئةٍ، حتى عقب أسبوعٍ من التدريبات.

قال "باشا":

- مئة دولار لذلك، ومئة أخرى للفيديو.

- أيّ فيديو؟

- ومئة ثالثة بسبب الغباء.. أم لعلك ظننتِ بأنك ستشاهدين شرائط الفيديو مجانًا، يا بنت؟ لقد أحضرناها هنا لنعلّمكِ الرقص، يا حلوة. لو لم نفعل، كنا سنبيعها ونقبض ثمنها. هل فهمتِ؟

فَهَمَّتْ. لم ترغب في مزيد من الغرامات. لكنها كانت تحصل عليها، في كل الأحوال. غرامات بسبب بطاء تعلمها، ولتذمرها من زبائنها، ولوجود التعبير الخاطئ على وجهها. عندما يحدث ذلك، يبدأ الحساب من جديد، ثانيةً. كم يومًا؟ كم صباحًا؟ كم عينًا زرقاء؟ وبطبيعة الحال، كان عليها أن تعمل، لكي تأكل.

- عاش جدّي في مدينة "بيرم" عام 1936. هناك، لا يطعمونك إن لم تعمل.



يثنى "باشا" على "زارا"، ويخبرها بأنها تسدّد ديونها بشكلٍ جيّد. أرادت تصديق دفتره، ذي الغلاف البلاستيكي الأزرق الداكن، والرائحة الكريهة، الذي يزيّنه شعار الاتحاد السوفيتي. الأرقام المكتوبة في أعمدةٍ مرتبة ومنظمة، جعلت وعود "باشا" سهلة التصديق. يمكنك الوثوق بها، والإيمان بها.. فقط إن أردتَ ذلك، بطبيعة الحال. الطريقة الوحيدة لتزويد نفسك بالقدرة على المواصلة والاستمرار، هي أن تضع ثقتك في تلك الأرقام. على الإنسان أن يؤمن بشيء، كي يبقى وينجو، وقد قررت "زارا" أن تصدّق أن دفتر "باشا" هو تذكرتها



للخروج من ذلك المكان. ستكون حرّة، ما إن تنتهي من سداد المطلوب منها. ستحصل على جواز سفر جديد، وحكاية جديدة عن نفسها. سيحدث هذا في يومٍ ما. سوف تعيد بناء نفسها، في يومٍ ما.

يضع "باشا" علامات في دفتره، مستخدمًا قلمًا ألمانيًا من الحبر السائل، تزيّنه صورة امرأة. حين يُميل القلم إلى الأسفل، تختفي ثيابها وتصبح عارية؛ وعندما يحركه إلى الجهة الأخرى، تظهر ملابسها مرّةً أخرى. لفرط إعجابه بهذه الفكرة، التي رأى أنها عبقرية، قام بعمليات تجارية لتوريد هذه الأقلام إلى "موسكو"، بالاشتراك مع صديقٍ له هناك. ثم حاولت إحدى الفتيات فقء عينيه، باستخدام أحد هذه الأقلام. انكسر القلم خلال الصراع الذي دار بينهما. عقب ذلك، اختفت الفتاة - غالبًا أوكرائية - وتمت مجازاة جميع الفتيات الأخريات، وفُرِصَت غرامات عليهنَّ.. لأن قلم "باشا" المفضّل تعرّض للكسر.

لم يجد قلمًا آخر يعجبه، إلى أن منحه زبونٌ فنلندي قلمًا دعائيًا لليانصيب. كان الفنلندي يتحدّث كلمات قليلة من الإستونية. توجب على فتاة إستونية تُدعى "كادري" ترجمة ما يحاول ذلك الزبون الفاشل قوله عن أهمية اليانصيب في "فنلندا".

- مهمٌ جدًّا. اليانصيب بالنسبة لنا هو المستقبل. في اليانصيب، كل الناس متساوون. كل الناس متساوون، وهو فنلندي، وهو أيضًا شيءٌ رائع. إنه الديمقراطية الفنلندية في أحسن صورها!

ضحك الرجل. "مستقبل!". قالها وهو يلكز كتف "باشا". ضحك "باشا"، وأمر "كادري" أن تخبر الزبون بأن هديته صارت قلمه المفضّل منذ اللحظة.

- أسأليه بكم يمكنك أن تفوز؟

سألته الفتاة بالإستونية. أجب:

- مليون مارك! أو بضعة ملايين! يمكنك أن تصبح مليونيرًا!

كانت "زارا" على وشك أن تقول بأن "روسيا" أيضًا لديها يانصيب. العديد منها، في واقع الأمر؛ لكنها أدركت أن الأمر بالنسبة لـ"باشا" مختلف تمام الاختلاف. قد يفوز في كازينو القمار، كما أنه يجني أرباحًا طائلةً من الفتيات - أكثر بكثير مما قد يكسبه أي رجل عادي في اليانصيب - لكن ذلك كله يدخل في إطار العمل، و"باشا" دائم الشكوى من ضغوط العمل المتواصلة. في "فنلندا"، يمكن لأي شخص على الإطلاق أن يصبح مليونيرًا؛ يمكن لأي أحد أن يفوز بمليون، دون بذل أي مجهود، أو انتظار ميراث، أو أي شيء من ذلك القبيل. لا يمكنك الفوز بمليون مارك في اليانصيب الروسي. لا يمكن لأي من كان أن يصبح مليونيرًا في روسيا. لا يمكنك دخول كازينو القمار - أساسًا - إن لم يكن لديك المال الكافي أو العلاقات المناسبة. في "فنلندا"، استلقِ على أريكتك، أمام التلفزيون، مساء السبت، وانتظر ظهور الأرقام الصحيحة على الشاشة، وسقوط مليون دولار في حرك.

- فكّر في الأمر.. حتى واحدة مثلك يمكنها أن تريح مليونًا!

قالها "باشا"، ضاحكًا.

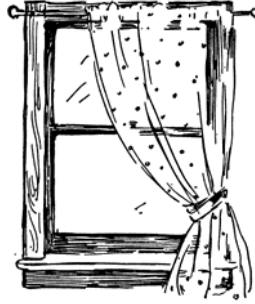
كانت الفكرة مُسليّة، لدرجة أن "زارا" بدورها شاركته الضحك. استغرقا في الضحك، لدرجة أن أحسًا بألم في بطنيهما.



1991

برلين - ألمانيا

## الطريق يناديها للرحيل



كان الزبون يضع حلقة مدببة حول عضوه الذكري، وشيئا آخر أيضا. "زارا" لا تتذكر ما هو. تتذكر فقط بأنهم ثبّتوا قضيبا اصطناعيا حول جسد "كاتيا"، وآخر حولها هي. كان عليهما تبادل ممارسة الجنس، في الوقت ذاته، ثم توجّب على "كاتيا" فتح ساقى "زارا" ليقوم الرجل بإيلاج قضيبه فيها.. ولا تتذكر "زارا" أي شيء بعد ذلك.

في الصباح، لم تستطع الجلوس أو المشي. ظلت مستلقية في فراشها، تدخن سجائر "برينس". لم تر "كاتيا"، لكنها لا تستطيع سؤالها عن شيء أصلا. ذلك يُغضب "باشا". سمعت صوت "لافرينتي" من على الجهة الأخرى من الباب، وهو يخبر "باشا" بأن "زارا" لن تمارس سوى الجنس الفموي هذا اليوم. رفض "باشا" ذلك. ثم فُتح الباب، ودخل "باشا" حجرتها، وأمرها بخلع تنورتها وفتح ساقها.

- يا لها من مصيبة! أخبر "نيننا" بأن تأتي إلى هنا لتخيطها ببعض الغرز.  
جاءت "نيننا"، وخاطت جراحها، وأعطتها بعض أقراص الدواء، ثم غادرت، آخذةً معها  
ابتسامتها المغطاة بلونٍ وردّيٍّ لؤلؤي. جلس "لافرينتي" و"باشا" في مكانهما المعتاد أمام  
بابها. تحدّث "لافرينتي" عن إرسال أزهار إلى زوجته "فيروتشكا". اقترب عيد زواجهما  
العشرون، وسيذهبان إلى "هيلسينكي".  
قال "باشا":

- ادعُ "فيروتشكا" لتأتي معنا إلى "تالين" أيضًا. سوف نكون هناك، على كل حال.  
"تالين"؟ وضعت "زارا" أذنها على شق الباب. هل قال "باشا" إنهما سيذهبان إلى "تالين"؟  
متى؟ ربما خيّل إليها أنها سمعته يقول ذلك. لعلّها لم تفهم كلامه جيدًا.. كلا.. ليس ذلك  
النوع من الكلام الذي قد لا يفهمه الإنسان. إنهما يتحدثان عن "تالين"، ويقولان إنهما  
سيذهبان إلى هناك، ولا بدّ أن ذلك سيحدث قريبًا؛ لأنهما تكلمتا عن عيد زواج "لافرينتي"،  
وهديته لـ"فيروتشكا"، وتاريخ عيد زواجه ليس ببعيد.  
الإنارة في اللوحة المضيئة فوق المبنى المواجه، بدت كزهورٍ ملونة. طرف سيجارتها  
المشتعل، ذكّرهما بقنديل. كل شيءٍ حولها في صفاء وشفافية البلّور. تحسّست "زارا" حمالة  
صدرها لتتأكد من وجود الصورة الفوتوغرافية في جيبها غير المرئي.



حين كان "لافرينتي" بمفرده - على غير العادة - أمام بابها، طرقت "زارا" الباب من  
الداخل، ونادته باسمه. فتح "لافرينتي" الباب، ووقف على العتبة وقد باعد بين ساقيه،  
حاملًا سكّينه في يد، وقطعة خشب في اليد الأخرى.

- ماذا تريدین؟

یکون الناس أكثر تقبلاً لكلامك، إن خاطبتهم باسمهم الأول. تعمّدت "زارا" فعل ذلك، بل واستخدمت صيغة التذليل لتكون أكثر حميميةً معه:

- "لافروشا".. عزيزي.. هل ستذهب إلى "تالین"؟

- وما دخلك أنتِ بالمسألة؟

- أنا أتحدّث الإستونية.

لم يقل "لافرينتي" شيئاً.

- الإستونية تشبه الفنلندية بعض الشيء. وسيكون هناك كثير من الزبائن الفنلنديين.

يمكنني تولى أمر الزبائن الإستونيين والروس والألمان، كما أفعل هنا، بالإضافة إلى الفنلنديين.

لم يعلق "لافرينتي".

- "لافروشا"، أخبرتني الفتيات بأن العديد من الفنلنديين يذهبون إلى هناك. وذلك

الرجل الفنلندي الذي جاء إلى هنا. لقد قال إن الفتيات في "تالین" أفضل، وأنه يفضّل

الذهاب إلى هناك. لقد تحدّثتُ معه بالإستونية، وفهمني.

في الواقع، تحدّث الرجل العجوز بخليطٍ من الفنلندية والألمانية والإنجليزية، لكن

"لافرينتي" لا يعرف ذلك. وقف الرجل أمام النافذة، عارياً إلا من جوربيه، وتحدّث بشيءٍ

من الاستعلاء:

- البنات في "تالینا" جذابات جدًّا. البنات في "تالینا"، يا "ناتاشا". البنات في "روسيا" أيضًا

جذابات جدًّا. لكن.. البنات في "تالینا"، "ناتاشا"، "تالینا". يجب أن تكوني في "تالینا". أنتِ

أيضًا جذابة جدًّا. الرجال الفنلنديون يحبّون الـ"ناتاشات" الجذابات في "تالینا". تعالي إلى

"تالینا"، يا "ناتاشا".

غادر "لافرينتي" دون أن يقول شيئاً.

بعد بضعة أيام، فُتح الباب بقوة. ركل "باشا" "زارا" في بطنها:

- هيا! لنذهب.

تكوّرت "زارا" في ركنٍ من الفراش. جرّها "باشا" من ساقها، لتقف على الأرض.

- ارتدي ثيابك.

قامت "زارا"، وبدأت في ارتداء ملابسها بعجالة. عليها أن تكون سريعة. يجب أن تكون سريعة عندما تؤمّر بفعل شيء. غادر "باشا" الحجرة، صاح ببعض الكلمات، صرخت فتاة. لم تميز "زارا" صوتها. سمعت صدى ضربات "باشا" لها. صرخت الفتاة بصوتٍ أعلى. ضربها "باشا" مرّةً أخرى. سكتت هذه المرّة. ارتدت "زارا" بلوزة إضافية فوق ثيابها، تحسّست صدرها لتتأكد من أن الصورة لا تزال داخل الحمّالة. دسّت "إيشارب" وتنورة داخل جيب معطفها. ملأت الجيب العلوي، فوق الصدر، بالسجائر والمخدرات، والمسكنات. إنهم لا يعطونها هذه الأشياء دائماً، حتى وإن احتاجت إليها. وضعت بعض أدوات الـ"مكياج" في جيبٍ آخر، وعددًا من مكعبات السكر في جيبٍ ثالث، لأنهم ينسون أحيانًا إعطاءها الطعام. أخذت معها شارة الحركة الطبيعية. اعتادت أخذها معها في كل مكان، حين كانت في "فلاديكي"، لافتخارها بالحصول عليها. لقد لازمتها خلال كل الليالي، وجميع الزبائن. رآها "باشا" مرّةً، فانتزعها منها، وضحك، ثم قذفها نحوها:

- يمكنك الاحتفاظ بها.

ثم ضحك أكثر:

- ولكن عليك أن تشكريني أولاً.

خلعت "زارا" ثيابها، وشكرته.

كان "باشا" قد ترك بابها مفتوحًا. تجمعت الفتيات الجديسات كقطيعٍ من الماشية. حرَّكهنَّ "لافرينتي" باتجاه الساحة الخارجية، حيث تقف شاحنة بانتظارهنَّ. ارتفع صوت بكاء من وسط القطيع. الرياح قوية، حتى في ساحة المبنى. صفَّرت الرياح حول جسد "زارا". ريحٌ مبهجة. استنشقتها "زارا" ومعها أدخنة العوادم. لم تخرج أبدًا، منذ أن تم جلبها إلى هنا.

لَوَّح لها "لافرينتي"، وطلب منها أن تركب السيارة الـ"فورد" التي تقف خلف الشاحنة:  
- سنذهب إلى "تالين".

ابتسمت له "زارا"، وقفزت داخل السيارة. لمحت التعبير الذي ارتسم على وجه "لافرينتي". كان مندهشًا. لم تبتسم له "زارا" من قبل. هذه المرة، سُمِح لها بعدم وضع القيود حول يديها. كانا يعلمان بأنها لن تهرب إلى أي مكان.

هناك طوابيرٌ طويلة أمام كل معبرٍ حدودي. ينظر إليها "باشا" بضيقةٍ بالغ، ثم يخرج ليحلَّ المسألة. يعود إلى السيارة ثانيةً، حيث ينتظره "لافرينتي" و"زارا". يدوس بقدمه على البنزين، ويتحرك بسيارته بجوار الطابور المتوقف، ويغادر المعبر إلى الطريق، مستكملًا الرحلة. مرُّوا بـ"وارسو" و"كوشنيتسا" و"جرودنو" و"فيلنيوس" و"دوجافيلس"، بأعلى سرعةٍ في السيارة. أصقت "زارا" أنفها بزجاج النافذة. إستونيا تقترب. أشجار الصنوبر في كل مكان، ومعامل ألبان، ومصانع، وأعمدة تليفونات، ومواقف باصات، وحقول، ومزارع تفاح بها أبقار ترعى في الحشائش. توقَّفوا لأوقات قصيرة، بين الحين والآخر. تذكَّر "لافرينتي" شراء بعض الطعام لـ"زارا" خلال ذلك. توجَّهوا من "دوجافيلس" إلى "سيجولدا". كان عليهم الوقوف في "سيجولدا"؛ لأن

"لافرينتي" أراد إرسال بطاقة بريدية لـ "فيروتشكا"، والتقاط بعض الصور الفوتوغرافية من أجلها. قامت بعض صديقاتها بزيارة المكان منذ سنوات، وعدن بعصي كذاكرات، كُتب عليها اسم المدينة، "سيجولدا"، بطريقة الحرق على الخشب. كانت "فيروتشكا" حاملاً في ذلك الوقت، ولم تتمكن من مرافقتها. أخبرنها بأن مصحات العناية والاستجمام هناك، تتميز بالروعة. كما قمن بالثناء على وادي نهر "جوجا". سأل "لافرينتي" عن الطريق المؤدّي إلى هناك، ثم طلب من "باشا" أن ينعطف نحو نهاية محطة عربات الـ"تليفريك" لمنطقة النهر.

أوقفنا السيارة تحت أشجار بعيدة عن شبك التذاكر.

- دع الفتاة تأتي معنا.

تفاجأت "زارا"، وداخلها شيء من الخوف. رمقت "باشا".

- هل جننت؟ اذهب الآن، ولا تتأخر في العودة!

- لن نحاول الهرب.

- اذهب!

هزّ "لافرينتي" كتفيه لـ "زارا"، وكأنه يقول لها: "المرة المقبلة ربما"، ثم توجه إلى شبك التذاكر. تابعت "زارا" ظهره المبتعد، واستنشقت بقوة رائحة "لاتفيا". هناك مغلفات آيس كريم بيضاء ملقاة على الأرض. أحست بإجازات الأطفال، والذكريات المشتركة للعائلات، وصدور زوجات رؤساء الأحزاب، وحماسة الحركة الطليعية، وعرق الرياضيين السوفييت.. كانت جميعها تنتظرها هناك. ذكر "لافرينتي" سابقاً بأن ابنه جاء إلى هنا ليتدرب، كونه أحد مصادر الفخر في الاتحاد السوفيتي. هل ابنه عدّاء؟ على "زارا" أن تبدأ في الاهتمام بكل ما يقوله "لافرينتي". قد يفيدها أي شيء يذكره. عليها أن تجعله يثق بها. قد يجعلها الفتاة المفضّلة لديه.



بقي "باشا" مع "زارا" في السيارة، وراح يضرب المقود بأصابعه، بإيقاع منغمّ.. "دُم تَك.. دُم تَك". تقافزت القِباب المستديرة الثلاث الموشومة على إصبعه الوسطى، مع كل حركة، ومعها الرقم 1970. رقمٌ أزرقٌ باهت، على كل إصبع. تاريخ ميلاد، ربما؟ لم تسأل "زارا". بين الحين والآخر، يمدّ "باشا" إصبعه ويدخله في أذنه. حلمتا أذناه صغيرتان جدًّا، حتى كأنه لا يمتلك واحدة. نظرت "زارا" إلى الطريق. لن تتمكن من الركض كل تلك المسافة.

- الفِتيّة من "بيرم" ينتظروننا في "تالين"!

دُم تَك.. دُم تَك.. دُم تَك.

"باشا" متوتر.

- ما الذي أخَّره حتى الآن؟

دُم تَك.. دُم تَك.. دُم تَك.

أخرج "باشا" زجاجتين دافئتين من البيرة، فتح واحدة وناولها لـ"زارا". شربتها بلهفة. أحست برغبة مُلِحّة بالوقوف على الأسفلت، خارج النافذة، لكن إستونيا صارت قريبة الآن. قفز "باشا" من السيارة، تاركًا بابها مفتوحًا. أشعل "مارلبورو". جفَّ عَرَقهما مع النسيم. اقتربت أسرةٌ منهما. الطفل يغنّي:

- قلعة "تورايدا"..

يدور الحديث بين الأبوين باللغة اللاتفية، بنبراتٍ هادئة. مرّرت المرأة أصابعها في

خصلات شعرها الجافة:

- الكوافير..

أوماً الرجل. قالت وهي تومئ بدورها:

- ومحل البقالة..

ارتفع صوتها قليلاً، وهي تعدُّ ما تريده:

- سَكَّر، وحليب، وخبز، وعصير برتقال.

ردَّ الرجل عليها بغضب. وقعت نظرات المرأة على "زارا"، التي ابتعدت بعينها عنها، على الفور، والتصقت بمقعدها. حوَّلت المرأة نظراتها عنها، دون أن تنتبه لوجودها من

الأساس:

- لا أفهم..

الكسرات المرتبّة في تنورتها، تطايرت بنعومة. واصلت طلباتها:

- جبن، وفودكا.

امتدت أصابع قدميها من فتحة صندلها ذي الكعب المرتفع، ولامست الأرض. مرُّوا بجوار السيارة. تابعتُ وركي المرأة العريضين، وهما يتعدان. هبَّت منهما رائحة كولونيا، تسلَّلت إلى السيارة. أسرةٌ عاديةٌ، تدخل محطة القطار. وما زالت "زارا" تجلس في السيارة التي تمتلئ برائحة البنزين. كلاً.. لم يكن بإمكانها أن تصرخ. لم يكن بإمكانها فعل شيء.

كان الطريق خالياً. عكست الشمس أشعتها اللامعة فوق الشجيرات. تقافز بجوارهما "موتوسكل" بعربةٍ جانبية، ثم عاد الطريق الحارّ إلى خوائه السابق. بحثت "زارا" داخل حمالة صدرها عن حبة "فاليوم". لو أنها حاولت الهرب، وركضت مبتعدة، هل سيطلقان عليها النار في وضح النهار، أم سيلقيان القبض عليها بطريقةٍ أخرى؟ سيقبضان عليها، بطبيعة الحال. على مسافةٍ قريبة، ظهرت بنت تقود دراجة هوائية ضخمة. تلبس في قدميها صندلاً، وجوربين طويلين يصلان إلى ركبتيها. في الجهة الأمامية من الدراجة سلّة بلاستيكية ولعبة على هيئة عبوة حليب. حدّقت "زارا" في البنت. رمقت الأخيرة "زارا"، وابتسمت لها. أغمضت "زارا" عينيها. هناك حشرة تزحف فوق جبينها. لم تهتم بإزاحتها. فُتح باب السيارة بقوة. فتحتُ عينيها. "لافرينتي".

واصلوا الرحلة. قاد "باشا" السيارة. أخرج "لافرينتي" زجاجة فودكا ورغيف خبز. نهش قطعاً منه، بين الرشفات التي أخذها من الزجاجة، وهو يمسح فمه بكُمّه. رشفة فودكا، الكُمّ، رشفة، الكُمّ، رشفة، الكُمّ.

- لقد وصلتُ إلى "تورايدا".

- أين؟

- "تورايدا". يمكنك رؤيتها من ذلك الرصيف هناك.

- أي رصيف؟

- الذي تغادر منه عربات الـ"تليفريك". منظرٌ جميل. من هناك، يمكنك رؤية الجانب

الآخر للوادي، حيث تقع مزرعة الإقليم، وقلعة "تورايدا".

قام "باشا" برفع صوت الموسيقى.

- ذهبتُ إلى هناك بتاكسي. المزرعة كانت مصحّة استجمام. أخذتُ تاكسي من هناك إلى

"تورايدا".

- ماذا؟! هل هذا ما أحرّك؟

- أخبرني سائق التاكسي عن وردة "تورايدا".

انطلق "باشا" بالسيارة، بسرعةٍ أكبر. ارتعش صوت "لافرينتي"، بتأثير الفودكا وعواطفه

الحيّاشة. رفع "باشا" صوت الموسيقى أكثر، حتى لا يضطر للاستماع إلى "لافرينتي"، على

الأغلب. اتكأ "لافرينتي" على كتف "زارا". رائحة الكحول في أنفاسه باردة، لكن نبرات صوته

الثقيلة كانت مليئة بالشجن والاشتياق. أحسّت "زارا" بالهرج لأنها ميّزت ذلك في صوته.

ذُكرت نفسها بأنه ليس مجرد شخص عادي، بل عدوّها.

- يوجد قبرٌ هناك. قبر وردة "تورايدا". قبر عاشقة مخلصه. كان هناك عروسان على وشك المغادرة. تركا ورودًا هناك. العروس تلبس ثوبًا أبيض. أحضرا أزهار قرنفل أيضًا. تحشرج صوت "لافرينتي". ناول زجاجة الفودكا لـ"زارا"، التي تناولت رشفة منها. أخرج "لافرينتي" رغيف الخبز، من مكانٍ ما، وعرضه عليها. أخذت "زارا" قطعةً منه. لقد لَانَ معها. حين يَلين الناس، لا يهتمون بالتفاصيل. قد تتمكن من التملص من بين يدي "لافرينتي". لكنها إن حاولت الهروب الآن، فسوف تضطر للذهاب إلى مكانٍ آخر. ليس المكان الذي سيذهب إليه "باشا" و"لافرينتي". ليس باستطاعتها الوصول إلى هناك، بوسيلةٍ أخرى.

ضحك "باشا" وقال:

- هل لوردة "تورايدا" عينان زرقاوان؟ هل تعدُّ أفضل كباب لحم؟ ضرب "لافرينتي" بزجاجته جبين "باشا". تمايلت السيارة على حافة ممر مائي، ثم إلى الجهة الأخرى من الطريق، وعادت بعدها إلى مسارها الأصلي.

- أيها المعتوه!

استطاع "باشا" السيطرة على السيارة، واستكملوا رحلتهم. أعلن "باشا" عن الخطط التي ينوي القيام بها في "تالين".

- وأندية قمار، كتلك الموجودة في "لاس فيجاس". عليك فقط أن تكون سريعًا. عليك أن تكون الأول. يانصيب "تالين". أندية قمار "تالين". كل شيءٍ ممكن!

شرب "لافرينتي" الفودكا، ومضغ الخبز، وعرض بعضًا منه على "زارا". اهتزَّت السيارة بفعل الأصوات المرتفعة المنبعثة من سماعاتها، أكثر مما اهتزَّت

بفعل مطبّات الطريق. واصل "باشا" ترديد أحلامه حول "الغرب الأمريكي" الذي كانت "تالين" تمثّله له.

- أنتما أحمقان، ولا تفهمان.

قطّب "لافرينتي" حاجبيه، وقال:

- قلب "باشا" يشتااق إلى "روسيا".

- ماذا؟! أنت مجنون!

ضرب "باشا" "لافرينتي"، ثم ضرب "لافرينتي" "باشا"، وتمايلت السيارة بهم من جديد. حاولت "زارا" الاختباء في أرضية السيارة. واصلت السيارة ترنحها بسرعةٍ عظيمة. تحرّكت الغابات من حولهم، وأشجار الصنوبر. أحسّت "زارا" بالخوف. بصاقُ برائحة الخمر. رائحة معطف "باشا" الجلدي. الجلد الاصطناعي لمقاعد السيارة الـ"فورد". معطر الجوّ على هيئة شجرة صنوبر. السيارة تتأرجح. الشجار مستمر. ينتهي شيئاً فشيئاً. تستسلم "زارا" للنوم. تستيقظ و"باشا" يوقف السيارة في ساحة أحد معارفه في مجال الأعمال. أمضى "باشا" المساء وهو يزور معارفه. أمر "لافرينتي" "زارا" بأن ترافقه إلى حجرتة. اعتلاها وهو يردد اسم "فيروتشكا".

في تلك الليلة، أزاحت "زارا" يد "لافرينتي" من على صدرها، بحرص. تسلّلت خارج الفراش، واستندت على ترباس الشباك. بدا أنه سهل الفتحة. الطريق، كما بدا عبر الستائر، كان أشبه بلسان سميك وبالغ الإغراء. في "تالين"، ستكون - على الأغلب - حبيسة حجرة عتيقة، مرّة أخرى. يجب أن تتغيّر الأوضاع، في يومٍ ما.



في اليوم التالي، وصلوا إلى مدينة "فالميرا". اشترى لها "لافرينتي" بسكوت "بريانكي". واصلوا الرحلة بالسيارة من "فالميرا" إلى "فالجاء". لم يتبادل

"باشا" و"لافرينتي" الحديث، إلا للضرورة. إستونيا تقترب. الطريق مُغرٍ ويثير التوتر والحماس، لكن إستونيا أصبحت قريبةً جدًّا بالفعل. لن تهرب. كلاً بالطبع. لا يمكنها ذلك. حين وصلوا إلى حدود "فالجا"، أخرج "باشا" من جيبه خارطة تجعّد ورقها. انتزعها "لافرينتي" منه.

- لا تمرُّ من خلال نقطة التفتيش. اذهب من حولها.

أصدرت السيارة هديرًا متقطعًا فوق الطريق الريفي، وتجاوزت العمود الخشبي الذي يمثّل الحدود، فصاروا داخل إستونيا. كانت يد "لافرينتي" فوق فخذ "زارا". فجأةً، أحسّت برغبةٍ قويةٍ في التكوُّر بين ذراعيه، والنوم بعمق. تضخمت ديونها، لدرجةٍ أفقدتها القدرة على عدّها وإحصائها. يومًا ما.

في الليلة الماضية، قال لها "لافرينتي" إنه يمكنها العمل في نادي القمار، ما إن يفتحه "باشا". هناك، ستنال أضعاف المبلغ الذي تحصل عليه الآن. ستتمكن من سداد جميع ديونها.

في يومٍ ما.



1992

"تالين" - إستونيا

لماذا لم تقتل نفسها؟



كان الأمر، في حقيقته، مجرد حادث.

كانت قد ظهرت في بضعة أفلام فيديو جيدة، في "تالين". جيدة ما يكفي - على الأقل - ليجعلها "لافرينتي" تعمل لحسابه حين لا يكون "باشا" موجودًا. قال "لافرينتي" بأن عينا "زارا" تشبهان عيني "فيروتشكا". الزُّرقة نفسها. شكَّ "باشا" في أن "لافرينتي" معجبٌ بـ"زارا"، وتعمد إغاظته بذلك. احمرَّ وجه "لافرينتي". كاد "باشا" يموت من شدَّة الضحك. كانت بعض تلك الأفلام ممتازة، لدرجة أن "باشا" عرضها على رئيسه في العمل. أعجب الرئيس بـ"زارا"، بشدَّة. أراد لقاءها.

الرئيس يزّين أصابعه بخاتميين كبيرين من الذهب المحفور، ويضع كولونيا "كوروس". من الواضح أنه لم يغسل عضوه لعدّة أيام، فقد علقت في شعيراته تكتلات بيضاء. لحذاء "زارا" شريطٌ ذهبيٌّ يعقّد إلى الخلف، وكعبه مغلّف باللون الذهبي. طرفه الأمامي الحادّ يعتصر أصابع قدميها. أطلّت فراشاتٌ فضّية من على جوربيها، بجوار الكاحلين.

قام الرئيس بتشغيل فيلم الفيديو، وطلب منها تقليد الموجود على الشاشة بالضبط.

- تعرفين أنكِ عاهرة، كما أظن؟

- أعرف.

- قولي ذلك.

- أنا عاهرة، ولن أتغيّر أبدًا. كنتُ عاهرة، وسأظل كذلك إلى الأبد.

- وأين موطن هذه العاهرة؟

- "فلاديفوستوك".

- ماذا؟

- "فلاديفوستوك".

- إجابةٌ خاطئة. هذا هو موطنك. هنا، مع سيدك، ومع قضيب سيدك. ليس للعاهرة

موطنٌ آخر، ولن يكون لها أبدًا. قولي ذلك.

- لأنني عاهرة، فموطني هنا، مع قضيب سيدي.

- جيّد. إجابتكِ شبه صحيحة. والآن، كرّري العبارة بأكملها.

- لن يكون لي موطنٌ آخر.



- لماذا لا تزال هذه العاهرة ترتدي ملابسها؟

سمعت صوتًا خفيًا. ربما جاء من الخارج. أو لعله من الداخل. لم يلحظ الرئيس شيئًا. صوتٌ خافت. كظهر فأر وهو يُكسر، أو عظام سمكة. مثل غضروف أذن خنزير بين أسنانك. بدأت في التعرّي. ارتعش فحذاها المنتوفان، من البرد، وبرزت مسامهما. سقط سروالها الداخلي، الألماني الصنع، على الأرض. تكوّم الدانتيل الرقيق كبالونة فارغة. كان الأمر سهلًا. لم تملك الوقت لتفكر في المسألة. لم تملك الوقت لتفكر في أيّ شيء. التف الحزام حول رقبته، بغتةً، وكانت تسحب طرفيه بكل ما أوتيت من قوّة. كانت أسهل عملية جنس مع زبون، على الإطلاق.

لم تكن متأكدة إن كان قد مات بالفعل، ولذلك تناولت وسادة ووضعتها على وجهه لنحو عشر دقائق. راقبت مرور الوقت، ببطئه المألوف، على الساعة الكبيرة الذهبية. لديهم ساعاتٌ مثلها في "فلاديكي". لا بد أنها مصنوعة في "لينينجراد". لم يتحرك الرجل مرّةً أخرى. جيّد بالنسبة لمبتدئة. ممتاز. ربما تمتلك موهبة فطرية. أضحكتها الفكرة. عشر دقائق وقتٌ كافٍ للتفكير في شتّى الأمور. كانت بطيئة في تعلّمها للقراءة. ولم تُوفّق كثيرًا في دروس الجمباز الصباحية. لم تستطع ضبط الأوضاع التي تأمر بها المعلمة. تحيّيها في الحركة الطليعية، لم تكن في قوة تحيات الآخرين. حتى مظهرها في ثياب المدرسة لم يكن مهندمًا على الإطلاق، مهما حاولت. الواقع أنها لا تستطيع إجادة الشيء من المرّة الأولى. هذه المرّة استثناء. نظرت إلى انعكاس جسدها على النافذة المعتمدة. النصف العلوي من جسمها يجثم على الرجل البدين، وهي تضغط بالوسادة غير المستوية على وجه الرجل. بسبب إجبارها على رؤية جسدها، مرّات عديدة، صار غريبًا عنها. ربما يكون الجسد الغريب أفضل من جسّدك، في بعض

الظروف. ربما تمَّ الأمر بسلاسة، لهذا السبب تحديداً. أو لعل المسألة في مجملها هي أنها صارت واحدة منهم.. ذلك النوع من الأشخاص الذي يمثله هذا الرجل.

ذهبت إلى الحمام وغسلت يديها. ارتدت ملابسها الداخلية، وجوربها، وفستانها. تأكدت من أن الصورة لا تزال في حمالة صدرها، وكذلك الحبوب المسكَّنة، ثم اتجهت إلى الباب لتستمع إذا كان أحدهم قادمًا. سمعت رجال الرئيس وهم يلعبون الـ"كوتشينة". فيلم الفيديو ما زال يُعرض. ليس هناك ما يدل على ملاحظتهم لأمرٍ غريب. سوف يرون ويسمعون كل شيء قبل مرور وقت طويل. للرئيس ميكروفونات وكاميرات، لكن ليس مسموحًا لهم تشغيلها حين تكون بصحبته نساء.

شربت كأسًا أخرى من الشمبانيا. الكأس مصنوعة من الكريستال التشيكي. تمعَّنت في الأزهار البلورية التي تزين الكأس، والتي تشبه وردة الدُّرة. أدركت، بغتةً، أنها كانت محاطة بالكؤوس والأكواب الزجاجية طوال الوقت. العشرات منها. كان بإمكانها أخذ واحدة منها، قبل أيام، لتنحر به رقبتها. كان بإمكانها المغادرة، منذ وقتٍ مبكرٍ، إن أرادت ذلك حقًا. هل رغبت في البقاء؟ هل أرادت ممارسة العُهر وشمَّ المخدَّرات؟ هل تلخص دور "باشا" في توجيهها إلى المهنة التي تناسبها حقًا؟ هل فكرة مغادرة هذا المكان، مجرد شيء في خيالها فقط؟ هل فكرة الأوضاع السيئة، مثلها أيضًا.. مجرد خيال؟ هل تحب الحال هنا، حقًا؟ هل تمتلك قلب عاهرة، وطبيعة عاهرة؟ لعلَّه من الخطأ محاربة مصير العاهرة الذي ينتظرها.. لا جدوى من التفكير في الأمر بأكمله، الآن.

أخذت بضع علب سجائر، وعبوات كبريت، ثم فتَّشت جيوب الرئيس، لكنها لم تجد فيها مألًا. لم يسعفها الوقت للقيام بعملية بحث دقيقة.

تقع الشقة في الطابق العلوي من البناية. نزلت سلم الحريق، المهتز، إلى السطح، ومنه إلى السلم الجانبي، حتى لا يلمحها حرس الرئيس، برؤوسهم المحلوقة من الجانبين. للدَّرَج السفلي المظلم رائحة بول نفاذة. تعثرت على الدرجات الحجرية، ذات الحواف المتكسرة، دون أن تسقط. وصلت إلى عتبة

باب مُغَطَّى بجِلْدٍ اصطناعي، وله حشوات تخفف من حدَّة الأصوات، وعبرتها. سمعت صوتاً من الداخل. طفلٌ يضحك ويقول:  
- جَدَّتِي.. جَدَّتِي.

حين وصلت إلى الطابق السفلي، اصطدمت بقطة وبصِفٍ من صناديق البريد القديمة. الباب الخارجي للبنية يئن ويصدر صريراً. تقف أمامه سيارة سوداء، تكاد أن تلمع في الظلام، بسبب تلميعها بالشمع. يجلس بداخلها رجل يدخن. يلمع معطفه الجلدي، بعض الشيء، عبر زجاج النافذة. انبعثت من السيارة موسيقى ديسكو روسية. تعمَّدت عدم النظر إلى السيارة، عند مرورها بجوارها، وكأن ذلك سيمنعه من ملاحظتها. لعله لم يرها بالفعل؛ لأنه واصل هزَّ رأسه مع إيقاع الموسيقى.

توقَّفت حين وصلت إلى نهاية المبنى. استعادت قدرتها على التفكير بوضوح. إنها في حالٍ مقبول، إن تغاضيتَ عن فستانها المُمزَّق، وجوربها الذي انسلت خيوطه، ولم تلتفت إلى حقيقة أنها حافية القدمين، دون حذاء. صورة امرأة تسير بخطوات مسرعة في الطريق، دون حذاء، ستلتصق في رؤوس الناس، على الأرجح. لم ترغب في لفت الانتباه إليها. ولكن كان عليها أن تركض، لا أن تمشي بتمهُّل. بضعة أعمدة إنارة ترسل ضوءها الأصفر عبر زجاجها المهشم. بضعة أشخاص في طريقهم إلى بيوتهم. الظلام يخفي وجوههم. المنطقة غريبة تماماً، بالنسبة لها. ربما جاءتها من قبل لزيارة زبون، وربما لا. المباني الأسمنتية متشابهة في كل مكان. وصلت في النهاية إلى مكانٍ قريبٍ من الطريق الرئيسي. يعلوه جسر. مرَّ باص نقل طويل. أصدر محركه صوتاً قوياً. تمايل منتصف هيكله، الذي يشبه آلة الأكورديون الموسيقية، بحركةٍ راقصة. إضاءته الأمامية خافتة جداً، ولن يلاحظ وجودها أحد. حتى لو لاحظوا، هل سيهتم أحد قبل أن يبدأ "باشا" في طرح أسئلته، وقبل أن يدفع الخوف والمال الناس إلى تذكر أمورٍ

لا يتذكرونها حقًا؟ لكنك ستجد دومًا شخصًا يتذكر فعلًا ما رآه. لا ظلام شديد الحلكة، لدرجة أن يمنع أحدًا من الرؤية.

بعد الباص، مرّت سيارة "موسكفيتش"، بفانوس إضاءة مكسور. أعقبتها سيارة "جيجولي" بقفحة مرتفعة.

ظهرت أمامها محطة باص، بشكل مفاجئ، في وسط الظلام. لم تملك الوقت الكافي لتفاديها، أو لتغيير اتجاهها، ولذلك واصلت سيرها وسط جمع الناس المنتظرين. اخترقت طريقها بين الأمهات الشابات، بتنانيرهن القصيرة، وجواربهن الطويلة البيضاء. روائحهن الرقيقة مزيجٌ من البراءة وعمليات الإجهاض. ينشبن بأظافرهن، المصبوغة بالأحمر، في الظلام، في المستقبل، بطريقة مألوفة. تباعد الناس، بشيءٍ من الاستغراب، حين اخترقت جمعهم بخطواتٍ سريعة. الجدّات بأقراطهن الطويلة، وحلمات آذنهن الضعيفة. قبل أن يسارع الشبان بوضع أذرعهم حول فتياتهم لحمايتهن منها، كانت قد مرّت من بينهم جميعًا. سارت بجوار رجل سكران، أفرط في شرب الكولونيا. تركت وراءها حفيف الأكياس البلاستيكية، ومراكب السعادة التي تقف بانتظار الفتيات، لتحملهن إلى المستقبل الرائع.

عادت للسير بين العمارات السكنية. لم يكن بإمكانها ركوب الباص، بقدميها الحافيتين إلا من جورب. قد يتذكر أحدُ المرأة ذات الأنفاس المتقطعة، التي لا تلبس حذاءً. سوف يتم الإبلاغ عنها. ركضت بجوار المباني، والنوافذ المشبعة بأشعة شمس "ستالين"، والشرفات المزودة بقضبان حديدية. طافت بالطرقات الخالية، المليئة بالحفر والنقر. عبرت من بين قضبان فولاذية ناتئة، وحاويات قمامة ممتلئة عن آخرها. علب معجنات الـ"دامبلينج" ملقاة على الأرض. المحلات التجارية. داست بقدمها عبوة نصف خالية من الحليب المتخمر. واصلت الركض. ركضت بجوار امرأة مُسنّة تحمل حبات بصل في كيسٍ من الشبّك؛ وملعب أطفال يضم قفص تسلّق، وصندوق رملٍ كبير له

رائحة القطط. طافت بنات يجلسن متهاويات على الأرصفة، ببشراتٍ شديدة الشحوب بسبب إدمانهنَّ الهيروين، وأعينٍ تغطي رموشها قطع متكتلة من الماسكارا. رأت أولادًا يحملون برطمانات من الصمغ. في فتحات أنوفهم مزيجٌ من المخاط والصمغ. ارتطمت بكشك مفتوح، له مظهر مرح ومرحّب. توقّفت. عبوات السجائر تطل من نافذة الكشك. عددٌ من الزبائن يقفون أمام النافذة، يمازحون البائع ويضحكون معه. غيّرت اتّجاهها، قبل أن يلمحها أي منهم. عادت إلى الوراء. بحثت عن دربٍ آخر. خلّفت وراءها الرجال الأقوياء، ذوي الشعر المخلوق من جانبي الرأس، والسيقان المتباعدة، والرقاب الغليظة الشبيهة برقاب الجاموس. استمرّت في الركض بين الهمسات الخافتة، والتنهّئات المنبعثة من بين العمارات الإسمنتية. ابتعدت عن الأبراج السكنية الضخمة. بعيدًا عن الأحياء الفقيرة والصرابير، وبقايا إبر المخدرات. وصلت إلى شارع كبير. والآن.. إلى أين؟ سال العرق على رقبتها. أحسّت بأن الـ"تيكيت" القماشي، الذي يحمل اسم ماركة "سيبالا"، قد انتفخ بفعل العرق، وأصبح كوسادة مُبلّلة، عبر نسيج فستانها الرقيق. الظلام يشتدُّ حلقة حولها. أصبح عرقها باردًا. هناك مكانٌ في "تالين" يدعى "تاكسوبارك". تتذكر أنها سمعت اسمه من قبل. إنه مفتوح ليل نهار. سائقو سيارات التاكسي يذهبون إلى هناك.. وماذا بعد؟ ما فائدة ذلك بالنسبة لها؟ أول ما سيفعله أي سائق تاكسي هو طرح الأسئلة. هي لا تعرف كيف تقود سيارة، ناهيك بسرقة واحدة. هل هناك شيء آخر؟ محطة بنزين؟ ذلك النوع الذي تتوقّف فيه الشاحنات؟ لديهم مكانٌ يذهبون إليه، ولديها مكانٌ تذهب إليه. مكانٌ لا يعرفها فيه أحد. عليها أن تفعل ذلك بسرعة. فجأةً، شاهدت شاحنة متوقفة على جانب الطريق. محرّكها يدور، لكن لا أحد بداخلها. لونها أخضرٌ غامقٌ، يتماهى مع الطبيعة من حولها. تسلّقت الجزء الخلفي منها، بصعوبة. بعد لحظة، خرج السائق من بين الأحرش. سمعت صوت إبزيم حزامه وهو يعيد إغلاقه. ركب الشاحنة وانطلق بها على الطريق.

زحفت بين الصناديق.

الرؤية شديدة الصعوبة، بسبب الإنارة الخافتة لأضواء الشارع. سرعان ما اختفت أعمدة الإنارة. بدأ الضباب. مرّت بسرعة سيارة تابعة للإدارة العامة للمرور؛ وبعدها عددٌ من سيارات الـ"بي إم دبليو"، التي أطلقت وراءها وابلًا من حصى الطريق، بسبب سرعتها الفائقة. انبعثت منها أصوات موسيقى عالية وصاخبة. الشارع غير مزدحم على الإطلاق. توقّف السائق في وسط طريق ريفي موحش، وقفز خارجًا من شاحنته. أطلقت "زارا" لتشاهد ما حولها. في تلك العتمة، استطاعت بالكاد أن تقرأ اسم المنطقة.. "بيوليو". عاد السائق وهو يتجشأ، وواصل الرحلة.

بين الحين والآخر، تسقط أضواء الشاحنة على لافتاتٍ متداعية، لكن "زارا" لم تستطع قراءة المكتوب عليها. أزاحت المشمّع الذي يغطّي الجزء الخلفي من الشاحنة، ما يكفي لتطل منه قليلًا. لاحظت أن الشاحنة تفتقر إلى المرايا الجانبية. اضطرت لإخراج رأسها بأكمله. يمكن أن تكون الشاحنة في طريقها إلى أيّ مكان. إلى "روسيا" ربّما. من الأفضل أن تقفز من الشاحنة، قبل أن تبتعد كثيرًا عن "تالين". سوف يتوقف السائق ليتبول أو ليشتري شيئًا يشربه. وماذا بعد ذلك؟ عليها أن تبحث عن وسيلة نقل أخرى. يمكنها أن تقوم بإيقاف سيارة عابرة. السيارات الآتية من "تالين"، لن تعود ثانيةً في ذلك الاتجاه، على الأغلب. أي سيارة مغادرة لـ"تالين"، ستكون بعيدة عن دائرة "باشا"، لبعض الوقت على الأقل. أم لعلّها شديدة التفاؤل؟ لـ"باشا" آذان في كل مكان، ومن السهل التعرف على "زارا". ماذا لو نجحت في العثور على سيارة تركبها، لكنها ستكون متجهة إلى خارج إستونيا؟ لو حدث ذلك، ستمرّ السيارة من المعبر الحدودي، وحين يحدث ذلك سيكون "باشا" قد أرسل أحد معاونيه، ممن يملكون نظرًا ثاقبًا، ليستطلع الأمر وي طرح الأسئلة؛ لذا من الأفضل أن تعثر على سيارة متجهة إلى المكان الذي تريده، مع سائق من النوع الذي لن يجده

"باشا" إن حاول البحث عنه. أي نوعٍ من الأشخاص ذلك؟ ومَن الذي سيوافق على ركوبها معه في هذا الطريق المظلم، في منتصف الليل؟ ليس هناك شخصٌ محترمٌ خارج منزله في هذه الساعة. اللصوص ورجال الأعمال من صنف "باشا"، فقط. تحسَّست "زارا" الجيب السَّرِّي في حَمَّالة صدرها. الصورة لا تزال هناك. الصورة واسم المنزل والقرية.

تباطأت سرعة الشاحنة. توقف السائق، ونزل منها قافراً، واتَّجه إلى الشجيرات. نزلت "زارا" من مؤخرة الشاحنة، وسارعت بعبور الطريق والاختباء بين الأشجار. عاد السائق وواصل طريقه. حين اختفت أضواء شاحنته، اشتدت حلكة الظلام. تواصل حفيف الغابة. الحشائش حَيَّة. نعقت بومة. عادت "زارا" للاقتراب من الطريق.

سيأتي الفجر قريباً. مرَّت سيارتان من نوع "أودي"، تصدح منهما موسيقى مرتفعة جداً. رمى شخص زجاجة بيرة من نافذة إحدهما. سقطت بجوار "زارا". لن تركب سيارة مستوردة من الأنواع الغربية.. هم وحدهم مَن يمتلكون تلك السيارات. كم تبعد "تالين" عن هذا المكان؟ لقد فقدت إحساسها بالزمن حين كانت في مؤخرة الشاحنة. رطوبة الجوِّ الباردة جمَّدت أطرافها. فركت ذراعيها وساقيها. حرَّكت أصابع قدميها. أدارت كاحليها، الواحد تلو الآخر. شعرت بالبرد حين جلست، وبالتعب حين وقفت. عليها أن تدخل في مكانٍ ما، قبل أن تنير الشمس المكان. عليها أن تبتعد عن أي مَعْلَمٍ للحضارة. من الأفضل أن تصل إلى وجهتها قبل الصباح. إلى القرية. قرية جدَّتْها. عليها أن تسيطر على مخاوفها، وأن تستعيد الهدوء الذي غمرها حين كانت تجلس بين صناديق الشاحنة. كانت متيقنة عندها من أنه حتى لو لم تكن الشاحنة في طريقها إلى قرية الجَدَّة، فإنها ستصل إلى هناك بأي طريقة.

سمعت صوت سيارة، من بعيد. إنها تقترب ببطءٍ شديد، على عكس السيارات الغربية. مصباحٌ واحدٌ فقط، من مصباحيها الأماميين، هو الذي

يعمل. على الرغم من أن "زارا" لم ترَ السيارة أو السائق، إلا أنها سارعت بالظهور على الشارع، دون تفكير. وقفت في منتصف الطريق السريع. أضاء المصباح الخافت ساقها الكالحتين. لم تتراجع "زارا". كانت متيقنة من أن الـ "جيجولي" ستتجاوزها، لكنها توقفت أمامها. أطل السائق برأسه من النافذة. رجلٌ مُسن. سيجارةٌ تحترق من طرفها، مثبتة في مبسم طويل، يتدلَّى من جانب فمه.

سألته "زارا":

- سيدي.. هل بإمكانك أن تقلني إلى البلدة؟

الكلمات الإستونية تخرج من فمها بصعوبة. لم يُجب الرجل. أحسَّت "زارا" بالقلق. قالت إنها تشاجرت مع زوجها، وأنه ألقى بها من السيَّارة، ولذلك فهي هنا.. في وسط طريق شبه خالٍ. زوجها رجل سيئ، وهي متأكدة من أنه لن يعود لأخذها، والحقيقة أنها لا ترغب في عودته أساسًا، لأنه شخصٌ شرير.

أخرج السائق المبسم من فمه، ونزع منه عُقب السيارة، ثم رماها في الطريق. قال إنه في طريقه إلى "ريستي". مدَّ جسمه قليلاً، ليفتح لها الباب المواجه لجهته. أحسَّت "زارا" بأنها توشك على التحليق. وضع الرجل سيجارة جديدة في مبسمه. عقدت "زارا" ذراعيها أمام صدرها، وضمت ساقها إلى بعضهما بقوة. انطلقت السيارة. بين الحين والآخر، استطاعت قراءة لافتات الطريق: "توربا"، "إلما".

سألها الرجل:

- لماذا أنتِ في طريقكِ إلى "ريستي"؟

شعرت "زارا" بالحيرة، لكنها قامت بتأليف إجابة سريعة. قالت إنها كانت في طريقها لبيت والديها. لم يطرح الرجل مزيدًا من الأسئلة، لكن "زارا" أضافت أن زوجها لن يذهب إلى منزل أبويها، وأنها لا تريد رؤيته. مدَّ الرجل



يده اليمنى، باتّجاه كيس إلى جوار ذراع ناقل الحركة. ناوله لـ"زارا". أخذته منه. الطعم المألوف لشوكولاتة "أراهيز"، وهشاشة الفول السوداني بداخلها.

- لعلّك كنتِ ستنتظرين طوال الليل هناك، إلى أن تجدي سيارة تقلّك.

أخبرها بأنه كان يزور ابنته المريضة في بيتها، وانتهى به الأمر لأخذها إلى المستشفى خلال الليل. إنه مضطر للعودة إلى منزله لحلب الأبقار صباحًا.

- ابنته من أنتِ؟

- ابنة عائلة "رووتل".

- "رووتل"؟! من أين أنتم بالضبط؟

أحسّت "زارا" بالرعب. كيف تجيب عن هذا السؤال؟ يبدو أن الرجل يعرف كل من هذه الأنحاء. لو قامت بتأليف إجابة، فسوف يتحدّث في القرية لاحقًا عن الساقطة ذات اللهجة الروسية، التي تقول كلامًا يفتقر إلى المنطق. بكت "زارا". ناولها الرجل منديلًا قديمًا، قبل حتى أن تتساقط دموعها، ولم يطرح مزيدًا من الأسئلة.

- من الأفضل، ربما، أن تأتي إلى منزلي أولًا. سيشعر أبواك بالقلق إن ذهبتِ إليهما وأنتِ على هذا الحال، في هذا الوقت من الليل.

قاد الرجل السيارة إلى أن وصلا بيته في "ريستي". نزلت "زارا" من الـ"جيجولي" ومعها خارطة أخذتها من السيارة. دسّتها تحت ذراعها. كان بإمكانها أن تسأل الرجل إن كان يعرف "أوليدا ترو"، لكنها خافت فتح الموضوع معه. سوف يتذكر الرجل أسئلتها، وسوف يقودهم ذلك، في نهاية الأمر، إلى "أوليدا ترو"، ومنها إلى "زارا". حين دخلا المنزل، صبّ لها كوبًا من

الحليب، ووضع بعض الخبز على الطاولة، ومعه سحوق صغير الحجم. طلب منها أن تنام بعد أن تنتهي من تناول الطعام.

- سوف أفلّك إلى منزل والديك، ما إن أنتهي من عملية الحلب، صباحًا. لم يبقَ إلا ساعات قليلة.

ترك لها أغطية من فراء الخراف، وغادر الحجرة. عندما سمعت صوت شخير، وقفت "زارا" وتحسست طريقها باتجاه الثلاجة. أخذت بطارية الإضاءة التي كانت قد رأتها فوق سطحها، خلال تقطيعها للسحوق. مصباح البطارية يعمل. فردت الخارطة على أرضية المطبخ. "ريستي" ليست بعيدة عن المكان الذي ستذهب إليه. الساعة فوق الثلاجة تشير إلى الثالثة صباحًا. وجدت حذاء "بوت" رجالي من المطاط، كبير الحجم؛ و"شيشب حريمي" صغيرًا، أمام الباب. أدخلت قدميها في فردي الشيشب. هل هناك معطف في مكانٍ ما؟ أين يضع الملابس الخارجية؟ سمعت صوتًا قادمًا من الحجرة الداخلية. عليها أن تذهب الآن. لا تملك مفتاحًا لباب المنزل. فتحت نافذة المطبخ، وقفزت منها. هناك طعمٌ غريبٌ في فمها. توقّف فكلّها عن الحركة للحظات، حين تناولت القزمة الأولى من الخبز. ضحك الرجل وقال إنها من الناس الذين لا يحبون طعم الكُمون، كما يبدو. أحفاده أيضًا لا يحبونه. عرض عليها نوعًا آخر من الخبز، لكنها أرادت رغيف الكُمون. سوف يستيقظ عمًا قليل، ويرى أن الساقطة قد سرقت خريطته وبطارية الإضاءة، ومعهما الشيشب كذلك. أحسّت "زارا" بأنها شريرة.

1992

"لانيما" - إستونيا

البحث عن طريق



لم تكن الخارطة واضحة، لكن "زارا" تمكّنت من العثور على محطة قطارات "ريستي"، بسهولة. من هناك، توجّهت إلى الطريق الذي ظنّنت أنه سيأخذها إلى "كوليوفير". في البداية، ركضت. أرادت الابتعاد عن المنازل القريبة بأسرع ما يمكن، على الرغم من أن نوافذها كانت لا تزال معتمة. نبحت الكلاب في مختلف البيوت. لاحقتها أصواتهم إلى أن وصلت إلى طريق "كوليوفير". بدأت تُبطئ من سرعتها، لتحافظ على قوتها لحين وصولها إلى وجهتها، لكنها ظلت تشعر برغبةٍ مُلحّة في الإسراع بخطواتها. من خلال الخارطة، خمّنت بأن مسافة الرحلة هي عشرة كيلو مترات، تقريبًا. توقفت بين الحين والآخر لتدخن سيجارة. كانت قد استولت على عبوة سجائر جديدة من الرجل المُسنّ. ابتسم لها الرجل العجوز المرسوم على العبوة. بدا أنه يرتدي قُبّعة. ليست متأكّدة، فالظلام دامس. الغابة من حولها تعجّ بالحياة. برد عرقها، ثم عاد دافئًا من جديد. في كل مرّة تتوقّف فيها، تلفحها أنفاس أميرة "كوليوفير". اسمها

"أوجستا". كانت الجَدَّة قد أخبرت "زارا" عن الأميرة "أوجستا"، التي غادرت "ريستي"، متوجهةً إلى قلعة "كوليوفير"، بعينين متورمتين من كثرة البكاء، ثم قامت بقتل نفسها. الحجرة التي ماتت فيها، أكثر برودة من بقية الغرف، على الدوام. دموعها تسيل على الجدران. السُّحْب السوداء تسبح في السماء، كسُفُنٍ حربية، وضوء القمر يبعث بنورٍ ساطع. الرطوبة تتخلَّلُ شبشب "زارا". بين الحين والآخر، يخيلُ إليها أنها تسمع صوت سيارة، فتسارع بالاختباء داخل الغابة. تبللت إحدى فرديتي الشبشب في الممر المائي على جانب الطريق. خدشتها الأشواك. الطريق يخلو من التقاطعات، ويمتدُّ طويلاً دون أن يكسر استقامته شيء؛ لكن أفكارها تقاطعت وتكسَّرت، ثم بَنَّت نفسها من جديد. لمعت وسطعت، ثم أظلمت مرَّةً أخرى. حاولت سَمَّ رائحة مستنقع. يفترض أن يكون هناك مستنقع في مكانٍ ما، قريباً من هنا. كيف تبدو المستنقعات الإستونية؟ هل ستمكن من العثور على المنزل الصحيح؟ مَنْ سيكون مقيماً فيه؟ هل لا يزال البيت قائماً، أصلاً؟ ماذا ستفعل لو لم يكن موجوداً؟ أخبرتها الجَدَّة بأن العديد من الشائعات ظهرت، عقب وفاة "أوجستا". ربما لم يكن الأمر في حقيقته انتحاراً. ربما تمَّ قتلها. قال طبيب بأنها تُوفيت بسبب مرض وراثي يتعلَّق بنزيف الدم، لكن أحداً لم يصدِّق ذلك، فقبل موتها سُمِعَت صرخاتٌ مُريعة من القلعة. شعر الفلاحون بالفزع، وجفَّت ضروع الأبقار، ولم تبيض الدجاجات لأسبوعٍ كامل. أسرع "زارا" الخطى. أحسَّت بألمٍ في باطن قدميها، وبأن رثتيها على وشك الانفجار. قال البعض بأن الإمبراطورة شعرت بالغيرة من الأميرة الجميلة، فقامت بسجنها في القلعة. ردد غيرهم بأن إرسالها للقلعة تمَّ للحفاظ على سلامتها، وحمائيتها من زوجها المجنون. في كل الأحوال، ماتت سجيناً، وهي لا تتوقَّف عن الصراخ، بسبب سوء حظها. لم تعد "زارا" تتذكر ما رآته في الخارطة، على الرغم من سهولتها، وعلى الرغم من أنها حاولت القيام بحفظها. ربما كانت شديدة السهولة، لدرجة أنه ليس فيها ما يُحفظ. على كل حال، لقد فقدتها. لماذا لم يقدم أحد المساعدة للأميرة؟ لماذا لم يعينها أحد على الخروج من القلعة، وخصوصاً أن الجميع سمعوا بكاءها؟ ساعديني يا

"أوجستا".. ساعديني في العثور على الطريق الصحيح. ساعديني يا "أوجستا". ظلت العبارة تتردد داخل رأس "زارا". تداخلت وجوه "أوجستا" و"أوليدا" والجدّة في ذهنها، وأمست وجهًا واحدًا. لم تجرؤ على النظر يمنةً أو يسرةً؛ لأن أشجار الغابة كانت تتحرك، وتمدُّ أطرافها باتجاهها. هل تريد "أوجستا" أخذ "زارا" معها إلى المستنقع؟ هل ترغب في أن تجعلها تتبعها أينما تهيم؟ علقت البشائر الأولى للضباب الصباحي بخدّي "زارا". عليها أن تركض، أن تسرع. عليها أن تصل إلى هناك قبل بزوغ الفجر، وإلا رآها كل من في القرية. عليها أن تفكر في قصة تقولها للشخص الذي صار يقطن منزل الجدّة. بعد ذلك، عليها أن تبحث عن "أوليدا ترو". ربما سيتمكن أحد ممن يقيمون في المنزل من مساعدتها. عليها أيضًا أن تفكر في قصة تحكيها لـ"أوليدا". لكن القصة الوحيدة العالقة في ذهنها هي حكاية "أوجستا".. الأميرة المجنونة.. الباكية. ربما "زارا" أيضًا مجنونة، وإلا فما الذي يجعلها تركض على طريق مجهول، بغية الوصول إلى منزل سمعت عنه فقط من جدتها؟ منزل ليست متأكدة من وجوده أصلاً. حقلٌ كبيرٌ. منزل. مرّت به راكضة. منزلٌ آخر. قرية. كلب. نباح، يمتد من بيتٍ إلى الذي يليه. بيوت. مخازن أدوات المزارع. حظائر. حُفر الطريق. جميع تلك الأشياء تصدر إيقاعًا يتماشى مع النبض الذي يضرب ما وراء عينيها. بين الحين والآخر، تحاول السير في الممر المائي المجاور للطريق، لكنها ظلت تتعثّر بالأسلاك الشائكة، وبشجيرات التوت البرّي. أخرجت نفسها بصعوبة، وعادت للسير على الطريق. رائحة الجير الرطبة. برك الماء الصغيرة والضحلة. حفر الطريق. حاولت أن تركض أسرع من نباح الكلاب. ضباب الصباح يضغط على بشرتها وعينيها. أزاح الليل ستائره، حدود القرية الخيالية تفيض بالحياة من حولها. الدرب المؤدّي إلى المنزل، ينتهي بمجموعةٍ من أشجار الصفصاف. وهناك قطعةٌ حجريةٌ كبيرةٌ في أوله. هل ستبدأ حكاية "زارا" لدى بوابة ذلك المنزل؟ حكايةٌ جديدةٌ؟ حكايتها هي؟

## الجزء الرَّابِع

"تحرّرتُ، في الوقت الراهن؛ لأولد في عالمٍ آخر".

- الشاعر الإستوني "بول - إيريك رومو"



أكتوبر 1949

## عاشت إستونيا حُرّة!



أقرأ خطابات "إنجل" من جديد. أفتقد فتاتي. أشعر بشيء من الارتياح لمعرفتي بأن أمورهما تسير على نحوٍ جيّد هناك. أرسلتا عددًا هائلًا من الخطابات. في المرة الأخيرة التي تم إرسال الناس فيها إلى "سيبيريا"، كانوا يبعثون خطابًا أو اثنين في السنة، والأخبار لم تكن جيدة.

يجب أن أقوم بقطع بعض الأخشاب، لصناعة البراميل. هذا هو الوقت المناسب لفعل ذلك، وإلا سيكتمل القمر ويزداد نوره، وسيكون الوقت قد تأخّر كثيرًا. متى سأتمكن من صناعة براميل للبيت الجديد؟ متى سأعني ثانية؟ سوف تنسى حنجرتي كيفية أداء ذلك، عمًا قريب.

أشعر بالقمر وقد أمسى بدرًا، ولا أستطيع النوم. عليّ أن أخبر "ليدا" بأن الوقت ملائم لقطع الحطب للتدفئة. الخشب الذي يُقطع في مرحلة البدر، يجفّ جيدًا. لكن ذلك الرجل الذي تزوّجته لا يفهم هذه الأمور. إنه جاهلٌ بأعمال المزرعة، كجهل "ليدا" بالأعمال اليدوية. تعرّض أحد الجوارب التي صنعتها لي "إنجل" لثقب، وقامت "ليدا" برتقه. لم يعد بعدها صالحًا للاستخدام.

لو أن بحوزتي شيئًا من عصير التوت الذي كانت تعدّه "إنجل".

كان عليّ "ترومان" أن يأتي، بحلول هذا الوقت.

أرغب في ركل الحائط.. لكنني لا أستطيع.

- "هانس بيك"، ابن "إيريك"، فلاح إستوني



1992

"لانيما" - إستونيا

الرؤية في الظلام



ذبل البصل في الإناء على النار بما يكفي. أضفت له "أوليدا" السُّكَّر والملح والخلّ. جعل  
الفجل الحارَّ أعين "أوليدا" و"زارا" دامعة. فتحت "أوليدا" النافذة ليدخل بعض الهواء.  
قرّرت "زارا" أن توجه لها سؤالاً مباشراً. ربما كان من الأفضل أن تبدأ بـ"مارتن"، وأن توجّل  
استفساراتها بشأن جدّتها. قبل أن تبدأ بالتفكير في صيغة السؤال، شعرت المرأتان بالدُّعر  
مع ارتفاع صوت سيارة تقترب.

- هل تنتظرين زوّاراً؟

- كلاً. إنها سيارة سوداء.

- يا إلهي! إنهم هنا.

أغلقت "أوليدا" الباب الأمامي، وعمدت إلى إقفاله بالمفتاح. ثم سارعت بوضع الترياس  
على باب حجرة المون، وإسدال الستائر.

- سوف يغادرون، حين يدركون أنه لا أحد هنا.

- كلاً، لن يفعلوا.

- بالطبع سيفعلون. ما الذي سيجعلهم يجلسون في حديقة المنزل، إن كان لا أحد في

البيت أصلاً؟ لم يرك أحد تأتين إلى هنا، أليس كذلك؟

- نعم.

- حسنٌ إذًا. ابقِ بالداخل حتى الغد. تحسبًا لتجولهم في القرية. لا مكان ليتجولوا فيه،

على كل حال. القرية شبه مهجورة.

هرّزت "زارا" رأسها بعنف. سوف يعرف الرجلان، بكل تأكيد، بأنها كانت هنا، إذا وجدنا

المنزل خاليًا. سيتصوران بأنها كانت تختبئ هنا، وسيقومان باقتحام البيت عنوةً، وتفتيشه

بدقة، وسوف يعثران...

- سيقومان بإيذائك!

- اهديني يا "زارا". اهديني. والآن.. نفذي ما سأقوله لكِ.

مع أخذ ضعفها الجسدي في الاعتبار، بدت "أوليدا" حازمة. أصغر وأكبر - في آنٍ واحدٍ -

ممًا هي عليه. سارت نحو الدولاب، بخطواتٍ عادية. أمسكت حافة الدولاب بيدٍ متمرسة.

- تعالي وساعديني.

جرّتا الدولاب بعيدًا عن الحائط، وسحبت بآبٍ وفتحته.

دفعت "أوليدا" الفتاة المترددة داخل الحجرة الصغيرة، ثم وضعت يدها فوق صدرها.

قلبها ينبض بشكلٍ متسارع. لم تستطع إنهاء كوب الماء بأكمله. شربت منه القليل، ثم مسحت

وجهها بمنديلٍ ورقي، ووضعت "إيشاربًا" فوق رأسها. بلل العرق الغزير شعرها، لدرجة أن

إبقاءه دون غطاء كان سيبدو مُريبًا، إذ سيعتقد الرجلان بأنها تتعرق من شدة الخوف؛ هذا

إن كانا بالفعل الرجلين اللذين يلاحقان "زارا". ماذا لو كان الفتية الذين يقذفون الحجارة على

نافذتها، ويغنون أمام بيتها، هم رُكَّاب السيَّارة؟ ماذا لو كانوا قد قرروا بأن تكون هذه زيارتهم الأخيرة لمنزل "أوليدا"، وأن يقوموا بإنهاء حياتها؟  
تستطيع سماع السيارة وهي تقترب بحذر. لا بد أن سائقها قد لاحظ الحُفَر التي تملأ الطريق.



داخل الحجرة الصغيرة، مدَّت "زارا" ذراعيها على استقامتهما. لامست أصابعها الحائط من الجانبين. رائحة الطين. طينٌ رطب. جدرانٌ رطبة. هواءٌ خانق، قليلُ الأكسجين، يمتزج بالعفونة والصدأ. ها هي هنا. لو فعلاً شيئاً في "أوليدا"، فقد لا تتمكن من الخروج أبداً. هل ستصرخ حينها "أنا هنا"؟ كلاً.. لن تصرخ. ستبقى هنا، ولن تتمكن من إخبار الجَدَّة عن الحالة الراهنة للمكان. لماذا ينبغي أن ينتهي كل شيء بهذه السُّرعة؟ كان عليها أن تكون أكثر صلابة، مثل "باشا" على نحوٍ ما. سوف يجبر "باشا" "أوليدا" على قول أي شيء يريد. حتى لو أرادها أن تغني مثلاً. لن يتردَّد في ضربها لفعل ذلك. ربما كان على "زارا" اتباع الأساليب نفسها، لمعرفة سبب غضب "أوليدا" الشديد من الجَدَّة؛ ولماذا أصرَّت أمها على أنها ليست لديها خالة. كان بمقدور "زارا" أن تعامل "أوليدا" بشيءٍ من القسوة، لو أن الأخيرة كانت أقل طيبة، ولو أنها لم تصبَّ لها فنجائاً من القهوة، ولو لم تعدَّ لها حمَّاماً لتستحم. لقد مضى وقتٌ طويلاً منذ أن عاملها أحد بهذه الطريقة. صارت لينةً وطبيعةً، بدلاً من أن تصبح قاسية كما كان عليها أن تفعل. كان عليها أن تتذكر أن الوقت ضيقٌ، وأن تتصرف على ذلك الأساس.

ألصقت "زارا" أذنها بشقِّ الباب. سوف يدقُّون الباب الأمامي بعد قليل. هل تنوي "أوليدا" السماح لهم بالدخول؟

فتحت "أوليدا" الستائر، وفتحت صفحات مجلة وضعتها فوق الطاولة، ثم سكتت لنفسها بعض القهوة، وكأنها كانت تجلس بهدوء، تقرأ "نيللي تيتايا" وهي تتناول إفطارها. هل تركت الفتاة أثرًا يدل على أنها كانت في المطبخ؟ كلاً. لا شيء. لم يسعفها الوقت لصب القهوة لكليهما. إن كانوا قادمين، فليأتوا جميعاً.. أفراد المافيا، أو الجنود - الحمر أو البيض - الروس، والألمان، والإستونيون.. فليأتوا. سوف تتجاوز الخطر. لطالما فعلت.

لم تكن يداها ترتعشان. الرعشة التي بدأت في تلك الليلة، داخل دار مجلس المدينة، توقفت ما إن وصلت عمراً معيناً. عمرٌ معينٌ لن يزعجها فيه أحد، بالطريقة التي حدثت في دار مجلس المدينة. ومنذ سفر "تالفي"، لم يعد لديها من تخاف عليه. سرت رجفة في معصمها. لا بأس. لديها الآن شخص في الحجرة الصغيرة، مرةً أخرى. شخصٌ يبتابها القلق عليه. بجسدٍ متماسك، ووجهٍ حريريٍّ نَضِر، ورائحة فتاة صغيرة. إنها تجفل كبنيت صغيرة كذلك. هل كان لـ "أوليدا" نفسها المظهر ذاته، في ذلك الوقت؟ هل كانت تضع ذراعها أمام نهديتها؟ هل أخافتها الأمور التافهة؟ هل كانت تتلفت حولها في هلع كلما سمعت صوتاً مفاجئاً؟ أحست بغثيان، مرةً ثانية، تجاه الفتاة.

بدا أن السيارة قد توقفت على حافة الحقل. خرج منها رجلان غير مألوفين. ليسا من فتيان القرية. ليسا فتية أصلاً. ما الذي أتى بهما إلى هنا؟ تأمل الطبيعة؟ لعلهما يقيمان الغابات. أشعل كل واحدٍ منهما سيجارة، بهدوءٍ وعدم اهتمام. تماماً كما كانوا يفعلون في الماضي. الرجال، بأحذية الـ"بوت" المصنوعة من الجلد المدبوغ، كانوا دائماً هادئين في أول الأمر. سرت رجفة في كتف "أوليدا". وضعت يدها عليه. تبلمت مقدمة الـ"إيشارب".

كان هناك طرُقٌ على الباب. طرُقٌ قويٌّ، لرجل اعتاد إطلاق الأوامر. صلصة الطماطم والبصل على النار. المبشرة فوق طبق. هناك نصف حبة طماطم، غير مقطعة. وضعتها "أوليدا"، مع السكين، بين الأعشاب المفرومة، وأمسكت بالمبشرة. كل ما في المطبخ يدل على أنها وسط عملية تخزين وتعليب، لكنها

لفرط ارتباكها جعلت الطاولة تبدو وكأنها في استراحة لتناول القهوة. الباب يدق بقوة. دفعت "أوليدا" بطبق الفجل إلى حافة الطاولة، حيث يقع الدُّرج - وبداخل الدُّرج يقع مسدس "هانس" - استنشقت نفسًا طويلًا، أبخرة الفجل الحارَّ أحرقت أنفاسها، فدمعت عيناها. مسحت دموعها، ثم فتحت الباب. صرَّت مفصلات الباب، وتطايرت الستائر، ومَرَّت الريح عبر ثوب "أوليدا" المنزلي. أَحسَّت بلمس المقبض المعدني للباب على أصابعها. سطعت الشمس بقوةٍ وحدَّةٍ في حديقة البيت. حيَّأها رجل. وقف وراءه رجل آخر. أكبر سنًا. قام بتحيتها هو أيضًا. استطاعت "أوليدا" أن تشم رائحة ضابط المخابرات الروسية، عبر الفجل. هبَّت رائحته نحوها، كهواءٍ فاسدٍ في سندرة. شعرت بأن الريح الآتية من الخارج، تخالطها مرارة. بدأت "أوليدا" تتنفس من فمها. إنها تعرف الرجال من هذا النوع. الذين يقفون بهذه الطريقة، والذين يعرفون كيف يعاقبون المرأة، وهما هنا لأخذ امرأة ومعاقبتهَا. أشخاصٌ يتَّسمون بالوقاحة. يتَّسمون ابتساماتٍ عريضةٍ، بأسنانٍ ذهبية. يحشرون أجسادهم داخل ملابسهم الرسمية ويضعون قُبَّعاتهم، وهم متيقِّنون من أن أحدًا لن يجرؤ على رفض طلباتهم وأوامرهم. ذلك النوع من الناس الذي يلبس أحذية "بُوت"، كي يسحق تحتها كل من يقف في طريقه.

أراد الرجل الأصغر سنًا الدخول. تنحَّت "أوليدا" جانبًا، ثم ذهبت لتجلس إلى الطاولة، على الجانب الذي وضعت فيه طبق الفجل. أخذت المباشرة ووضعتها على الطبق. كفها اليسرى مفتوحة فوق مفرش الطاولة، ويدها اليمنى فوق حجرها. المسافة بين يدها والدُّرج، صغيرةٌ جدًّا.

جلس الرجل دون دعوة، وطلب كوبًا من الماء. رجل المخابرات الروسية الآخر لم يدخل المطبخ. إنه يتمشَّى حول المنزل. اقترحت عليه "أوليدا" أن يصب لنفسه بعض الماء من الدلو. الماء نظيف من المضحَّة.

قالت "أوليدا":

- لدينا ماء جيد، وبئرٌ عميقة.

وقف الرجل، وشرب الكثير من الماء. دمعت عيناه بسبب الفجل. فركهما بأصابعه. بدأت حركاته تشي بانزعاجه وتذمُّره. أَحَسَّت "أوليدا" بالتوتر، وبانقباضٍ في قلبها، لكن الرجل واصل ثرثرته عن هذا الأمر وذاك، وهو يتمشى ببطء ولا مبالاة في المطبخ. توقَّف أمام باب الدولاب وركله بقدمه، فاتحًا إيَّاه. ارتطم الباب بالحائط، فاهتز الحائط قليلاً. مع ركلة الـ"بُوت"، تساقط بعض الطين على الأرض. تقدَّم الرجل قليلاً باتجاه الباب، لكنه لم يعبره لبقية أرجاء المنزل. عاد ودخل المطبخ، ثم سار باتجاه الثلاجة، ونظر إلى الأوراق الموجودة فوقها. توجَّه بعدها إلى خزانة المطبخ، وتناول الأشياء من على رفِّها.. فتح أغطية البرطمانات، وقَلَّب بين يديه فنجان قهوة، وزجاجة شامبو فنلندي، وقطعة صابون "إمبيريال ليدر". ثم أشعل سيجارة "مارلبورو"، وأخبرها بأنه يعمل في جهاز الشرطة.

- "باشا أليكراندروفيتش بوبوف".

ناول "أوليدا" أوراقه إثبات الشخصية.

أعادتها إليه، وهي تقول:

- هناك كثير من الأوراق المزوَّرة في هذه الأنحاء.

أجابها ضاحكًا:

- نعم، هذا صحيح. الارتياب أمرٌ صحيٌّ، في بعض الأحيان. ولكن عليك أن تعرفي بأن

مصلحتك تقتضي أن تطيعيني. من أجل سلامتكِ.

- لا شيء خطير هنا.

- هل شاهدت فتاةً غريبةً؟

قالت "أوليدا" بأنها لم تفعل، واشتكت من قَلَّة الأحداث في الريف. استنشق

الرجل الهواء بقوة، ثم ضيَّق عينيه ليتخلص من الدموع. الفجل يطلق حرارته في

الهواء. بادلته "أوليدا" النظر، ولم تُشِح بعينيها عنه. احمرَّ جفناه السفليان،

وتجمّعت الإفرازات في جوانب عيني "أوليدا"، لكن تحديق أحدهما في الآخر ظل مستمرًا، إلى أن توجّه الرجل إلى الباب وفتحه. دخلت الريح عبره. سرت رجفة في كتف "أوليدا". وقف الرجل أمام الباب، ناظرًا إلى الحديقة. انتفخ معطفه بفعل الهواء. التفت ثانيةً، بعد أن هدأت عيناه. أخرج مجموعةً من الصور الفوتوغرافية من جيبه، ووزّعها فوق الطاولة.

- هل رأيت هذه المرأة؟ نحن نبحث عنها.



لم تجرؤ "زارا" على التّحرُّك. الأصوات التي تصل إلى الحجرة ضعيفة للغاية، لكنها مسموعة. سمعت "أوليدا" وهي تتحدّث بالروسية، وهي تفتح الباب الأمامي، وتحييهام بتهديب. قال "باشا" بأنهما قد قاما بقيادة السيارة لمسافة كبيرة، ويشعران بالعطش، ثم أخذ يثرثر بموضوعاتٍ مختلفة. اقتربت الأصوات وابتعدت. سألته "أوليدا" إن كان صديقه يحب الزراعة والعناية بالحدائق. لم يفهم "باشا". قالت "أوليدا" إنها يمكنها رؤية صديقه عبر النافذة، وهو يسير في حديقته. الواقع - بطبيعة الحال - هو أن "لافرينتي" كان يراقب المنزل من الخارج. لا بدّ أنه "لافرينتي". أو ربما جاء "باشا" مع شخصٍ آخر. ذلك مستبعد. كان "باشا" معتادًا على سلوكيات وتصرفات "لافرينتي". إنه غيبيّ بعض الشيء، لكن لا ينبغي عليك التركيز على تلك المسألة. تمّنت "أوليدا" ألا يسحق أحواض أزهارها بقدميه.

- لا تقلقي. إنه يحب الحدائق.

فجأةً، صار صوت "باشا" قريبًا للغاية. تجمّدت "زارا" في مكانها.

- إذًا، هل رأيت أي فتاة غريبة في هذه الأنحاء؟

حبست "زارا" أنفاسها. علقت ذرّات غبار في حنجرتها الجافة. لم تستطع أن تكحّ. لا يمكنها أن تكحّ. أجابته "أوليدا" بأن المنطقة هادئة، ولذلك فإنه لو دخلها شخصٌ غريب، سيكون الأمر ملحوظًا على الفور. كرّر "باشا" سؤاله.

شعرت "أوليدا" بالخوف والصدمة من إصراره وإلحاحه. فتاة شابة؟ فتاة غريبة شابة؟ ما الذي سيجعلها تراها؟ لم تكن ردود "باشا" واضحة. قال شيئاً عن شعرٍ أشقر. صوت "أوليدا" أكثر وضوحًا. كلا. لم تر فتاة بشعرٍ أشقر في الجوار. "باشا" يحمل معه صورةً للفتاة. أيُّ صورة؟ هل يلفُّ البلد عارضًا صورتها على الناس؟ أي نوعٍ من الصور؟ اقترب صوت "باشا" مرّةً أخرى. خشيت "زارا" أن تكون نبضاتها مسموعةً عبر الجدران. لـ"باشا" أذنان حادّتان.

- هل لديك سبب يجعلك تتوقّع وجودها هنا؟

ابتعد "باشا" قليلًا، كما يبدو، إذ أتاها صوته متقطعًا.

- انظري.

هل يُريها "باشا" تلك الصور؟ ولكن أي صورٍ أخرى يمتلكها لها؟ ولو رأتها "أوليدا". تجشّأت "زارا"، بغتةً. انتشر طعم المنّي داخل فمها. أغلقت شفثيها بسرعة. هل يمكنهما سماعها من المطبخ؟ كلاً. يمكنها هي سماع الأصوات الخافتة لـ"باشا" و"أوليدا"، عبر ورق الحائط، وهما يواصلان حوارهما. انتظرت "زارا" انطلاق نبرات الدهشة والتعجب من "أوليدا"، إذ لا يوجد ردُّ فعل آخر أمام تلك الصُور. هل قام "باشا" بتوزيعها على سطح الطاولة، بحركاتٍ بطيئة، صورة تلو أخرى؟ أم هل ناولها جميعًا لـ"أوليدا"، مرّةً واحدة؟ كلاً.. إنها متأكدة من أنه سيضعها فوق الطاولة، كما لو كانت أوراق "كوتشينة" في لعبة "سوليتير"، ثم سيطلب من "أوليدا" أن تنظر إليهم. ستحملق "أوليدا" في الصور، وتشاهد التعبيرات المرّتسمة على وجه "زارا"، والتي علّمها "باشا" لها.. الفم المفتوح، واللسان الممتد إلى الخارج، وكل تلك الحركات المثيرة للاستفزاز. وعندها، سترشده "أوليدا" إلى مكانها. ستخبره، بالتأكيد. بطبيعة الحال. لأنها ستكره "زارا"، فور رؤيتها للصور. سترى تلك القذارة، وسترغب



في إخراجها من منزلها. سيحدث ذلك الآن. سيفتح "باشا" باب الحجرة ضاحكًا، عمًا قليل، وهو يقف والضوء خلف، وسينتهي كل شيء.

تراجعت "زارا" إلى مؤخرة الحجرة الضيقة، والتصقت بالجدار، في حالة انتظار. الظلام حولها حارق. شعيرات رأسها القصيرة، منتصبة. لقد رأت "أوليدا" الصور. مشاعر الدُّلّ تتدافع بقوة تحت جلد "زارا". تحسُّ بأن جسدها مليءٌ بجروحٍ غير مندملة. سوف يُفْتَح الباب عمًا قليل. عليها أن تغمض عينيها، وأن تنسى أنها في عمق هذه الحجرة، وأن تتخيَّل أنها في مكانٍ آخر. إنها نجمة. إنها أذنٌ في رأس "لينين". إنها شعيرات شارب "لينين". إنها شاربٌ من الورق المقوّى على ملصق من الورق المقوّى. إنها زاوية لبرواز صورة. بروازٌ مائلٌ من الجصّ، بأجزاء مكسورة، في أحد أركان الغرفة. إنها ذرّة طباشير فوق سطح سبّورة، داخل فصل مدرسي آمن. إنها طرف العصا الخشبية المستخدمة في الإشارة والشرح في المدرسة.



الصُور مطبوعة على ورق غربي مستورد. بها لَمعةٌ غريبةٌ. شفتا "زارا" المصبوغتان بالأحمر الفاقع، لهما وميضٌ معتم بعض الشيء، فوق مفرش الطاولة البلاستيكي. الرموش المتخشبة تمتدُّ كبتلات الأزهار على اللون الأزرق اللؤلؤي الذي يُلطِّخ أجفانها. تنتشر على وجهها حبوب وردية، منتفخة، على الرغم من أن بشرتها تبدو شديدة الجفاف. ياققتها المصنوعة من الصوف المحبوك، بدت مُعَوَّجة، وكأنَّ أحدًا كان يجذبها منها.

قالت "أوليدا":

- لم أرها مُطلقًا.

لم يُظهِر الرجل انزعاجه. واصل حديثه، وكل كلمةٍ تخرج منه تشبه خطوة ثقيلة من

حذاءٍ رجاليٍّ ضخم:

- العالمُ بأكمله يبحث عنها الآن.

- حقًا؟! لم أسمع شيئًا عن ذلك، على الرغم من أن الراديو لديّ مفتوحٌ طوال الوقت.  
- التَّكْتُمُ على هذه المسألة أمرٌ متعمَّد ومقصود، كي نتمكن من محاصرتها. كلما تخيلت  
أننا نهمل البحث عنها، صارت تصرفاتها أقل حيلةً وحرارًا.  
- آه..

- سيدتي.. هذه المرأة مجرمةٌ خطيرة.

- خطيرة؟!!

- لقد ارتكبت عدَّة جرائم.

- أيُّ نوعٍ من الجرائم؟

- لقد قامت هذه المرأة بقتل عشيقها في فراشه، بدمٍ بارد.

عاد رجل المخابرات الروسية من الحديقة، ووقف خلف الرجل الأصغر سنًا. أخرج  
المزيد من الصور الفوتوغرافية من جيب معطفه الجلدي. قام الرجلان بوضعها فوق صور  
"زارا".

- ها هي جثته. من فضلك، انظري إلى الصور، وفكِّري ثانية.. هل رأيتِ هذه المرأة؟

- لم أرها من قبل، مُطلقًا.

- انظري إلى الصُّور، من فضلك.

- لستُ بحاجةٍ إلى ذلك. سبق لي رؤية جثث من قبل.

- تبدو الفتاة بريئة جدًّا، ولكن بعد ما فعلته بعشيقها... كان شديد التعلُّق بها. قامت  
الفتاة بخنقه، دون سبب. كتمت أنفاسه بوسادة، أثناء نومه. أنت تعيشين هنا بمفردكِ،  
أليس كذلك، يا سيدتي؟ سوف تنامين بسلام، وتحلمين حلمًا سعيدًا، ولن تستيقظي منه أبدًا.  
قد يحدث هذا في أي ليلة. حين لا تتوقعينه. حين تكونين غير مُستعدةٍ لمواجهته، على  
الإطلاق.

تحركت يد "أوليدا" تحت أطراف المفرش البلاستيكي. تعلقت أصابعها بمقبض الدُّرج، تأهبًا لفتحته بسرعة. كان عليها أن تستعد، بوضع المسدس فوق الكرسي. انبعثت الحرارة من أكوام الفجل الأبيض تحت المباشرة، أمامها، فغطت على رائحة عرق الرجل الروسي. استند الرجل، الذي قال إن اسمه "بوبوف"، إلى الطاولة، وحدق فيها.

- حسنًا.. سأُتصل بك إذا جاءت إلى هنا.

- لدينا سببٌ يدفعنا للاعتقاد بأنها سوف تأتي.

- وما الذي سيجعلها تأتي إلى هنا تحديدًا؟

- إنها من أقربائك، يا سيدي.

- ما هذه الحكاية العجيبة؟

قالت "أوليدا" ذلك وهي تضحك. تماوجت ضحكتها على حافة فنجانها.

- جدّة الفتاة تعيش في "فلاديفوستوك". اسمها "إنجل بيك". شقيقتكِ. الأهم من ذلك..

عليكِ أن تعرفي أن الفتاة تتحدّث الإستونية. تعلّمتها من أختكِ.

"إنجل؟!.. لماذا يتحدّث عن "إنجل"؟"

- ليس لديّ أخت.

- وفقًا لسجّلاتنا، لديكِ أخت.

- لا أدري ما الذي أتى بك إلى هنا، لتؤلّف هذه القصص.. لكنني...

- هذه المرأة، "زارا بيك"، ارتكبت جريمةً في هذا البلد، وليس لها معارف هنا، سواكِ،

على حدّ علمنا. بطبيعة الحال، سوف تأتي إلى هنا، للقاء قريبتها التي لم ترها أبدًا. ستتصوّر

أنكِ لا تعرفين شيئًا عن جريمتها.. إذ لن تكون هناك إشارةٌ عنها في الراديو والصحف، ولذلك

ستحضر.

"بيك؟!.. الفتاة تحمل اسم "بيك"؟"

كزّرت "أوليدا" إجابتها السابقة:

- ليس لديّ أخت.

تراخت أصابعها. عادت يدها إلى مكانها فوق حجرها. "إنجل" على قيد الحياة.

ركل "باشا" كرسيّاً.

- أين الفتاة؟

- لم أرَ أيّ فتاة!

حرّكت الريح النعناع المُعدّ للتجفيف، فوق سطح الموقد، وأزهار الأقحوان فوق

صفحات الجرائد. تطايرت الستائر. مسح الرجل رأسه الأصلع، وخفّض صوته:

- أنا متيقن من أنكِ تدركين مدى خطورة الجريمة التي ارتكبتها هذه المرأة، "زارا بيك".

اتّصلي بنا، من أجل مصلحتك إذا أتت إلى هنا. نهارك سعيد.

توقّف للحظة أمام الباب.

- عاشت "زارا بيك" مع جدّتها، إلى أن سافرت لتعمل في الغرب. لقد تركت جواز

سفرها، ومحفظتها، ونقودها، في مسرح الجريمة. إنها بحاجة لمن يساعدها. أنتِ خيارها

الوحيد.



العجز التام، جعل "زارا" تسقط أرضاً.

الجدران تلهث، والأرض تشهق. الأرضية الخشبية منتفخة بالرطوبة. لورق الحائط

حفيف. أحسّت بدبيب أقدام ذبابة تسير فوق خدّها. كيف يتمكن الذباب من الرؤية في

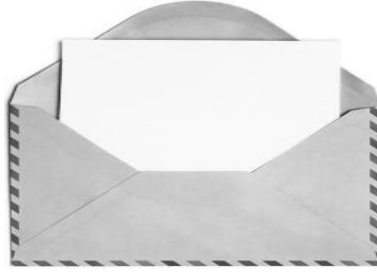
الظلام، لكي يطير؟

صارت "أوليدا" تعرف الآن.

1949

"لانيما" - الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية

خطابات مليئة بالأنباء السارة



لم تأتهم أي أخبار من "إنجل"، ولكي تسيطر "أوليدا" على قلق وتوتر "هانس"، بدأت تكتب خطابات باسم "إنجل". لم تعد تتحمّل أسئلته اليومية.. هل سمعت شيئاً عن "إنجل"؟ هل وصلت أي خطابات؟ وتلك الطريقة التي يفكر بها طوال الوقت فيما تفعله "إنجل" في هذه اللحظة أو تلك. كانت "أوليدا" تعرف أسلوب أختها في الكتابة وقصّ الحكايات، وتجيد تقليد خطها بسهولة. كتبت تقول بأنها قد وجدت رسولاً تثق به، وبأنه يُسمح لهم بتلقي الطرود. أحسّ "هانس" بالسعادة. أخبرته "أوليدا" عن جميع الأشياء التي تملأ بها الطرود التي ترسلها لـ"إنجل"، تحسباً لأي طارئ قد تعرّض له وهي هناك. ثم توصل "هانس" لفكرة إرسال تحيّاته أيضاً.. شيئاً تفهم "إنجل" أنه منه.

- أحضري فرعاً من الصففاة القريبة من الكنيسة. سنضعه داخل الطرد. لقد التقينا للمرة الأولى تحت تلك الصففاة.

- هل ستتذكر "إنجل" شيئاً مثل ذلك؟
- بالطبع ستتذكر.
- أحضرت "أوليدا" فرعاً من أول شجرة صفصافة صادفتها.
- هل هذا مناسب؟
- من الشجرة القريبة من الكنيسة؟
- نعم.
- وضع "هانس" أوراق الشجر على وجهه.
- رائحة رائعة!
- ليس للصفصاف أي رائحة.
- ضعي كذلك فرعاً من شجرة صنوبر.
- لم يقل لها سبب أهمية فرع الصنوبر، ولم ترغب "أوليدا" في معرفته.
- سألتها "هانس":
- هل سمع أحدٌ آخرُ شيئاً من "إنجل"؟
- كلاً، على الأغلب.
- هل سألتِ؟
- هل جُنتت؟ لا يمكنني أن أطوف القرية وأنا أسأل عن "إنجل"!
- أسألي شخصاً تثقين به. لعلها كتبت لأحد.
- لا أدري.. لن أفعل ذلك!
- لن يجروُ أحد على إخبارك، إن لم تبديّ بالسؤال. لأنك متزوجة من ذلك الخنزير الشيعوي. لو قمتِ بسؤالهم، فلن يظنوا أنك...

- "هانس"! حاول أن تفهم. لن أذكر اسم "إنجل" خارج هذا المنزل. أبدًا.  
تركها "هانس"، عائداً إلى الحجرة الصغيرة. لم يحلق ذقنه لعدة أسابيع.

بدأت "أوليدا" تكتب أخبارًا سارة.

أي نوع من الأخبار السارة يمكنها الكتابة عنه؟

أولاً، كتبت أن "ليندا" قد التحقت بالمدرسة، وأن أمورها تسير على نحو جيد. قالت إن هناك كثيرًا من الأطفال الإستونيين معها في الفصل.

ابتسم "هانس".

ثم كتبت تقول إنهم وجدوا عملاً كطباخين، ولذلك فإن الطعام متوفر دائماً.

تنهّد "هانس" بارتياح.

بعدها، كتبت "أوليدا" بأن عملها كطاهية، يمكّنها من مساعدة غيرها. حين يصل الناس إلى الـ"كولخوز"، يوشكون على البكاء، تأثراً، حين يعرفون وظيفتها. تدمع أعينهم حين يدركون أنها توزع الخبز على الناس، يوميًا.

عقد "هانس" حاجبيه، بانزعاج.

كان ذلك اختياراً غير موفق للكلمات. كأنها تشير إلى نقص الطعام.

عقب ذلك، كتبت "أوليدا" بأن الخبز متوفر للجميع، بكمياتٍ غير محددة. انتهى نظام الحصص المحددة للأطعمة.

أحس "هانس" بالارتياح. ارتياحٌ من أجل "إنجل".

حاولت "أوليدا" عدم التفكير في المسألة. أشعلت سيجارة "بيبروسّي"، لتزيل بها رائحة

الرجل الغريب العالقة في المطبخ، قبل عودة "مارتن" إلى البيت.

1992

"لانيما" - إستونيا

إنقاذ السُّكرية



ابتعد صوت السيارة، وتلاشى. بدأ الطَّرق من داخل باب الحجرة الصغيرة. أخذ الدولاب الموضوع أمامه في الاهتزاز. ارتطمت الأطباق أعلاه ببعضها. اصطدم مقبض فنجان "إنجل" بسُّكرية "أوليدا"، فاهتزت، وبدأت حبيبات السُّكر - التي تملؤها حتى الحافة - في التساقط تباعًا. وقفت "أوليدا" أمام الدولاب. للركلات المتوالية طاقةٌ وخيبةٌ شخص فتيٌّ. فتحت "أوليدا" الراديو. صارت الركلات أكثر قوة. عمدت "أوليدا" إلى رفع صوت الراديو.

- "باشا" ليس رجل شرطة! وهو ليس زوجي! لا تصدقي شيئًا مما قاله! أخرجيني!  
حكَّت "أوليدا" رقبتها. شعرت بضيق في حنجرتها، لكنها لم تكن متأكدة من شعورها. رجع جزءٌ منها إلى تلك اللحظة، قبل عقودٍ من الزمن، أمام مكتب الـ"كولخوز"، حين تسرَّبت كل قواها عبر ساقبها، إلى الرمال. الآن، ليس هناك سوى أرضية المطبخ الأسمنتية تحتها. انتشر منها صقيعٌ شديد البرودة،



وانبعث في كعبي قدميها، ومنهما إلى عظامها. إنه الإحساس ذاته في معسكرات مدينة "آرخانجيلسك". أربعون تحت الصفر. ضبابٌ كثيفٌ أعلى الماء. رطوبة تتسرب إلى أعماقك. رموشٌ وشفاهٌ متجمدة. حُفَرُ أحواض تجميع مياه الأمطار، المليئة بجذوع الأشجار، كجثثٍ طافية. العمل داخل تلك الأحواض، والمياه التي تصل إلى خصرِك. الضباب اللانهائي. البرد اللانهائي. اللانهائية. همس أحدهم بشيءٍ عن ذلك، داخل السوق. لم تكن أذناها هما المقصودتان، لكن أذنيها صارتا كبيرتين وحساستين، عبر السنوات، كأذان الحيوانات؛ وأرادت سماع المزيد. كانت عينا المتحدث، تحت الحاجبين المعقودين، بالغتي السواد، لدرجة عدم قدرتك على التفريق بين الحدقة والقزحية. حدقت فيها تلك العينان، وكأن المتحدث أدرك بأن بإمكانها سماعه. كان ذلك في 1955، وحركة الإصلاح في أوجها. ابتعدت، مُسرعةً، وقد تضاعفت دقات قلبها.

القبضتان والقدمان تضرب الباب بقوة.

انقشع الضباب من فوق الأرضية الإسمنتية.

هل جاءت للانتقام؟

هل أرسلتها "إنجل"؟

توجَّهت "أوليدا" إلى الدولاب وأزالَت السُّكَّرية، التي كانت على وشك السقوط من على

الحافة.



1950

"لانيما" - الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية

## طعم البعوض



أحسَّت "أوليدا" برجفة وهي تنظف الدولاب البارد. ارتطمت الأطباق ببعضها. اصطدم برطمان العسل بالخشب. سقط الفنجان من على الحافة، وانكسر على الأرض. كان فنجان "مارتن". تناثرت شظاياه على الأرض. تهشَّم مقبضه تحت حذاء "أوليدا" الواقى، مصدرًا صوتًا مسموعًا. استمر نحيب "هانس"، الأقرب للعواء. حاولت "أوليدا" أن تفكر.. لو كان "هانس" قد فقد عقله حقًا، فهل تجرؤ على الذهاب إليه وفتح باب السندرة؟ هل سيهاجمها؟ هل سيسارع بالخروج، ويركض في طرقات القرية، ويجذب أي شخص أمامه ليقصَّ عليه كل شيء؟ هل دخل أحد الحظيرة، وصعد إليه في السندرة؟

بصقت "أوليدا" بصقة سوداء، بفعل الفحم، ثم تمضمضت ببعض الماء، للحظة. لعقت شفتيها، واتجهت إلى الحظيرة. كان السقف يهتز. تمايل السُّلم، وأوشك الوقود داخل الفانوس المعلق في السقف على الانسكاب. صعدت "أوليدا" السلم المؤدِّي إلى السندرة. اهتزت أكوام القش.

- "هانس"؟

توقَّف العواء للحظة.

- أخرجيني!

- ما الأمر؟

- أخرجيني من هنا! أعلم أن "مارتن" ليس بالبيت.

- لن أفتح الباب، إلى أن تخبرني ما الأمر.

صمت.

- "ليدا" .. حبيبتي .. من فضلك.

فتحت "أوليدا" الباب. خرج "هانس" مُترنِّحًا. العرق يتساقط منه بغزارة. ثيابه مُبلَّلة

تمامًا. قدماه متعبتان، وتحملانه بالكاد.

- "إنجل" ليست على ما يُرام.

- ماذا؟ ما الذي يجعلك تعتقد ذلك؟

- حلمتُ بها.

- حلمتُ بها؟

- كانت "إنجل" تحمل مغرفةً بيدها، وأحدهم يسكب بعض الحساء بداخلها. قبل أن

يتمكن من وضع الحساء، امتلأت المغرفة بسِرِبٍ من البعوض. أحسستُ بطعمه في فمي.

طعم الدم الدافئ الحلو. ثم صارت "إنجل" في مكانٍ آخر، وامتلأت الغرفة بالبخار. نزعْتُ

معطفها، وكان مليئًا بالقمل. ممتلئٌ جدًّا به، لدرجةٍ تمنعك من رؤية قماش المعطف.

- "هانس"، إنه مجرد كابوس.

- كلاً! ليس كابوسًا! إنه رؤيا! إن "إنجل" تحاول إخباري شيئًا. لقد فتحتُ فمها قليلاً، وحدّقت في عينيّ، وحاولتُ أن تفتح فمها أكثر. حاولتُ أنا أن أفهم ما تقوله، لكنني استيقظت قبل أن أسمعها. كنتُ لا أزال أشعر بطعم البعوض في فمي، وأحسُّ بالقمل فوق جسدي.

- "هانس" .. لقد كتبت "إنجل" تقول إن كل شيء على ما يُرام؛ ألا تتذكر؟  
- حاولت أن أعود للنوم، لأعرف ما كانت "إنجل" تحاول قوله، لكن القمل كان يزحف فوقي.

- ليس لديك قمل!  
ثم لاحظت "أوليدا" بأن خدوشًا دامية تغطي ذراعيّ "هانس" ورقبته ووجهه، وأن أطراف أصابعه لونها أحمر.  
- "هانس"، اسمعني جيدًا.. لا يمكنك الاستسلام لمثل هذه النوبات مرّة أخرى. هل تفهم؟ أنت تخاطر بكل شيء.

- كانت "إنجل"!  
- كان كابوسًا.  
- لقد رأيتها!  
- كان حلمًا. اهدأ الآن.  
- علينا أن نخرج "إنجل" من هناك.

- "إنجل" بخير. سوف تعود، ولكن عليك أن تظل مختبئًا إلى أن يحين الوقت. ما الذي ستقوله "إنجل" إن أتت إلى هنا، ورأتك على هذا الحال؟ ألا تريدها أن تحظى بالـ "هانس" نفسه الذي تزوجته عندما تعود؟ لن ترغب "إنجل" في رجلٍ مجنون!

تناولت "أوليدا" يد "هانس"، وضغطت عليها. تراخت أصابعه المثلجة في قبضتها. ترددت للحظة، ثم أحاطته بذراعه. لانت عضلاته المتشنجة، تدريجيًا، وانتظمت دقات قلبه، ثم... وضع يده فوق كتفها.

- أنا آسف.

- لا بأس.

- "ليدا"، لا يمكنني الاستمرار على هذا الحال.

- سأتدبّر شيئًا. أعدك بذلك.

ضغطت يدها كنفها.

جسمه ملائم. ليديه إحساس طيب.

كانت "أوليدا" على استعداد للتضحية بأي شيء، في تلك اللحظة، مقابل أن تصطحبه إلى الحجرة الصغيرة، فوق الفراش. تخلع عنه ثيابه التي يبللها العرق البارد، وتلحق رائحة الموت من جميع مسامه.



لطالما وثقت "أوليدا" في قدرة "هانس" على التصرف بشكل سليم، لكنها لم تعد متأكدة من ذلك بعد اليوم. ماذا لو راوده مزيد من الرؤى؟ ماذا لو حدث ذلك أثناء وجود "مارتن" في المنزل؟ يكون "مارتن" في عمله خلال ساعات النهار، ولكن قد يمرُّ بها أحد سكّان القرية. ماذا لو رفض "هانس" العودة إلى السندرة؟ ماذا لو أثار جلبه أو ضحيجًا، أو اندفع راکضًا خارج المنزل؟ ماذا لو سقط عندها بين أيدي المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية، دون غيرها؟

جهزت "أوليدا" صرةً صغيرةً، وخبأتها في مدخل المنزل، خلف بعض الأشياء.. أقمشة نسائية، وغيرها من الأمور التي لن يفكر "مارتن" في لمسها، أساسًا. يمكنها أن تسارع بأخذها، في أي وقت، إن اضطرتها الظروف للرحيل

عن المنزل. من المستبعد أن تغادر عن طريق آخر، غير الباب. إلا إذا هاجمتُ النوبة "هانس"، وهي داخل حجرة النوم، و"مارتن" في المطبخ؛ ستضطر حينها للقفز من نافذة الحجرة. ربما يتعيّن عليها تجهيز صُرّة ثانية. ولكن حتى لو أخذت معها صُرّة صغيرة، فإلى أين ستذهب أصلاً؟ قد يطلق "هانس" الرصاص على "مارتن"، لو فتح الأخير عليه باب الحجرة التي يختبئ بها، ولكن ما جدوى ذلك؟ ماذا لو كان لديهم ضيوف؟ وحتى لو استطاعت الهروب.. سوف يلقون القبض عليها سريعاً، ويخضعونها للتحقيق. لو اكتشف "مارتن" الأمر، فإن أول ما سيفعله هو تسليمها لهيئة الطوارئ الروسية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب. لا شك في ذلك. سيعتقد رجال الهيئة أن "هانس" عشيق "أوليدا"، وسيرغبون في معرفة كيف ومتى وأين. ربما ستضطر للاعتراف لهم. ربما ستضطر لأن تُريهم.. أن تخلع ملابسها وتُريهم. سيشعرون بالحماس والإثارة لمعرفة أن زوجة "مارتن" لديها عشيقٌ فاشيٌّ. ستضطر "أوليدا" لإخبارهم كل شيء عن عشيقها الفاشيِّ. ولأنها زوجة "مارتن"، فسوف يتعين عليها مقارنة ما تمارسه مع عشيقها الفاشي، بما تمارسه مع رفيقٍ يحظى بالاحترام. أيهما أفضل؟ أيهما يتمتع بانتصابٍ أقوى؟ كيف تمارسين الجنس مع خنزير فاشيٍّ؟ سيشكلون دائرةً حولها، وهم جميعاً في حالة انتصاب. على استعدادٍ لمعاقبتهما. على استعداد لتعليمهما. على استعداد لإزالة أيّ بذرة فاشية بقيت داخل جسدها.

ربما رغب "مارتن" في إجراء التحقيق مع زوجته، بنفسه؛ ليوضح لأصدقائه أنه لا علاقة له بالمسألة بأكملها. سيثبت ذلك عن طريق إمعانه في الضغط عليها بأسئلته، وبكل الطاقة التي يخترنها كزوجٍ مخدوع. وحتى لو صارحتهم "أوليدا" بكل شيء، فإنهم لن يصدقوها، سيستمرون في طرح الأسئلة ذاتها، مرّة تلو أخرى. في النهاية، سيقومون باستدعاء "فولي". ما الذي تردده زوجة "فولي" دائماً؟ إنه مُوفّقٌ جداً في عمله، وأنها فخورةٌ به جداً. حين يفشلون في انتزاع اعتراف من أحد الخارجين على القانون، فإنهم يستدعون "فولي"،

فيحصلون على الاعتراف قبل حلول الفجر. "فوئي" بارع. "فوئي" ماهر. لا يوجد موظف عمومي أفضل منه، على الإطلاق، في جميع أرجاء بلدنا العظيم.

- أنا فخورةٌ بـ"فوئي" للغاية.

همستِ المرأة، بشغفٍ شديد. بالطريقة نفسها التي سمعتها بها "أوليدا" تتحدّث عن الربّ، منذ فترةٍ طويلة. خرجت الكلمات كهالةٍ نورانية، من فمها الذي يلمع ببريق الذهب. الذهب الذي أحضره "فوئي" لها.

- أفضل زوجٍ في العالم.



راقبتُ "أوليدا" "هانس" عن كثب. عيناه ولفئاته. اللحية تُغطّي الكثير، لكن فيما عداها، لا يزال محتفظاً بهيئته القديمة. لا يزال "هانس" نفسه. ثم تكرر الأمر مرّةً أخرى.

- ظهرت لي "إنجل"، الليلة الماضية.

كان "هانس" هادئاً، إلى حدٍّ كبير.

- إذًا فقد رأيتَ كابوسًا ثانيًا؟

- كيف يمكنكِ وصف "إنجل" بالكابوس؟

تبدّل صوته، فجأةً. نظر إليها بغضب. اعتدل في وقفته، ووضع يديه على الطاولة. كان

قد كوّرها.

- ما الذي قالته "إنجل"؟

تراخت قبضتاه.

على "أوليدا" أن تنتبه لما تقوله.

- نادت اسمي. هذا كل شيء. كانت في وسط ضباب أو بخار. وراءها أشخاص. يتجمعون متلاصقين حول موقد. قرييون منه جدًا، لدرجة أن ثياب بعضهم كانت تحترق. لعلهم كانوا يجفّفون ثيابهم، وأمسكت بها النار. لا أدري. لم أستطع الرؤية بوضوح. كانت "إنجل" في المقدمة. لم تُبِد اهتمامًا بالناس الذين كانوا يصرخون خلفها. شممت رائحة دخان. لم تشتك "إنجل" منه.. كانت تنظر إلى الأمام وتناديني. ثم ارتفع البخار من حولها، ثانيةً، ولم يظهر منها سوى رأسها، وواصلت النظر إليّ دون توقّف. ثم تلاشى البخار من جديد. وقفتُ وقد أحاطت بها أسرة من طابقين. امتدّت الأسرة بمحاذاة الحوائط. على السرير المجاور لـ"إنجل"، استلقى رجلٌ يداعب نفسه. على جانبها الآخر، اعتلى رجلٌ امرأة. كانت "إنجل" تقف في المنتصف، والناس يسرون من حولها. ظلت تنظر إليّ. تنهدت، ونادت اسمي مرّة أخرى. إنها ترغب في إخباري بشيء.

- حقًا؟ مثل ماذا؟

- ألسيت متحمسة للأمر، على الإطلاق؟!

أحسّت "أوليدا" بشعورٍ غير لطيف. كأن "إنجل" معها، في الغرفة ذاتها. شاهدت نظرات "هانس" وهي تنتقل إلى ورق الحائط خلفها. سيطرت على نفسها حتى لا تلتفت إلى الورا.

- "إنجل" ليست في مأزق أو مشكلة. لقد قرأت خطاباتنا، أليس كذلك؟

واصل "هانس" التحديق عبرها.

- لعلّها لا تستطيع مصارحتنا بكل شيء في رسائلها.

- "هانس"! بحقّ الربّ!



- لا تغضبي، "ليدا"، حبيبتي. هكذا هي عزيزتنا "إنجل". إنها ترغب في رؤيتنا والتَّحدُّث إلينا.

يجب أن يحصل "هانس" على جواز سفر، بأسرع ما يمكن. عليه أن يصبح أكثر تعقُّلاً. ولكن، إن استطاع الخروج من هنا، فما الذي ستفعله "أوليدا"؟ لم لا تغادر، هي أيضًا؟ لم لا تخاطر وتغادر؟ قد ينتهي الأمر بمقتلهما، ولكن هل يوجد بديل آخر؟ كانت الغربان تنعق وتصرخ كالمجانين، في حديقة البيت.



1992

"لانيما" - إستونيا

## العثور على الأزهار الميتة



وضعت "زارا" أذنها على شِقِّ الباب، لكن المطبخ كان هادئًا. حتى الراديو كان صامتًا. لا صوت سوى الخبط المؤلّم في رأسها. تسبّبت لنفسها في صداع، في الدقائق الأخيرة، بضرب رأسها في الباب، وهي حركة غبية منها. لن يجعل ذلك "أوليدا" تفتح الباب لها. سيعود "باشا" و"لافرينتي"، ذلك مؤكد. ولكن هل سيدخلان؟ سيجعلان "أوليدا" تتكلّم. ربما ستخبرهما، طواعيةً. ربما ستطلب مألًا من "باشا"، لتستخدمه في حرث حقلها. لقد اشتكت من أنه مع انعدام حصص الخمور، لم يعد لديها ما تدفعه لعددٍ من الرجال الأصحاء - ممن بقوا في القرية - للقيام بتلك المهمة. لم يكن بإمكان "زارا" تخمين قرار "أوليدا". هناك تفاحة وحبّتان من جوز البلوط داخل جيب الثوب المنزلي الذي أعارته لها "أوليدا". كانت "زارا" قد قررت الاحتفاظ بهم لجَدَّتْها، كبدورٍ من إستونيا. هل سيتسنى لها تقديمهم للجَدَّة؟

وقفت "زارا". على الرغم من أن الجوّ خانق، فإنها أحسّت ببعض الهواء من مكانٍ ما. هناك لحاف وبعض السِلال، في ركنٍ من الحجرة. وهناك مساحة

ضيقة تكفي لأن تتحرك قليلاً. خافت من استكشاف المكان بيديها، فبدأت بقدميها. مدّتهما باتجاه السلال، فرنّ صوتٌ من ورائها. جرّت ذلك الشيء باتجاهها، بقدمها. إنه طبق. هناك أوراق ومجلات، بجوار السلال. مزهرية. بها وردٌ مجفّف. هناك رف صغير يعلو المزهرية، عليه شمعدان به بقايا شمعة. فوق الرفّ مسمار، علّق عليه برواز أو مرآة. لمست "زارا" الرف بأصابعها. اصطدم إبهامها بعمود حُشِرَت وراءه مجموعةٌ من الأوراق. أحسّت بطرف دفتر، تحت يدها. فيمّ استُخدِمَت هذه الحجرة؟ لماذا هي مخبّأة وراء دولاب؟



1992

"لانيما" - إستونيا

الإعجاب بالفتاة



ذهبت "أوليدا" ووقفت خارج الحجر، مرّرت أصابعها على الدولاب، ثم على الحائط المجاور له؛ بدأت بعدها في تحريك الدولاب ببطء، سنتيمترًا واحدًا كل لحظة. سمعت طقطقة فقراتها ومفاصلها. أحسّت بهيكلها العظمي، بأكمله، وكأن حاسّة اللمس انتقلت إلى عظامها، وتركت جسدها خَدِرًا.

إنها قريبتها. هذه الفتاة الروسية. الفتاة التي تبدو روسية. هذه العائلة تنتج فتيات روسيات. ليس فقط صغيراتٌ طليعاتٌ مثل "تالفي"، وليس بنات بتنانير قصيرة وشرائط ضخمة معقودة فوق رؤوسهنّ، بل روسيات حقيقيات، ذلك النوع من الروس الذي يأتي إلى هنا بحثًا عن حياةٍ أفضل، فيتسبّب في الفوضى، باحتياجاتهنّ وطلباتهنّ. روسيات كجميع الروس الآخرين. لم يكن ينبغي لـ"ليندا" أن تنجب أي طفل. ولا "أوليدا" نفسها. لم يكن على أي من هذه العائلة أن ينجب أطفالًا. كان عليهم الاكتفاء بعيش حياتهم حتى النهاية، دون أبناء.

اعتدلت "أوليدا" في وقفها، واستقام ظهرها. تركت الدولاب في مكانه. صَبَّتْ لنفسها كأسًا من الفودكا، وابتلعتها بسرعة، ثم مسحت فمها بكمِّها. مثل أي روسي. لا تزال تجهل كيف تتصرف، أو كيف سيسير الأمر. شمَّت رائحة أشجار الصنوبر، ونقيع أوراق شجرة "البتولا" الذي اعتادت "إنجل" أن تغتسل به، وتغسل به شعرها. رائحة البتولا القوية التي تهبُّ فجأة، كلما فكَّت "إنجل" ضفائرها. كأسٌ أخرى من الفودكا، فشل في تبديد رائحة "البتولا" النفاذة. أحسَّت "أوليدا" بالغثيان. اسودَّت أفكارها من جديد، وتخبَّطت داخل جمجمتها. تجمَّدت للحظات، ثم واصلت تخبُّطها مرَّةً أخرى. لاحظت أنها تفكر فيها كـ"الفتاة" .. اسمها - للغرابة - ليس حاضرًا في ذهنها. إنها لا تعرف كيفية استخدامه أصلًا. خوف الفتاة حقيقي وصادق. هروبها أيضًا حقيقي، ولا شك. رجلا المافيا حقيقيان. وهما ليسا مهتمين بـ"أوليدا"، وإنما بالفتاة فقط. ربما كانت قصة رجليَّ المافيا حقيقية. ربما أوقع القدر الفتاة في "تالين"، وقامت بقتل أحد الزبائن ثم هربت ولم تعرف مكانًا آخر تلجأ إليه. إنها قصة قابلة للتصديق. ربما لم تكن الفتاة تريد شيئًا. ربما لم تكن تريد شيئًا، ولا تعرف شيئًا، سوى أنها مضطرة للفرار. ربما كان الوضع كذلك فعلاً. "أوليدا" تفهم جيدًا معنى أن ترغب في الفرار. "مارتن" هو الذي يرغب في أن يكون سياسيًا. لم يكن لدى "أوليدا" هذه الرغبة، على الرغم من أنها ساندته. ربما كانت قصة الفتاة بهذه البساطة حقًا. ولكن على "أوليدا" التخلص منها. إنها لا تريد أن تعود المافيا إلى هنا، ثانيةً. ما الذي ينبغي عليها فعله؟ ربما عليها ألا تفعل شيئًا.

لو أن أحدًا لن يفتقد الفتاة، فيإمكان "أوليدا" أن تسدَّ فتحات التهوية في الحجرة الصغيرة.

أحسَّت "أوليدا" بشيءٍ يكبر داخل عقلها. تطايرت الستائر بجنون، ارتطمت مشابكها ببعضها، وأفلتت بعض جوانب قماش الستارة. تلاشت طقطة النار، ولم يبقَ سوى تكَّات الساعة، وصوت الريح.

كل شيء يكرر نفسه، حتى لو تحوَّل الـ"روبل" إلى "كرون"، وأصبح عدد الطائرات الحربية التي تحلق فوق رأسها أقل، وخفتت أصوات زوجات الضباط؛

حتى لو كانت السماعات، مرتفعة الصوت، في برج "بيكا هيرماني"، تذيب أغنيات الاستقلال يومياً.. ستظل أحذية الـ"بوت"، المصنوعة من الجلد المدبوغ، موجودةً على الدوام. سيأتي المزيد منها. مثلها تماماً، أو مختلفة بعض الشيء، لكنه "بوت" يطأ رقبتك، في كل الأحوال. تم ردم الخنادق، وتآكلت خراطيش الرصاص المتناثرة في الغابات بفعل الصدا، وانهارت المخابئ السرية، وتحللت جثث الجنود والمحاربين، لكن بعض الأشياء المعينة واصلت تكرار نفسها.

أحسّت "أوليدا" برغبة في الاستلقاء، ووضعت رأسها الثقيل فوق الوسادة. الباب المؤدّي إلى الحجرة الصغيرة يقع على يمينها. سكنت الفتاة بالداخل. رفعت "أوليدا" إناء الطماطم والبصل من على النار، ووضعتهم على الأرض. يجب أن تضع المحتويات في البرطمانات وهي ساخنة، لكن المهمة تبدو كبيرة ومستحيلة. الفصوص في قرطبيها ثقيلة جداً. نعيق الغربان يصل إليها في الداخل بوضوح. استطاعت تعبئة الفجل الحارّ في البرطمانات، وصبّت عليه بعض الخلّ، ثم أحكمت إغلاق الأغطية. ستضطر للاستغناء عن الطماطم. ما زال الثوم بانتظار أن تفرمه. غسلت يديها في الماء الذي سبق استخدامه، وجفّفتهما بطرف ثوبها. خرجت لتجلس على المقعد الخشبي أسفل أشجار "البتولا"، حيث قامت بزراعة أزهار الـ"جلاديو" الروسية. استمر نعيق الغربان، بعيداً، عند أشجار الصفصاف.

الفتاة أكثر مهارةً في الكذب ممّا كانت عليه "أوليدا" طوال حياتها. إنها أستاذة متمرسة. لقد بدأت تُعجب بها، بعض الشيء.

حفيدة "هانس".

لها أنف "هانس".

ما الذي كان "هانس" سيريدها أن تفعله؟ أن تهتم بالفتاة وترعاها، كما كان يريد لها أن

ترعى "إنجل"؟

1950

"لانيما" - الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية

هل يحب "هانس" "أوليدا"؟



استغرق "هانس" في التفكير والتأمل. في الأيام التي يستطيع فيها تمضية وقت أطول في المطبخ، حين يقضي "مارتن" ليله بعيدًا عن المنزل، ينشغل "هانس" بعد أوراق الأشجار، أو ملاعبة "بيلمي". في بعض الأحيان، كان يصوب نظرة ماكرة باتجاه "أوليدا"، ثم يضغط بذقنه على صدره، ويحيط جسده بذراعيه، وكأنه يحاول حماية شيء بداخله. تحرّك "أوليدا" برطماناتها، وتعدّ أدويةً مخلوطةً بالكحول، وتحاول إقناع "هانس" بشرب ما تراه مناسبًا من أنواع الشاي المختلفة التي تقوم بخلها طوال اليوم. لكن "هانس" لم يكن يظهر اهتمامًا بهذه المشروبات. تحاول "أوليدا" عدم الاستسلام لمشاعر القلق والتوتر. تلوّح بفوطة المطبخ، وتعيد إحماء نار الموقد، وتتشاغل بأمورٍ مختلفة، وتغسل الملابس، وتطعم دجاجاتها أكثر مما يجب، إلى درجة أنهم يقضين ساعات اليوم التالي بأكملها في حالة نَعاس.

لم يعد "هانس" يخبر "أوليدا" شيئاً عن رؤاه. ربما أزعجه ردُّ فعلها، أو ربما خشي أن تشكّل "أوليدا" تهديداً لهما، إذا عرفت شيئاً عنهما. حاولت "أوليدا" التفكير في طريقة تسأله بها عن الأمر. لكنها لم تعرف كيف. كيف حال "إنجل"؟ هل رأيت "إنجل" مؤخراً؟ كلاً.. لا شيء من هذه الاستفسارات يأتي بنتيجة. لم تكن متأكدة من رد فعله إن وجّهت له سؤالها بطريقة خاطئة.

يجب أن يغادر "هانس" قبل حلول الشتاء. في الشتاء، لن تستطيع الهروب من نافذة السندرة، إذ ستترك آثاراً على الثلج. يمكنها سرقة جواز سفر خالٍ من البيانات، من الميليشيا، ولكن هل سيعرف كيف يملأ بياناته بطريقة تجعله يبدو أصلياً وغير مُزيّف؟ هل عليها البحث عن شخص يجيد فعل ذلك؟ أين بإمكانها العثور عليه؟ ما الذي سيقوله الناس حين يسمعون بخبر إلقاء القبض على زوجة أحد مسؤولي الحزب، وهي تبحث عن مزوّر محترف، داخل خنادق الغابة؟ أو إذا بدأ الناس في ترديد حكاية أنها تطوف القرية وهي تستفسر عن أفضل شخص يزيّف جوازات السفر؟ كلاً. عليهما الحصول على جواز سفر حقيقي لشخصٍ على قيد الحياة. أو جعل أحد يفقد جوازه.

- "هانس".. لو أنني أحضرتُ لك جواز سفر...

- لو؟! لقد وعدتني بإحضاره.

- هل ستفعل ما أخبرك به، وتذهب إلى حيث أطلب منك الذهاب؟

- نعم!

- إنهم بحاجة إلى مختلف الأيدي العاملة، في "تالين". وللمصانع مساكنٌ جماعيةٌ خاصّة بالعمّال. لا أظن أن بإمكانني توفير شقة لك. هناك نقصٌ حادٌّ في الشقق، لكنني أستطيع وضعك في غرف العمال. هناك السكك الحديدية، وأحواض السفن، وغيرها من أماكن العمل. إذا أهديتَ المسؤول عن السكن ومديره خنزيراً من الـ"كولخوز"، فإنهما لن يهتما بالسؤال عمّن تكون.



أستطيع زيارتك في "تالين". تخيّل! يمكننا أن نتمشى معًا في الحديقة العامّة، أو على الشاطئ، أو في أي مكان! يمكننا الذهاب إلى السينما! تصوّر! يمكنك أن تسير هناك، كأبي رجل حُرّ! تخرج، وترى الناس...

- سيتعرّف عليّ أحدهم.

- لن يتعرف عليك أي أحد، وأنت بهذه اللحية.

- من المدهش ما يتعرّف عليه الناس.. الطريقة التي تميل بها رقبتك، أو التي تمشي بها.

- "هانس"، لقد مرّت سنوات منذ أن رآك أحد. لن يتذكرك أي شخص. اعترف يا

"هانس" بأن الأمر يبدو رائئًا.

- يبدو رائئًا.

نظر إلى مقعد "إنجل".

كأنها يغمز له بعينه.

أخذت "أوليدا" بالطو العمل من على الشمّاعة، واتجهت إلى الحظيرة. ركّزت نظرها على

شوكة القش القرية، عندما أتى "هانس" وراءها وصعد إلى السندرة. تساقطت قطرات

العرق المألحة بين أهدابها، وأحسّت بطعم السماد في فمها. استخدمت الشوكة في ملء

العربة اليدوية الصغيرة بالقشّ، ثم صعدت إلى الأعلى، ورصّت أكوام القشّ أمام باب

السندرة، من جديد. طقطع ظهرها، مرّة أخرى، وهي تدفع أكوام القش إلى مكانها. ما

الذي فعلته "ليدا هامر" حين بدأ ابنها يزورها في أحلامها؟ كان مُحاصرًا داخل خندقه،

عندما حاول الفرار. حاول أن يهرب حافيًا، دون حذائه الـ"بوت". تمّ دفنه دون الـ

"بوت"، فعلاً. في كل ليلة، تشاهد "ليدا" الحلم ذاته.. ابنها يشتكي من برودة قدميه.

نصحتها "ماريا كريل" بإحضار زوجٍ من الأحذية بمقاس قدمي ابنها، وأن تضعهما

داخل تابوت الجنائز القادمة في القرية، على أن ترفق ورقةً باسمه معهما. توقفت كوابيسها حين وضعت الحذاء باسم ابنها داخل التابوت. لكن "إنجل" على قيد الحياة. كيف تنفذ الأمر مع شخصٍ لا يزال حيًّا؟ أم لعل تلك الرؤى من طيفها، تشير إلى أنها قد فارقت الحياة؟

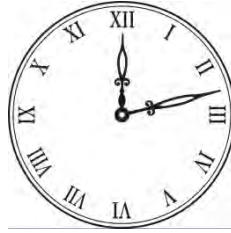
في تلك الليلة، أخذت "أوليدا" القطعة التي تحتفظ بها من بطانية زفاف "إنجل"، ووضعتها داخل ماسورة الموقد، لتتعرّض لدخانٍ كثيف.



1992

"لانيما" - إستونيا

ماذا قالت "إنجل" عن "أوليدا"؟



ألقى المساء عتمته على المطبخ. جلست "أوليدا" في مكانها، على مقعدها. هل أخبرت "إنجل" الفتاة؟ بالطبع لا. أو "ليندا"؟ كلاً. بالطبع لا. إن ذلك أكثر جنوناً. لكن الفتاة كذبت. أي نوع من العون كانت تتوقعه من قريبة لها تجهل أن بينهما صلة قرابة من الأساس؟ أم هل كانت تنوي إخبار "أوليدا"، ثم غيّرت رأيها؟ هل كانت "إنجل" تعلم أنها هنا؟ وماذا عن الصورة؟ هل كذبت الفتاة بشأنها أيضاً؟ هل أحضرت الصورة معها؟ هل أخذتها من "إنجل"؟

صاح الديك. تكَّت الساعة. مزيج البكتيريا والخميرة الطبيعية في مشروب الـ"كومبوتشا" داخل البرطمان كان يحدِّق بها، على الرغم من أنه يبدو أقرب إلى فطر المشروم منه إلى كائن حيٍّ. سمعت صوت احتكاك على أرضية الحجر السريّة، ذكَّرها بمخالب كلبها القديم "هيسو". قد يعود رجلا المافيا مرّة أخرى. قد يقتحمان الباب إن لم تفتحه. سيحرقان البيت. إنهما على الجهة الأخرى من الغابة على الأرجح. ربما أدركت الفتاة أن قريبتها في إستونيا سترث

عمًا قريب جزءًا من خشب الغابة، وفكّرت بأن بإمكانها بيعه في "فنلندا". ربما عهدت بالمسألة بأكملها لرجليّ المافيا، لإتمامها، ثم خرجت الأمور عن سيطرتها. هل أرسلتها "إنجل" لإتمام صفقة الأرض؟ ربما كانت الفتاة ساذجة حقًا، واعتقدت بأن بإمكانها الحصول على المال الذي يعود إليها عبر رجليّ المافيا، وأدركت لاحقًا بأنهما سيستوليان عليه بالكامل. كل شيء جائز. كل شيء صار قابلاً للبيع في هذا البلد حاليًا.

عليها أن تبقى هادئة. سوف تقوم عن مقعدها الآن، وتضيء أنوار المطبخ، وتسدل الستائر على النوافذ، وتقفّل الباب، وتتجه إلى الحجرة السرية وتفتحتها، وتخرج الفتاة منها. لن يكون الأمر صعبًا. إن "أوليدا" أكثر هدوءًا مما ينبغي عليها أن تكون في هذا الوضع. لم يتوقّف قلبها. أفكارها مُشَتّتة بعض الشيء، لكنها موجودة ولم تنقطع. إنها بكامل قواها العقلية، على الرغم من أنها قد عرفت للتوّ بأن "إنجل" لا تزال على قيد الحياة.. هذا على اعتبار أن رجليّ المافيا كانا يقولان الحقيقة.

ما الذي قالته "إنجل" للفتاة عنها؟

روسية، أو غير روسية.. للفتاة ذقن "هانس".

وهي سريعة في تقطيع الطماطم إلى شرائح، وسريعة في تنظيف ثمار التوت.



1951

الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية

جواز السفر



في المرّة التالية لقدوم موظفي عرض الأفلام السينمائية إلى البلدة، قالت "أوليدا"  
لـ"مارتن" إنها تودُ مرافقته. فرح "مارتن". في المرّة الأخيرة التي أتوا فيها، بقيت "أوليدا" في  
المنزل لإصابتها بأزمة ربو.

- هل ستصطحبني للرقص، بعدها؟

- بالتأكيد! سأخذ حُبُوبتي الصغيرة للرقص!

كانت قاعة العرض حارّة. اختارت "أوليدا" مكانًا لهما بجوار نافذة مفتوحة.  
يمكن سماع صوت المولّد الكهربائي في الخارج. حاولت "أوليدا" إحصاء عدد  
مزارعي كروم العنب بين الحاضرين، وتخمين أيهم أكثر ملاءمةً لفقد جواز  
سفره اليوم بمساعدةٍ منها. على الشاشة، مشى عددٌ من الناس السعداء في  
استعراض الأول من مايو. تجمّع قادة الكرملين على سطحٍ مرتفع

لنحية الناس والتلويح لهم. بادلهم الناس التلويح. ربما "كوكا هينو"، مثلاً؟ إنه رجلٌ بسيط، حصل على أوراقه الثبوتية من مكتب منطقة "سيفالدي"، منذ زمنٍ طويل، بالإضافة إلى معاش تعويضي بسيط. انتهى الفيلم الوثائقي، وبدأ العرض الرئيسي، وهو فيلم "جيل المنتصرين". ماذا عن "كالي رمفولت"؟ لا، يعيش "كالي" في الـ"كولخوز"، وسوف يكون محل إقامته مدوّنًا في جواز سفره. لم تعرف "أوليدا" من تختار، ولم تستطع التوصل إلى قرار. إنها لا تعرف من الذي تمتلك السلطات ملفات له، ولا تعرف أيضًا أي نقاط تفتيش ينبغي المرور منها للوصول إلى "تالين". لعلهم سيستدعونها، على الرغم من هدايا برطمانات العسل ولحوم الخنزير، ليتأكدوا منها من يكون هذا الرجل حقًا. ولا يمكن لـ"هانس" - تحت أي ظرف - أن يذهب إلى المليشيا هنا لختم جواز سفره. الفكرة بأكملها جنونية. لماذا ستترك المنطقة؟ إلى أين ستذهب؟ الربُّ وحده يعلم ما الذي سيحدث لو ذهب "هانس" إلى هناك ملء البيانات الخاصة بـ"كالي رمفولت" بالنيابة عنه؛ أو الأسوأ.. أن يتعرف عليه أحد العاملين في المكتب. الخطة فاشلة منذ البداية. "أوليدا" لا تقل حماقةً عن موظف عرض الأفلام الذي يكاد يلتهم الفتاة القروية التي تحلب الأبقار - والشبيهة بخنزير - بعينه، وهي تقف في نهاية القاعة، تعيد ضبط تسريحة شعرها بطريقةٍ لا تخلو من الإغراء. ترفع ذراعيها القويتين، فيهتزان بالتوافق مع نبضات قلبها.. بسرعة فائقة.

إنهما بحاجة إلى جواز سفر من "تالين".

انتهى الفيلم، وبدأ الرقص. ضجيجٌ وزحام، ورائحة الخمر تنبعث من مكانٍ ما. الفتاة القروية الضاحكة تطوف حول موظف الأفلام من جديد. أحسّت "أوليدا" بصعوبة في التنفّس. تلك الخطة الغبية أوصلتها إلى حافة البكاء. أخبرت "مارتن" بأنها تريد العودة إلى البيت. خاضت طريقها بين الناس بصعوبة، إلى أن تمكّنت من الخروج. وقفت في الساحة الخارجية، لتلتقط

أنفاسها. ثم حدث الأمر. الحريق. سمعت "مارتن" وهو يُلقي أوامره بصوتٍ مرتفع، ورأت الناس يغادرون المبنى مهولين. حيرة وفوضى. حاول "مارتن" تنظيم الفوضى. حمل الناس ميكانيكي جهاز الـ"بروجكتور" إلى الخارج، وهو يسعل، ومددوه على الأرض أمام "أوليدا".

ميكانيكي جهاز الـ"بروجكتور" من "تالين".

ميكانيكي جهاز الـ"بروجكتور" يرتدي قميصًا.

ميكانيكي جهاز الـ"بروجكتور" قام بخلع الجاكيت الصوفي قبل بدء الفيلم، ووضعه على ذراعه، بينما تتابعه فتاة الأبقار القروية بنظراتها، ويكاد تُعابها أن يسيل. ترى أين سيضع رجل تشغيل الأفلام، الرجل كثير السفر والتنقل، جواز سفره؟ لا مكان له سوى الجيب

العلوي للجاكيت!

عادت "أوليدا" إلى المبنى بخطى سريعة.



1992

"لانيما" - إستونيا

للفتاة ذقن "هانس"



كان الدولاب ثقيلًا، أثقل مما كان عليه سابقًا. تعيّن عليها جرّ الفتاة، فاقدة الوعي، من قدميها. أظافر الفتاة مهشّمة، وأطراف أصابعها يغطيها الدم. هناك كدمات على جبهتها.

- لماذا أتيتِ إلى هنا؟

تردّد السؤال داخل صدر "أوليدا"، لكنها لم تستطع النطق به. لم ترد أن تعرف، حقيقةً. سوف يعود الرجلان، سريعًا. عليها أن تقوم بإفاقة الفتاة. ذقنُ "هانس" بالضبط. سكبت عليها ماءً من الدلو. تكورت الفتاة كجنين، ثم جلست بانتباه. - جدّتي تريد بعض البذور. بذورُ إستونية. زهرة "الخطم".

عليها أن تطلق الرصاص على الفتاة.



لا يزال مسدس "هانس" مُخبأً داخل دُرج الطاولة.

- كان حادثًا. حقًا! كنتُ في إستونيا، وتذكرتُ أن لي أهلًا هنا. كانت جدتي قد ذكرت اسم القرية، وحين أدركتُ أن لي أقارب هنا، اعتقدتُ أن تلك وسيلة للهروب. هناك أحدٌ على الأقل يمكنه مساعدتي في هذا البلد. كان "أوليدا" هو الاسم الوحيد الذي أعرفه. لم أكن أعرف إن كانت "أوليدا" هنا أم لا، لكنني لم أستطع التفكير في تصرفٍ آخر. أحضرتني "باشا" إلى إستونيا.

ربما يجب عليها إقناعها بالعودة إلى الحجرة الصغيرة، ثم تركها هناك.

أو تسليمها إلى المافيا. إعادة ما للروس، إلى الروس.

- لم يكن لديّ خيار! ما يفعلونه بالبنات.. الطريقة التي.. لو أنك رأيت.. يلتقطون صورًا لكل شيء.. قالوا بأنهما سيرسلان أفلام الفيديو إلى بلدي، لـ"ساشا"، وللجميع، إن أنا فكرتُ بالهرب. لا بد أنهما قد نَفَّذا تهديدهما، بحلول هذا الوقت.

- مَنْ هو "ساشا"؟

- حبيبي. أو هكذا كان، على كل حال. لم يكن عليّ قتل ذلك الرجل. صار كل مَنْ في

بلدي يعلم بالأمر، الآن، ولم يعد بإمكانني العودة إلى هناك...

- لن تتمكني من رفع عينيكِ والنظر إلى "ساشا".

- صحيح.

- ولا أيَّ أحدٍ آخر.

- صحيح.

- ولن تعرفي وأنتِ تمرّين بالناس في الشارع إن كانوا قد رأوا تلك الصور، أم

لا. سينظرون إليك، ولن تعرفي أبدًا إن كانوا قد استطاعوا تمييزك والتعرف

عليك. سيضحكون مع بعضهم وهم ينظرون باتجاهك، ولن تعرفي إن كانوا يتحدثون عنك،  
أم لا.

أغلقت "أوليدا" فمها. ما هذا الذي تقوله؟ الفتاة تُحدِّقُ بها.

قالت "أوليدا":

- حَضُّري القهوة.

فتحت الباب الأمامي، ثم أغلقتة بعنف.



1951

"لانيما" - الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية

شحم الإوز



- "آنتس ماكاروف"، ابن "آندريس".

جرّب "هانس" نطق اسمه الجديد، ثم قال:

- عليّ فقط أن أتقدّم بطلب حصول على شقة سكنية، وأن أذهب إلى العمل؟

- بالضبط.

- أنتِ امرأةٌ مذهلة.

- إنها مسألة تنظيم فقط. لقد كلّف الأمر خنزيرًا واحدًا، وبرطمانين من العسل.

أعطت "أوليدا" "هانس" مجموعةً من المنشورات الشيوعية، وأمرته بقراءتها في القطار،

في الطريق إلى "تالين".

- ثم وضعها في غرفتك، بحيث يراها الناس.

سارع بإعادة الأوراق، ثم مسح يديه ببنطلونه.

- "هانس"، عليك أن تكون مقنعًا، وعليك أن تحضر الاجتماعات وتشارك بها!

- لا يمكنني فعل ذلك.

- بلى. بإمكانك! سوف أخذ عربة الحصان لتوصيلك إلى المحطة. يمكنك الاختباء بين

المشتریات، حتى لا يلمحك أحدٌ من القرية، ويتساءل عمَّن يكون الرجل الغريب معي.

هناك، ستقفز داخل القطار. سوف آتي بعدها لزيارتك، وأحمل لك أي خبر يصل إليّ.

أوماً "هانس".

سألها:

- هل ستكونين على ما يُرام هنا؟

التفتت "أوليدا" نحو الموقد. لم تكن قد أخبرت "هانس" بالخطة التي خطرت لها، عقب

تدبيرها لجوازه. سوف تطلق "مارتن"، وتطلب إعفاءها من العمل في الـ"كولخوز". ستقول

بأنها ستعود لاستكمال دراستها، كي تحصل على وظيفة جيدة، ثم ستعود إليهم. سيؤيد

الجميع قرارها، ويوافقون دون تردد. إنهم بحاجة إلى عمّال متعلّمين في الـ"كولخوز". إنه

سببٌ وجيهٌ لتحريرها من نظام العبودية، الذي يطلقون عليه "معسكرًا تعاونيًا". بعدها

ستحترف العمل كرسامة، أو تلتحق بالسكّة الحديد، التي تقوم بتوفير مساكن للعاملين.

يمكنها الالتحاق بصفوفٍ مسائية، أو بجامعةٍ ليلية. جميع أماكن العمل تقدّم دعمًا للدارسين.

ستكون قريبةً من "هانس"، ويصبح بإمكانهما الذهاب للتنزّه معًا، وزيارة السينما، ومثل تلك

الأمر. سيكون كل شيء رائعًا. لن يقابلا أحدًا يعرفانه في الطريق. لن تحيط بهما الكلاب

الناحية. سيكون كل شيء جديدًا. لن تكون رائحة "إنجل" في أي مكان. سيرى "هانس" أخيرًا

كم أن "ليدا" امرأة رائعة. إن كان مجرد الوعد بالحصول على جواز سفر قد منحه

شيئاً من القوة والصلابة، فما الذي ستفعله به حياة جديدة بأكملها؟ بطبيعة الحال، لم تعرف "أوليدا" كيف سيكون رد فعل "هانس" حين يدرك أن شوارع "تالين" تمتلئ بأعداد هائلة من الروس، وأن نصف العمّال في المصانع يتحدثون الروسية؛ ولكن ما إن يتذوّق حرية الاستمتاع بالرياح ومنتعة مشاهدة السماء.. فإنه لن يندم على ما ضاع منه، أليس كذلك؟ أليس بإمكانه تحمّل الروس، وتقديم بعض التنازلات؟

حذاء "أوليدا" الجديد ينتظر في مؤخرة دولا ب الملابس. سوف تترك حذاءها القديم في القطار المتجه إلى "تالين". للجديد كعبٌ عالٍ. لن تحتاج لتغطية فتحة الحذاء الواقية - حيث ينبغي أن يمرّ الكعب الرفيع - بقطعة خشب، وهي هناك.



كانا قد عادا للتوّ من زيارة الطبيب البيطري. أهدها "مارتن" زجاجة خمر، فأعطاهما الأوراق اللازمة التي تسمح لمصنع السجق بأخذ بقرتهما، التي كانت مريضة منذ مدّة طويلة، وماتت صباح ذلك اليوم. جلس "مارتن" في الغرفة الأمامية، ليقرأ. أزاحت "أوليدا" الـ"إيشارب" عن رأسها، ثم ذهبت إلى المطبخ، وأضاءت نوره. هناك دمٌ على الأرض.

- هل يريد زوجي العزيز مشروباً ليليّاً؟

أعجبَ ذلك "مارتن"، كان قد أمسك بنسخة من منشور حزب "صوت الشعب". أعدت له "أوليدا" شراباً أكثر قوةً من المعتاد. لم تضع فيه خليط "ماريا كريل"، وإمّا أخرجت عبوة المسحوق التي يحتفظ بها "مارتن" في جيب الساعة بمعطفه. كان قد أراها إيّاها من قبل. حصل عليها من زملائه العاملين في المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية. ليس للمسحوق أيُّ طعم. لاحقاً،

وضعت "أوليدا" بعض الدقيق مكان المسحوق الأصلي. أفرغت محتويات العبوة بأكملها في كأسه.

- حُبُوتي الصغيرة تعرف دائماً ما أحْتاجه.

قال "مارتن" برضا، وهو يتناول الكأس منها. شربها دفعةً واحدةً، وتناول قُضمة من الخبز الأسمر معه. ذهبت "أوليدا" لتغسل الأطباق. سقطت صحيفة "مارتن" من يده، على الأرض.

- هل تشعر بالتعب؟

- أظن أنني أشعر بالتعب.

- كان يومك طويلاً.

وقف "مارتن"، وسار مترنحاً باتجاه غرفة النوم. ألقى بنفسه على السرير. خشخش القش داخل المرتبة، وصرت السوستة المعدنية. ذهبت "أوليدا" لتلقي نظرةً عليه. لكزته، فلم يتحرك. تركته هناك، مستلقياً على الفراش بحدائه، وعادت إلى المطبخ. أسدلت الستائر، وبدأت في دهن يديها بشحم الإوز.

- هل هناك أحدٌ هنا؟

- "ليدا"...

جاء الصوت من نهاية المطبخ، من الركن الذي يقع فيه الدولار، من وراء سلّة بطاطس. أزاحت "أوليدا" تلك الأشياء، وسحبت "هانس" من ورائها. سال الدم من كتفه. فتحت "أوليدا" معطفه.

- لقد ذهبت إلى الغابة، أليس كذلك؟

- "ليدا"...

- وليس إلى "تالين".
- كان عليّ أن أفعل ذلك.
- لقد وعدتني.
- أحضرت "أوليدا" بعض الكحول والشاش، وبدأت في تنظيف الجرح.
- هل أمسكوا بك؟
- كلاً.
- هل أنت متأكد؟
- "ليدا".. لا تغضبني.
- التوت قسمات "هانس" في ألم. لقد تمّت محاصرتهم. كمينٌ مثالي. أصيبَ بطلقٍ نارِيٍّ، لكنه تمكن من الفرار.
- هل ألقوا القبض على الباقيين؟
- لا أعلم.
- هل أخبرت أحداً في الغابة عني؟
- لا.
- هناك الكثير من عملاء المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية في الغابة. أنا أعرف ذلك.
- "مارتن" هو الذي أخبرني. جاء أحدهم إلى هنا، في طريقه للبحث عن شخص تمّ اختراق جماعته. لديهم خمرٌ مُسمّمة. كانوا سيجعلونك تخبرهم بما تعرفه.
- لم أشرب خمرًا مع أي أحد.
- تفحّصت "أوليدا" كتفه. اصطبغت يداها بالأحمر. ليس بإمكانهما استشارة طبيب.

- "هانس"، سوف أحضر "ماري كريل".

نظر إليها "هانس" وابتسم:

- "إنجل" هنا. "إنجل" ستعتني بجرحي.

سقطت زجاجة الكحول من يد "أوليدا". تناثرت شظايا الزجاج على الأرض، وانسكبت الخمر في كل مكان. مسحت جبينها. شمّت رائحة الدم والخمر. اشتعل الغضب بداخلها، وأحسّت بوهنٍ في ركبتيها. فتحت فمها، لكنها لم تعرف كيف تصوغ عبارات مفهومة. خرج صوتها متحرجًا ومكتومًا. لم تعد تسمع شيئًا، وكأن أذنيها مسدودتان. تلمست طريقها نحو ظهر المقعد. تشبّثت به إلى أن استعادت أنفاسها، وحين حدث ذلك، فقد "هانس" وعيه. عليها أن تبقي عقلها يقظًا، لكي تتمكن من التعامل مع الموقف. إنها تجيد التعامل مع مختلف المواقف. أولًا، عليها أن تجرّ "هانس" إلى الحجرة الصغيرة، ثم تذهب لإحضار "كريل". أمسكت بـ"هانس" من تحت إبطيه. برز شيءٌ من جيب معطفه. دفتر. تركت "هانس"، والتقطت الدفتر.





20 مايو 1950

## عاشت إستونيا حرة!



لا أعرف بمَ أفكّر. إنني أقرأ أحدث خطابات "إنجل". تسلّمته اليوم. استلمتُ واحدًا قبله منذ يومين. كتبت "إنجل" عن تذكرها لأشجار الصفصاف هنا، في البلدة. وخصوصًا شجرة معينة. في البدء، ابتسمت. التفكير في تلك الصفصافة سيكون جيدًا، لحين ورود رسالة جديدة. ربما سأستعيد ذكرياتي مع الشجرة، في الوقت ذاته الذي تتذكرها فيه "إنجل". ثم أدركتُ أن هناك أمرًا غير طبيعي. إن لخطاب "إنجل" نفسه منظرًا مهترنًا بعض الشيء، فكيف يكون الظرف على هذا القدر من النظافة؟ في المرّة الأخيرة التي قاموا فيها بإبعاد الناس عن هنا، كانت خطاباتهم تصل دون ظروف أصلًا. أمل بأن تكون المسألة هي أن أحد الرسل هو الذي وضع الخطاب داخل الظرف. لكن قلبي يكذبني.

إنني أقارن توقيعها بذاك الموجود على صفحات إنجيل العائلة. لقد سجّلت "إنجل" اسم "ليندا" وتاريخ ميلادها هناك. الخط مختلف. يبدو متشابهًا، لكنه في الحقيقة مختلف. أحضرت لي "ليدا" زجاجة خمر. لا أرغب في النظر إليها. لا أجرؤ على تمزيق الرسائل، على الرغم من أنني أودُّ ذلك. قد تسألني "ليدا" عن الخطابات، وأين وضعتها، فماذا سأقول لها عندها؟ كيف أستفسر منها عن الأمر؟ أشعر برغبةٍ في ضربها.

- "هانس بيك"، ابن "إيريك" - فلاح إستوني

20 سبتمبر 1951

## عاشت إستونيا حُرّة!



رتبت "ليدا" كل شيء. أحضرت لي جواز سفر. أنا أجلس هنا، أقلب صفحاته، وأتساءل إن كان الأمر حقيقياً فعلاً. إنه حقيقي. اندفعتُ ووعدتُ "أوليدا" بعدم الذهاب إلى الغابة، وبالتوجه إلى "تالين" والإقامة في سكن العمّال. دَوّنت "ليدا" العنوان لي، وزوّدتني بكثير من التوجيهات.

لن أذهب إلى "تالين". لا حقول هناك، ولا غابات. أي نوعٍ من الرجال سأكون في المدينة؟

في بعض الأحيان، أشعر برغبة في توجيه مسدسي نحو "ليدا".  
عقلي صافٍ منذ مدّةٍ طويلة، كل ما أريده هو رؤية "ليندا" ثانيةً.  
كانت "إنجل" ستضع مزيداً من الملح في الصلصة البُنّية.

- "هانس بيك"، ابن "إيريك" - فلاح إستوني

1951

الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية

"أوليدا" تمسح الدم



أدركت "أوليدا" أنها كانت تصرخ، لكنها لم تعد مهتمة. ألقت بدلو الماء على الأرض، وحطمت زجاجة عطر "موسكو الحمراء"، وبعثرت مجموعة من "باترونات" الخياطة الملحقة بمجلة "المرأة السوفيتية". لن تحيك أيًا من تلك الفساتين التي كانت ستلبسها في "تالين"، ولن تسير مع "هانس" يدًا بيد في منطقة "بؤابة فيرو"، وهي تشعر بالحرية لأنها لن تلتقي أولئك الرجال ثانيةً، وتشعر بالجمال لأن المارة من حولهما لن يتعرفوا عليها. لن تفعل تلك الأشياء التي حلمت لأشهر بالقيام بها مع "هانس"، وهي مستلقية إلى جوار "مارتن"، وهو يغط في نومه. لقد وعداها "هانس"! صاحت "أوليدا" إلى أن تلاشى صوتها. ما همّ لو استيقظ "مارتن"؟ أي أهمية سيشكلها الأمر لأي أحد؟ ما أهمية أي شيء بعد الآن؟ لقد تحطمت كل شيء. كل المشكلات والمصاعب التي مرّت بها! كل تلك المجهودات! تغريم الناس لعدم إنجابهم العدد الكافي من الأبناء! الأعمال الجسيمة التي قامت بها، وكل ليالي الأرق. كل يوم في حياتها لازمها فيه الخوف.

رائحة "مارتن" الكريهة. المهانة غير النهائية. الأكاذيب غير النهائية. التلوي اللا نهائي على فراش "مارتن"، وهي ترتجف دون توقُّف. البطانة الواقية تحت إبطي فستان الحرير الاصطناعي وهي تتبلَّل بعرق الخوف الغزير. يدا طبيب الأسنان، المشعرتان. عينا "ليندا" الزجاجيتان عقب تلك الليلة. الأضواء. أحذية العساكر. كان بإمكانها غفران تلك الأمور، والتسامح فيها جميعًا، مقابل يوم واحد فقط في حديقةٍ عامَّةٍ بصحبة "هانس". لذلك كانت تهتم ببشرتها. تغسل وجهها بصابونة "ريد بوي"، ولا تنسى مُطلقًا دهن يديها بشحم الإوز، عدَّة مرَّات في اليوم؛ حتى لا تبدو كفتاةٍ قروية. ما كان أحد سيحقق معهم، كانوا سيدعونهما وشأنهما في سلام. لكن تلك الأمور لا تهتم "هانس". كل ما رغبت فيه هو لحظة واحدة معًا في حديقةٍ عامة. لقد أطعمته، واهتمت بكسائه، وسخَّنت له ماءً ليتحمَّم، واقتنت كلبًا جديدًا ليقوم بحمايته، وأحضرت له الصُّحف، وحملت له الخبز والزبد واللبن الرائب، وحاكت له الجوارب، وأعدَّت له الأدوية والخمور، وكتبت له الخطابات، وفعلت كل شيء لإسعاده. هل سألها "هانس"، ولو مرَّة واحدة، عن أحوالها؟ هل أحسَّ بالقلق حيالها؟ كانت على استعداد لتناسي أخطاء الماضي، والتسامح بشأنها، ونسيان العار الذي تحمَّله من أجله. وما الذي فعله في المقابل؟ لقد كذب!

لم ينيو "هانس"، أبدًا، التنزُّه مع "أوليدا" في حدائق "تالين".

ثم كانت تلك الخطابات...



فقد "هانس" وعيه. ثنت "أوليدا" ساقه، ووضعت قدمه بمُحاذاة كتفه، لكنه لم يتحرك. ذهبت لتطمئن على "مارتن". كان على وضعه السابق نفسه، بالضبط. ليس من المعقول أن يكون قد استيقظ خلال ذلك. كانت قد وضعت دلوًّا فارغًا بجوار حذائه، حتى ينبُّهها سقوطه لمغادرة "مارتن" السرير. الدلو لا يزال في مكانه، حيث وضعتَه تمامًا، على بُعد شبر من حوض الاغتسال.

عادت "أوليدا" إلى المطبخ، للاطمئنان على حال "هانس". أخرجت علبة السجائر من جيبه. الرسم الذي يصور الأسود الثلاثة صار باهتًا. أشعلت لنفسها سيجارة "بيبروسيس" ملفوفةً باليد. اندفع الهواء إلى رئتيها، وجعلها الدخان تسعل، لكن الوضع أمسى أكثر وضوحًا.

غسلت يديها.

سكبت الماء الأحمر داخل الدلو.

شربت بعض "الناردين"، ثم جلست ودخنت سيجارةً أخرى.

ذهبت ووقفت جوار "هانس".

أخرجت من الدولاب دواءً كانت قد صنعته لمحاربة الكوايبس. فتحت فم "هانس".

استعاد وعيه، وهو يكحُّ ويصق. سال بعض محتوى الزجاجاة على الأرض.

همست "أوليدا":

- سيشعرك هذا بالتحسُّن.

فتح عينيه، ونظر إليها دون تركيز، وابتلع ما في فمه.

رفعت رأسه بين ذراعيها، وانتظرت.

ثم أحضرت حبلاً، وربطت به يديه وساقيه، وجرتّه إلى الحجرة الصغيرة المخبّأة وراء

المطبخ. قذفت دفتر مذكراته وراءه. أخذت فنجان "إنجل" من على الرّف، ووضعتّه في جيب

مريلتها.

غطّته ببطانية.

قبّلته على الفم.

أغلقت الباب.

سدّت الباب بمعجون.

سدّت منافذ الهواء.

سحبت الدولاب ووضعتّه أمام الباب، ثم أخذت تنظف الدم عن أرضية المطبخ.

17 أغسطس 1950

## عاشت إستونيا حرة!



ولكن ماذا لو كان ما قاله أخو "مارتن" صحيحًا؟ كيف ستدبر "ليدا" أمورها هنا، عقب رحيلي و"إنجل"؟ يمكن لأوضاعها أن تسوء، وأنا حتمًا لا أرغب في ذلك. هل تعلم، إن كانت حكايات شقيق "مارتن" صحيحة، أن مصير "مارتن" قد يكون في بشاعة مصير أخيه؟ ومصيرها هي كذلك. حاولت سؤالها عمًا إذا كان "مارتن" قد ذكر شيئًا عن شقيقه. لا بدّ أنها اعتقدت أنني مجنون، لأطرح عليها ذلك السؤال. إنها تصدّق كل ما يقوله "مارتن". من المفترض أنه مغرّمٌ بها بشدّة، لدرجة أنه لن يكذب عليها أبدًا.

طلبتُ النصيحة من "إنجل"، حين كانت هنا، لكنها اكتفت بهزّ رأسها. لا يمكنها قول أي شيء، أو لعلّها لا ترغب في ذلك. قلت لها إنني أعرف بأن هناك أسبابًا أخرى تجعل "ليدا" ترفض دخولي غرفتها، بالإضافة إلى السبب المعلن، وهو أنها بعيدة عن السندرة، ما يجعل عودتي إليها مستحيلة إن جاء أحد لزيارتنا فجأة. ألقىتُ نظرةً خاطفةً عليها، في إحدى المرّات. بدأ "بيلمي" في النباح، وأمرتني "ليدا" بالذهاب إلى السندرة، مباشرةً، فيما خرجت هي إلى حديقة البيت، حيث وصل بائع الخرق و فوط التنظيف، على حصانه. لكنني أطللتُ على غرفتها. رأيتُ طبق كيك بجوار حوض الاغتسال. كان شبيهاً بذلك

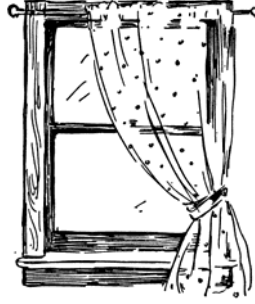
الطبق الذي يمتلكه "ثيودور كروس". أتذكره جيدًا؛ لأنه كان يفتخر به. دخلتُ لأنظر إليه وأتأكد منه، فشاهدتُ عليه زوجًا من الأقراط. أحجارٌ كريمةٌ في قوالب من الذهب. ظهرت في الغرفة مرآة، أيضًا. مرآةٌ في ضخامة نافذة. رأسي يؤلمني طوال الوقت. أشعر أحيانًا بأنه سينقسم إلى نصفين. أحضرت لي "إنجل" دواءً للصداع. تبقت نصف علبه من اللحم المملح، والقليل من الماء. "إنجل" تحضر لي المزيد، دومًا؛ لكن "أوليدا" لا تفعل ذلك.

- "هانس بيك"، ابن "إيريك" - فلأح إستوني

1992

"لانيما" - إستونيا

## الغابة الإستونية الجميلة



كانت "زارا" قد أمسكت بإبريق القهوة للتوّ، حين سمعت صوت سيارة تقترب. ركضت إلى النافذة، وأسدلت الستائر. فُتحت أبواب السيارة السوداء. ظهر رأس "باشا" الأصلع. تبعه رأس "لافرينتي"، من الجهة الأخرى، ببطءٍ يقترب من التردّد. وقفت "أوليدا" في وسط حديقتها، وهي تتكئ على عصاها. أصلحت عقدة الإيشارب أسفل ذقنها، وفردت كتفها باستقامة.

لم يكن هناك وقتٌ للتفكير. ركضت "زارا" إلى الغرفة الخلفية، وأدارت الترابيس الحديدية للنافذة. كانت متيبّسة. حركتها للأعلى وللأسفل. لَوّت المقبض بيدها، فانزلقت النافذة فجأة، وانفتحت. هربت عنكبوت بين رقع ورق الحائط. فتحت "زارا" النافذة الخارجية. تمرّقت شبكة عنكبوت، فتأرجحت ذباباتٌ ميتة بين أطر النافذة. استقبلها الغروب وصوت صرصور الحقل. صورة الجدّة. لقد نسيتها. أسرعت إلى المطبخ. الصورة ليست على الطاولة. أين



يُحتمل أن تضعها "أوليدا"؟ كلاً.. ليس بإمكانها تخمين مكان الصورة. ركضت إلى الغرفة، مرّة أخرى، وقفزت من النافذة. سقطت على حوض أزهار الفاوانيا. تكسّر بعض سيقان الأزهار. ليس عددًا كبيرًا، لحسن الحظ. ربما لن يلاحظ "لافرينتي" ذلك. دفعت "زارا" بستائر الدانتيل المُدلاة خارج النافذة، إلى داخل البيت، ثم سحبت النافذة وأغلقتها، وركضت إلى الحديقة. مرّت بجوار أشجار التفاح، وبخلية النحل، وأشجار البرقوق. ساقاها متعبتان. غاصت إحدى قدميها الحافيتين في جُحر خُلد. هل تعود من الطريق نفسه الذي أتت منه، بمُحاذاة أشجار الصفصاف؟ أم هل من الأفضل أن تقطع خطأً مستقيمًا عبر الحقول؟

ذهبت إلى الجانب الخلفي للحديقة، حيث يمكنها رؤية الحديقة الأمامية. سيارة "باشا" الـ"بي إم دبليو" ترض أمام البوابة الأمامية. لم تسمع أو ترى أحدًا. أين ذهبوا؟ سوف يخرج "لافرينتي" ليفتش الحديقة، بكل تأكيد، في أي لحظة. أمسكت بالسلاسل الغليظة للسور، واستعدت للقفز من فوقها. أصدر المعدن صريرًا حادًا. تجمّدت في مكانها، لكنها لم تسمع شيئًا. استطاعت تبيّن آثار إطارات سيارة "باشا"، على الطريق المليء بالحشائش الطويلة، في الجانب الآخر من السور. تسحّبت باتجاه المنزل، وهي على استعداد للركض في أي لحظة. حين وصلت إلى المسافة المناسبة، نظرت عبر أشجار "البتولا" وسلاسل السور. لمحت الضوء الأصفر لنافذة المطبخ، ورأت "أوليدا" تقطع الخبز إلى شرائح. أخذت "أوليدا" بعض الأطباق من المطبخ، ووضعتها على الطاولة. التفتت نحو دواب المطبخ، مدّت يدها داخله، ثم عادت إلى الطاولة بعبوة معدنية من الحليب.. من الأيام الإستونية.. هكذا وصفتها "أوليدا" سابقًا. جلس "باشا" يثرثر، ووضع شيئًا في فمه. مرّيًا التفاح، كما يبدو من لون البرطمان. نظر "لافرينتي" إلى السقف، وراح ينفث دخان سيجارته بطريقةٍ مرحة، ويوجهه نحو الأعلى والأسفل. التعبيرات على وجه "أوليدا" بدت عادية جدًّا، وفشلت "زارا" في تفسيرها. كأنها جدة تستقبل أحفادها، وتعدُّ لهم

الساندويتشات، كما تفعل كل الجَدَّات. ضحكت "أوليدا". وكذلك "باشا". لقد فهم نُكَّتتها. طلب منها شيئًا، فغابت وعادت بسلةً جلبتها من حجرة المؤن. كان بها أدوات ومعدّات. كان المشهد الذي أعقب ذلك غريبًا، وغير متوقع، لكن "باشا" انهمك في تصليح الثلاجة!

تشبّثت "زارا" بشجرة البتولا لتساعدها على الوقوف. أحسّت بدوارٍ في رأسها. هل تنوي "أوليدا" تسليمها لهما؟ هل هذا هو سبب هذه المسرحية الغريبة التي يمثلونها؟ هل تنوي بيع "زارا" لهما؟ هل منحها "باشا" مالا؟ ما الذي يتحدثون عنه؟ لعل "أوليدا" تجاريهما فقط لكسب بعض الوقت؟ هل تنتظر لتفهم ما يجري؟ عليها أن ترحل، لكنها لا تستطيع. أصوات صراير الحقل تعلو، والظلام يشتد حلقة. الحيوانات الصغيرة تقطع الحشائش ركضًا. الأنوار تُضاء في البيوت البعيدة. انبعث صوت خشخشة من أحد جوانب الحظيرة. خشخشة تزحف على جلدها. جلدها يخشخش، وبوابةً مكسورةً تصدر صريرًا مرتفعًا داخل رأسها. ما الذي ستفعله "أوليدا"؟



بعد الوجبة المطوّلة، وتصليح الثلاجة، وقف "باشا"، وتبعه "لافرينتي". بدا أنهما يودّعان "أوليدا". أضيء نور الحديقة الأمامية، وفُتِح الباب الأمامي. خرج الثلاثة معًا. وقفت "أوليدا" على درجات السُلّم في مدخل البيت. أشعل الرجلان السجائر. نظر "باشا" باتجاه الغابة، بينما سار "لافرينتي" إلى أحواض الأزهار. تراجعت "زارا" إلى الظل.

- لديكِ أحشابٌ جيدة، سيدتي.

- أليست جميلة؟ إنها غابةٌ إستونية. إنها غابتي.

طاخ!

انهار جسد "باشا" عند أول السُلّم.

طلقةً أخرى.

استلقى "لافرينتي" على الأرض.

لقد أصابت "أوليدا" كل واحدٍ منهما بطلقةٍ في الرأس.

أغمضت "زارا" عينيها، ثم فتحتهما. كانت "أوليدا" تفتش جيوبهما. أخرجت

مسدساتهما ومحفظتيهما، ورزمة أوراق ملفوفة.

أدركت "زارا" أنها رزمة دولارات.

كان حذاء "لافرينتي"، البوت، لا يزال يلمع. "بوت" جندي.



سمعت "زارا" صوت تهشم زجاج وخشب، فتدكرت عندها فقط أنها أخذت معها شيئاً

من الحجرة الصغيرة. كانت تحتضن شجرة "البتولا" بقوة، إلى أن تساقطت شظايا زجاج

ونُتف خشب مصبوغ بالأسود، من جيبيها. لم تكن مرآة، كما ظنت حين لمحتها داخل

الحجرة، وإنما برواز صورة. لم تتمكن من رؤيتها بوضوح تحت ضوء القمر، لكنها ميّزت بين

شقوق السطح الزجاجي صورة لرجل شاب، في زيٍّ عسكري. قرأت المكتوب على ظهرها،

بصعوبة: "هانس بيك" - 6 أغسطس 1929.

كانت قد دسّت البرواز داخل الدفتر الذي عثرت عليه. مسحت قطع الزجاج المكسور،

بحذر. قرأت على جانب الدفتر الاسم نفسه: "هانس بيك".



15 أغسطس 1950

## عاشت إستونيا حرة!



أتساءل إن كان ذلك هو سبب وجود "مارتن" هنا في الريف، حتى الآن؟ لماذا هو هنا، إن كان على علاقة جيدة بالحزب؟ ألا ينبغي أن يُعيّن مسؤولاً في "تالين"، بمرور كل هذا الوقت؟ هذا هو الانطباع الذي نقلته لي "ليدا"، على كل حال؛ إن جميع مَنْ هم على شاكلته صاروا الآن يحتلون مواقع مسؤولية. ألا تتساءل "ليدا" عن الأمر، مُطلقاً؟ أم لعلهما سيذهبان إلى "تالين" فعلاً، لكنها لا تودُّ إخباري. سأحاول أن أسألها عن شقيق "مارتن"، مرّة أخرى. لكنها تتصرّف بغرابة كلما تحدّثتُ عن "مارتن". تحدّث، وتتصرّف كما لو أنني وجّهت لها اتهاماً بارتكاب فعل شرير.

السمك المملّح يجعلني عطشان. ليت لديّ شيئاً من بيرة "إنجل". لا أستطيع تمييز الليل من النهار، داخل هذا المكان. أشتاق إلى شروق الشمس فوق الحقول. أسمع وقع قفزات العصافير فوق السطح، فأشتاق إلى فتاتيّ.

لا أعرف إن كان لا يزال لديّ ولو صديق واحد على قيد الحياة.

- "هانس بيك"، ابن "إيريك" - فلاح إستوني.

1992

"لانيما" - إستونيا

الاستعداد للنوم



غاب الضوء الخلفي للسيارة المبتعدة. كانت الفتاة على درجة عالية من التّعجّل، فكان من السهل وضعها داخل سيارة تاكسي، على الرغم من أنها ظلت تهمهم بشيء طوال الوقت. ذكّرتها "أوليدا" بأن أحداً قد يأتي في أي لحظة للبحث عن "باشا" و"لافرينتي". عليها أن تغادر بأسرع ما يمكن. من الأفضل أن تصل إلى الميناء، قبل أن يبدأ أحد في التساؤل عن مكان اختفاء الرجلين.

لو وصلت الفتاة إلى بيتها، فسوف تبّلع "إنجل" بأن الأرض التي فقدتها منذ زمنٍ بعيد، في انتظارها. يمكن لـ"إنجل" و"ليندا" الحصول على الجنسية الإستونية. يمكنهما أيضاً الحصول على معاشٍ من الدولة. ما إن تحصلان على جواز السفر، ستتمكنان من تسلّم الأرض. "إنجل" ستعود، ولم يعد بإمكان "أوليدا" فعل المزيد لمنعها من ذلك. لمَ لن تصل الفتاة بسلام؟ لقد عثرتا على جواز سفرها داخل جيب "باشا"، وسوف تغطي رزمة الدولارات أكثر بكثير من مجرد أجرة التاكسي إلى "تالين"، كالحصول على تأشيرة مستعجلة، حتى لا

تضطر للاختباء في مؤخرة شاحنة عند وصولها للميناء. اتَّسعت عينا الفتاة، كجوادٍ نافر؛ لكنها ستكون بخير. نال سائق التاكسي مجموعة من الأوراق المالية، كفيلة بمنعه من طرح أيِّ سؤال حول رحلتها.

بما أنها ابنة "ليندا" وحفيدة "إنجل"، فسوف تتمكن هي أيضًا من الحصول على جواز سفر إستوني. لن تضطر إلى العودة إلى روسيا، أبدًا. هل كان على "أوليدا" أن تخبرها بذلك؟ ربما. ربما ستتوصل لتلك النتيجة بمفردها.

ذهبت "أوليدا" إلى الغرفة الخلفية، وعادت منها بورقةٍ وقلم. سوف تكتب خطابًا إلى "إنجل". تخبرها أن عليها جلب جميع الأوراق اللازمة وتقديمها لمكتب التوثيق، وأن بإمكانها هي و"ليندا" الانتقال للبيت في أي وقت. قالت لها بأن السندرة مليئة بالمرّي والأطعمة المحفوظة، المُعدَّة وفقًا لوصفاتهما القديمة. وكيف اتضح أنها جيدة في هذه الأمور، رغم عدم إيمان "إنجل" بمهارتها في الطَّهو. بل إنها صارت تتباهى بقدراتها ومواهبها في هذا المجال.

كانت ترى أحذية "باشا" و"لافرينتي"، عبر الباب.

هل كان الفتية في طريقهم إلى هنا.. أولئك الذين ينشدون الأغنيات؟ هل بلغهم أن "أوليدا" صارت بمفردها الآن؟

يمكن لابن "آينو" أن يحضر لها البنزين. سوف تعطيههم كل الخمر الموجودة لديها، وأي شيء يريدونه من المنزل. ليأخذوا كل شيء.

وضعت دفتر وصفات الطَّهو داخل الظرف مع الرسالة.

سوف ترسل الخطاب غدًا، ثم تحضر البنزين وترشُّ به المنزل. بعد ذلك، سيتعيَّن عليها انتزاع الألواح الخشبية عن أرضية الحجرة الصغيرة. سيكون ذلك شاقًّا، لكن بإمكانها فعله. بعدها، ستستلقي بجوار "هانس". في بيتها، بجانب "هانس" الحبيب. قد تفعل ذلك قبل وصول الفتية، أم لعلَّهم ينوون تنفيذ ما يخططون له - أيًّا كان ذلك - الليلة؟



## الجزء الخامس





25 أغسطس 1950

## عاشت إستونيا حُرّة!



حين كنتُ في الغابة، قابلتُ رجلًا هناك. كان شقيق زوج "ليدا". أخو "مارتن". كان مشوّشًا. شيوعيًّا. قمتُ بخنقه.

قال إنه كان في "نيويورك" مع "هانس بوجلمان"، وأنهما تولّيا تنظيم الشيوعيين هناك، وأصدرا صحيفة "العالم الجديد". إنهما من ذلك النوع من الرجال. افتقرت حكاياته للمنطق، بعض الشيء.. كان يدير رأسه في كل اتجاه، ويتلعثم، وفي بعض الأحيان يتوقّف عن الكلام تمامًا، ويتطاير البصاق من فمه. في البداية، ظننتُ أنه حيوانٌ بريٌّ يمرُّ بالقرب من مخبئي. لم يكن يعرف بأمر مخبئي، بطبيعة الحال. انزلقت قدمه في أسلاك الفخ الذي نصبته، وهكذا علمتُ بأن هناك شيئًا عالقًا داخل الفخ. لم أذهب إليه مباشرةً. انتظرتُ حلول الليل، ثم ذهبت لرؤية إن كانت هناك أي آثار. كان قد أكل بعض التوت من مكانٍ قريب. ليس بطريقة الحيوانات في الأكل. هذا ما أكّد لي بأنه إنسان حقًّا. لكنه التزم الهدوء التام، ولم أر شيئًا إلى أن أمسك بساقيي. كان حيوانًا. له عينا حيوان. ولكن ليست لديه قوة كافية. استطعتُ تثبيت جسده، بسرعة، ثم جلستُ على صدره، وسألته عمّن يكون. أصدر صوتًا أشبه بالعواء، فأغلقتُ فمه، ثم هدا. كان معي حبلٌ قصيرٌ، فربطتُ به يديه؛ لأكون آمنًا. لم يكن يحمل أي أسلحة. كان ذلك أول ما تأكّدتُ منه. فهمتُ منه أن اسمه "قسطنطين ترو".

سألته إن كان على علاقة قرابة بـ"مارتن ترو"، فردَّ بالإيجاب. لم أخبره بأن ذلك يعني أننا، بدورنا، أقارب؛ لأنني لن أعتبر أبدًا أي شيوعي من أقاربي. اكتفيت بالقول بأن "مارتن ترو" شخصية معروفة في القرية. شعر "قسطنطين" بالسعادة، أو ربما بالخوف. لم يكن من السهل تحديد مشاعره، عبر تصرفاته. ظهر عليه الحماس، على كل حال. بدأ يتحدث عن سوء فهم عظيم، ينبغي إطلاع "ستالين" عليه. شككتُ بأنه يتعمد تمثيل اللعثة. في الغابة، تلتقي مختلف أصناف البشر، الذين ينبغي عليك عدم الثقة بهم. المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية ترسل عديدًا من أعوانها لاصطيادنا نحن الشباب الإستوني. لكنني أنصتُ لحكايته حتى النهاية. فكرتُ بأنه يمكنني - من خلالها - معرفة شيء عن زوج "ليدا". ربما كان "قسطنطين" هذا عميلًا، وربما سيعترف ببعض الحقيقة في ذروة غضبه وتوتره.

كان قد عاد من أمريكا، بصحبة "بوجلان"، ثم ذهب إلى روسيا للعمل في خدمة السوفييت. عاد بعدها إلى إستونيا مع صديقٍ له، وتعرَّض هذا الصديق لإطلاق نار على الحدود، لكن "قسطنطين" تمكَّن من الوصول إلى "تالين". تعامل مع الشيوعيين هناك، لكنهم أرادوا إرساله إلى "سيبيريا"، فهرب منهم وجاء إلى الغابة. لم يكن يعلم في أيِّ عام نحن. أراد فقط أن يوصل رسالةً إلى "ستالين"، حول سوء التفاهم الذي يجب أن يُحل. ثم قمتُ بخنقه. لقد رأني حيًّا، بينما يفترض بي أن أكون ميتًا.

فتشَّت جيوبه. كانت بها رسائل. خطابات بعث بها "مارتن" إليه في "نيويورك". أخذتها معي وقرأتها. كنتُ أنوي إعطاها لـ"ليدا"، لكنني لم أفعل. لا جدوى من إخافتها، أكثر مما هي خائفة بالفعل. خبأتها هنا، تحت الألواح الخشبية للأرضية، حيث أحتفظ بهذه المذكرات. لن يكون العثور عليها أمرًا جيدًا لأي شخص. خطاباتٌ كهذه، قد تؤدِّي إلى إرسالك إلى "سيبيريا"، حتى لو كانت تواريخها تعود إلى الثلاثينيات. تُرى ما الذي فعله "مارتن" ليتجنَّب الذهاب إلى هناك؟ هل يعلم أصلًا بأن أخاه قد عاد إلى إستونيا؟

- "هانس بيك"، ابن "إيريك" - فلأح إستوني

1964

إستونيا الغربية

سِرِّي للغاية

**TOP SECRET**

ملحق رقم 2

تقرير حول نشاط العميل السِّرِّي "ترو". "مارتن"، ابن "ألبيرت"، الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية.

"ترو"، "مارتن"، ابن "ألبيرت". مولود في 1910، في "نارفا"، إستونيا. طالب جامعي. عميل سِرِّي منذ عام 1944.

"ترو"، "قسطنطين"، ابن "ألبيرت". مولود في 1899، في "نارفا"، إستونيا. طالب جامعي. موقعه غير معلوم.

اخترق العميل "كرو" المنظمة الجاسوسية السرية، الإجرامية، المعروفة باسم "مستقبل"، وعلم بأن المجرم "مارتن ترو" يختبئ في منزل المواطنة "ميليا ماجيستي". وفقاً للمعلومات التي زوّدنا بها العميل "كرو"، فإن شبكة التجسس السِّرِّيّة كانت على اتصالٍ دائمٍ بوكالات الجاسوسية الأجنبية. زار "قسطنطين ترو"، شقيق المجرم "مارتن ترو"، مدينة نيويورك. هناك شكٌّ كبيرٌ في أن "مارتن ترو" لا تزال لديه علاقاتٌ هناك. إن موقع "قسطنطين ترو" الحالي مجهول. خلال وجوده في نيويورك، كان ناشطاً في حركة "الشيوعيون

الإستونيون المغتربون"، كما قام بإصدار صحيفة "العالم الجديد"، وهي إصدارٌ مشبوه.  
يُنصَحُ بالقاء القبض على المجرم "مارتن ترو"، بمساعدةٍ من العميل "كرو". يُعدُّ "مارتن  
ترو" شخصًا جديرًا بالإعداد والتأهيل، شريطة موافقته على التعاون.

1946

إستونيا الغربية

سِرِّي للغاية

**TOP SECRET**

ملحق رقم 2

تقرير حول مدى مُلاءمة "ترو"، "مارتن"، للتأهّل كعميل للجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية.

لقد قمنا بالتحقق من اهتمامات "مارتن ترو"، فيما يتعلّق بأخيه "قسطنطين ترو"، المقيم في الولايات المتحدة.

كما قمنا بالتحقق من كون "مارتن ترو" شخصًا يُعتمد عليه، وذلك بمساعدة من العميلين "بول" و"هامر". لم يُبدِ "مارتن ترو"، حتى الآن، أيّ اهتمام بمسألة السفر إلى الخارج، ولم يُظهر أيّ آراء تحمل عداءً تجاه الاتحاد السوفيتي.

وللتوصّل إلى قرار بشأن ما إذا كان "مارتن ترو" مهتمًا بتأسيس علاقات إجرامية مع الخارج، أو ما إذا كان قد أصبح عميلًا للمخابرات الأمريكية بالفعل، فقد تمّ اتخاذ العمليات التالية:

عملنا على تعارف العميلين "بول" و"هامر" بـ"مارتن ترو". أخبر العميل "بول" "مارتن" بأنه ذاهبٌ إلى موسكو لرؤية أخته. ذكر العميل "بول" أن أخته

تعمل في السفارة السويدية في موسكو. لم يُبدِ "ترو" أيَّ اهتمامٍ يُذكر بهذه الزيارة. فعليًا، قمنا بإرسال العميل "بول" إلى موسكو، وعند عودته التقى "مارتن ترو" ثانيًا، وأخبره عن زيارته بالتفصيل. لم يُظهر "ترو"، هذه المرّة أيضًا، أي اهتمام بما قاله "بول". كانت مهمة العميل "بول" هي توضيح أنه على علاقة جيدة ومتينة بأخته، وذكّر بعض التفاصيل التي من شأنها أن تبين لـ"مارتن ترو" أنه يمكن إقامة علاقات مع الخارج، من خلالها. "ترو" لم يلتقط الطعم.

نجح العميل "بول" في البقاء بمفرده داخل شقة "مارتن ترو"، لكنه لم يعثر على أيّ جهاز إرسال، ولا معدّات "ميكروفيلم" داخلها. كما لم يعثر على أي خطابات من شقيق "ترو". لكنه وجد نشافة كتابة فوق الطاولة، تحمل الحرفين A.V، اللذين قد يشيران إلى "آسترا فاري"، شقيقة زوجة "قسطنطين" المتوفاة، والمقيمة في أمريكا.

المسألة بحاجة إلى مزيد من البحث، للتوصل إلى قرار بشأن ما إذا كان الهدف يطمح لجمع معلومات سرّية لصالح قوة خارجية. إذا كان الأمر كذلك، فسوف يتم تزويده بمعلومات "سرّية" خاطئة تمامًا.

الهدف يشعر بقلقٍ غير مُعلن حول فكرة إقامة شقيقه في الخارج، ويدّعي أن أخاه قد مات، على الرغم من وجود دلائل على تواصله معه. هذه العلاقة غير القانونية تجعل من "مارتن ترو" هدفًا لا يُعتَمَد عليه، ومع ذلك يُنصح بإصلاحه وتأهيله. بسبب علاقاته الطويلة مع النشاط الإجرامي، فإنه يمتلك وفرة من المعلومات القيّمة، التي تفيد التحقّق من الشخصيات.

التحقيقات الإضافية حوله مطلوبة، لمعرفة ما إذا كان يستغل مراسلاته في اتصالاتٍ غير قانونية.

يُوصى بمزيد من التحقيقات، لمعرفة ما إذا كان "مارتن ترو" يسعى للتواصل مع البحارة المسافرين للخارج، لإرسال خطابات غير قانونية لأخيه. يُنصح بتكليف العميل "هامر" بهذه المهمة، نظرًا لعلاقته الوثيقة بـ"مارتن ترو".

1946

إستونيا الغربية

سِرِّي للغاية

**TOP SECRET**

ملحق رقم 2

تقرير حول التحقيق في الأنشطة الإجرامية المناهضة للاتحاد السوفيتي، داخل الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية.

بسبب هروب عددٍ كبيرٍ من المجرمين المناهضين للاتحاد السوفيتي، ممن هم قيد التحقيق، فإنهم يخضعون للمراقبة، من قِبَل خدمة المراقبة السرية للبريد. لولا هذا التعاون، لما استطعنا تحقيق النجاح المطلوب في عملنا. إن التحقيق في النشاط الإجرامي المناهض للاتحاد السوفيتي أمرٌ شديد التعقيد؛ بسبب لجوء المجرمين المذكورين إلى المراسلة من خلال عناوين متعددة، وذلك - على الأرجح - لحماية أقاربهم الموجودين داخل الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية. يتم بعدها توصيل الخطابات من تلك العناوين الزائفة إلى أقارب المجرمين. بعض المجرمين المذكورين يتواصلون مع أقاربهم، دون وسائط، عبر إرسال الخطابات بأسماء زوجاتهم.



لقد دفعنا هذه الظروف لابتكار وسائل جديدة للمراقبة، عبر حصر العلاقات العائلية، وغيرها من العلاقات الوثيقة، لعددٍ من المجرمين المناهضين للاتحاد السوفيتي. من خلال عمليات التعاون مع خدمة المراقبة السريّة للبريد، نجحنا أيضًا في حصر الألقاب العائلية لزوجات المجرمين، قبل زواجهنّ، وكذلك أسماء الشُّهرة الخاصة بهنّ، وأسماء التديل. ورغم تحقيقنا نجاحًا ملموسًا، فإنّ التحقيقات بشأن المجرمين المناهضين للاتحاد السوفيتي لا تزال تفتقر إلى الكثير. إن تحديد المجرمين الذين - وفق معلوماتنا - يعيشون داخل الاتحاد السوفيتي، لا تزال مسألة منقوصة، والتحقيق فيها يسير بشكل بطيء للغاية. من الضروري مواصلة جمع هذه المعلومات، باستمرار.

لقد أثبت العميل "إكس" كفاءته في العمليات ذات الصلة بالولايات المتحدة، إذ إنه يمتلك عددًا كبيرًا من المعلومات المهمة المتعلّقة بتحديد المجرمين المناهضين للاتحاد السوفيتي، ممن هم على صلة بأخيه "قسطنطين ترو".

لأن المجرمين قيد المراقبة قد يلجؤون إلى الاختباء في مناطق تكون فيها مراقبة الموظفين والعمّال ضعيفة، فإننا قررنا اختراق عددٍ من مواقع البناء والتعمير ومراكز الأعمال المعدنية، عبر عملائنا السريين. من الأفضل إرسال العميل "إكس" إلى "كولخوز النصر"، إذ وردتنا معلومات بأن عددًا من المناهضين للاتحاد السوفيتي، العائدين من أمريكا إلى الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية، ينوون الاختباء هناك.

1946

إستونيا الغربية

سِرِّي للغاية

**TOP SECRET**

ملحق رقم 2

تقرير حول التقدُّم في التحقيقات الجارية حول الأنشطة الإجرامية المناهضة للاتحاد السوفيتي، داخل الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية.

لم يحقق العميل "إكس" أيَّ تقدُّم في متابعة العائدين من أمريكا، وإنما نجح في إقامة علاقة وطيدة بشخص يجب أن يتم تجنيده لخدمتنا، إن أمكن. أحد أبناء عمومة هذا الشخص، الأصغر سنًّا منه، موجود في السويد، ومن الواضح أنه يسعى لجمع مواد مناهضة للاتحاد السوفيتي، من الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية، بغرض النشر.

1946

إستونيا الغربية

سِرِّي للغاية

**TOP SECRET**

ملحق رقم 2

تقرير حول التحقيقات بشأن الأنشطة الوطنية السِّرِّيَّة داخل الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية.

سوف يتم إسناد مزيد من مهمات تصفية العمليات التي يقوم بها الخارجون عن القانون في المناطق المحيطة بـ"لانيما"، في إستونيا الغربية، إلى العميل "إكس". لقد بدأ الخارجون عن القانون، من المنتمين للحركة الوطنية، في تنفيذ أنشطتهم في المنطقة التابعة له، ونحن نأمل في تكوين شبكة من العملاء تعمل على تسهيل اعتقالهم. أؤكد لنا العميل "إكس" بأنه لو كان في المنطقة مجرمون من العائدين من أمريكا، لكان قد نجح في تحديدهم ومعرفتهم، وهو يُرَجِّح بأنهم غَيَّرُوا مواقعهم. لهذا السبب، سوف يتم استغلال مواهبه من خلال مهمة تصفية الخارجين عن القانون، المنتمين للحركة الوطنية.

1946

إستونيا الغربية

سِرِّي للغاية

**TOP SECRET**

ملحق رقم 2

رؤية شاملة للأنشطة في الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية.

قمنا بتوجيه تركيزنا الأساسي في مجال الأنشطة على تحسين التعاون مع عملائنا السريين، وإنشاء أجهزة مكمّلة، من خلال وظائف جديدة. الهدف هو تجنيد الأشخاص الذين يعرفون السكّان المحليين بشكل جيّد، والذين يمتلكون القدرة على تحديد ومعرفة الأشخاص القابلين للتعاون معنا في الإبلاغ عن الآخرين. بإمكان العملاء السريين الذين يألّفون المنطقة الإبلاغ فوراً عن أي أشخاص جدد في المنطقة، يمكن أن يشكّل وجودهم خطراً.

كنتيجة للعمل المكثف للعملاء السريين، فقد بدأنا في تلقي مزيد من الأدلة المتعلقة بالمشتبّه بهم في المنطقة. تلقينا، خلال الشهر الماضي، أكثر من اثني عشر بلاغاً من ذلك النوع. كما تلقينا في السنة الماضية ما يزيد على الستين بلاغاً.

بالإضافة إلى المغتربين العائدين، فإن أكثر الأشخاص مَيلاً للإبلاغ وتقديم المعلومات، وفقاً لتحليل عملائنا السريين، هم الأفراد الذين لديهم أقارب في الخارج، والأفراد الذين سبق اتهامهم بممارسة أنشطة ضد الثورة. من المستحسن أيضاً مراقبة الشباب الذين ينتمون لجماعات سياسية ضعيفة.

تم القبض على ستة أشخاص، من ضمن أعداء الاتحاد السوفيتي، ينتمي أربعة منهم إلى تنظيمات سرّية، بينما حمل الاثنان الآخران أسلحة. قتل شخصٌ واحد من قِبَل هيئة الطوارئ الروسية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب.

خلال عامٍ واحد، قدّم المواطنون السوفييت 120 بلاغاً، من بينها تسعة بلاغات مجهولة. كانت البلاغات كالتالي: بلاغات ضد أشخاص يظهرون العداء للجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية، أو يشككون فيها؛ وبلاغات تتعلق بآراءٍ مناوئة، في مناطق مناوئة. بالإضافة إلى بلاغات حول مجرمين فارّين، مُعادين للاتحاد السوفيتي.

تم فحص جميع البلاغات بدقة، والتَّحرّي عنها، بسرعةٍ فائقة، لمنع أولئك الأفراد من خيانة وطنهم.

1946

إستونيا الغربية

سِرِّي للغاية

**TOP SECRET**

ملحق رقم 2

تقرير حول البلاغ المقدم من "كوسي"، "إيها"، ابنة "ماتي".

"كوسي"، "إيها"، ابنة "ماتي". مولودة في عام 1918. إستونية. مقيمة في "هابسالو".

في الأول من شهر مارس، تلقينا بلاغاً من المواطنة "إيها كوسي"، ابنة "ماتي".

أشارت في بلاغها إلى أن خطيبها السابق، "هانس بيك"، ابن "إيريك"، كان عضواً ناشطاً

في ميليشا "أوماكابتسي"، وأنه أظهر آراءً مُعادية للاتحاد السوفيتي، خلال الاحتلال الألماني.

منذ إنهاء خطبتهما، التقت "إيها كوسي" خطيبها السابق مرةً واحدة فقط، أبدى خلالها آراءً

معادية للاتحاد السوفيتي. من ضمن ما قاله "هانس بيك" هو أن الأشياء الوحيدة التي

يتم بناؤها في "سيبيريا" هي السجون. أنهت "إيها كوسي" و"هانس بيك" أي تواصل

بينهما، عقب خطبة الأخير لـ"إنجل تام"، ابنة "ريتشارد". تزوّج "هانس بيك" من "إنجل تام"، ثم أُعلن عن وفاته عام 1945.

بناءً على هذا البلاغ، أُكِّد عديد من الشهود الذين تم التحقيق معهم أن "هانس بيك" كان ينتمي إلى المنظمة المذكورة أعلاه. قال أحد الشهود، ويُدعى "آنطون تومينجاس"، إن شخصاً شديد الشبه بـ"هانس بيك" قد اشترك في أنشطة إرهابية، سنة 1945. وقال "تومينجاس" إنه سمع أن رجلاً يشبه "هانس بيك" كان جزءاً من جماعة إجرامية تقوم بالاعتداء على أعضاء اللجان الإدارية والتنفيذية. خلال إحدى هذه الهجمات، قام أحد أولئك المجرمين، الذين لم يتم التعرف عليهم، بإطلاق النار على المدير التنفيذي للجنة، "ياني سيريل"، وأرداه قتيلاً. يرجح أن تكون هذه الجماعة قد اشتركت في سرقة إحدى شاحنات مصنع "يوو آنتسلا للزبدة"، في مقاطعة "فورو"، بجنوب شرقي إستونيا. لكن لم يردنا أي بلاغ أو تقرير عن وجود شخص يشبه "هانس بيك" في مقاطعة "فورو"، على كل حال.

لإلقاء الضوء على أنشطة "بيك" خلال الاحتلال الألماني، تم تأسيس وحدة عمليات خاصة بذلك. من ضمن مهامها التحقُّق من مسألة موته المزعوم، والبحث عن شهود يمكنهم الإدلاء بمعلومات حول ضلوعه المحتمل في قتل مواطنين سوفيت.

1946

إستونيا الغربية

سِرِّي للغاية

**TOP SECRET**

مُلحق رقم 2

تقرير حول أنشطة العميل "إكس"، الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية. وفق شهادة العميل "جوتِّي"، فإن نشاطات العميل "إكس" في "كولخوز النصر" تتميز بكونها مثالية ومودجية، ولذلك فإنه لا يوجد سبب للتشكيك في مدى ملاءمته للانتقال من حالة التأهيل إلى حالة التجنيد. قام العميل "إكس" بتجنيد اثنين من العُملاء السَّريين الجدد، هما "هيلمر" و"جوسبيري"، اللذين ينتميان في الأساس للدائرة الداخلية من الحركة الوطنية السرية، أو ما تعرف بـ"إخوة الغابة" (جماعة تضم "جان سوب"، ضمن أفراد آخرين). يرتبط "هيلمر" بعلاقة وثيقة بـ"فامبولا لوري"، الذي ساهم في إمداد الحركة الوطنية بالطعام والأغذية. أخبر "لوري" "هيلمر" بأنه يخبئ أسلحة في حديقته، لكنه لم يوضح مكانها بالضبط.

نُوصي بتزويد العميل "إكس" بمبلغ مئتي روبل، ليمنحه للعميل "هيلمر". "هيلمر" و"جوسبيري" لا يعرفان أماكن وجود أعضاء الحركة الوطنية، ولم يقوموا حتى الآن بزيارة منازل عائلات هؤلاء الأعضاء. يأمل "هيلمر" في تدبير لقاء مع "جان سوب"، بحجة منحه مساعدة مالية.



1947

إستونيا الغربية

سِرِّي للغاية

**TOP SECRET**

ملحق رقم 2

تقرير حول نشاط العميل "إكس" في تصفية الوطنيين السريين، في الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية.

"بيك"، "إنجل"، ابنة "ريتشارد". مولودة في عام 1920. إستونية. متزوجة من المجرم "هانس بيك"، ابن "إيريك".

"تام"، "أوليدا"، ابنة "ريتشارد"، مولودة عام 1925. إستونية. شقيقة "بيك"، "إنجل"، ابنة "ريتشارد".

وفقاً لشهادة العميل "إكس"، فإن العميل "هيلمر" قد نجح في لقاء "جان سوب"، المنتمي للحركة الوطنية السرية. ينوي "سوب" الانتقال من الغابة إلى الحظيرة التي يمتلكها "فامبولا لوري"، ليمضي فيها فصل الشتاء. لا توجد معلومات بشأن موقع "سوب" في الغابة، بالضبط. أكد العميل "هيلمر"، في تقريره، بأنه رأى "هانس بيك"، الذي كان يُعتَقَد بأنه متوفٍ، في الطريق. إنه

متأكدُ تمامًا من أنه "بيك". عند لقاء "هيلمر" بـ"سكوب"، سأله ما إذا كان قد عيّن حارسًا شخصيًا لنفسه. أنكر "سوب" ذلك، وأبدى دهشته للسؤال. أخبره العميل "هيلمر" بأنه رأى شخصًا يشبه "هانس بيك" تمامًا، وهو ما جعل دهشة "سوب" تتعاضم. قال "سوب" إن "بيك" قد مات، وإنه متيقن من ذلك. لم يصدِّقه العميل "هيلمر".

سوف يتم استدعاء "إنجل بيك" و"أوليدا تام"، وهما من عائلة "هانس بيك"، للتحقيق معهما مرّة أخرى. التحقيقات السابقة لم تأتِ بنتيجة.

1947

إستونيا الغربية

سِرِّي للغاية

**TOP SECRET**

ملحق رقم 2

تقرير حول التحقيق مع "تام"، "أوليدا"، ابنة "ريتشارد".

تابع العملاء "إكس" و"كرو" و"فوكس" سير التحقيقات مع "أوليدا تام"، عقب القبض عليها، بتهمة تزويد المجرمين بالطعام. أنكرت المتهمة ارتكاب هذا الفعل غير القانوني، وتمسكت بالإنكار. كما قالت إنها تعتقد أن "هانس بيك" قد تُوفي عام 1945. لم تُدلي المتهمة بمعلوماتٍ جديدة تساعد في اعتقال "هانس بيك"، المنتمي للحركة الوطنية. يعرف العملاء "إكس" و"كرو" و"فوكس" بشأن المتهمة، منذ زمنٍ طويل، لكنهم غير متأكدين مما إذا كانت تكذب أم لا.

1947

إستونيا الغربية

سِرِّي للغاية

**TOP SECRET**

ملحق رقم 2

تقرير حول الأنشطة المتبعة لتصفية "هانس"، "بيك"، ابن "إيريك"، المنتمي للحركة الوطنية.

"بيك"، "هانس"، ابن "إيريك"، مولود عام 1913 في "ليهولا". عضو سابق في منظمة "أوماكايتسي". انخرط في العمل السري في عام 1943. أظهر تعاونًا خلال الاحتلال الألماني. أعلن عن وفاته عام 1945.

وفقًا للعميل "إكس"، فإن جميع أفراد القرية يعتقدون أن "هانس بيك" قد قُتل عام 1945. "ريستلا"، "هندريك"، الذي ينتمي هو أيضًا للحركة الوطنية، والشاهد العيان على عملية القتل، تَمَّت تصفيته مع بداية هذه السنة. لا يوجد شهود آخرون. وفقًا لشهادة "ريستلا"، فإنه و"هانس بيك"، بعد سنواتٍ طويلةٍ على الجبهة، كانا في طريقهما للبلدة، في عربةٍ يجرُّها حصان. تَمَّت

مهاجمتهما على طريق الغابة. تعرّض "هانس بيك" لإطلاق النار ومات على الفور، لكن "ريستلا" جرح فقط، وتمكن من الهروب. وفقاً لـ"ريستلا"، فإنها كانت محاولة سرقة. حين ذهب رجالٌ من القرية إلى الموقع المذكور، صباح اليوم التالي، وجدوا العربة فارغة، لكنهم لم يعثروا على أي أثر لجثة "بيك". كان الحصان أيضاً قد اختفى. ذكر "ريستلا" بأنه لم يتعرف على الرجال الذين قاموا بالهجوم عليهما. وقعت جرائم مماثلة في المقاطعة، سابقاً، ولذلك لم يجد القرويون الحادث أمراً مستغرباً. تحدّث "ريستلا" عن تفاصيل الواقعة، وبقية حكايته ثابتة ومتماسكة، مع مرور الزمن.

خضع "ريستلا" للتحقيق سابقاً، ولكن لأمرٍ لا علاقة له بوفاة "بيك". خلال الاحتلال الألماني، كان "ريستلا" ناشطاً لحساب الألمان، وواصل ارتكاب سلسلة من الجرائم المناهضة للثورة، ضد بلده، عقب انتهاء الاحتلال. رغم محاولاتنا منعه من خيانة وطنه، فإننا لم ننجح في ذلك، فقد واطب على ممارسة أنشطته الإرهابية، غير القانونية، إلى يوم وفاته.

تم اعتقال المجرم "جان سوب"، على خلفية المعلومات التي زوّدنا بها العميل "هيلمر". خلال التحقيق معه، اعترف "سوب" بأنه كان على تواصل مع "هانس بيك"، حين كان الأخير يختبئ في الغابة. قال "سوب" إن "بيك" كان يروّج للآراء المعادية للاتحاد السوفيتي، وإنه كان يسرق الأموال ليمنحها للفلاحين. بالإضافة لذلك، كان "بيك" يهدد بأنه سيستخدم مسدسه في قتل أي شيوعي، بدم بارد، إن أتيحت له الفرصة. تشير معلوماتنا إلى أن "هانس بيك" امتلك مسدساً.

تم استدعاء زوجة المجرم "بيك"، "إنجل بيك"، وشقيقة زوجته، "أوليدا تام"، للتحقيق معهما، ثلاث مرّات. لكنهما أنكرتا باستمرار معرفتهما بأيّ من أنشطة "بيك"، وأعلنتا أنهما لا تعتقدان أنه لا يزال على قيد الحياة. تم جلب "ليندا بيك"، وهي ابنة "هانس بيك" و"إنجل بيك"، للتحقيق معها. لكن

المعلومات التي أدلت بها المذكورة لم تختلف في شيء عمّا قالتها "إنجل بيك" و"أوليدا تام". على كل حال، لم يستطع العميل "إكس" إثبات ما إذا كانت المرأتان تقولان الحقيقة. وفقاً للعميل "إكس"، فإن العميل "هيلمر" متيقن من أن "إنجل بيك" و"أوليدا تام"، قامتتا بتقديم دعمٍ للمجرمين.

تعرف "هيلمر" إلى "بيتر كوم"، الذي كان يتعاون مع "جان سوب". قال لـ"كوم" إنه بحاجة لمساعدة طبية من أجل أحد الجرحى في الغابة. شجعه "بيتر كوم" على الذهاب إلى منزل "أوليدا تام"، وأخبره بأنه سيغادر المنزل ببطنٍ ممتلئٍ بالطعام. نُوصي بمراقبة منزل "إنجل بيك" و"أوليدا تام"، على مدار الأربع والعشرين ساعة. يجب التحقق أيضاً من النساء اللاتي يزرنهما. بعض المجرمين المذكورين يتردّدون على المنزل مُتكرّرين في ملابس نسائية.

1948

إستونيا الغربية

سِرِّي للغاية

**TOP SECRET**

ملحق رقم 2

تقرير حول أنشطة العميل "إكس" في مجال تصفية العاملين في الحركة الوطنية السرية، في الجمهورية الإستونية السوفيتية الاشتراكية.

نجح العميل "إكس" في توطيد علاقته بأحد أفراد عائلة "هانس بيك"، الذي يُعتَقَد أنه لا يزال على قيد الحياة، وقد قام بترشيحها للتأهيل للتجنيد لصالح الوكالة. تم التأهيل عبر العميل "هامر". أحسَّ العميل "إكس" بأن عليه أن لا يطبِّق التأهيل بنفسه، بسبب علاقته الوثيقة بالهدف، أي العميلة "فلاي". وفي حال جهلها بطبيعة مهمته، سيكون العميل "إكس" قادرًا على ملاحظة العميلة "فلاي"، ومراقبتها، بشكلٍ أفضل. سوف يكون العميل "هامر" بمثابة ضابط الاتصال للعميلة "فلاي".

من المعروف أنه كان للعميلة "فلاي" علاقةً وثيقةً بالألمان خلال فترة الاحتلال. تردد الجنود الألمان على منزلها باستمرار. ولكن، وفقًا للعميل

"إكس"، فإنها لم تهتم بالتعاون مع الألمان، كما لم تسعَ للتواصل معهم عقب انتهاء الاحتلال. ولهذا السبب، فإنها في تقدير العميل "إكس" خيارٌ مثاليٌّ لهذه العملية؛ لأننا نحاول تحديد الأفراد الذين تعاونوا مع الألمان. تمَّ تجنيد عدد منهم للعمل كجواسيس للألمان. لقرب منزلها من الغابة، وللعلاقات التي تربط عائلتها بالآخرين، فإن العميلة "فلاي" على معرفة بنشاطات الوطنيين. وبسبب وظيفتها كمفتشة ضرائب، فإنها تتردّد على بيوت السُّكَّان المحليين، ما يساعدها في ملاحظة أي نشاط مُريب.

راقبت العميلة "فلاي"، عن كثب، حياة كل من "إنجل بيك" و"ليندا بيك"، على مدار العام. إنها متأكدة من أن المجرم "بيك" قد مات، لكنها تشير إلى أن زوجته "إنجل بيك" تقوم بجمع موادّ وطنية (عَلَمٌ إستوني، وصحف وكتب) في بيتها، وأنها تساعد المجرمين عبر تزويدهم بالطعام، وعبر تجفيف الأغذية المختلفة ليسهل عليهم استخدامها في الغابة. أظهرت "ليندا بيك" اهتمامًا بمنظمات الشباب الوطني. مارست "إنجل بيك" أنشطة تتعلّق بخيانة الوطن على مدار سنوات طويلة.

يُنصَحُ باعتقال "إنجل بيك"، لتعاونها مع مجرمي الحركة الوطنية.



1949

إستونيا الغربية

سِرِّي للغاية

**TOP SECRET**

ملحق رقم 2

تقرير حول تطورات مهمة تصفية الوطني "بيك"، "هانس"، ابن "إيريك".  
بعد اعتقال "إنجل بيك"، زوجة أو أرملة "هانس بيك"، وابنتها "ليندا بيك"، لم تظهر  
إشارات أخرى بخصوص "هانس بيك". قامت العملية "فلاي" بدراسة أمزجة وتصرفات  
أقارب "بيك"، ولكن يبدو أن أحداً منهم لم يسمع شيئاً عنه. من جانب آخر، قامت العملية  
"فلاي" بمراقبة "آستا كالفيت"، التي كانت قد تعاونت مع "ليندا بيك" في تأسيس جماعة  
للشباب الوطنيين. هذه الجماعة غريبة وغير مألوفة؛ لأن أعضاءها بنات فقط. من واقع  
خبرتنا، فإن أنشطة الخيانة الشبيهة بها، قام بها - بشكلٍ عام - صبية من المعارضة  
السياسية. ينبغي التقصي في هذه المسألة، لتحديد ما إذا كان هذا تيار جديد آخذ في  
الانتشار، أم أنه مجرد حالة شاذة. سوف يتم استدعاء "آستا كالفيت" للتحقيق معها.

كنا نأمل أنه بمجرد توقُّف "إنجل بيك" و"ليندا بيك" عن إعداد الأطعمة، وغيرها من صور المساعدات، لـ"هانس بيك" - الذي نُرجِّح أنه لا يزال على قيد الحياة - فإنه إما سيعلن عن رغبته في التعاون، أو يقوم بالمشاركة في جرائم إرهابية، أو سرقات.. إلخ. لكن شيئاً من هذا لم يحدث.

1950

إستونيا الغربية

سِرِّي للغاية

**TOP SECRET**

ملحق رقم 2

تقرير حول تطورات مهمة تصفية "بيك"، "هانس"، ابن "إيريك"، المنتمي للحركة الوطنية.

قامت العملية "فلاي" بجمع أدلة حول النشاط المحلي للحركة الوطنية. قمنا بفحص الأدلة بدقة، كما سعينا لمراقبة الأفراد الذين يروجون للآراء المعادية للاتحاد السوفيتي. قَدِّمَت العملية "فلاي" كذلك قائمة بالأشخاص الذين قد يلجأ إليهم "هانس بيك"، طلباً للمساعدة. على كل حال، لا توجد دلائل تشير إلى أن "هانس بيك" قد فعل ذلك. كما قمنا بالتواصل مع أقارب "هانس بيك"، وأفراد من عائلته، واستدعيناهم إلى مكاتبنا، حيث أخبرناهم بضرورة الإبلاغ الفوري في حالة اتصال "هانس بيك" بأي منهم. أخبرناهم أيضاً بأن "هانس بيك" مرشح للتأهيل والإصلاح، لكنهم استقبلوا هذه المعلومة بارتياح وتشكك.

1951

إستونيا الغربية

سِرِّي للغاية

**TOP SECRET**

ملحق رقم 2

تقرير حول إنهاء مهمة تصفية "بيك"، "هانس"، ابن "إيريك"، المنتمي للحركة الوطنية. نظرًا للمعلومات الواردة إلينا من قِبَل العميلة "فلاي"، قمنا باعتقال الوطنيين "فيلو آرو" و"رايموند هيمان". يُنصَح بإنهاء مهمة البحث عن "هانس بيك". لم تردنا أي أدلّة جديدة تشير إلى أن "هانس بيك" لا يزال على قيد الحياة، أو أنه يواصل أنشطته السرية. سوف يتم تكليف العميل "إكس" بمباشرة عمليات أخرى، هدفها الكشف عن الأنشطة المعادية للاتحاد السوفيتي. سوف تواصل العميلة "فلاي" جمع الأدلة المتعلقة بأنشطة الحركة الوطنية.

5 أكتوبر 1951

## عاشت إستونيا حُرّة!



لم يبقَ إلا ليلة واحدة فقط، هنا. كنت أتحدّث إلى "إنجل" بشأن البحث عن "ليندا".  
سوف نعثر عليها، معًا، أيًّا كان الوقت الذي سيستغرقه ذلك.  
على الرغم من أنني لا أزال غير حُرّ، فإنني سأكون كذلك قريبًا. قلبي في خِفّة قلب طائر  
"السنونو".

سوف نكون ثلاثتنا معًا، عمّا قريب.

- "هانس بيك"، ابن "إيريك" - فلاح إستوني

## صدر من سلسلة كتب مختلفة:

1. اسمي نور إلسا أوسوريو الأرجنتين
2. كلي لك كلاوديا بينيرو الأرجنتين
3. أرامل الخميس كلاوديا بينيرو الأرجنتين
4. نقطة الصفر ناريج ماليان الأرجنتين
5. مشروع روزي جرايم سيمسيون أستراليا
6. قصص بسيطة: رواية من ألمانيا الشرقية إنجو شولتزة ألمانيا
7. لأننا في مكان آخر رشا الخياط ألمانيا
8. الثلاثة سارة لوتز إنجلترا
9. الموت والبطريق أندريه كيركوف أوكرانيا
10. تاتي كريستين دوير هيكي أيرلندا
11. جريمة الساحر أرني ثورارينسون أيسلندا
12. شركة الحب المحدودة أندريه سنار ماجنسون أيسلندا
13. الحب لم يعد مناسباً ميلا فينتوريني إيطاليا
14. حذارٍ من جوعي لوتشانا كاستيلينا إيطاليا
15. سارق الجثث باتريسيا ميلو البرازيل
16. السيمفونية البيضاء أدريانا ليسوا البرازيل
17. مقبرة البيانو جوزيه لويس بايشوتو البرتغال
18. نيزك في جالفائش جوزيه لويس بايشوتو البرتغال
19. أن تأتي متأخراً ديميتري فيرهولست بلجيكا
20. صانع الملائكة شتيفان بريجش بلجيكا
21. مخاوف السبعة سلافيدن أفيدتش البوسنة
22. جامع الكتب جوستابو فايرون باترياو بيرو
23. أبسنت أيفر تونش تركيا
24. أحلام محطة بيولانت سينوكاك تركيا
25. ارحل قبل أن أنهار تونا كيرميتشي تركيا
26. امرأة صديقي تونا كيرميتشي تركيا
27. توباز هاكان جنيد تركيا
28. ثلاثة على الطريق تونا كيرميتشي تركيا
29. جريمة في البوسفور أسمهان أيكول تركيا
30. جريمة في إسطنبول أسمهان أيكول تركيا

31.	خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا
32.	ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
33.	الشیطان امرأة	هاندي ألتايي	تركيا
34.	الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميشي	تركيا
35.	لون الغواية	هاندي ألتايي	تركيا
36.	مينتا	سولماز كاموران	تركيا
37.	نساء إسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
38.	جرائم براج	ميلوس أوربان	التشيك
39.	معسكرات الشيطان	يواقيم توبول	التشيك
40.	حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
41.	حُفِظَت القضية	باتريك أورشانديك	التشيك
42.	ديتوكس	سوزانا بربتسوفا	التشيك
43.	سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
44.	كافكا	فرانز كافكا	التشيك
45.	المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك
46.	المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
47.	العقل المدبر	دافيد أوجنر	جواتيمالا
48.	امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
49.	خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
50.	الحياة هنا	ميرال قريشي	سويسرا
51.	ربيع البربر	يوناكس لوشر	سويسرا
52.	كرافت	يوناكس لوشر	سويسرا
53.	بكين.. بكين	شيو تسي تشين	الصين
54.	بنات الصين	يي ماي	الصين
55.	الربع الأخير من القمر	تشيه زيه جيان	الصين
56.	رحلة الانتقام	جوو دا شين	الصين
57.	سبع ليالٍ في حدائق الورد	يي ماي	الصين
58.	النجمة الحمراء	يركسي هولمانبيك	الصين
59.	رقصة الكاهنة	جين رن شون	الصين
60.	المغفلون	إريك نويوف	فرنسا
61.	المجاعة البيضاء	آكي أوليكانيين	فنلندا
62.	التطهير	صوفي أوكسانين	فنلندا
63.	النسيان	يكتور آباد	كولومبيا

64.	صانع الزجاج	إيرميس لافازوناوفسكي	مقدونيا
65.	القنّاص	بلايز ماينفسكي	مقدونيا
66.	الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا
67.	إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
68.	صيف بارد جدًا	روي ياكوبسن	النرويج
69.	دگان الساري	روبا باجوا	الهند
70.	جوي سيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
71.	العشاء	هيرمان كوخ	هولندا
72.	المنزل الصيفي	هيرمان كوخ	هولندا
73.	تلك الأسماء	تومي فيرينيجا	هولندا
74.	عقيدة الأغنياء	ماريا تاسلر	كرواتيا

## صدر من كتب عامّة:

75.	الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتز	ألمانيا
76.	قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
77.	هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
78.	المختطفات: شهادات من فتيات بوكو حرام	فولفجانج باور	ألمانيا
79.	الشاي: ثقافات وطقوس وحكايات	كريستوف بيترز	ألمانيا
80.	الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
81.	الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
82.	القرصان الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
83.	مختصر تاريخ الصين	مايكل ديلون	الصين
84.	زيارة لمكتبات العالم: تاريخ مكتبات بيع الكتب	خورخي كاريون	إسبانيا
85.	يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
86.	خيالات الشرق	إيسا دي كيروش	البرتغال
87.	ضد الانتخابات: دفاعاً عن الديمقراطية	دافيد فان ريبوك	بلجيكا
88.	أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
89.	قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك



فرنسا	جي. إم. لو كلوزيو	90	النشوة المادية
فرنسا	أنطوان لاريس	91	لن أمنحك كراهيتي
كولومبيا	أوسكار بانتوخا	92	جابو
النرويج	ثور جوتاس	93	الجرى
هولندا	دوي درايسما	94	عقول مريضة
هولندا	يوريس لوندريك	95	اللعب مع الكبار

## يصدر قريباً: من سلسلة كتب مختلفة:

الأرجنتين	كلاوديا بينيرو	96	بيتي بو
أسبانيا	فيرجينا فالاجيو	97	في حب بابلو وكراهية إسكوبار
إنجلترا	سارة لوتز	98	اليوم الرابع
أمريكا	فيكتوريا فان تيم	99	الحب في الأفلام
البرازيل	تاتيانا سالم ليفي	100	بيت في سامراء
البرازيل	رافاييل مونتيز	101	أيام رائعة
التشيك	مارك سينديلكا	102	خريطة آنا
تركيا	صلاح الدين ديميرتاس	103	سهر
روسيا	أولجا سلافينكوفا	104	بال خال
زيمبابوي	بيروني رحيم	105	شمس سبتمبر
سلوفينيا	جوران فوجنوفيتش	106	يوغوسلافيا وطني
الصرب	فلاديمير بيستالو	107	الألفية في بلجراد
فرنسا	صوفي هيناف	108	دجاج مشوي
كولومبيا	سانتيجو جامبوا	109	صلوات ليلية
المجر	أندريس فورجاتش	110	لم يبقَ أحد
مقدونيا	ألكسندر بروبوكيف	111	قصص خيالية
المكسيك	خيسوس ريكاردو فيليكس	112	مغامرات دكتور مينجوس
النمسا	ميلينا ميشيكو فلاشر	113	أسميته كرافته
النمسا	ألموت تينا شميت	114	فرق التوقيت
النمسا	فريدريكا جيرفاينر	115	الحرية الحزينة



إنها رواية قوية.. مخيفة.. مليئة بالمشاعر.. ستظل ذكرى لن تنساها. تدور أحداث الرواية في فترتين مختلفتين؛ فترة جمهورية إستونيا السوفيتية الاشتراكية، وفترة جمهورية إستونيا بعد استقلالها عن الاتحاد السوفيتي. تبدأ الرواية في ظروف غامضة للغاية في الفترة الثانية. تجد البطلة، سيدة عجوز، فتاة شابة مغشياً عليها أمام منزلها الواقع في قرية مهجورة. ملابسها ممزقة، متسخة، وبلا حذاء. رغم أن البطلة لا تعلم من هي هذه الفتاة وما الذي أدى بها إلى هذه الحالة، تقرر استضافتها. تعيش الفتاة مع السيدة العجوز وبداخل كل منهما أسرار تتعلق بماضيها لا تستطيع أي منهما أن تبوح بها للآخرى. إلى أن تتفاجآن بالصدمة الكبيرة التي تكشف عن كل شيء في نهاية الرواية. فماذا سيكون رد فعلهما؟ ولماذا تقرر كل منهما هذه النهاية؟ تُبدع الكاتبة بمهارتها الأدبية أن تجمع بين السرد والشعر والحوار الداخلي والأحداث التاريخية والمذكرات والتقارير السياسية في رواية واحدة عن الفقد، عن الكرامة، عن الصراع من أجل البقاء، عن الماضي الأسود، وعن الخطايا التي لا تُنسى ولا تُغفر. كما تُركز الكاتبة على وحشية الحكم الروسي السوفيتي ومعاناة إستونيا في ظل الجمهورية الاشتراكية التي تصفها بـ"الاحتلال".

### صوفي أوكسانين

وُلدت في عام 1967 في "يوفاسكولا" بـفنلندا. وهي روائية معاصرة من أب فنلندي وأم إستونية. درست الدراما بأكاديمية المسرح الفنلندية. بدأت مشوارها الأدبي بروايتها الأولى عام 2003 "أبقار ستالين"، ورُشحت لجائزة "رونبيج". وبعدها بعامين نشرت ثاني رواياتها "بيبي جين". ثم عُرضت أول مسرحية لها "التطهير" بالمسرح الوطني الفنلندي في عام 2007 ومنها كتبت روايتها المشهورة هذه "التطهير" ونُشرت عام 2008. احتلت الرواية المرتبة الأولى في قائمة أكثر الكتب مبيعاً بالأدب القصصي الفنلندي والأكثر مبيعاً في أوروبا. ترجمت إلى أكثر من 40 لغة منها الروسية والمجرية والهولندية والأسبانية والإنجليزية. نالت الرواية 9 جوائز فنلندية منها الجائزة الكبرى لـ"نادي الكتاب الفنلندي" وجائزة "فينلانديا"، وجائزة "مجلس الشمال الأوروبي" الأدبية و4 جوائز أخرى منها جائزة "الكتاب الأوروبي" ووصلت القائمة القصيرة لجائزة "ميديشي"، والقائمة القصيرة لجائزة "دبلن" الأدبية الدولية وجائزة "جرين كارنیشن" البريطانية. تحولت الرواية إلى فيلم فنلندي عام 2012. وقالت جريدة "التايمز" عن "أوكسانين" إنها "أصبحت ظاهرة أدبية" وإن روايتها هذه "التطهير" رائعة أدبية لا تُفقد قبضتها على خيال القارئ بسهولة. اختيرت لإلقاء خطاب الافتتاح لمعرض فرانكفورت الدولي للكتاب عام 2014.



لغز روسيا  
الاتحاد السوفيتي  
سياسية  
حرب خيانة  
إستونيا تشويق  
ظلم  
رومانسية  
اضطهاد  
تحقيقات



WWW.alarabipublishing.com.eg



9 789773 194031 >



60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة  
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566  
www.alarabipublishing.com.eg